الصحراء والمعمورة

The Desert And The Sown

بقلم: غيرترود لوثيان بل
Gertrude Lowthian Bell

مع العديد من الرسوم

ترجمة: عادل زكار

لندن
وليم هايتمان ١٩٠٧

مكتبة العبيكان

الصحراء والمعمورة

THE DESERT AND THE SOWN

بقلم/ غيرترود لوثيان بل

GERTRUDE LOWTHIAN BELL

مع العديد من الرسوم

ترجمة

عادل زكار

لندن

وليم هايتمان ١٩٠٧م

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بل، غيرترود لوتيان

الصحراء والمعمورة./ غيرترود لويان بل. ـ الرياض، ١٤٢٤هـ

٤٤٠ ص؛ ١٦,٥×٢٤ سم

ردمك: ٨ ـ ٤٠٤ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ سوريا ـ وصف ورحلات ٢ ـ الأردن ـ وصف ورحلات

أ ـ العنوان

ديوي ٩١٥,٦٥ ٣٧٧٦ / ١٤٢٤

ردمك: ٨ ـ ٤٠٤ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٧٧٦ / ١٤٢٤

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

الى ابن أخي الحبيب مصـ
زكار مع كل التمنيات
بالتوفيق والنجاح
عادل

إهداء

إلى أمتنا العربية العظيمة، نواة خلية العالم الإسلامي التي تناضل في كل مكان، وفي جميع المجالات؛ ليكون لها دورها الحضاري تحت شمس هذا العالم.

عادل





مقدمة المترجم

بعد اندحار أوربا في الحروب الصليبية والاستيلاء على آخر معاقلها في عكا عام ١٢٩١ ميلادية في عهد السلطان المملوكي الأشرف خليل. وبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح أصبح شاطئا البحر المتوسط الشرقي والجنوبي تحت سيطرة المسلمين عرباً وعثمانيين وأصبح البحر المتوسط من ثَمَّ بحراً للمسلمين.

وقد بدأت حركة ما أطلق عليه اسم الكشوف الجغرافية الأوربية من أجل البحث عن طريق آخر للوصول إلى الهند، ومناطق شرقي آسيا بعيداً عن الجدار العربي الإسلامي.

وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ما بين عامي ١٤٩٧م - ١٤٩٩م استطاع الملاح البرتغالي فاسكودي غاما تجاوز رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب القارة الإفريقية والوصول من ثَمَّ إلى المحيط الهندي، وثبَّت البرتغاليون أقدامهم في أكثر من موقع على سواحل القارة الإفريقية الغربية والشرقية وكذلك على سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي، وبعض المدن الهندية الساحلية، إضافة للعديد من الجزر المتناثرة في المحيط الهندي. وتبعهم الهولنديون والإنكليز والفرنسيون، وتم الاستيلاء على البقية الباقية من السواحل العربية والإفريقية وعلى شبه القارة الهندية وأندنوسيا وماليزيا والهند الصينية والفيليبين.

وبذلك أصبحت التجارة الأوربية تأتي مباشرة من بلدان شرقي آسيا وإفريقيا إلى أوربا متجنبة المرور بالشواطئ العربية والإسلامية؛ وقد أدى ذلك إلى انحطاط التجارة في مصر والبلدان العربية سواء منها الواقعة على

شواطئ المتوسط أو على شواطئ بحر العرب والخليج العربي. وقد أدى تدفق الثروات على أوربا سواء أكان ذلك من بلدان شرقي آسيا أم من الأمريكيتين إلى زيادة قدراتها العسكرية، وبامتلاكها لناصية العلوم أمّنت تفوقاً عسكرياً على الدول الإسلامية بشكل عام، وعلى الدولة العثمانية التي كانت المدافع الرئيسي عن الحضارة العربية الإسلامية بشكل خاص.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأت الحكومات الأوربية ترسل الرحالة والمبعوثين إلى البلاد العربية والإسلامية بذرائع مختلفة، لعل أهمها الكشوف الجغرافية والبحث عن الآثار، ولكن معظم هؤلاء الرحالة كانوا في الحقيقة جواسيس من أجل دراسة أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والمذهبية وإيجاد السبل التي تساعد على استعمارها.

وتندرج رحلة غيرترود لوثيان بل ضمن هذا الطراز من الرحلات، وقد أدت غيرترود هذه دوراً في رسم السياسة البريطانية في بدايات القرن العشرين، وأثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك في تنفيذ معاهدة سايكس بيكو التي تم بموجبها اقتسام البلاد التي كانت خاضعة للدولة العثمانية بين الفرنسيين والإنكليز، وإقامة بعض العروش في البلاد العربية. ويستطيع القارئ بسهولة أن يكتشف تركيزها على التباين العرقي والمذهبي في المجتمع السوري آنذاك؛ الأمر الذي يفسر تمزيق بلاد الشام فيما بعد إلى دويلات على أساس طائفي ومذهبي، والتمهيد لإقامة كيان قومي يهودي فيما بعد.

ومع ذلك فإن الكتاب وقد طبع في عام ١٩٠٧م يقدم صوراً عن جوانب من حياة المجتمع السوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدولة العثمانية والطبقة الحاكمة، إضافة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وصوراً من حياة الناس والسلام.

المترجم: عادل زكار

التعريف بالمؤلفة

غيرترود مرغريت لوثيان بل (١٨٦٨م - ١٩٢٦م)

GERTRUDE MARGARET LOWTHIAN BELL

رحالة إنكليزية ومبعوثة إلى البلاد العربية. ولدت في واشنطون هول، كونتي دورهام في الرابع عشر من تموز عام ١٨٦٨م وهي ابنة السير هوغ بل، بارون. كان عملها اللامع في اكسفورد حيث كانت الأولى في التاريخ في عام ١٨٨٧م. وقد تابعت دراساتها بعد ذلك في طهران حيث كان عمها السير فرانك لاسيلس (SIR FRANK LASEELLES) وزيراً مفوضاً في السفارة البريطانية في إيران. ثم عادت إلى إنكلترا حيث أمضت عقداً من السنين في النشاطات السياسية والفكرية في المحافل البريطانية والأوربية، واستمر ذلك حتى عام ١٨٩٩م حيث انغمست في الأمور المرتبطة بالأنشطة العربية الأمر الذي أكسبها شهرة كبيرة. وقد زارت في ذلك العام فلسطين وسوريا لتعود بعد ذلك إلى الشرق الأوسط عدة مرات طوال العقد التالي، ولتمتد رحلاتها إلى آسيا الصغرى (تركيا الحالية) ولكن قلبها كان يحثها على القيام برحلة إلى الجزيرة العربية التي بدأتها في عام ١٩١٣م، لتكون المرأة الثانية التي تزورها بعد الليدي بلانت. فزارت حايل حيث لم تستقبل استقبالاً حسناً ومع ذلك فقد بقيت دائماً تفضل سلالة ابن رشيد لحكم نجد بدلاً من ابن سعود. ولكنها لم تكتب أبداً وصفاً مفصلاً عن هذه الرحلة، مع أن معظم إنتاجها الأدبي كان في العشرين سنة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وهو إنتاج

معتبر ويشمل كتاب سفر نامه الذي كتبته عام ١٨٩٤م، ثم نشرت ترجمة لبعض أشعار حافظ الشيرازي عام ١٨٩٧م.

ثم كتاب الصحراء والمعمورة عام ١٩٠٧م، ثم كتاب كنيسة وألف كنيسة عام ١٩٠٩م، ثم كتاب من عامورة إلى عامورة عام ١٩١١م. وكانت دائماً مراسلة ضخمة الإنتاج، ورسائلها مشذبة جداً بحيث تلائم الناس الأكثر حساسية ودقة. وقد تم طبعها في مجلدين من قبل زوجة أبيها عام ١٩٢٧م، ولكن لعل أعظم أعمالها هو تقريرها الرسمي البارع جداً حول الحكم في منطقة ما بين النهرين (العراق) في الفترة التي أعقبت الهدنة ما بين عام ١٩١٨م والثورة العراقية عام ١٩٢٠م. وبعد فترة قصيرة من العمل المرتبط بالحرب في إنكلترا وفرنسا. انغمست في سياسات الشرق الأوسط المضطربة والمتعثرة. وبشكل خاص في بلاد الرافدين : حيث خدمت تباعاً تحت إمرة السير برسي كوكس، ثم السير أرنولد ولسن، ثم السير برسي كوكس مرة أخرى، حيث مارست عليه تأثيراً كبيراً لا يمكن إنكاره. وأدت دوراً كبيراً في تدعيم حكم الأسرة الهاشمية في العراق. وقد كرست السنين الثلاث الأخيرة من حياتها في تأسيس متحف للآثار في بغداد، الذي يُعد أثرها الضخم في البلد الذي أحبته وخدمته على نحو جيد جداً. وتوفيت في بغداد في ١٢ تموز عام ١٩٢٦م.

عن الموسوعة البريطانية



الإهداء

إلى : ا . س . ي

الذي يعرف قلب الشرق



قـــال تـأبـــط شـــــراً:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي

بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

تقديـــم

أنا مدينة بالاعتذار إلى أولئك الذين يطمعون إلى إضافة سفر جديد لأدب الرحلات الواسع ما لم يكونوا مثقفين أو سياسيين، واعتذاري جاهز، وهو معقول ومقبول ظاهرياً كما آمل مثلما يجب أن تكون عليه هذه الأمور. لقد رغبت أن أقدم كتاباً ليس كبيراً جداً عن الرحلة كنوع من الوصف أو التقدير أو الاعتبار للناس الذين قابلتهم أو رافقتهم في طريقي، ولأظهر طبيعة عالمهم الذي يعيشون فيه. وكيف يبدو هذا العالم لهم وحيث إن من الأفضل أن يرووا قدر الإمكان حكاياتهم بأنفسهم، فقد سلكت كلماتهم على حبل الطريق، معيدة القصص كما سمعتها منهم، هذه القصص التي يتحدث بها الرعاة والجنود ليزجوا أوقات فراغهم، وساعات سيرهم على الطرقات. ذلك الكلام الذي يمر شفافاً من فم إلى فم حول نار المخيم وفي بيوت شعر البدو، وفي مضافة الدروز. ومثلما يحدث أيضاً في مجالس الأتراك والرسميين السوريين الأكثر حذراً وحيطة. ويتألف فن الحكم عندهم من التخمينات ومقدار كاف غالباً من الدهاء والنتائج التي يمكن أن تقفز عن القوى المتعارضة غير المعروفة، حيث القوة غامضة وعصية على الفهم وكذلك الهدف. وحكمتهم حكمة أناس تختلف أقيستهم وأقنية معرفتهم إذا أردنا المقارنة عن أقيستنا وأقنية معارفنا. وهي تقدم مجموعة مختلفة من التصورات المسبقة تتوضع فوق المعضلات التي تعترضهم. والشرقي مثل طفل كبير، وهو جاهل بكثير من فروع المعرفة التي بتنا نعتبرها كضروريات أولية، وذهنه غالباً وليس دائماً ـ قليل الاهتمام بالحاجة إلى اكتسابها. ونادراً ما يشغل نفسه بكل ما ندعوه نحن أشياء عملية ومفيدة. وهو ليس عملياً إذا أردنا التعبير بدقة أكثر من

طفل. وما يقبل به يختلف عما نقبل به نحن. وعمله من جهة أخرى تحكمه تقاليد سلوك وأخلاق تعود إلى بدايات المدنية. تقاليد لم تتبدل حتى الآن أيّ تبدلٍ هامّ في أسلوب الحياة الذي يطبقونه أو بعيداً عن مجال نشأتهم. وإذا أخذنا هذه الأمور جانباً. فهو إنسان مثلنا فالطبيعة الإنسانية لم تخضع لتبدل كامل شرقي السويس. وليس من غير الممكن إقامة علاقات صداقة طيبة أو عاطفية مع السكان في تلك المناطق، وهي من بعض الجوانب أكثر سهولة منها في أوربا. وسوف تجد أن علاقات التواصل الاجتماعي في الشرق أقل تقيداً بالمظاهر وأكثر تسامحاً، وهذا عائد لعظم التنوع الاجتماعي، فالمجتمع ينقسم إلى طبقات وطوائف دينية ومذاهب، وقبائل بأعداد غير محدودة من المجموعات كل واحدة منها تتبع وتعيش وفق أنظمتها الخاصة وقوانينها. ومهما بدا هذا غير واقعي بالنسبة لتفكيرنا فإنه بالنسبة للشرقي رحب يتسع لحوار كل الخصوصيات الثقافية والعرقية واستيعابها. فقد يعيش إنسان بين الناس ملثم حتى العينين أو نصف عار لا يرتدي إلا إزاراً. ولا يثير الأمر أي ملاحظة أو استغراباً في الحالين. ولماذا يثير ؟ فهو مثل غيره يتبع قانونه أو عاداته الخاصة. وقد يسير الأوربي أيضاً هنا وهناك وفي أكثر المناطق وحشية دون أن يثير استغراباً كبيراً أو حتى نقداً على نحو أقل. سوف يستمعون إليه باهتمام كما ستحظى أخباره وآراؤه بالإصغاء والتقدير، ولكنه لن يُعد شاذاً ولا مجنوناً أو حتى مخطئاً؛ وذلك لأن ممارساته وطرق تفكيره مختلفة عن تلك الموجودة بين أولئك الناس الذين وجد نفسه بينهم. إنها عاداته! ولهذا السبب من الحكمة بالنسبة للأوربي أن لا يحاول نيل الحظوة عند الشرقيين بالعمل على تقليد عاداتهم ما لم يكن ماهراً جداً بحيث يستطيع أن يمر وكأنه واحد منهم. يجب أن يتعامل مع عادات الآخرين باحترام

شديد. وهو سيحظى بأعظم الاحترام إذا بقي متمسكاً بعاداته بدقة. وترتدي هذه القاعدة بالنسبة للمرأة أهمية قصوى، وذلك لأن المرأة لا تستطيع أن تخفي شخصها بسهولة أو على نحو فعال؛ ذلك لأنها يجب أن تكون على دراية بأنها سوف تفد على عرق نبيل ذي عادات لا تنتهك حرمتها، ومن الأفضل لها أن تعطيها حقها من الاحترام.

لا يوجد قطعة من البلاد التي زرتها يمكن اعتبارها أرضاً عذراء بالنسبة للرحالة، مع العلم أن ثمة مناطق لم تُزَر إلا نادراً. وقد تم وصفها في أعمال من الصعب والمكلِف الحصول عليها. ولم أُعط هذه الأماكن إلا اهتماماً محدوداً. عدد محدود من الصور كلما بدا الأمر ضرورياً. كما أخذت بعين الاعتبار مدن شمال سوريا الغنية بآثار العصور القديمة المذهلة التي تلفت نظر الملاحظ العرضي. وما تزال هناك مناطق واسعة تحتاج لمزيد من الاستكشاف في سوريا وعلى حافة الصحراء. كما لا يزال هناك العديد من المعضلات التي يجب أن تحل. لقد بدأ علماء الآثار: فوك، فيتز شتاين، برونو، ساشو، دوسو، بوخشتاين وزملاؤهم، وأعداد من بعثة جامعة برنستون الأثرية وغيرهم العمل في العديد من المواقع في سوريا، وأنا أشير بكتبهم لمن يريد أن يعرف كم هي غنية هذه البلاد بالآثار المعمارية على نحو لا يجارى، وبالنقوش المسجلة لتاريخ قديم بعيد متصل.

لم تنته رحلتي في اسكندرون مثلما انتهت قصتي هذه. في آسيا الصغرى كنت مهتمة بشكل رئيسي بالآثار على أي حال. وقد طبعتُ نتائج الأعمال التي قمت بها هناك في سلسلة من المقالات في مجلة (الأعمال الأثرية) حيث وجد رئيس تحريرها السيد ـ سليمان ريناشي ـ متلطفاً أن نشرها في مجلة يتيح مجالاً للاطلاع عليها أكثر من نشرها في كتاب كهذا.

أنا لا أعرف الناس ولا اللغة في آسيا الصغرى على نحو كاف يسمح لي أن أكون على تماس قريب من البلاد. ولكني عرفت من خلال ما حصلت عليه من معرفة ضئيلة ما يتمتع به الفلاح التركي من مواهب طيبة وكرم أصيل تعطيه علامات قيمة أكثر بكثير من الآخرين.

أشعر ببعض الآلام وأنا أروي بعض الظروف السياسية الواقعية لبعض الأشخاص القليلي الأهمية، والذين لا يبدون كذلك لمن يعيشون في وسطهم. ومن جهتي كنت دائماً أشعر بالامتنان والعرفان بالجميل لأولئك الأشخاص الذين كانوا لي بمثابة مفاتيح لمعارفهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض. ولكني غير معنية بمحاكمة أو إدانة الحكم التركي. وقد عشت فترة كافية في سوريا لمعرفة أنه بعيد جداً عن كونه الحكم المثالي، ورأيت عدداً كافياً من العناصر المتمردة الذين استطاع أن يبقيهم بطريقة أو بأخرى خاضعين أكثر أو أقل للنظام وأن أعرف أن وضعه صعب، وأنا لا أعتقد أن هناك حكومة تستطيع أن تنال رضا جميع رعاياها، وفي الواقع نادرة هي الحكومات التي استطاعت تحقيق هذه الرغبة حتى في بلاد أكثر اتحاداً. وأنا مقتنعة بكوني إنكليزية بأننا الشعب الذي يستطيع أن يأخذ سوريا على نحو أفضل مع إمكانية في النجاح أكثر من ذلك الذي يمكن أن تحققه أي حكومة، معتدلة معقولة للسلطان[1]، وقد عرفنا منذ وقت طويل أن العمل لم نبدأ به، بل لقد عملنا

---

(١) لا تخفي المؤلفة هنا أطماع الإنكليز في احتلال سوريا، وقد تجلى هذا فيما بعد بمعاهدة سايكس بيكو التي عقدوها مع الفرنسيين عام ١٩١٧م وخططوا من خلالها لاقتسام البلاد التي كانت خاضعة للسيطرة العثمانية، وقد مشى قسم من العرب والمسيحيين منهم بشكل خاص مع هذه المخططات بعضهم بوعي وبعضهم بدون وعي، وقد تم تنفيذ هذه المخططات بالكامل بعد الحرب العالمية الأولى، ونعم العرب الفلسطينيون بالاحتلال الإسرائيلي لبلادهم والتشرد والسكن في المخيمات وربح الموارنة دولة في لبنان. (المترجم).

لسوء الحظ ما هو أسوأ من ذلك، ففي جميع أنحاء الممتلكات التركية عملنا على إضعاف سمعتنا وتدهورها بعد أن كانت جيدة جداً. حديث رفضنا القبول بمسؤولياتنا فيما يتعلق بالمسألة الشرقية، وضرورة تدخلنا، بل وسمحنا بالاحتجاجات التي يعوزها الحس بالمسؤولية أن تعبر عن نفسها بشدة على نحو عاطفي.

وأنا أسمح لنفسي أن أُقيّم هذه السياسة باعتباري جاهلة فأقول: إن تعاملنا مع الأتراك أظهر جواً من التذبذب والتردد بحيث يُعذَرون لو اعتبرونا خائنين وأن ينظروا إلينا بعداء. هذه المشاعر مقترنة بفرع كامن عميق من إمبراطورية آسيوية ضخمة هي في الوقت نفسه سيدة على مصر وعلى البحر[١]، قد جعلت الباب العالي ـ كما أرى ـ ينتهز أول فرصة لفتح باب المقاومة للمطالب الإنكليزية سواء حدثت عن خطأ حسابي بسيط للروح التي أملّتها أو بأمل مساعدة خارجية لم تحسم أساساً. والنتيجة باعثة على الأسى في الحالين. وإذا أردت أن أُقيّم المسألة كلياً، وعلى نحو دقيق، فإن جذرها يكمن في اختفاء النفوذ الإنكليزي في إسطنبول.. فموقع المسؤولية الذي كنا نشغله سابقاً قد احتله آخرون، نعم إنه كذلك، ويجب أن يكون موضع اهتمام عميق من قبلنا أكثر من أي دولة أخرى، وأننا يجب أن نكون قادرين على توجيه سياسة قصر يلدز المتمعجة[٢] عندما يكون ذلك ضرورياً. إن أعظم القوى الإسلامية لا تستطيع تحمل ترك تنظيم علاقاتها مع خليفة المسلمين على نحو قليل التماسك والقوة بهذا الشكل. وإذا كان عناد السلطان في نزاع

(١) تقصد المؤلفة هنا الإمبراطورية البريطانية.

(٢) المتمعجة: الملتوية.

طابة يمكن أن يبرهن لنا مقدار انزلاق العرش من بين أيدينا، فإنه يمكن أن يفيد بالعودة. إن وجودنا كقوة مسيطرة في البحر المتوسط، وحصولنا على ما نريد ـ كما أعتقد ـ مرتبط بقدر كبير بالنوايا الطيبة داخل الإمبراطورية التركية، وذكريات الصداقة القديمة، ولن يكون من الصعب أن نسترجع الموقع الذي فقدناه.

ولكن هذه القضايا بعيدة عما يحتمله كتابنا هذا، وسيصل اعتزازي إلى أفضل نهاية بالتعبير الذي يبدأ به كل كاتب شرقي كتابه بالقول : (بسم الله الرحمن الرحيم).

موت غريس بريوري



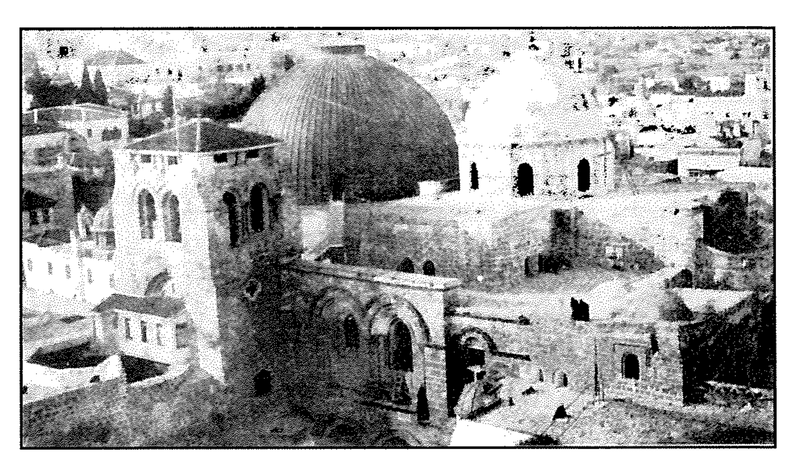
الفصل الأول



١ ـ صورة مسجد عمر بن الخطاب في بيت المقدس

بالنسبة لأولئك الذين تربوا في مجتمع منظم متطور نادرة تلك اللحظات التي تماثل في بهجتها اللحظات التي يقفون فيها على عتبة رحلة عاصفة إلى بلاد متوحشة. فعندما تفتح بوابات الحديقة المسورة، وتخفض سلسلة المنزل الآمن إلى الأرض، وتمد رأسك من البوابة، وتتطلع بنظرة حذرة إلى اليمين وإلى اليسار، تشعر أنك تخطو الخطوة الأولى نحو العالم اللامتناهي. عالم المخاطرة والمغامرة، مظلم بالعواصف الهوجاء، متألق تحت الشمس المحرقة، وأسئلة بدون أجوبة، وشكوك بدون تفسير تختبئ وراء كل تل، في ذلك العالم يجب أن تمشي وحيداً بعيداً عن جيوش الأصدقاء الذين يسيرون على الطرقات الوردية، متجرداً من الملابس الوردية الكتانية الناعمة التي تعرقل استعمال السلاح، بدون سقف، بدون دفاع، بدون مقتنيات، وسيحل صوت الرياح بدلاً من أصوات المستشارين المنمقة، وبلل المطر ووخز الصقيع الذي ينخس بحدة أكثر من المديح أو اللوم، وسوف تتحدث الضروريات بحس من

المســؤولية غير معروف بالنســبة للحكمــة المســتعارة التي يخضع لها الناس أو يرمونها إرادياً، وسوف تترك المأوى مغلقاً، ومثل الرجل في قصص الجنيات سوف تشعر بتحطم القيود التي كانت تطوق عنقك بإحكام وتقبض قلبك وذلك عندما تلج الممر الممتد أمامك عبر الكتف المستدير للأرض. كان صباح يوم عاصف في الخامس من شباط، كانت رياح غربية تهب من البحر الأبيض المتوسط مسرعة عبر السهل الذي كان الكنعانيون يخوضون فيه حرباً ضروســاً ضد الســكان اليهود[1]، وتقفز فوق حاجــز الجبال الذي كان قد سبق للملوك المصريين



٢ ـ صورة كنيسة القبر المقدس في بيت المقدس

والآشوريين أن قادوا عبثاً حصاراً ضدهم. وهي تعول متحدثة عن أخبار الأمطار الهاطلة في القدس وتتقدم منحدرة عبر المنحدرات الشرقية الجرداء، منظفة سرير الأردن العميق بقفزة واحدة، ثم مختفية في الصحراء عبر هضاب موآب، وجرى وراء العاصفة كل كلابها وهي تعول عابرة باتجاه الشرق صاخبة بمرح.

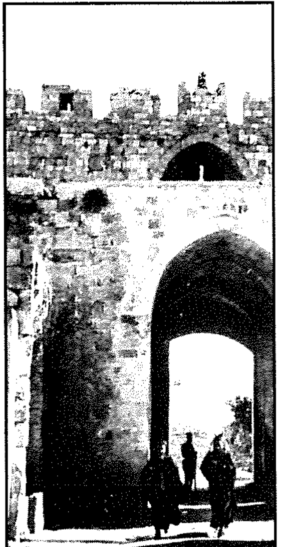
(١) تقلب الكاتبة هنا الأمور فتوحي للقارئ إن الكنعانيين هم الذين يعتدون على القاطنين اليهود مع أن العكس هو الصحيح فالبلاد كنعانية في الأساس واليهود غزاة معتدون. (المترجم)

لا أحد ممن تذخر جنباته بالحياة يستطيع المكوث في البيت في مثل هذا اليوم، ولكن الموضوع بالنسبة لي لم يكن موضع تساؤل. كانت البغال في فجر ذلك اليوم الشتوي الكئيب قد تابعت سيرها حاملة كل مقتنياتي على سطح الأرض: وهي خيمتان، وصندوق أدوات المطبخ، وتموين شهر من وسائل الترف اللطيفة التي يمكن أن يقتنيها رحالة متقشف صارم، وهناك صندوقان صغيران محملان على البغل قد ملئا بمواد التصوير بشكل رئيسي، وعدد قليل من الكتب وبعض الخرائط الهامة. وقد جلبت البغال والبغالة معي من بيروت ولدي من الأمل ما يكفي لإتمام الرحلة على نحو أبعد، وقد كان جميع الرجال من لبنان، أب وابنه مسيحيان جاءا من قرية تقع أعلى بيروت، كان الأب أدرد الفم يغمغم دائماً بينما يركب فوق البغل منفرج الساقين فوق الصندوقين يتمتم بالأدعية والمباركات التقية الممزوجة بالاحتجاجات حول تقواه وصلاحه كمستخدم، ولكنه لا يرى أي حاجة للمساهمة بتحسين أحوال جماعته.. كان اسم هذا الشيخ الجليل إبراهيم، أما ابنه فاسمه حبيب، شاب في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، أسمر، معدل القامة، عريض الكتفين، منظر وجهه الجانبي جدير بجسد أي يوناني، جريء النظرة تحت حاجبين سوداوين. وكان الثالث درزياً، وهو رجل ضخم بطيء الحركة، كسول على نحو عضال، تافه في طريقته المتواضعة بحيث كان يجردني من أسلحتي في قضايا السرقة أو في إضاعة القروش بعينيه المتوسلتين المتلهفتين اللتين تنظران بثبات لا تطرفان كعيني الكلب. كان جشعاً أميل إلى الغباء، مشوهاً بحيث كان من



٣. صورة شارع في القدس

الصعب تجنبه على وجبة من الخبز الجاف أو الرز أو الزبدة الزنخة الفاسدة، ولكني عندما أخذته ووضعته وسط أعدائه الدمويين، تباطأ في عمله، وترجل عن بغله، وسار وراءه حماره بسيماء المستسلم المعزول عن قومه التي رأيته عليها في شوارع بيروت. وقد كان اسمه محمداً. وكان العضو الرابع والأخير في القافلة طباخاً واسمه ميخائيل وهو مقدسي مسيحي ضعيف العقيدة، وكان قد رحل مع مارك سايكس واكتسب منه الصفة التالية (لم يكن يعرف أي شيء عن الطبخ إلا ما تعلمه بعد أن رافقني، ولكنه كان يبدو وكأنه لا يعير أي اهتمام لحياته أو موته) وعندما أعدت هذه الكلمات أمام ميخائيل انفجر بنوبات من الضحك المكتوم، وتعاقدتُ معه فوراً. لقد كان هذا السبب غير كاف ولكنه جيد على نحو معقول مثل كثيرين غيره، وقد خدمني جيداً من خلال فلسفته في الحياة، كان رجلاً صغير الجسم حساساً جداً ناري الطباع، جاهزاً دائماً لمواجهة أي إهانة محتملة في منتصف الطريق، مع تخيل للحدود لم أستطع أن أصل إليه أبداً خلال ثلاثة أشهر من التعرف. وقد تعلم لسوء حظه على أيدي سايكس ـ بالإضافة للطبخ ـ أشياء أخرى خلال السنوات التي قضاها معه عندما غرقا معاً في حادث تحطم سفينة في بحيرة وان، لقد كانت حادثة تمثل نموذجه بحيث إنه لم يضطرب أبداً عندما روى لي قصة هذه المغامرة، حتى إنني عندما لمّحتُ إليها ذات مرة هز رأسه وقال: (لقد كنا قريبين من الموت اقتراب الشحاد من الفقر، ولكن سعادتك تعلمين أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة). وفي الوقت الذي كان



٤. بوابة سان ستيفان في القدس



٥ ـ موكب إسلامي يعبر جبل الزيتون

يمطر أذني بحكايات السائحين الذين ـ أكد لي أنهم ـ لم يكونوا يستطيعون ولم يرغبوا في السفر عبر سوريا دون الوثوق بقدراته في فن الطبخ، كانت زجاجة العرق هي العائق القاتل بالنسبة له.

وبعد القيام بكل المجادلات الوقائية المرتبطة بإطراء نتاجه انفصلت عنه على نحو مفاجئ على ساحل كيليكيا دون أن يكون هناك الإحساس بالأسف على ذلك فيما عدا الشوق الطبيعي لتوابله الحريفة وفطائره المحلاة.

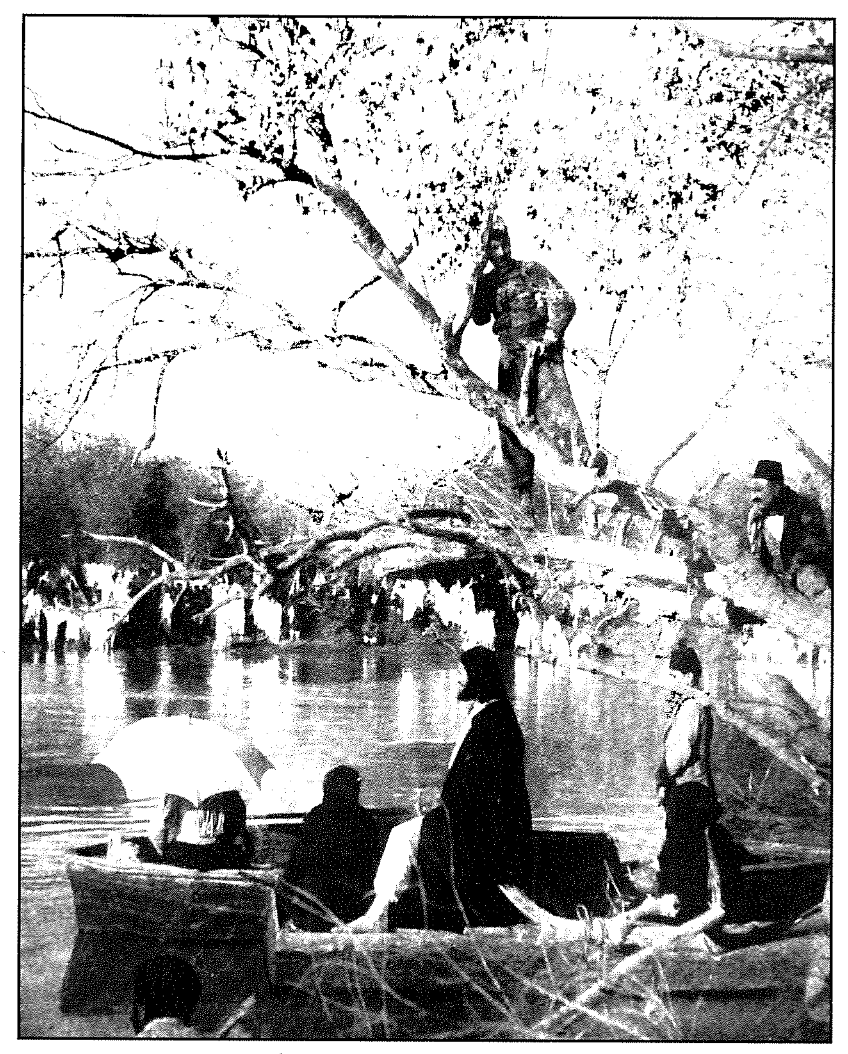
كان لدي رغبة شديدة في السير عبر طريق جرش المقفر وحيدة كما فعلت سابقاً عندما وجهت وجهي باتجاه الصحراء، ولكن كان لميخائيل رأي آخر هو أن ذلك يتناقض مع وقار شخصيتي، وكنت أعرف أنه حتى رفقته المتوافقة مع شخصيته المهزارة لا تستطيع أن تتسلل عبر ذلك الطريق المقفر.



٦ ـ صورة حجاج روس

في الساعة التاسعة كنا على سروج خيولنا نسير بوقار حول أسوار بيت المقدس هابطين وادي الجثماني، حيث اعتقل السيد المسيح، عابرين بستان النزع الأخير صاعدين جبل الزيتون. وهنا توقفت لأثبت انطباعاً في الذهن لا يمكن أن ينسى للمدينة المسورة على الهضبة، رمادية في منظر حجري رمادي، تحت سماء مثقلة بالغيوم، ولكنها مضيئة بالأمل وبشوق لا يخمد لأجيال الحجاج. الخروج اللاشعوري من الروح المقيدة باتجاه هدف تتحقق من خلاله كل الرغبات وتجد النفس سكينتها، هذه الأشياء التي تحيط بالمدينة كهالة نصف متألقة، نصف هزيلة، تتألق عبر الدموع وتتلطخ بالعديد من خيبات الأمل. ولوت الرياح الغربية رأس حصاني وجعلته يعدو فوق قمة الهضبة ويهبط الطريق الملتوي عبر جبال اليهودية المقفرة.

في أسفل مجاز المنحدر يوجد نبع يسميه العرب (عين الشمس) ولكن المسيحيين يسمونه بئر الحواريين، ونادراً ما تمر من هناك في الشتاء دون أن تشاهد بعض الفلاحين الروس يستريحون في طريقهم المجهد الصاعد من



٧ ـ الحجاج يتعمدون في نهر الأردن

الأردن. ويتدفق عشرة آلاف منهم سنوياً إلى الأرض المقدسة، عجائز من الرجال والنساء، معظمهم فقراء أمضوا العمر كله يقتِّرون على أنفسهم ليجمعوا مقدار ثلاثين ليرة ذهبية من أجل الوصول إلى القدس. يسيرون على أقدامهم من أقاصي الإمبراطورية الروسية حتى يصلوا إلى البحر الأسود

حيث يركبون على سطح المركب في قوارب روسية صغيرة قذرة توصلهم إلى الساحل الفلسطيني. وقد سافرت مع ثلاثمائة منهم من أزمير إلى يافا، وقد كنت المسافرة الوحيدة التي حجزت مقصورة. كان الوقت منتصف الشتاء عاصفاً وبارداً بالنسبة لأولئك الذين ينامون على السطح، حتى لو كانوا يلتحفون بفراء جلود الأغنام وينتعلون الأحذية الطويلة المحشوة باللباد. وقد جلب رفاق سفري كل مؤنهم من أجل الاقتصاد، كتلة ضخمة من الخبز، قليل من الزيتون، وبصل نيء حيث تشكل هذه الأطعمة زادهم اليومي طيلة الرحلة. وكانوا يتجمعون صباحاً ومساءً من أجل الصلاة أمام أيقونة معلقة على قادس مطبخ السفينة حيث تصعد أصوات الابتهالات إلى السماء ممزوجة بارتجاج محرك السفينة ورذاذ رشاش الماء. يصل الحجاج إلى القدس قبل عيد الميلاد ويمكثون إلى ما بعد عيد الفصح بحيث يحظون بإمكان إشعال شموعهم عند النار المقدسة التي تنبثق من القبر المقدس في صبيحة البعث من بين الأموات وهم يتجولون على الأقدام على كل الأماكن المقدسة، ويأوون إلى فنادق ضخمة أنشأتها لهم الحكومة الروسية، ويموت العديد منهم بسبب تعرضهم للعوامل الجوية والتعب وعدم الاعتياد على المناخ. ولكن الموت في فلسطين يُعد من أفضل الأماني التي يمكن أن تمنحها يد المولى للعبد، حيث سوف تستقر عظامهم بنعومة في أرض الميعاد، وترفرف أرواحهم طائرة مباشرة نحو الفردوس. و تصادف هؤلاء المسافرين غير المثقفين على كل الطرقات الرئيسية يمشون مجهدين بصبر تحت الشمس الحارقة، وتحت أمطار الشتاء مرتدين فراء بلادهم وحاملين في أيديهم عصياً قطعوها من قصب سرير نهر الأردن. وهم يضيفون علامة مثيرة للشفقة شديدة الوضوح إلى المنظر العام محركة للعديد من المشاعر المؤثرة والشعور المعبر عن الحزن. وقد سمعت في القدس

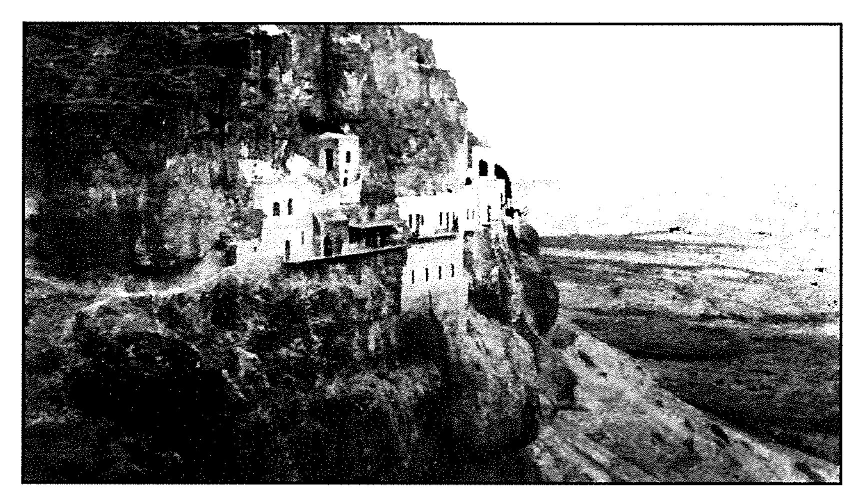
قصة تصور أخلاقهم وطباعهم على نحو أفضل من كتابة صفحات في الوصف، وهي تتحدث عن لص كان يسطو على المنازل وقد قبض عليه في الجرم المشهود وأرسل إلى سيبريا حيث قضى عدة سنوات عقوبة في الأشغال الشاقة ولكنه عندما أنهى عقوبته عاد إلى أمه العجوز بقلب جديد، وسافر الاثنان إلى الأراضي المقدسة عسى أن يكفر عن ذنوبه. الآن وفي الفصل الذي يتواجد فيه الحجاج في القدس يحتشد الدهماء السوريون ليخدعوهم ويستغلوا بساطتهم ويضايقونهم من أجل الصدقات. وقد أتى واحد من هؤلاء المشردين إلى هذا الحاج الروسي الباحث عن التوبة في وقت لم يعد معه أي شيء ليعطيه وقد أغضبت عدم قدرته على العطاء المتشرد السوري فطرحه أرضاً وجرحه جراحاً بليغة تسببت في بقائه في المشفى ثلاثة شهور، وعندما شفي أتاه قنصل دولته وقال له: (لقد قبضنا على الرجل الذي كاد أن يقتلك، وقبل أن تغادر يجب أن تأتي وتدعي عليه)، ولكن الحاج أجاب: (أطلقوا سراحه فأنا نفسي كنت مجرماً).

كان الطريق خالياً بعد النبع وعلى الرغم من أنني كنت أعرفه جيداً، إلا إنني فوجئت مرة ثانية بإقفاره الذي لا يصدق، لا حياة، ولا زهور سوى سويقات شوك السنة الماضية، والتلال العارية والطريق المليء بالحجارة، كأن قفر الجبال اليهودية قد تغذى بروح الإنسان الشيطانية، وقد مشى على هذا الطريق أنبياء متجهموا الوجوه ينذرون بنهاية عالم لم يكونوا جزءاً منه ولم يفهموه، وقد امتلأ الوادي بالكهوف التي سكنوا فيها، بل إن بعضها مسكون حتى الآن بجنس من الزهاد الأتقياء الجائعين المتعلقين بأهداب من التقوى التقليدية تجدها الفطرة السليمة صعبة التكذيب. ووصلنا الخان الواقع في منتصف طريق جرش قبل الظهر، وتقول الأسطورة إن هذا المكان هو الذي

قابل فيه السامري الطيب الرجل الذي سقط على جانب الطريق، ودخلت الخان لأتغدى بعيد وصول الرياح العاصفة، كان ثمة ثلاثة من المسافرين الألمان التجار يكتبون بطاقات مصورة ويساومون الخاني لشراء خناجر بدوية مزيفة، وجلست أستمع لكلامهم السوقي المرصع بالتوافه. لقد كان هذا آخر كلام باللغات الأوروبية سوف أسمعه لعدة أسابيع، ولم أجد سبباً للأسف على المدنية التي سوف أخلفها ورائي، كان الطريق منحدراً شرقي الخان، ويعبر مجرى ماء جاف كان مسرحاً للعديد من المآسي. وقد اعتاد البدو أن يتربصوا تحت الجروف ليسرقوا الحجاج أو يقتلوهم أثناء مرورهم من هذا المكان. قبل خمس عشرة سنة كان طريق جرش غير مأمون، شأنه شأن المنطقة التي تقع خلف وادي الأردن. وقد امتد الأمان بضعة أميال نحو الشرق في السنين العشر الأخيرة، وأخيراً وصلنا إلى قمة التل الأخير ورأينا وادي الأردن والبحر الميت وخلفه منحدرات مؤاب الضبابية وحافة الصحراء. كانت جرش تقع تحت أقدامنا، قرية بشعة فنادقها متداعية للسقوط، وأكواخ يقطنها العرب الوحيدون الذين سيتعرف عليهم السائحون، سلالة منحطة، كمٌّ، من أدنى السلم العرقي، نصف مولدين من أرقاء زنوج. وقد تركت حصاني مع البغالة الذين سبق وأخذناهم على المنحدر (وفقك الله ـ الحمد لله)! (إذا كنت بخير فنحن بخير) ونزلوا من الهضبة باتجاه القرية، ولكن دخول جرش غير كاف ليومنا الفخم الأول على الطريق، لقد كنت في شوق شديد لترك السائحين ورائي وكذلك الفنادق والبطاقات المصورة. ساعتان إضافيتان من السير وسنصل إلى شاطئ الأردن، ومن الممكن أن نخيم عند رأس الجسر الخشبي الذي يصل ما بين الضفة الغربية والضفة الشرقية في مكان مستور أسفل رابية موحلة، وفي الموضع الأكثر كثافة بالقصب ونبات الطرفاء. وتوقفنا وقفة

قصيرة لابتياع الشعير للخيول والبغال، ثم انطلقنا ثانية عبر الشريط الضيق من الأرض المزروعة حول بلدة جرش وخارج غور الأردن.

وطريق جرش خال من الناس بما يكفي، ولكن وادي الأردن فيه سيماء من البربرية الشريرة في معظمها، وإذا كان أنبياء العهد القديم قد شجبوا بعنف الكافرين به كما فعلوا تجاه بابل وصور فإن أفضل برهان على صحة بصيرتهم



٨ - دير كورنثي فوق أريح

سوف توجد هنا. ولكنهم كانوا صامتين ويجب على الخيال أن يعود القهقرى إلى الرؤى الملتهبة لبلدتي سدوم وعمورة والأساطير الخرافية للآثام التي لازمت طفولتنا، كما لازمت طفولة الشعوب السامية، كان جواً خانقاً يثقل أخفض نقطة على سطح الأرض، وكانت الرياح تعصف متسارعة فوق قمم التلال فوقنا في المناطق التي يتنفس فيها الإنسان هواءً طبيعياً، ولكن الغور كان راكداً لا حياة فيه كقعر بحر عميق. ومررنا من بين أكثر أحراش السدر الشائك كثافة. وتحكي القصص المسيحية: إن أغصان السدر قد جدلت ليصنع منها تاج الشوك الذي وضع على رأس السيد المسيح عندما كان يساق

إلى الصلب. كان ثمة نوعان من أجمات السدر ويدعوهما العرب الزقوم والدوم وهم يستخرجون من الزقوم زيتاً طبياً. ويحمل سدر الدوم نوعاً من الثمار الصغيرة تشبه التفاح البري، الذي يصبح عندما ينضج أحمر بنياً ذا مظهرٍ مغرٍ. إنها نوع من فاكهة البحر الميت الحسنة الشكل التي تترك على الشفتين عند تذوقها مذاقاً مراً رملياً. وتضاءل السدر واختفى، وانبسط أمامنا منبسط من الوحل القاسي الذي لا ينمو فيه شيء أخضر. كان لونه أصفر ملطخاً ببقع من الملح السام الرمادي المائل إلى البياض. لا تدرك العين بشكل كامل تقريباً منافاته للحياة. وأثناء ركوبنا في مكاننا هذا انقض علينا سيل من المطر الثقيل انحدر من التلال العالية حولنا، وشحبت وجوه البغالة واستطال حتى وجه ميخائيل، لقد كانت أمامنا الوهاد الطينية لسفر التكوين، ولا يمكن لأي بغل أو حصان المرور منها ما لم تكن جافة، واستمر المطر دقائق قليلة ولكنها كانت كافية لأن يتحول طين السهل إلى قوام يشبه قوام الزبدة، وقد غطست أقدام الخيل فيه حتى كواحلها، وإن كلبي كورت بينما كان يسحب فكيه من الوحل الأصفر اللزج مثل الغراء. وهكذا أتينا إلى الوهاد الطينية وهي السيماء الأكثر غرابة لهذه الأرض، وعلى بُعد ربع ميل غربي الأردن يصبح الحزام أكثر ضيقاً إلى الشرق من المجرى، وانحل الطريق الناعم نفسه على نحو مفاجئ إلى سلسلة من المنحدرات والمصاطب الطينية المحززة بمجاري الأمطار الضيقة، ولم تكن المصاطب عالية فهي لا تزيد على أكثر من ثلاثين إلى أربعين قدماً على الأكثر، ولكن قممها كانت حادة جداً وجوانبها شديدة التحدر إلى درجة أن المسافر يجب أن يجد طريقة جيدة لعبورها أو السير حولها بأقصى درجات الحذر، لقد جعل المطر الغزير هذه المنحدرات زلقة مثل الزجاج، ولقد كان من المستحيل حتى أثناء السير على الأقدام أن يبقى الإنسان معتدلاً دون أن ينزلق، وقد سقط حصاني بينما كنت أقوده وكان

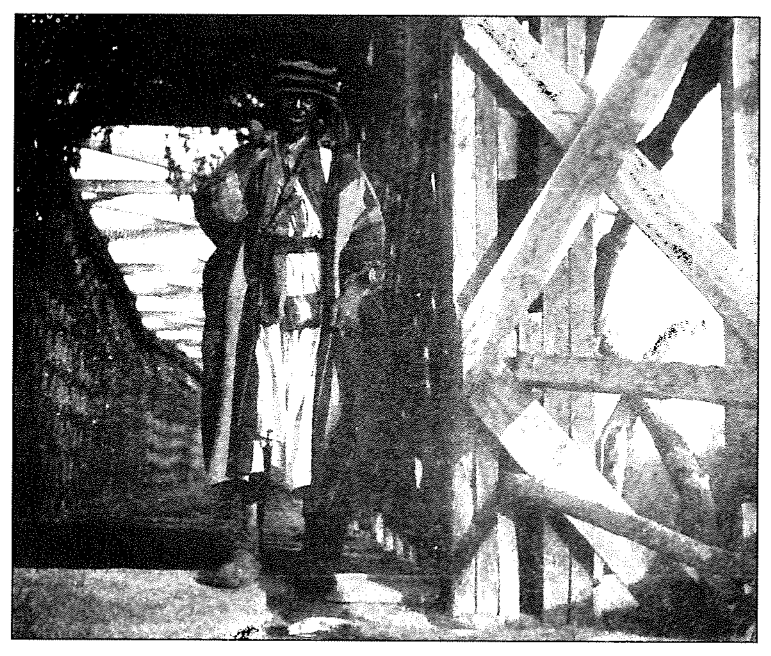
سقوطه لحسن الحظ على حافة صغيرة بين رابيتين وقد استطاع بمرونة مدهشة أن ينقذ نفسه ويعتدل مرة أخرى، وقد تنفست الصعداء شكراً لله عندما انبثقت قافلتي من الوهاد الموحلة. وقد كان من الممكن لو استمر المطر أكثر أن نسجن هناك عدة ساعات، لأنه لو سقط خيّال في حفرة موحلة كثيفة فإن عليه أن ينتظر هناك حتى يجف الوحل.



٩ - عبور الغور

وتوجد حياة على طول شط النهر، وقد تغطت الأرض ببساط من العشب الأخضر وزهور الربيع الصفراء، كما أظهرت حشائش الطرفاء العنيدة إشارات واهنة على قدوم الربيع وخببت فرسي على الجسر العظيم بجوانبه المعرشة وسقفه الخشبي وهو يمثل القطعة الهندسية الأكثر إثارة في العالم، حيث إنه يشكل بوابة الصحراء، لقد كان هناك الموضع المفتوح كما تذكرته مغطى بطبقة رقيقة من التربة محمية بالشواطئ الطينية العالية، وهي خالية والحمد لله، وقد كان لدينا سبب للقلق عند رأس الجسر هذا. كانت الحكومة التركية قد حشدت في ذلك الوقت كل ما تستطيع من العسكر لإرسالها لتهدئة العصيان

المسلح في اليمن. كانت الكتائب العسكرية في جنوبي سوريا تنحدر سيراً على طول طريق سكة حديد الحجاز حتى معان التي تشكل الحد النهائي الذي وصلت إليه سكة الحديد قرب البتراء، وكانوا مجبرين بعد ذلك على السير على طريق صحراوي رملي مقفر مفزع، يمتد من معان حتى فم خليج العقبة، وكان مئات من الرجال وآلاف من الجمال تموت قبل أن تصل، وذلك أنه لا يوجد على هذا الطريق إلا ثلاث آبار حسب قول العرب وإحدى هذه الآبار تقع على بعد ميلين من الطريق ومن الصعب الاستدلال عليها لمن لا يعرف المنطقة.



١٠ ـ جسر على نهر الأردن

ونصبنا الخيام وعقلنا الخيول وأشعلنا في الهواء الطلق ناراً عظيمة من أغصان الطرفاء والصفصاف، كانت الليلة رمادية وساكنة، وكان ثمة أمطار على التلال، ولكن لا شيء عندنا، كان المعدل السنوي لهطول الأمطار في وادي

الأردن مجرد بضع بوصات في السنة. ولكننا لم نكن وحيدين تماماً في المنطقة، فقد فرضت الحكومة التركية رسماً ضئيلاً على حركة العبور من وإلى الجسر ووضعت موظفاً من أجل تحقيق هذا الهدف. كان يعيش في كوخ من القصب بجانب مدخل الجسر، وكان يشاركه في عزلته هذه عربي أو عربيان بائسان من الغور، كما كان ثمة زنجي أشيب الشعر كان يجمع الحطب من أجل نارنا، وقد قضى الليل معنا ثمناً لخدماته. كان خفيف الروح واسمه مبروك وقد رقص حول نار مخيمنا، غير آخذ بعين الاعتبار بأنه مشوه على نحو مناف للعقل بالنسبة لكائن إنساني، وقد حكى حكايات عن الجنود وكيف هبطوا إلى الغور يرتدون أسمالاً، حفاة الأقدام على الرغم من أنه كان يومهم الأول في المسير، نصف جائعين، فقراء بائسين، وقد مر طابور في صباح ذلك اليوم ومن المتوقع أن يأتي آخر غداً، ونحن قد افتقدناهم.

(ما شاء الله) قال ميخائيل: فخامتك محظوظة، لقد هربت في البداية من الهضاب الموحلة ثم بعد ذلك من الرديف [1] (الحمد لله) تمتم مبروك.

ومنذ ذلك اليوم أعتبر نجمي هو نجم السعد، وسمعنا من مبروك الشائعات الأولى عن حوادث الصحراء، كان حديثه دائماً عن ابن رشيد وهو شيخ عشيرة شمر الشاب الذي ترك له عمه القوي ميراثاً صعباً، وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة على وسط الجزيرة العربية، وكنت قد انقطعت عن أخبار نجد منذ سنتين، وماذا حل بالصراع بين ابن مسعود حاكم الرياض وبين ابن رشيد؟ وإلى أين وصلت الحرب بينهما؟ وقد سمع مبروك شائعات كثيرة. وقد قال

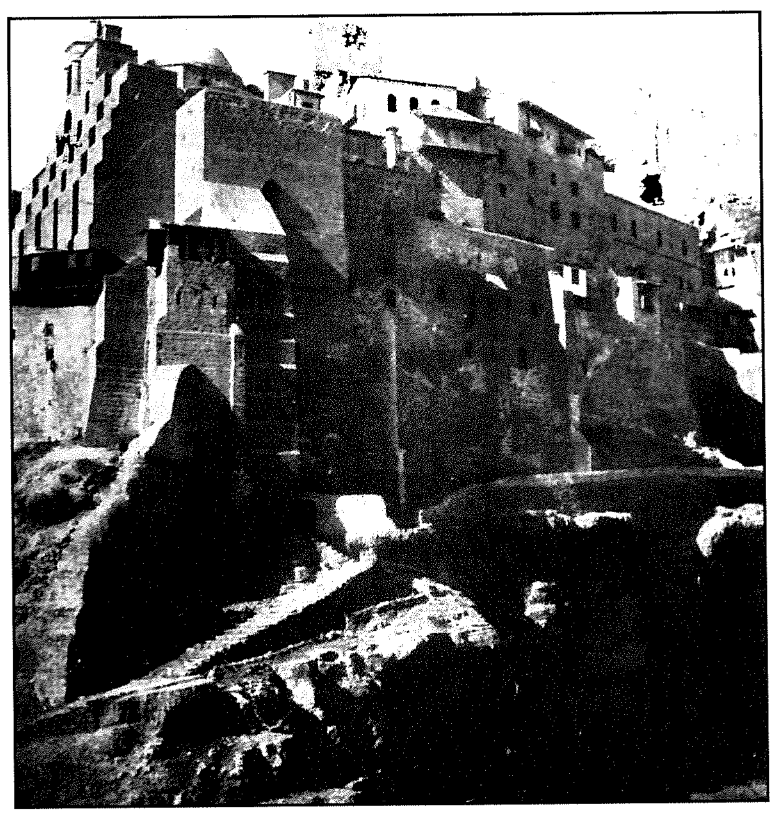
(١) كان يطلق على القوات العسكرية المرسلة إلى اليمن في العهد العثماني اسم الرديف (أي القوات التي تردف الحامية العسكرية العثمانية الموجودة أصلاً في اليمن). (المترجم)

الناس: إن وضع ابن رشيد جيد جداً؛ وذلك لأنه مرتبط بنجد وليس باليمن، ومن يستطيع أن يؤكد ذلك؟ أو ما قد سمعناه عن إن أحد شيوخ الصخور قد قتل من قبل العجارمة بمجرد رجوع القبيلة من المراعي الشرقية. وهكذا سارت أحاديث القيل والقال عن الصحراء بمستوياتها المألوفة عن حوادث الثار وسرقة الإبل، وكدت أبكي من الغبطة وأنا أسمع هذه الأحاديث العذبة عن الصحراء. لقد كان هناك وابل من اللهجات العربية في مخيمي ذلك المساء، حيث كان ميخائيل يتحدث اللهجة العامية في أحياء القدس الفقيرة، وهي لهجة مجردة من الأصالة، وحبيب يتحدث اللهجة اللبنانية الفخمة، ومحمد يتشدق باللهجة البيروتية وطريقتها البطيئة في الإيقاع، على حين كانت الكلمات تتساقط من فم الزنجي بلهجة أقرب إلى لهجة البدو القوية الفخمة، وقد اندهش الرجال من تنوع جرس اللهجات، وقد التفتوا حالاً إليّ وسألوني أيها أكثر صحة. ولم أستطع إلا أن قول: (الله أعلم، لأنه هو العليم.!) واستُقبلتْ الإجابة بضحكة القبول مع اعترافي بعدم وثوقي بصحة ما قلت.

كان الهواء ساكناً والسماء رمادية عند الفجر، كنت قد استيقظت قبل الفجر بساعة ونصف من أجل تجهيز البغال للمسير وهي القاعدة الرئيسية التي كنت ألتزمها، ولكننا كنا نستيقظ أحياناً قبل عشر دقائق، وأحياناً بعدها بقليل مع الأسف. وقد قضيت الوقت أتحدث مع حارس الجسر وهو من مواطني القدس، وقد أفضى إليّ بدخيلة نفسه من خلال أذني المتعاطفة. تحدث عن أحزانه والحيل التي اعتادت الحكومة العثمانية صبها عليه، والحمل الثقيل البشع للوجود في حر الصيف الشديد. والمكافأة في النهاية لا شيء. والحقيقة أن دخله أكثر بكثير مما يستحق ومما صرح به، فقد اكتشفت لاحقاً أنه قد أخذ ثلاثة قروش عن كل حيوان من حيواناتي السبعة، بدلاً من

قرشين وهو الرسم المقرر. من السهل أن تقيم علاقات طيبة مع الشرقيين، وإذا كانت صداقتهم ذات ثمن فإن هذا الثمن عادة ضئيل.

وعبرنا الجسر لقاء ثلاثة قروش عن كل فرد وأخذنا الطريق الشمالي الذي يقود إلى السلط. كان الطريق الأوسط يقود إلى (حشبان Heshban) (حيث يسكن شيخ كل عرب البلقاء؛ سلطان بن علي بن دياب العدوان، وهو نذل بكل ما في الكلمة من معنى). وإلى الجنوب من مادبا في مؤاب، والجهة الشرقية من الغور أكثر خصباً من الجهة الغربية، فثمة مقادير وافرة من المياه تنحدر من مرتفعات عجلون محولة السهل إلى حديقة ولكن الناتج غير كاف



١١ـ دير مار سابا في جرود اليهودية

ليُخْتَزن ويكتفي عرب العدوان بزراعة مقادير محدودة من القمح. ولم يبدأ موسم الأزهار بعد. ويتحول القسم الشرقي من الغور إلى بساط بديع من أنواع الزهور في نهاية شهر آذار، حيث لا يستمر أكثر من شهر بسبب الحرارة الشديدة في الوادي. وفي الواقع أنت ترى النباتات في مراحلها الثلاث، براعم وزهور وثمار في شهر واحد وقد دلنا على الطريق عربي فقير، كان نازلاً ليلتحق بالرديف، وقد تم شراؤه كبديل عن مجند آخر لقاء خمسين ليرة ذهبية فرنسية، وكان هذا المجند من أغنياء السلط، وعندما وصل إلى الجسر اكتشف أنه تأخر كثيراً، حيث إن قطعته العسكرية كانت قد مرت منذ يومين.



١٢ ـ حائط المبكى في القدس

لقد شعر بالأسف كان يريد أن يسير مباشرة إلى الحرب (وأكثر من ذلك فأنا أتصور أن عليه أن يعيد الخمسين ليرة ذهبية إلى أصحابها). ولكن ابنته سوف تكون مسرورة لأنها بكت عندما رأته يذهب. وقد توقف لينظف حذاءه

من الطين (في السنة المقبلة) قال وهو يمسك بي مرة ثانية (إن شاء الله سوف أسافر إلى أمريكا).

ونظرت متأملة إلى هذا الرجل نصف العاري حيث ملص حذاءه من قدميه وقد انزلقت عباءته الممزقة عن كتفيه، وحطة رأسه الصحراوية وعقاله المصنوع من وبر الجمال.

وسألته (هل تعرف شيئاً من الإنكليزية ؟).

أجاب بهدوء: (لا، ولكني سوف أوفر آجار الطريق، والله لا يوجد مجال لتحسين الوضع هنا). وسألته: ماذا سيفعل عندما يصل إلى أمريكا؟ أجاب: (أشتري وأبيع وعندما أوفر مئتي ليرة سوف أعود).

وأنت تسمع نفس القصة في كل أرجاء سوريا.. يسافر المئات سنوياً ويجدون حيثما رسوا بعض مواطنيهم الذين يقدمون لهم يد المساعدة. وهم يتجولون في الشوارع منادين على بضائع رخيصة، وينامون تحت الجسور ويأكلون أطعمة يأبى أي مواطن حر حتى أن ينظر إليها. وعندما يدخرون مائتي ليرة ذهبية، أقل أو أكثر قليلاً يعودون إلى بلدهم أغنياء قياساً بمواطنيهم. والهجرة في شرقي الأردن ليست كبيرة، وقد صادفت مرة في جبال حوران عندما كنت أسأل عن الطريق درزياً أجابني بلهجة أمريكية واضحة. وقد كبحت إعجابي عندما أخبرني حكايته، وبعد أن انتهى من روايتها سألته إن كان يرغب في العودة مرة أخرى. فنظر إلى الأكواخ الحجرية البائسة المحيطة به في قريته، ثم ركع على ركبتيه في الثلج الذائب وقال: كوني على ثقة !.. وعندما تابعت سيري قال بابتهاج بالإنكليزية (إلى اللقاء).

بعد أن ركبنا سرنا ساعتين ثم دخلنا وادياً متمعجاً أطلق عليه مرافقي اسم وادي الحسانية على اسم القبيلة التي تقطنه. كان مزداناً بنباتات الرتم وشقائق النعمان، وبخور مريم والمكحلة الحدقية الياقوتية وأشجار من اللوزيات البرية.. والنباتات التي لا تستعمل ليس لها اسم في اللغة العربية مهما كانت جميلة فجميعها يطلق عليها اسم حشيش[1] على حين أن أصغر نوع من أنواع البقول أو النباتات المستعملة لها اسم متميز في هذه اللغة. وبدأ الطريق الذي لم يكن إلا مسلكاً مبطئاً للحركة بسبب ارتفاعه التدريجي.



١٣ ـ يهود من بخارى

وبمجرد أن دخلنا الضباب الذي يغطي قمة الهضبة رأينا البحر الميت أسفل منا إلى الجنوب ممتداً تحت سماء رمادية مثل مرآة كبيرة مغبشة. ووصلنا السلط في الساعة الرابعة تحت طقس جبلي حقيقي، ضباب رطب ومحث على السير. وأكثر من ذلك كانت القرية عبارة عن مستنقع لأن الأمطار التي سقطت فوقنا في الليلة الماضية قد سقطت هنا وترددت بنصب مخيمنا حتى استطعت أن أجد مكاناً أكثر جفافاً. كانت الخطوة الأولى بعد ذلك البحث عن منزل حبيب أفندي فريز الذي أتيت إلى السلط لرؤيته على الرغم من أنني لا أعرفه، وطلبي له (لأنني أعتمد كلياً على مساعدته في مواصلة رحلتي) بسبب هذه الحكمه: لقد كان متزوجاً من ابنة كاهن وطني من حيفا وهو رجل عجوز ذو قيمة وتربطني به صداقة حميمة. كان أصل عائلته من مدينة أورفا على الفرات. لكن أبا نمرود قد توطن منذ فترة طويلة في السلط

(١) هذا الكلام غير صحيح والبدو هم أكثر الناس جهلاً بأنواع النباتات وأسمائها وقد حكمت على اللغة العربية من خلالهم وهذا تجنٍ وظلم. (المترجم)

وهو يعرف الصحراء. وقد أمضى القسم الأعظم من الساعات التي كان من المفترض أن يعلمني فيها قواعد اللغة العربية بالحكايا عن العرب وعن ابنه نمرود الذي كان يعمل مع حبيب فريز والذي كان اسمه معروفاً عند جميع عرب البلقاء.

(إذا ما رغبت في أي وقت الذهاب إلى الصحراء) قال أبو نمرود: (اذهبي إلى نمرود) وهكذا ذهبت إلى نمرود.

بعد تساؤل قصير دللنا على بيت حبيب فريز، واستقبلت بحرارة، كان حبيب في الخارج، كما كان نمرود مسافراً (هل تخلى عني سعدي؟) ولكن ألا أستطيع أن أدخل وأستريح ؟ كان المنزل صغيراً والأطفال كثر. وبينما كنت أقلب الأمر على وجهه فيما إذا كانت الأرض المغمورة بالماء خارج البيت سوف تقدم منزلاً أفضل. ظهر رجل مسن ضخم يرتدي لباساً عربياً كاملاً، وأمسك بلجام فرسي وأعلن أنه هو وليس غيره من سيؤويني. وهكذا سحبني بعيداً. وتركت فرسي في الخان، وصعدت بعد ذلك درجاً موحلاً ثم دخلت إلى أرض دار مبلطة بالحجر. وأسرع يوسف أفندي إلى الداخل وفتح باب غرفة الضيوف. كانت الأرض والأريكة مفروشتين ببسط سميكة. كانت النوافذ زجاجية ولكن العديد من ألواح زجاجها كان مكسوراً. وكان ثمة قنصلية أوربية ملتصقة بالجدار. وهذا كان أكثر من جيد، وخلال لحظات كنت قد استقررت وشربت قهوة يوسف وأكلت كعكي. كان يوسف أفندي سكر مسيحياً وهو أغنى سكان السلط، كان رجلاً قليل الكلام ولكن لا أحد يعدله بكرم ضيافته، وقد جهز لي عشاءً فاخراً وعندما انتهيت قدم البقايا لميخائيل، وبعد أن قضى حاجاتي المادية لم يستطع أو لم يرد أن يفعل شيئاً ليهدئ قلقي الذهني حول

هدف رحلتي الأبعد. ولحسن الحظ ظهر في هذه اللحظة حبيب فريز وأخت زوجته بولينا وهي امرأة كبيرة السن مطلعة، وعدة أناس مهمين، حيث أسرع الجميع ليتشرفوا بإمكانية قضاء أمسية من الحديث معي (كان التشرف بي لا سمح الله). وجلسنا نشرب القهوة العربية المرة التي مذاقها أطيب من رحيق العسل. يقدم الفنجان بكلمة (تفضل) فتعيدها فارغة بعد شربها وتتمتم (عشت) بينما تقذف في فمك رشفة. فيجيبك الساقي (صحتين) وتجيب أنت (على قلبك) وبعد أن دارت الفناجين مرة أو مرتين على الحاضرين قيلت جميع عبارات التهذيب في هذا المجال، دخلت في موضوع عمل الليلة (كيف أستطيع أن أصل إلى جبال الدروز؟). ربما ترفض الحكومة إعطائي الإذن بالذهاب إلى هناك. ثمة مركز عسكري في عمان على بوابة طريق الصحراء، وفي بصرى يعرفونني وقد انزلقت من بين أصابعهم منذ خمس سنوات، هي لعبة لم يعد من السهل أن تلعب مرة أخرى من نفس المكان. وأولى حبيب فريز الموضوع ما يستحق من الاهتمام، ثم اتفقنا في النهاية على خطة فيما بيننا. سوف يرسلني غداً إلى الطناب، حيث أرضه المزروعة قمحاً على أطراف الصحراء، وهناك سوف أجد نمرود الذي سوف يرسل رسولاً إلى القبائل الكبيرة هناك وبحراسة منهم سوف أستطيع الوصول بأمان إلى هضاب جبل الدروز. كان طفلا يوسف الصغيران يسمعان مندهشين لما يدور من أحاديث. وفي نهاية الكلام جلب



١٤ - (قسيسان حبشيان)

واحد منهما قصاصة إعلان ورقية عليها خريطة أمريكا، عند ذلك أريتهم خرائطي وأوضحت لهما ضخامة العالم وكم هو جميل حتى انفض الجمع في الساعة العاشرة مساء وبدأ يوسف يفرش اللحف من أجل تهيئة فراشي، على أنني لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيت مضيفتي. كانت امرأة ذات جمال استثنائي، طويلة وشاحبة ذات وجه بيضاوي مليء، عيناها الكبيرتان تشبهان نجمتين، كانت ترتدي اللباس العربي، وهو عبارة عن ثوب أزرق غامق ضيق يصطدم بكاحليها العاريين عندما تمشي، وحجاب قطني أزرق غامق يعصب جبينها مع منديل أحمر ينحدر على ظهرها ويصل حتى الأرض تقريباً. وقد وشمت ذقنها ورقبتها بوشم أزرق جميل مثل النساء البدويات. وقد جلبت لي ماءً لأغسل يدي وكانت تتحرك في الغرفة بسكون وعلى نحو يعكس الجلال والمهابة، وحالما انتهت خدمتها الكهنوتية اختفت بسكون مثلما دخلت، ولم أرها مرة أخرى.

ألمت فحيت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق

هكذا قال سجين مكة، لا أحد يرى زوجة يوسف، وعلى الرغم من أنه مسيحي فإنه يحجب امرأته أكثر من أي امرأة مسلمة، وربما كان - رغم كل شيء - على حق.

كان المطر يضرب النوافذ واضطجعت على فراشي وميخائيل يهمس متعجباً بأذني (ما شاء الله فخامتك محظوظة).





الفصل الثاني:

تشكل قرية السلط مجتمعاً مزدهراً يزيد عدد سكانه عن عشرة آلاف نسمة نصفهم من المسيحيين، وهي تقع في منطقة غنية مشهورة بزراعة العنب والمشمش، وقد تحدث الجغرافي العربي أبو الفداء مادحاً حدائقها الوفيرة في القرن الرابع عشر الميلادي، وثمة قلعة مهدمة لا أعلم تاريخ بنائها على الهضبة الواقعة أعلى البيوت ذات الأسطح المتعنقدة، والعرف السائد بين السكان أن البلدة قديمة جداً. ويقول المسيحيون: إن السلط شهدت أولى التجمعات المسيحية. كما إن هناك أسطورة تقول: إن السيد المسيح قد ألقى موعظته الأولى هنا. وعلى الرغم من أن المشمش لم تظهر براعمه بعد إلا أن أغصان أشجار الوادي العارية قد أبدت ابتساماتها الغنية، أثناء مروري به مع حبيب فريز الذي كان يركب فرسه إلى جانبي ليدلني على الطريق، كان له ملكيته من بساتين المشمش ومن كروم العنب، وقد ابتسم بلطف كرجل نبيل عندما أطريتها. ومن يستطيع أن لا يبتسم في مثل هذا الصباح المبهج، فالشمس مشرقة، والأرض متألقة بالصقيع والهواء يطلق موجات شفافة من الضوء الذي يظهر بعد يوم شتوي ماطر، ولم يكن مجرد الإحساس بالإرادة الطيبة ما ألهمني هذه الكلمات، ولكن مسيحيي السلط ومادبا أذكياء ومجدون ويستحقون المديح، فخلال السنوات الخمس التي مضت على زيارتي لهذه المنطقة دفعوا بشريط الأرض المزروع حول المدن مسيرة ساعتين على ظهر الجواد إلى الشرق وحسنوا قيمة الأرض على نحو حاسم بحيث عندما مرت سكة حديد الحجاز منها وضع السلطان يده على طريق عظيم يمتد جنوباً

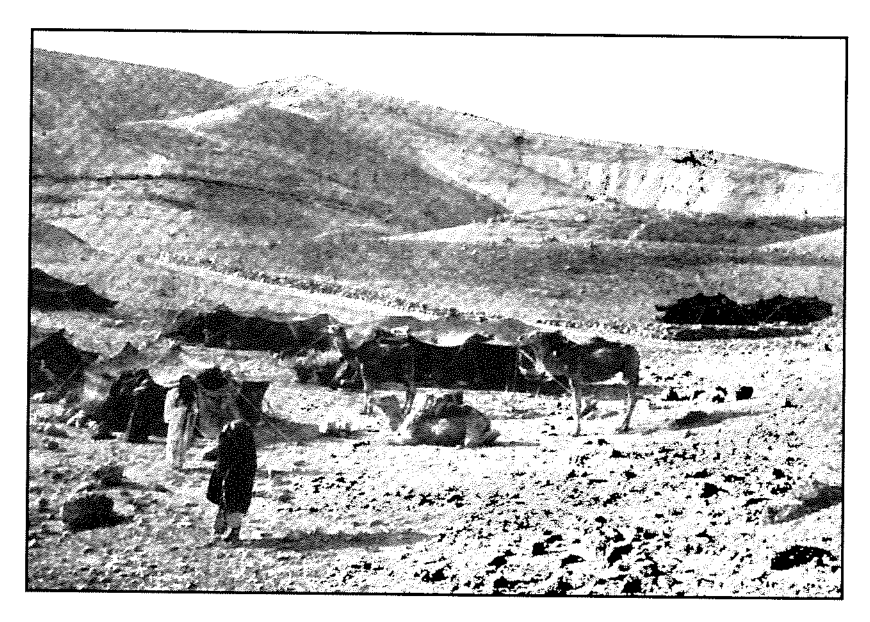


١٥ ـ أحد عرب قبيلة العدوان يحرس محصوله

حتى معان قاصداً تحويلها إلى أراضي أملاك دولة زراعية. وسوف تهب له ولقاطنيها الثروة العظيمة بحيث إنه لو كان حاكماً مختلفاً لكان إقطاعياً جيداً. بعد نصف ساعة من السلط تركني حبيب وعهد بي إلى وكيله الزراعي يوسف وهو رجل قوي البنية شجاع سار إلى جانبي وقناته فوق كتفه. ورحلنا عبر وديان واسعة غير مشجرة غير مسكونة وخالية من الأراضي المزروعة تقريباً، حول رأس سهل البلقا ومروراً بوادي سير المفتوح الذي يسير فيه الراكب بين أشجار البلوط طيلة الطريق حتى الغور. كما كان من الممكن أن يكون هناك أشجار على الهضاب لو سمح لها الفحامون بالنمو. ومررنا بعدد من الأجمات الكثيفة القزمة من البلوط والزعرور.. ولكني كنت أرغب لو لم يتغير شيء من الأراضي الفاتنة شرقي الأردن، بعد جيل أو جيلين من الآن سوف تزرع على نحو عميق بالحبوب وسوف تتناثر فوقها القرى وسوف يدير ماء وادي سير الطواحين، وربما سيكون هناك طرقات، وحمداً لله أنا لن أكون موجودة لأرى هذا [١]. وفي زماني سوف تبقى أراضي العلا منطقة بهيجة كما سبق، وقال عنها عمر بن الخطاب: شريط العشب المنتشر ذاك الذي يفصل الصحراء عن

(١) لقد تحدثت المؤلفة هذا الحديث عام ١٩٠٧ كما هو واضح من تاريخ طبع الكتاب والحقيقة أن العمران قد امتد إلى أبعد بكثير مما حلمت المؤلفة.

الأرض المزروعة [1]. وسوف تبقى هذه الأراضي خالية من القرى من أجل راع متفرد يقف إلى جانب قطيعه وبيده بارودة طويلة، وعندما أقابل خيالاً يسير فوق هذه الهضاب وأسأله من أين جاء فإنه سوف يجيب (الله يوسع عليك الدنيا، من عند العرب..).

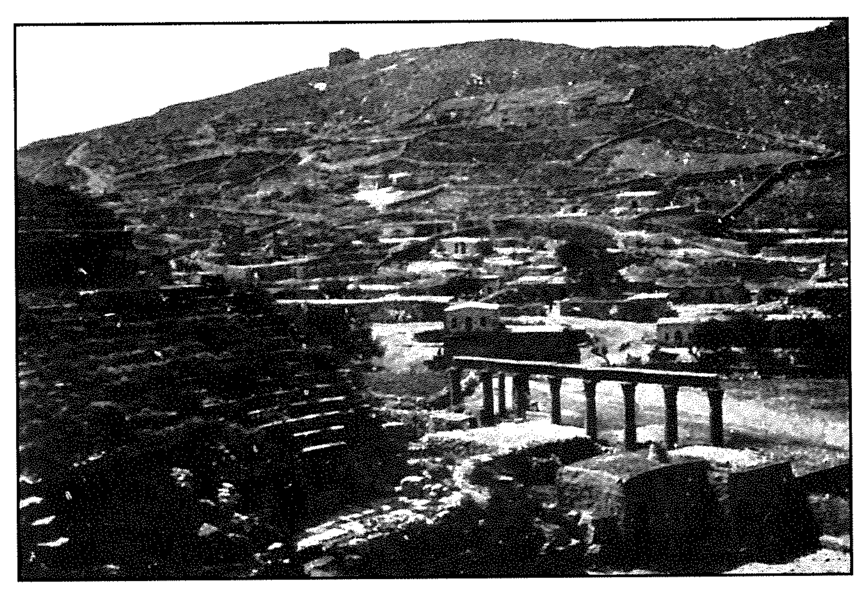


١٦ ـ مضارب بدو قرب البحر الميت

كان ذلك هو ما نحن ذاهبون إليه، إلى العرب، في الصحراء لا تستعمل كلمة (البدو) كل سكان الخيام هم عرب (بإيقاع حلقي جميل) وكذلك لا تستعمل كلمة (خيمة) بل بيت، أو بيت شعر إذا استلزم الأمر بعض الشرح. ولكن العادة أن يقولوا بيتاً فقط أو داراً باستخفاف متعال بأي كلمة يمكن أن تقال تعبيراً عن البيوت المكونة سقوفها من شعر الماعز. ومن الممكن أن يطلق عليك اسم عربي حتى لو كنت تعيش في بيوت حجرية، فسكان السلط

(١) لا أذكر أنني سمعت هذا القول شعراً أو نثراً لعمر بن الخطاب. (المترجم).

يصنفون ضمن قبائل عرب البلقاء مع قبائل العبادة والدجا والحسانية وغيرها تشكل جميعاً قبيلة العدوان العظيمة. وتتنازع قوتان السيطرة على الصحراء السورية، وهما قبيلة بني صخر وقبيلة عنزة. وهناك صداقة تقليدية بينهما وبين عرب البلقاء ولكن هذه الصداقة تفسدها أحياناً بعض الحوادث المؤسفة. ولعل هذا هو السبب في أنني سمعت في هذه المناطق أن عنزة هي الأكثر عدداً، ولكن رجالها أقل شجاعة من الصخور. وثمة معرفة مقرونة



١٧ ـ مسرح عمان

بالاحترام بيني وبين أحد أبناء طلال الفايز شيخ عشاير الصخور. وكنت قد قابلته قبل خمس سنوات في هذا السهل بعد شهر من الفصل التي تتحرك فيه قبيلتهم من المراعي الشرقية باتجاه الأردن. وكنت أركب آن ذاك بحراسة ضابط شركسي من مادبا إلى المشتى [١]، وكان ذلك قبل أن يقتطع الألمان نقوش واجهة المبنى على شكل شرائح من هذا البناء الرائع.

(١) قصر مبني في العصر الأموي.

كان السهل مغطى بقطعان مواشي الصخور وبيوتهم السوداء وبينما كنا نسير بينهم اتجه نحونا ثلاثة خيالة من أجل اعتراضنا، سمر الوجوه، مسلحون حتى أسنانهم، عدوانيو السمات، وألقوا التحية من بعيد، ولكنهم عندما رأوا الضابط رجعوا ببطء وضحك الشركسي قائلاً: (كان ذاك الشيخ فايز بن طلال.. مثل الأغنام والله مثل الأغنام عندما يقابلون واحداً منا).

أنا لا أعرف عنزة لأن تجمعهم في الشتاء قرب الفرات، ولكن مع الأخذ بالاعتبار اختلافهم مع الصخور، فأنا أتصور إنهم يمثلون القبائل الأكثر نبالة في الصحراء، ويحظى شيوخهم بنو الشعلان بالجاه الأكبر بين شيوخ العشائر، وخيولهم هي أفضل الخيول في الجزيرة العربية، وحتى قبيلة شمر أتباع ابن رشيد يأتون بعدهم محاولين منافستهم بكرم المحتد. وعندما تجاوزنا الأراضي العالية الوعرة الواقعة فوق الغور، دخلنا أرضاً متموجة قليلاً يوجد فيها عدة خرب متناثرة فوقها هنا وهناك، وكان ثمة خربة عند رأس وادي سير ورأينا قبل ربع ساعة من الوصول إليه كتلة معتبرة من الأساسات وصهريجاً كبيراً يدعوه العرب بركة أم العمود، وقد قال يوسف إن هذا الاسم يعود لوجود عمود محاط بالماء في منتصف البركة، وقد تبارى العرب في إطلاق النار عليه حتى كسروه وتناثرت قطعه في قاعها. والتل المجاور لها واسمه تل عميرة مغطى بالخرائب، وأبعد من ذلك تقع اليادودة، ويوجد فيها قبور صخرية منحوتة وأضرحة حجرية ذات أغطية مرمية على طرف الصهريج، وقد تناثرت في كل مشارف الصحراء بقايا أثرية محدودة تعبر عن ماضيها المزدحم بالسكان، بقرى القرنين الخامس والسادس الميلاديين عندما كانت مادبا مدينة مسيحية غنية مزدهرة مع أن هناك بالتأكيد بعض بقايا من العهود السابقة للرومان،

ومدماكين فوق طنف جميل ملتف حول البناء. وعلى بعد مائتي ياردة من القصر أو الحصن (تطلق العرب على كل خربة إما اسم قصر أو دير) يوجد معبد مخرب. وكان من الواضح أنه استخدم في مرحلة لاحقة لأغراض أخرى غير تلك التي أنشئ من أجلها. وذلك لأن هناك سوراً مخرباً حول صفين من سبعة أعمدة وجدراناً متصالبة صعبة التفسير باتجاه النهاية الغربية لصفي



١٩ ـ معبد خريبة السوق

للاتصال. وهكذا أرسلنا رسولاً على وجه السرعة إلى ديارهم، وقضينا الصباح نتفحص التل ونتفرج على كتلة العملات النحاسية التي نبشها محراث نمرود، وقد كانت كلها رومانية، كان بعضها يظهر على نحو معتم ملامح القسطنطينية، وكان بعضها أقدم، ولكن لم يكن بينها ما ينتمي إلى الفترة البيزنطية المتأخرة، أو لأزمان الحروب الصليبية، ولكن طناباً قد هجرت منذ الاجتياح العربي إذ اعتبرت هذه العملات كشواهد [١] واكتشف نمرود المقبرة، ولكننا لم نجد شيئاً في القبور التي يمكن أن تكون قد نهبت في قرون غابرة. كانت منحوتة من الحجارة مثل الصهريج الحجري وعلى مثاله، وكان ثمة قوسان من الحجر الأصم مع فسحات ضيقة فيما بينها تشكل مدخلاً ضيقاً على سطح الأرض. كما كان هناك عدد محدود من بروزات صخرية ناتئة على جوانب الجدران بحيث تشكل مواطئ قدم لأولئك الذين يريدون النزول، تجاويف أو غريفات تشبه الرفوف حول الغرف مصفوفة فوق بعضها، أو هكذا بدا مظهرها. وباتجاه أسفل التل من الجهة الجنوبية ثمة أساسات لبناء يشتبه بأن يكون آثاراً لكنيسة. وعلى كل فإن هذه المكتشفات لا تغني شيئاً بالنسبة ليوم من الاستكشاف. وهكذا ركبنا تحت شمس بعض الظهر الذهبية ساعتين إلى الشمال عبر واد عريض بين مرتفعين وكان ثمة جدارن مهشمة لا تزال

(١) تحاول المؤلفة دائماً الغمز من الحضارة العربية الإسلامية وهي تستعمل دائماً كلمة الاجتياح الذي يقترن بالذهن بالتدمير، وهي في هذه النقطة بالذات تتناقض، فهي تقول إنها لم تعثر على عملات من الفترة البيزنطية المتأخرة، وهناك فارق زمني مقداره قرنين تقريباً ما بين سقوط روما ووراثة بيزنطة أراضي الإمبراطورية الرومانية في جميع ممتلكاتها في آسيا وأفريقيا وبين الفتح الإسلامي وعدم وجود عملات بيزنطية في الموقع دلالة على هجرانه قبل هذا الفتح، ومعروف أن العرب لم يتعرضوا بالأذى لسكان البلاد من المسيحيين على عكس أوربا المسيحية التي أبادت الهنود الحمر الأمريكيين وسكان أستراليا وكثيراً من الجزر التي احتلوها هنا وهناك.

للاتصال. وهكذا أرسلنا رسولاً على وجه السرعة إلى ديارهم، وقضينا الصباح نتفحص التل ونتفرج على كتلة العملات النحاسية التي نبشها محراث نمرود، وقد كانت كلها رومانية، كان بعضها يظهر على نحو معتم ملامح القسطنطينية، وكان بعضها أقدم، ولكن لم يكن بينها ما ينتمي إلى الفترة البيزنطية المتأخرة، أو لأزمان الحروب الصليبية، ولكن طنابأ قد هجرت منذ الاجتياح العربي إذ اعتبرت هذه العملات كشواهد [1] واكتشف نمرود المقبرة، ولكننا لم نجد شيئاً في القبور التي يمكن أن تكون قد نهبت في قرون غابرة. كانت منحوتة من الحجارة مثل الصهريج الحجري وعلى مثاله، وكان ثمة قوسان من الحجر الأصم مع فسحات ضيقة فيما بينها تشكل مدّخلاً ضيقاً على سطح الأرض. كما كان هناك عدد محدود من بروزات صخرية ناتئة على جوانب الجدران بحيث تشكل مواطئ قدم لأولئك الذين يريدون النزول، تجاويف أو غريفات تشبه الرفوف حول الغرف مصفوفة فوق بعضها، أو هكذا بدا مظهرها. وباتجاه أسفل التل من الجهة الجنوبية ثمة أساسات لبناء يشتبه بأن يكون أثاراً لكنيسة. وعلى كل فإن هذه المكتشفات لا تغني شيئاً بالنسبة ليوم من الاستكشاف. وهكذا ركبنا تحت شمس بعض الظهر الذهبية ساعتين إلى الشمال عبر واد عريض بين مرتفعين وكان ثمة جدارن مهشمة لا تزال

---

(١) تحاول المؤلفة دائماً الغمز من الحضارة العربية الإسلامية وهي تستعمل دائماً كلمة الاجتياح الذي يقترن بالذهن بالتدمير، وهي في هذه النقطة بالذات تتناقض، فهي تقول إنها لم تعثر على عملات من الفترة البيزنطية المتأخرة، وهناك فارق زمني مقداره قرنين تقريباً ما بين سقوط روما ووراثة بيزنطة أراضي الإمبراطورية الرومانية في جميع ممتلكاتها في آسيا وأفريقيا وبين الفتح الإسلامي وعدم وجود عملات بيزنطية في الموقع دلالة على هجرانه قبل هذا الفتح، ومعروف أن العرب لم يتعرضوا بالأذى لسكان البلاد من المسيحيين على عكس أوربا المسيحية التي أبادت الهنود الحمر الأمريكيين وسكان أستراليا وكثيراً من الجزر التي احتلوها هنا وهناك.

ومدماكين فوق طنف جميل ملتف حول البناء. وعلى بعد مائتي ياردة من القصر أو الحصن (تطلق العرب على كل خربة إما اسم قصر أو دير) يوجد معبد مخرب. وكان من الواضح أنه استخدم في مرحلة لاحقة لأغراض أخرى غير تلك التي أنشئ من أجلها. وذلك لأن هناك سوراً مخرباً حول صفين من سبعة أعمدة وجدراناً متصالبة صعبة التفسير باتجاه النهاية الغربية لصفي



١٩ ـ معبد خريبة السوق

كان السهل مغطى بقطعان مواشي الصخور وبيوتهم السوداء وبينما كنا نسير بينهم اتجه نحونا ثلاثة خيالة من أجل اعتراضنا، سمر الوجوه، مسلحون حتى أسنانهم، عدوانيو السمات، وألقوا التحية من بعيد، ولكنهم عندما رأوا الضابط رجعوا ببطء وضحك الشركسي قائلاً: (كان ذاك الشيخ فايز بن طلال.. مثل الأغنام والله مثل الأغنام عندما يقابلون واحداً منا).

أنا لا أعرف عنزة لأن تجمعهم في الشتاء قرب الفرات، ولكن مع الأخذ بالاعتبار اختلافهم مع الصخور، فأنا أتصور إنهم يمثلون القبائل الأكثر نبالة في الصحراء، ويحظى شيوخهم بنو الشعلان بالجاه الأكبر بين شيوخ العشائر، وخيولهم هي أفضل الخيول في الجزيرة العربية، وحتى قبيلة شمر أتباع ابن رشيد يأتون بعدهم محاولين منافستهم بكرم المحتد. وعندما تجاوزنا الأراضي العالية الوعرة الواقعة فوق الغور، دخلنا أرضاً متموجة قليلاً يوجد فيها عدة خرب متناثرة فوقها هنا وهناك، وكان ثمة خربة عند رأس وادي سير ورأينا قبل ربع ساعة من الوصول إليه كتلة معتبرة من الأساسات وصهريجاً كبيراً يدعوه العرب بركة أم العمود، وقد قال يوسف إن هذا الاسم يعود لوجود عمود محاط بالماء في منتصف البركة، وقد تبارى العرب في إطلاق النار عليه حتى كسروه وتناثرت قطعه في قاعها. والتل المجاور لها واسمه تل عميرة مغطى بالخرائب، وأبعد من ذلك تقع اليادودة، ويوجد فيها قبور صخرية منحوتة وأضرحة حجرية ذات أغطية مرمية على طرف الصهريج، وقد تناثرت في كل مشارف الصحراء بقايا أثرية محدودة تعبر عن ماضيها المزدحم بالسكان، بقرى القرنين الخامس والسادس الميلاديين عندما كانت مادبا مدينة مسيحية غنية مزدهرة مع أن هناك بالتأكيد بعض بقايا من العهود السابقة للرومان،

الأعمدة التي تزخرف واجهة المبنى الشرقية. وقد وضعت ستة نواويس حجرية بالطول، اثنان على طول كل جدار من الجدر الباقية باتجاه شمال جنوب، وإلى الغرب وأسفل قاعدة الأعمدة على طرفي الدرج تمتد حلية معمارية بارزة لنتوء مستدير واضح بين عصابتين، كما تبدو الزينات نفسها على الجهات الداخلية للنواويس. وترتفع واجهة الدعامة على الجانب الجنوبي بأسلوبين لإدخال الزينة، وفيما عدا ذلك فإن البناء بسيط تماماً على الرغم من أن بعض الحطام المبعثرة على الأرض فوق العشب مزخرف بأوراق كرمة مرسلة، وتعيد هذه المقبرة إلى الأذهان شكل القبر الهرمي السائد في شمال سوريا، ولا أتذكر أي مثال آخر له في الجنوب. وقد تمثل نصباً تذكارياً مع واجهة معمدة الذي هو واحد من دانا الجنوبية العظمى، وقطع من درج كرمي الذي ربما كان قسماً من بناء على سطح معمد.

عندما عدت إلى خيمتي قبيل غياب الشمس بقليل علمت أن الولد الذي أرسلناه في الصباح قد تباطأ في الطريق، وارتعبت بسبب تأخره عن الوقت وعاد بدون أن ينجز مهمته. وكان هذا خبراً مزعجاً على نحو كاف، ولكنه لم يكن شيئاً قياساً بإزعاج الطقس في اليوم التالي. ومشيت لأستكشف السهل العظيم الذي أغفلناه بسبب الضباب والمطر. وهاجمتنا الرياح الجنوبية العاصفة طوال اليوم ضاربة جدران خيمتنا القماشية. وفي المساء أتى نمرود بأخبار يقول فيها: إن كهفه قد امتلأ بالضيوف. ولم يكن هناك إلا عدداً محدوداً جداً من خيام الصخور على بعد ميل أو ميلين منا (لقد كان معظم أفراد القبيلة ما يزالون بعيدين في الشرق حيث طقس الشتاء أقل قسوة) وقد كان مطر اليوم كثيفاً جداً بحيث يتعذر إقامة مساكن للرجال، فركبوا خيولهم

وذهبوا إلى تل طناب تاركين النساء والأطفال ليبدلوا أروقة بيوتهم بأنفسهن أثناء الليل، وقد يكون الجمع ابن الساعة قد أوجد تجاذباً بين الرجال بعد يوم طويل بللنا جميعاً، فانضمت للجمع.

كان كهف نمرود يمضي بعيداً داخل التل بحيث يمكن أن يصل إلى منتصفه، وكانت الغرفة الكبيرة الأولى طبيعية على نحو واضح فيما عدا أماكن النوم المنخفضة ومعالف الغنم التي كانت تتناطح حول الجدران. ويقود ممر ضيق متعرج في الصخور إلى غرفة أخرى صغيرة، كما كان هناك غريفات أخرى أبعد اضطلعت باكتشافها بثقة، ولكن الهواء الحار الكثيف وحشود الذباب التي لا تحصى، لم تشجعني على المضي في الاستكشاف أبعد. لقد قدّم الكهف في ذلك المساء مشهداً بدائياً ومتوحشاً بشكل يكفي لإرضاء أكثر الأرواح حباً للمغامرة، كان العرب الذين يتراوح عددهم ما بين العشرة إلى الاثني عشر يحتذون في أرجلهم صُرْمَان[1] جلدية حمراء وعباءات مخططة مشبعة بماء المطر، يجلسون حول نار ضعيفة قد وضع فوق رمادها ثلاث دلال من القهوة صنعت خصيصاً للمجتمعات الصحراوية. وكانت تجلس خلفهم امرأة تطبخ أرزاً على نار أشد اشتعالا بحيث ينير وهجها أنحاء الكهف ويظهر أغنام نمرود وهي تمضغ التبن الموضوع في معالفها المنقورة في الصخر، ونظف لي مقعد خالٍ من الوحل في حلقة الرجال، وجهز فنجان القهوة ودار الحديث واستمر ربما مدة كافية لأن يعبئ عربي غليونه ويدخنه خمس مرات. ودار بشكل رئيسي حول ظلم الحكومة أو التهديد باستخدام القوة المسلحة

(١) الصرماية: نوع خاص من الأحذية كان وجهها من جلد يصبغ باللون الأحمر غالباً، وأسفلها مسطح بدون كعب، وكانت شائعة في أوائل القرن العشرين وبقيت مستعملة حتى أواسطه. (المترجم)

لسوء الحكم الذي يشكل الخطر الدائم على حواف الصحراء. وقد سرعت ضرورات الحرب النشاطات المؤذية في هذه السنة، وقد تمت مصادرة الخيول والجمال بالجملة على طول حدود البادية دون أي أمل في التعويض بالمال أو بأي شيء غيره، وقد أرسل العرب مواشيهم وخيولهم وجمالهم الأساسية بعيداً إلى مسافة خمسة أو ستة أيام داخل الصحراء حيث لايجرؤ الجنود على الذهاب إلى هناك، وقد عمل نمرود الشيء نفسه فلم يبق إلا دواب الحراثة. وتتابع مضيفوي واحد إثر الآخر في سرد الحكاية، ولعلعت الأصوات القوية في أرجاء الكهف..



٢١ ـ عرب البلقا

والله ومحمد رسول الله لقد استنزلنا اللعنات على الخيالة الشراكسة وسوف.. وسوف نرد هذه القوة من الخيالة ونجعلهم يترنحون على خيولهم، وبين حين وآخر كان ينحني رأس بشعر أسود متجعد ملبد حول الوجنتين تحت الحطة المخططة باتجاه الرماد المتوهج ليلتقط جذوة من أجل غليونه. كما قد تمتد يد أخرى إلى دلال القهوة أو إلى نار الطبخ المتوهجة تحت كومة من الشوك، وتجعل النار القوية المتأججة الذباب يئز والأبقار تتحرك على نحو غير مريح. ولم يكن نمرود سعيداً لرؤية مخزونه من القش والحطب يذوب أمام عينيه وقهوته المحمصة تدق في قبضات متلاحقة في المهباج (Mortar) (والله إنهم يأكلون قليلاً عندما يأكلون في بيوتهم ولكن أكلهم يتضاعف هم وخيولهم عندما يكونون في ضيافة أحد) والقمح قليل في هذا الوقت من السنة، ولكن كلمة ضيف مقدسة من الأردن حتى الفرات. ونمرود يعرف أن قسماً كبيراً من مكانته وأمنِهِ يعود إلى سخاء يده وكرمه الذي يجب أن يشمل كل من يأتيه بصرف النظر عن الزمان أو المكان، وأخذت نصيبي من السخاء بتوزيع علبة من السجائر وقبل أن أذهب كان هناك شعور بالصداقة قد توطد بيني وبين رجال بني صخر.

لم يكن اليوم التالي أفضل بكثير من اليوم الذي سبقه فقد كان البغالة أكثر رغبة في عدم الخروج من الكهف وتعريض حيواناتهم للمطر في الصحراء المكشوفة، وقد وافقت على مضض على تأجيل الرحلة ووافقت على إرسالهم إلى مادبا التي تقع على بعد ثلاث ساعات من موقعنا لشراء الشوفان للدواب محذرة إياهم من ذكر المكان الذي قدموا منه. وقد خف المطر قليلاً بعد الظهر، فركبت عبر السهل باتجاه الجنوب إلى القسطل وهو عبارة عن حصن روماني يقع على أحد التلال.

ومثل هذا الحصن ليس نادراً على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وقد قلدهم الغساسنة فيما بعد عندما وطدوا أقدامهم في الصحراء السورية إذا كان قصر المشتى كما يظن يعود إلى عهدهم مع ملاحظة إن هناك العديد من القصور المبنية على مثاله في المنطقة[1]. كان حصن القسطل مكوناً من سور قوي مستدير له مدخل واحد من الجهة الشرقية، وأبراج ناتئة مستديرة على الزوايا من كل الجهات. ويوجد في داخله سلسلة من الأقبية المتوازية وفسحة مكشوفة في الوسط. والمخطط العام للحصن يختلف قليلاً عن ذلك الموجود في القلعة البيضاء في الصفا وعن الخانات المعاصرة[*]. ويوجد إلى الشمال بناء منفصل ربما كان البريتوريوم، ومنزل قائد حامية القلعة ويتكون من قبو كبير مع ساحة مسورة أمامه، وبرج مستدير في الزاوية الجنوبية الغربية. ويوجد درج حلزوني في داخل البرج وعصابة تزيينية حول المدخل المكون من إطار في الأعلى وإفريز محزز في الأسفل وبينهما فسحة ضيقة مزينة بصور من الطراز الدوري، والبناء جيد على نحو غير عادي والجدران ذات سماكة كبيرة وبمثل هذه الدفاعات التي كانت ممتدة على طول الحدود ربما كانت المدينة الرومانية تنام قريرة العين من عاديات الليالي.

عندما مررت بالقسطل قبل خمس سنوات كانت غير مسكونة والأراضي المحيطة بها غير مزروعة، ولكن عائلات قليلة من الفلاحين قد استقرت الآن

(١) لقد ثبت بعد التحريات أن قصر المشتى يعود إلى العهد الأموي وقد بنى أمراء بني أمية عدة قصور في البادية السورية على مثاله. (المترجم).

(*) لقد تم طبع مخططات رائعة وصور للقلعة من قبل برونو ودومازووسكي في مجلدهما الثاني لعملهما الكبير البادية العربية، ولم يكن هذا المجلد قد طبع عندما زرت القسطل. (المؤلفة)

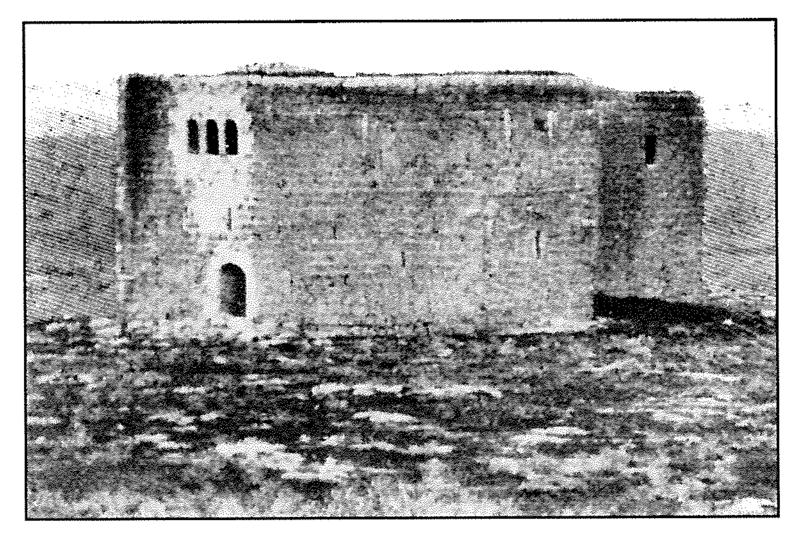
تحت الأقبية المخربة وسيقان الحنطة الخضراء النضرة تتراقص في السهل تحت الأسوار. ظروف سوف تسعد وتدفئ قلوب محبي الإنسانية، ولكنها سوف تجعل الرعشة الباردة تسري في صدور محبي الآثار. إذ لا يوجد مزيل للآثار مثل شفرة المحراث، ولا مخرب لها مثل الفلاح الذي يبحث عن الحجارة المنحوتة من أجل أن يبني موقده. كما لاحظت علامة أخرى على انتهاك قيم المدنية من خلال سلوك اثنين من الجنود نصف جائعين، وهما حارسا أقرب محطة لسكة حديد الحجاز، اسمها محطة المشتى على اسم قصر المشتى المخرب الذي يقع على بعد أميال قليلة إلى الشرق، وكان سبب زيارتهم للموقع دجاجة هزيلة أمسكها أحدهم في يده، لقد سحبها من جانب زوجها الأعجف في فناء القلعة ـ وهو موضوع من الأفضل عدم البحث فيه، وذلك لأن الجائعين لا يعترفون بالقانون ـ ولم أكن شغوفة على نحو خاص لأن أتواجد في هذه المناطق النائية الخاضعة لمراقبة المسؤولين في عمان، ولذلك فقد غادرت بسرعة بعيداً باتجاه الشرق إلى زيزا.



٢٢ ـ آثار كنيسة مخربة في مدينة مادبا

لقد ملأت مياه الأمطار مسالك الصحراء، وهي غالباً لا تجري بمثل هذه الكثافة والعمق مثلما هو الحال في المسلك الذي كان علينا أن نعبره عصر ذلك اليوم. لقد ملأت المياه حتى الحافة، صهريج زيزا الروماني، وهكذا فإن عشيرة الصخور لن تعاني من الحرمان من الماء طيلة الصيف التالي. فالخرائب الأثرية تبدو أكثر أهمية بكثير من تلك الموجودة في القسطل، فلابد أن مدينة كبيرة كانت هنا في يوم من الأيام؛ لأن أساسات المنازل تغطي مساحة كبيرة من الأرض. وربما كانت القسطل القلعة الحصينة التي تحرس هذه المدينة، ويتقاسمان معاً اسم زيزا الذي ذكر في النوتيشيا : (Notitia) (ايكوايتس دالماتيشي ايلليرشيانا زيزا) كما أن هناك قلعة سراسينية (Saracenia) أعاد ترميمها سقطان شيخ الصخور، ثم فرشها كما يقول نمرود على نحو رفيع غير معروف في الصحراء. ولكنها أصبحت الآن تحت حكم السلطان؛ لأنها واقعة ضمن أراضي أملاك الدولة وهكذا عادت حطاماً. والتلال الواقعة إلى الخلف ممتلئة بقواعد الأبنية المتناثرة هنا وهناك، وبينها آثار مسجد مازال محرابه في الجنوب ماثلاً للعيان، وقد تمركزت في قلعة زيزا حامية عسكرية مصرية أيام إبراهيم باشا، وقد كان جنوده هم الذين أكملوا تهديم الأبنية القديمة. وقد صرح الأعراب بأن العديد من المباني الضخمة بما في ذلك عدة كنائس كانت قائمة مصانة بحالة جيدة تقريباً قبل مجيء المصريين، وجعلنا طريق عودتنا إلى حيث نقيم على حافة جسر سكة الحديد، وتناقشنا أثناء الطريق عن الفوائد المحتملة لارتفاع الأرض المفاجئ على الطريق نفسه، وكان نمرود شاكا حول هذا الموضوع، كان ينظر بارتياب إلى الموظفين والجند. وقد كان لديه في الواقع أكثر من سبب للخوف من غزوات الموظفين الذين لا يمكن استرضاؤهم والتخفيف من جشعهم بكرم الضيافة أكثر من الأعراب الذين

لديهم العديد من العوامل التي تضطرهم لإيذائه أكبر الأذى.. ولم يرسل في السنة الماضية إلا كميات قليلة من أحمال الحنطة إلى دمشق بوساطة شاحنات القطار.. صحيح أن الشحن بالقطار أسهل وأسرع من النقل بجماله هذا إذا وصلت الشحنة على الإطلاق.. ولكن أكياس القمح عندما تصل إلى المدينة تكون أقل بكثير منها عندما حمّلها نمرود بحيث تضيع الفائدة. وقد يتحسن الوضع مع الزمن. وذلك عندما يسمح ببقاء المصابيح والوسائد وكل وسائل الراحة باستثناء المقاعد العارية على حالها سليمة على الشكل الذي اشتريت فيه والهدف الذي صنعت من أجله. كما تحدثنا عن الخرافات والمخاوف التي تقبض القلب أثناء الليل، وقال إن هناك مناطق لا يمكن للأعراب أن يغامروا بالاقتراب منها بعد حلول الظلام مثل الآبار التي تقطنها



٢٣ ـ قلعة زيزا

الأشباح والتي لا يجرؤ العطشان على الاقتراب منها ومثل الخرب التي يخشى الاقتراب منها الضعيف المرهق الباحث عن المأوى ووهدات الأرض المنعزلة

التي لا تصلح للتخييم. وممَّ يخافون؟ الجني، ومن يستطيع أن يقول للناس ما يخيفهم؟ وهو نفسه قد جعل أعرابياً يجفل إلى درجة فقد معها صوابه من الخوف وذلك عندما قفز أمامه عارياً خارجاً من بركة ماء منعزلة في وقت الفجر نصف المظلم ، وقد ركض الرجل عائداً إلى خيمته وأقسم أنه رأى جنياً، وإن على أفراد عشيرته أن لا ينزلوا إلى الماء حيث يقيم الجني، وقد ذهب نمرود إلى الخيمة ضاحكاً وأخبره حقيقة ما حصل.

ولم نعد رأساً إلى خيمنا، فقد دعينا للقاء ذلك المساء عند الشيخ نهار شيخ بني صخر الذي كان في الليلة الماضية ساهراً معنا في كهف نمرود، وبعد المناقشة تقرر أن دعوة العشاء هذه يجب أن لا تقبلها واحدة في مثل مقامي (وبشكل عام) قال نمرود (يجب أن لا تقبلي إلا دعوة شيخ كبير وإلا فإنك سوف تقعين في أيدي أولئك الذين يدعونك لتلقي هداياك) وإن نهاراً رجل شريف على الرغم من أنه مسكين. وهي كلمة تعكس كل أنواع عدم الاحترام والضعف من الشريف الفقير إلى البلاهة إلى الدرجات الدنيا من الازدراء.



٢٤ - بدو نصارى من سكان الخيام

واستقبلني المسكين بإجلال كما تستقبل الأميرات، وأجلسني في صدر المجلس على بساط ممزق بين حفرة الموقد وبين الحاجز الذي يفصل مكان الحريم عن مضافة الرجال، وعقلنا خيولنا إلى أطناب البيت وقد أضفى هذا العمل قوة ومهابة لذلك البيت الهزيل، وجالت عيوننا من مكاننا في صدر الخيمة باتجاه السهول الممتدة إلى ما لا نهاية إلى الشرق تلال ووديان،علو وهبوط كما لو كانت الصحراء تتنفس بهدوء تحت الظلام الدامس.

إن بيت الأعرابي مفتوح دائماً باتجاه الريح فإذا ما تغير اتجاه الريح، تنهض النسوة فوراً وتغيرن مكان الرواق فتتغير واجهة البيت، ويتغير المنظر أمامه بالتالي، وتبقى واجهة البيت دائماً في الاتجاه الملائم. وهذا البيت صغير جداً وخفيف الحمل وثابت في الأرض على نحو جيد مقاوم للعواصف، والشقة المنسوجة من شعر الماعز تنتبج وتتماسك على نحو أفضل عندما تتبلل بالمطر بحيث تحتاج إلى أمطار شديدة مصحوبة برياح عالية حتى يتسرب الدليف إلى داخل البيت. وحمصت حبوب القهوة ودقت في المهباج، وكانت دلال القهوة تغلي ببطء على النار عندما ظهر ثلاثة أعراب من الجهة الشرقية للخيمة ووقفوا في مدخلها. كانوا مكتنزين عريضي الأكتاف وأسنانهم بارزة وشاذة على نحو لافت للنظر وكانوا يرتجفون من البرد نتيجة تبللهم بمياه المطر، ووسع لهم مكان في الحلقة حول النار ومدوا أصابعهم نحو اللهب، فيما استمر الكلام بغير انقطاع، لقد كانوا مجرد ثلاثة من قبيلة الشرارات قد جاؤوا لشراء قمح من مؤاب، وعلى الرغم من أن قبيلة الشرارات من أكبر القبائل وأقواها وقد اشتهروا بجمالهم المولدة إلا أنهم محتقرون ولا يوجد بين عرب البلقا من يقبل التزاوج معهم. وليس لديهم مرابع ثابتة وحتى في الصيف الشديد الجفاف يظلون في جوف الصحراء غير عابئين حتى بوجود الماء لعدة أيام. ودار الحديث في الحلقة المحيطة بنار نهار حول رحلتي، وكان أحد عبيد

الصخور وهو زنجي قوي البنيان ذكي الملامح خائفاً من مرافقتي كدليل في الطريق إلى جبل الدروز ولكنه وافق في النهاية على مرافقتي على أن يتركني بمجرد الوصول إلى حدود منطقة هؤلاء المقاتلين الجبليين الأشداء، ويعود إلى ديرته - يوجد عداء دائم مستحكم بين الدروز وبين بني صخر - يعامل الزنوج من عبيد الصخور معاملة جيدة جداً من قبل سادتهم الذين يقدرون قيمتهم، ولهم مكانهم المعتبر في الصحراء، وهذا وضع جيد يعكس تقدير هذه القبلية العظيمة لخدماتهم، وكنت نصف ميالة لقبول العرض المقدم، على الرغم من احتمال العودة من حيث انطلقت فيما إذا ما قتل الزنجي في أول قرية درزية نصلها، عندما قطع سلسلة أفكاري دخول ضيف جديد، كان شاباً طويلاً ذا وجه جميل أقرب إلى الشقرة بجدائل طويلة بنية تقريباً، وما إن اقترب حتى وقف نهار وبقية شيوخ الصخور للترحيب به، وقبلوه كل بدوره على الوجنتين قبل أن يدخل الخيمة، ونهض نمرود وصرخ حالما اقترب الضيف أكثر (جيد، الحمد لله، من معك ؟) ورفع الضيف يده مجيباً (الله).



٢٥ ـ مجموعة أو فريق من عرب الصخور

لقد كان وحيداً، ودون أن يبدو عليه أنه لاحظ بقية الجماعة أحاطت عيناه بشيوخ الشرارات الثلاثة يأكلون لحم الضأن والخاثر في مدخل البيت والمرأة الغريبة بجانب النار، ومع غمغمته بالتحيات عبر إلى مؤخرة الخيمة رافضاً طعام نهار.. كان اسم هذا الشاب قبلان من البيت الحاكم في الدجا وهو ابن عم شيخ العشيرة، وقد سمع كما اكتشفت في النهاية عن حاجة نمرود إلى دليل لرحالة غريبة عبر الصحراء، وقد جاء من أجل اصطحابي إلى مضارب عمه الشيخ، ولم يكن قد مضى على وصوله أكثر من خمس دقائق عندما همس نهار بعض العبارات في أذن نمرود فالتفت هذا الأخير إلي قائلاً حيث إننا تعشينا فمن الأفضل الذهاب وأخذ قبلان معنا. وقد شعرت بالدهشة بسبب السرعة في قطع سهرة الدردشة هذه، ولكني كنت أعرف أكثر أن علي عدم الاعتراض، وبينما كنا نخب جيادنا عبر أرض نمرود المفلوحة صاعدين تل طناب فهمت السبب. لقد كان هناك دم بين الدجا والشرارات. وقد عرف قبلان من أول نظرة نسب ضيوف أصدقائه، ولذلك انسحب بسكون إلى أعماق الخيمة، فهو لا يمكن أن يضع يده في نفس الصحن مع أعدائه ـ ويعرف نهار. ومن لا يعرف ؟ صعوبة الوضع ـ ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ بموقف الشراراتيين، ولئلا يقع ما لا تحمد عقباه، اقترح على نمرود أن ننسحب بسرعة، وفي صباح اليوم التالي صفا الجو مجازياً لا فعلياً، وأبقى المطر المنهمر بغزارة الطرفين المتعاديين متحلقين حبيا حول نار نمرود في الكهف.

كان مطر اليوم الثالث غزيراً إلى درجة قد لا يستطيع العابر تحمله، وقد نسيت في هذا الوقت الجو غير الرطب والإحساس بدفء القدمين وجفاف الفراش والأغطية، وقد قضى قبلان هذا الصباح ساعة معي من أجل معرفة ما أريد. وقد شرحت له أن يأخذني عبر الصحراء بعيداً عن أي مركز

عسكري وأن يتركني عند بداية سفوح الهضاب الشرقية، وأنا لا أرغب أكثر من ذلك. وفكّر قبلان قليلاً ثم قال: (هل تظنين يا سيدتي أنك سوف تخوضين صراعاً ضد العسكر، لأنه إذا كان الأمر كذلك فسوف آخذ بندقيتي) وأجبت (إنني لا أريد أن أعلن حرباً مفتوحة ضد جنود السلطان، وأتصور أنه بقليل من الحيطة يمكن تجنب احتمال الصدام) وكان رأي قبلان أن الخطة قد تذهب أبعد من ذلك عندما يتحدث الرصاص؛ ولذلك فهو سوف يأخذ بندقيته في جميع الأحوال.



٢٦ ـ مَعْلَمْ روماني

لم يكن لدي ما أفعله بعد الظهر فلم أجد أفضل من مراقبة رجال قبيلة الشرارات وهم يشترون القمح من نمرود، وعلى نحو غير مناسب مع وضعي الحالي عاد بي الزمن آلاف السنين إلى الوراء متصورة رجال الشرارات وكأنهم أبناء يعقوب عندما هبطوا مصر لشراء القمح، واختلفوا مع أخيهم يوسف حول وزن أكياسه[1]. وكان القمح محفوظاً في آبار محفورة في الصخر تحت الأرض ويتم إخراجه مثلما يخرج الماء من البئر بوساطة دلو معدني وهو يخزن مع التبن من أجل ضمان حمايته على نحو أفضل، ولا يمكن أن يتلف إلا بفعل عامد.

(١) الحقيقة أنهم لم يختلفوا حول الوزن، وإنما حول وجود مكيال القمح في كيس أخيهم بنيامين كما يفهم من القصة أن عمال يوسف وضعوه عمداً هناك. (المترجم)

وشاركت الجمال في قطع حبل الصمت عن طريق العنين والبعبعة شأنها في ذلك شأن الأعراب أثناء تحميلها بأكياس القمح. وجلس مشايخ الصخور والشرارات على الحجارة حول جب القمح تحت السديم الممزوج بالرزاز، وهم يتمتمون بين فينة وأخرى: (الله ! الله !) أو يهتفون:

(هو رحيم ورؤوف!) وكان القمح المغربل في كثير من الأحيان يهبط مرة أخرى مختلطاً بالقمح غير المغربل. ويتلو ذلك حوار على النحو التالي نمرود: عليك! عليك يا ولد! الله يخرب بيتك! الله يعكر أيامك!

بنو صخر: بوجه نبي الله عليه السلام!

أحد الشرارات: بصوت محبط: الله ومحمد نبي الله عليه السلام.

مجموعة من الحفاة يرتدون الفراء: ذهب، ذهب! مطر! وذهب!

نمرود: اسكتوا يا إخوان انزلوا إلى الجب وطالعوا قمح، الجب دافئ.

بنو صخر: الحمد لله! القوي القادر.

أصوات ورغاء الجمال..

أحد الجماعين: هس! يا ملعون يمكن أن تزلق بالطين، لعنة الله عليك! الصخور في تناغم: الله، الله، بنور الله.

في الغسق ذهبت إلى خيمة الخدم وساعتها كان نمرود يتحدث هامساً عن جريمة قتل وهم جالسون حول النار التي يُطهى عليها طعامنا (عندما كنت صبياً) قال: (ومنذ زمن قريب) لم تكن تستطيع أن تعبر الغور بأمان، كان لدي فرس مشى بي ـ والله ـ منذ الصباح حتى المساء من مزيريب في حوران حتى

السلط، دون توقف، وكنت معروفاً من جميع الغوارنة، وفي إحدى ليالي الصيف كنت مضطراً للذهاب إلى القدس، الله أعانني، وكان علي أن أركب فرسي، كان الماء في نهر الأردن منخفضاً وعبرت المخاضة لأنه لم يكن هناك جسر، وعندما وصلت إلى الضفة الأخرى من النهر سمعت صياحاً وأزيز رصاص، فاختبأت بين أعشاب الطرفاء أكثر من ساعة حتى غاب القمر ومن ثم تابعت طريقي بأمان. وفي مدخل الهضاب الموحلة ابتعدت الفرس عن الطريق، ونظرت إلى الأسفل فرأيت جثة رجل كان عارياً ومضروباً بعدة طعنات سكين، وكان ميتاً تماماً، وبينما كنت أحدق بالميت قفزوا نحوي من بين التلال الموحلة، كانوا عشرة خيالة، وكنت وحيداً، وانسحبت نحو الحشائش الكثيفة وأطلقت من مسدسي طلقتين، ولكنهم أحاطوا بي ورموني من على ظهر الفرس، وقيدوني ثم أركبوني مرة أخرى عليها وساروا بي، وعندما وصلوا بي إلى حيث أرادوا التوقف ترجلوا عن جيادهم وأخذوا يتناقشون فيما إذا كان عليهم أن يقتلوني. ثم قال أحدهم دعونا ننهي الموضوع واقترب مني ونظر في وجهي وكان الفجر قد بزغ وصاح: إنه نمرود.. ! لأنه عرفني، وطلبت عونه، وهكذا فكوا قيدي وتركوني أذهب فركبت فرسي وتابعت إلى القدس.

وتابعت مع البغالة قصة نمرود.. منقطعي الأنفاس مستمتعين بالقصة تلو القصة..

(يوجد عادات حسنة وأخرى رديئة عند الأعراب) قال نمرود.. ولكن الحسنة كثيرة، فعندما يريدون إنهاء صراع دموي يأتي الطرفان المتعاديان إلى خيمة من وقع عليه الأذى، فيأخذ سيد البيت سيفه ويرسم دائرة على الأرض داعياً باسم الله.. ثم يأخذ قطعة صغيرة من قماش الخيمة وقبضة من رماد

الموقد وينثرها داخل الدائرة، ثم يضرب حدود الدائرة بسيفه سبع مرات، ثم يقفز القاتل إلى داخل الدائرة ويتقدم أحد أقرباء القتيل ويقول: (أنا أتحمل مسؤولية جريمته) ومن ثم يتحقق السلام.

وللنساء يا سيدتي مقام كبير في القبيلة، وللعذراوات مكانة خاصة فإذا قالت إحدى العذارى: أنا أريد فلاناً زوجاً لي، فإن عليه أن يتزوجها وإلا فإنها سوف تكتسب العار، وإذا كان لدى من اختارته أربع زوجات فإن عليه أن يطلق واحدة ليتزوج العذراء. هذه هي عادات الأعراب. والتفت إلى البغال الدرزي قائلاً: يا محمد (احترس، فمضارب الصخور قريبة والدروز وبنو صخر أعداء فإذا ما عرفوك فسوف يقتلونك قطعاً، بل إنهم لن يقتلوك فحسب وإنما يشوونك على النار حياً، ولن تستطيع السيدة حمايتك ولا أنا) وهذه مكرمة تعكس خلق صديق نهار، الذي تبادل معي كرم الضيافة مقابل المنديل الذي أهديته له، كما أخذ جميع أعضاء المجموعة الصغيرة التي كانت متحلقة حول النار بطريقة أو أخرى مقابل هداياهم، ولكن ميخائيل كان رصيناً بالمناسبة.

(لا تفكري بها يا سيدتي) قال ذلك بينما كان يضع بعض الخضراوات المطبوخة في الصحن (سوف يبقى مسيحياً حتى نصل جبل الدروز ولن يكون اسمه هناك محمد وإنما طريف لأن هذا هو الاسم الذي يستعمله المسيحيون).

وهكذا بدلنا ديانة محمد المندهش وعمدناه قبل أن نأخذ اللحمة المقلية من مقلاة القلي.

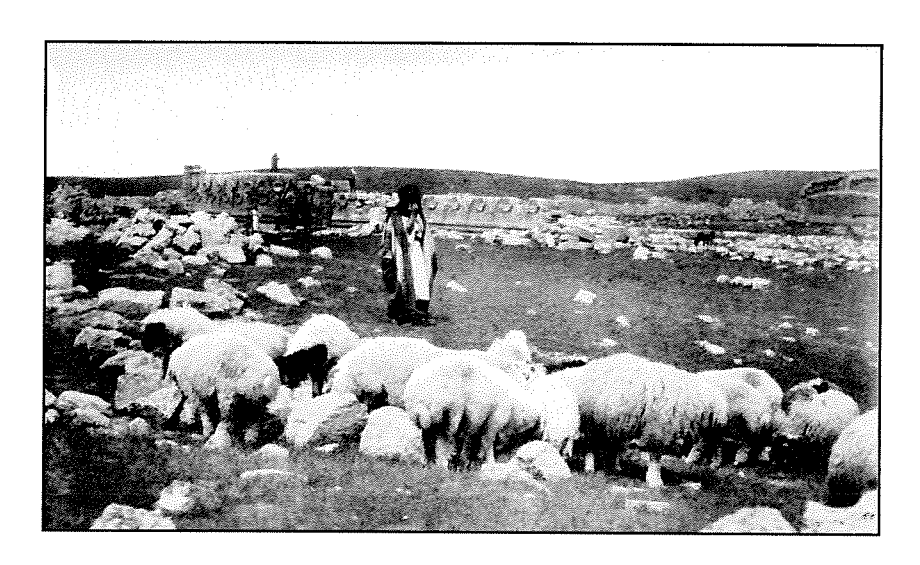


الفصل الثالث

كان صباح الأحد الثاني عشر من شباط مازال عاصفاً ومع ذلك فقد عزمت على الذهاب. ولم تكن الأيام التي قضيناها في طناب مضيعة للوقت، لقد كانت فرصة مراقبة طبيعة حياة سكان هذه المزارع النائية مفيدة ونادرة ولكن أفكاري كانت تتوق للرحيل أبعد، وكنت في شوق لأتبع الطريق الذي ساروا فيه. لقد أصبحوا في متناول يدي، وقد بدا لي الأمر كذلك عندما سمعنا أنا وقبلان ونمرود وقع سنابك خيلنا على معادن سكة حديد الحجاز واتجهنا بوجوهنا نحو الصحراء المفتوحة. وهكذا سرنا شرقاً إلى الشمال تاركين المشتى قليلاً إلى الجنوب، هذا مع أن أحداً ممن عرفها وعرف فتنتها سوف يتمنى أن يولد مرة أخرى لرؤية هذه الأسوار الرائعة ويجب أن لا ننسى أن شيئاً يجب أن يقال بالنسبة لعملية التخريب التي تتعرض لها، ولو كان هناك أمل جيد في بقاء هذه الآثار كما بقيت لأكثر من ألف سنة لم تتأثر بالأمطار الشتوية، فيجب أن يسمح لها بالبقاء سليمة في هذه البلاد الحافلة بالتقلبات بحيث تعطي انطباعاً غريباً من المتعة والجمال الزخرفي، ولكن سكة الحديد أصبحت قريبة وسوف تمتلئ السهول بالناس وسوف يشعر كل من الفلاحين السوريين والجنود الأتراك بضرورة استعمالها لأغراض عملية، ولذلك لندع هؤلاء الذين شاهدوها واقفة قبل أن تهدم يحتفظون بذكراها مع العرفان بالجميل ودون إحساس عميق بالأسى.

استمر نمرود وقبلان بالثرثرة دون توقف، في وقت متأخر من الليلة الماضية قدم جنديان إلى كهف نمرود، وبعد أن استقر بهما المقام رويا قصة

غريبة. كانا جزءاً من تشكيل عسكري سحبه السلطان من بغداد، وأرسله إلى نجد لمساعدة ابن رشيد ضد ابن سعود. وقد رويا كيف أن ابن سعود قد اضطرهم للتراجع خطوة وراء خطوة حتى أبواب حايل عاصمة ابن رشيد. كما أن ابن سعود أتى مع نفر قليل من أصحابه إلى خيمة ابن رشيد ممسكاً بعمود البيت بحيث لم يتمكن ابن رشد إلا أن يرحب به. وقد اتفقا في هذا الاجتماع على أن يتخلى ابن رشيد عن كل ممتلكاته إلى الجنوب من حايل، عدا المناطق القريبة التي لا تبعد أكثر من ميل أوميلين عن المدينة، وأن يحتفظ بممتلكاته في شمالها بما في ذلك منطقة الجوف، وأن يعترف بسلطة ابن سعود على



٢٧ ـ المشتى

الرياض والمناطق الملحقة بها. وقد وجد الجنديان أن أفضل ما يفعلونه هو الهرب والاتجاه غرباً عبر الصحراء، وقد ذكرا أن معظم الجنود من رفاقهم إما قتلوا أوهربوا. لقد كانت هذه بقدر ما أعلم أكثر الأخبار التي تلقيتها من

نجد وثوقاً، ولدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بالتالي أنها صحيحة(*) وقد سألت الكثير من الأعراب حول أخلاق ابن رشيد، وكانت معظم الإجابات نفسها تقريباً «شاطر جداً» ثم يقولون «إنه عنيف»، ثم يستأنفون الحديث بعد لحظة «مجنون» وانطباعي عنه أنه رجل طائش حاد الطباع ذو عقل غير مستقر، مع قلة حكمة وليس قوياً وربما ليس قاسياً بما يكفي لتحمل مسؤولياته، بحكم هذه القبائل الصعبة القيادة التي كان محمد قد حكمها برباط من الخوف، (لقد كان تاريخ الحرب سلسلة طويلة من الغدر والخيانات من جهة حلفائه)، كما كان متكبراً جداً «إذا كان للصحراء أن تحكم عليه



٢٨ - واجهة مبنى في المشتى

(*) حاشية للمؤلفة: بعد تسجيل الأحداث أعلاه وصل ابن سعود إلى تفاهم مع السلطان بعد فشل محاولته الوصول إلى حليف قوي. وقد أتت الأخبار التي تقول إن ابن رشيد قد طرد القوة العسكرية التي أتت اسمياً لمساعدته، وثمة إشاعات حديثة جداً تقول: إن ابن رشيد قد مات.

بإنصاف» إلى درجة قد تمنعه من قبول السلم الموجود حالياً. وهو يجادل بأن الحكومة البريطانية أمدت ابن سعود بالسلاح(*) ضده عن طريق حليفه أمير الكويت (المرتبط بمعاهدة حماية مع بريطانيا) وقد ساعده في توطيد مركزه في المنطقة التي كان أجداده يحكمونها آملاً بذلك أن يضعف نفوذ السلطان على حدود الكويت. وربما بدأت المتاعب عندما حدثت صداقة بين السلطان وابن رشيد التي أمل منها ابن رشيد تدعيم مركزه، وقد شاع خبر هذه الصداقة في العالم عندما ظهرت الخيول الشمرية في إستنبول وظهرت القلابق الشركسية في حايل. وفي المحصلة لا يوجد نهاية للحرب في الصحراء وأن أي إحساس بالضيم سوف يكون له دوره في الشيخ الشاب المتهور.



٢٩ ـ القاعات الداخلية في المشتى

مع أننا كنا نركب في سهول مهجورة قد تبدو للملاحظ العادي عديمة الملامح فنادراً ما كنا نسير ميلاً أو بعض ميل إلا ونصل إلى بقعة أو موقع له اسم، وعندما تستمع إلى أحاديث الأعراب تندهش بوفرة الأسماء. فإذا ما سألت أين ينزل الشيخ الفلاني فسوف تعطى فوراً اسم نزله بدقة، وتنظر في الخريطة فلا تجد علامة وتصل إلى مخيم الشيخ فلا تجد أي مَعْلَمٍ مميز.

(*) لعل هذا من الدعاوى التي يطلقها الخصوم ضد بعضهم حيث أثبتت الأحداث بعد ذلك أن هذه الدعوة غير صحيحة ألبتة.

فارتفاع بسيط في الأرض، وحجر كبير، أو بقايا ضئيلة لخربة أو أي حفرة لا تلفت النظر يمكن أن يوجد فيها ماء في الصيف أو الشتاء، يمكن أن تشكل علامات مميزة بالنسبة لعين البدوي. اركب مع بدوي وسوف تعرف لماذا كان الشعر في العصر الجاهلي ممتلئاً بأسماء الأماكن، وكم من العبث تعيين أماكن محددة للأعداد الكبيرة لهذه الأماكن بسبب كثرة الأسماء المتشابهة التي تتكرر مئات المرات. وقد مررنا منذ قليل على مرتفع بسيط من الأرض دعاه قبلان «تليلة الحرشة» ثم مررنا على مرتفع أصغر دعاه «التليلة» وقد شد هنا لجام فرسه وأشار إلى أثفية مكونة من حجرين مسودين على الأرض قائلاً:

«هنا كان موقدي حيث نزلنا منذ خمس سنوات وهناك كانت خيمة أبي، وقد نصب ابن عمي خيامنا في أسفل المنحدر».

وتخيلت نفسي راكبة مع امرئ القيس أو أي شاعر غنائي آخر من العصر الجاهلي الذين حلقت قصائدهم عالياً في لحن لا يتغير لوجود الصحراء السريعة الزوال.

وانفتحت بوابات الغيوم بالأمطار فوق رؤوسنا وتركنا التليلة وخطونا أبعد باتجاه الصحراء. وعندما يسافر الأعرابي لا يسير بسرعة أكبر من الخطو العادي على حين أخذ نمرود يقضي الوقت حسب عادته برواية حكاياه.

سوف أخبرك قصة يا سيدتي معروفة جيداً عند العرب ولا شك أن قبلان قد سبق وسمعها. كان هناك رجل (وهو ميت الآن، ولكن ابنه مازال حياً) وكان بينه وبين بعض القبائل عداء دموي، وفي إحدى الليالي غزاه عدد من خيالة أعدائه وأخذوا جميع مواشيه وجماله وخيوله وخيامه وكل ما يملك، وأصبح وهو الغني المحترم جداً فقيراً في أمس الحاجة. فسار متنقلاً بين القبائل حتى وصل إلى مضارب قبيلة محايدة فتقدم إلى بيت الشيخ وأمسك

بعموده وقال: (أنا دخيلك) وهي العبارة التي يقولها من ينشد المأوى والحماية. فأدخله الشيخ إلى بيته وأجلسه قرب الموقد وعامله بلطف واحترام، وأعطاه بعض الماشية والجمال وبيت شعر ثم ودعه بكل حفاوة واحترام، وتحسنت أحوال الرجل ولم تمض عشر سنوات إلا وأصبح غنياً كما كان. الآن وبعد عشر سنوات تعرض شيخ العشيرة الكريم لما تعرض له ضيفه قبل عشر سنين وفقد كل ما كان يملك. فقال لنفسه سأذهب إلى ضيفي السابق الذي سبق لي أن أكرمته وأصبح غنياً الآن، عسى أن يعاملني مثلما عاملته. فسار نحو دياره وعندما دخل إلى مضاربه لم يكن الرجل في بيته ولكن ابنه كان هناك، وأمسك الرجل المصاب بعمود البيت وقال العبارة المعهودة في هذا المجال.. «أنا دخليك» ولكن الولد أجاب أنا لا أعرفك ولكن حيث إنك طلبت منا أن نجيرك، ادخل وسوف تصنع لك أمي القهوة.. وهكذا دخل الشيخ وأجلسته المرأة قرب النار وعملت له قهوة. ويعد هذا العمل دليلاً على عدم الاحترام عند العرب، وذلك عندما تقوم المرأة بعمل القهوة. وجاء رب البيت وخرج الولد وأخبر أباه بمجيء الشيخ فقال الأب: سوف نؤويه هذه الليلة باعتباره ضيفنا وغداً عند الفجر سوف نصرفه لئلا نتحمل جريرته.



٣١ ـ فلاح العزو

ووضعوا الشيخ في زاوية البيت، وأطعموه خبزاً وقهوة فقط. وفي اليوم الثاني طلبوا منه الرحيل، وأرسلوا معه فارسين بعيداً عن مضارب العشيرة مسيرة يوم واحد، كما تقضي بذلك عادات العرب مع من يلجأ إليهم، وتركوه بعد ذلك ليتضور جوعاً، أو يقع في أيدي أعدائه. ولكن نكران الجميل هذا نادر عند العرب والحمد لله، ولذلك فإن هذه القصة لم تنس.

نحن الآن نسير قرب منحدرات يمكن أن يطلق عليها ببعض التجاوز تلال، وهي تشكل نصف دائرة تمتد بعيداً إلى الجنوب، حيث نصب فلاح العزو في صحنها خيامه. وكان الدجا يحتلون ـ عندما كنت معهم ـ كل السهل الواقع تحت منحدرات جبل العليا، وأيضاً كل المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي بين الهضاب ونهر الزرقا. كانت خيام الشيخ الشاب بوجميِّر إلى الشمال، أما عماه فلاح العزو وحمود أبو قبلان فقد خيما قرب بعضهما في السهل الجنوبي. ولم يصدف أن التقيت حموداً فقد ركب بعيداً لتفقد بعض قطعانه. وسلم قبلان حصانه إلى أحد الأتباع وذهب رأساً ليعلن وصولنا. وعندما كنا نتوجه بخيولنا إلى بيت الشيخ الكبير خرج منه شيخ أبيض الشعر ليرحب بنا. كان ذلك مضيفي فلاح العزو، وهو شيخ معروف في كل أنحاء البلقاء بحكمته ويمتلك سلطة تتجاوز إمكانات رجل مسن من بيت المشيخة، يمارس سلطته على قبيلته.

وقبل ستة أشهر كان ضيف الشرف في جبل الدروز الذين لم يعتادوا على استقبال شيوخ العرب كأصدقاء. ولهذا السبب اختاره نمرود ليكون مستشار رحلتي. وكنا مجبرين على الجلوس في بيته بينما كانت تعد القهوة وهو عمل يستغرق ساعة كاملة، ويتم ذلك في سكون مهيب يقطعه صوت يد المهباج وهي

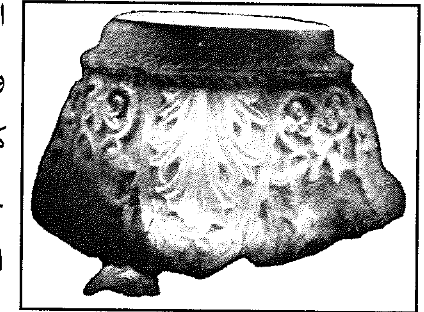
تسحق حبات القهوة بموسيقا عذبة عزيزة على آذان عرب الصحراء، وليس من السهل إنجازه تماماً. ولم ينته شرب القهوة حتى أصبحت الشمس ضحى، وذهبت أنا وقبلان ونمرود إلى الهضاب الواقعة إلى الشمال من المضارب لاستطلاع خرائب أثرية تحدث عنها العرب.

جبل العليا عبارة عن أرض متموجة تتدرج بارتفاع، ويمتد إلى مسافة عدة أميال ثم ينحدر تدريجياً باتجاه الشمال والشمال الشرقي. والميل العام للسلسة هو من الغرب إلى الجنوب الشرقي، وهي ترتفع على نحو حاد بعيداً عن السهل وتحمل على قممها مجموعة من الخِرَب وقد شاهدت منها خَرِبَتان وهي تبدو وكأنها خط من القلاع تحمي حدود المعمورة وبغياب النقوش يخمن أنها غسانية، والموقع الأثري الأول يقع مباشرة فوق مضارب فلاح العزو، ولدي حَدْسٌ أنه قصر العلا (وهو اسم غير معروف بالدجا) الذي أشير إليه في خريطة اكتشاف فلسطين باعتباره قريباً من سكة حديد الحجاز، فإذا كان ذلك كذلك، فإنه يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من المكان الذي وضعه فيه صانع الخريطة، وإن اسمه يجب أن يكون قصر العليا وليس قصر العلا، وهو تل صغير مطوق من جميع جهاته بأساسات أسوار تحيط بكتل من الآثار غير المتميزة. وسرنا مسافة ثلاثة أو أربعة أميال باتجاه الشرق، فوجدنا عند فم واد ضحل في الجهة الشمالية من جبل العليا، صهريج مياه ضخماً بأبعاد تصل إلى ١٥٠ × ١٢٥ قدماً وهو مبني على نحو جيد بأحجار منحوتة ولكنه ممتلئ بالتراب. ويوجد فوقه قرب قمة التل مجموعة من الخرائب يدعوها العرب «الموكر»(*). ولابد أنه كان مركزاً عسكرياً، حيث لا يوجد إلا عدد

(*) حاشية للمؤلفة: إنها تكتب الموقر لكن البدو يبدلون بحرف القاف القاسي جيماً قاسية غير معطشة، وقد تم وصف الموقع في كتاب (البادية العربية المجلد الثاني).

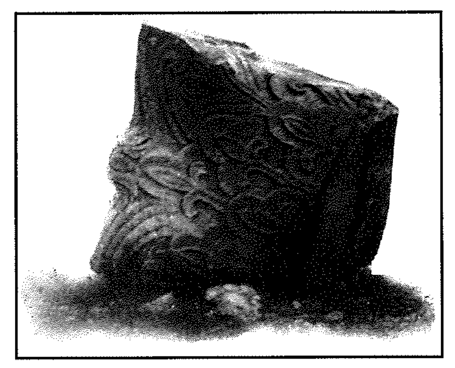
محدود جداً من آثار المساكن التي قد توحي بوجود بلدة. ويوجد إلى الشرق منه بناء مازال العرب يستعملونه كحظيرة للماشية. ويبدو أنه كان كنيسة، وهو مكون من ثلاث غرف متوازية، وقد قسم صحنه من جهة الجناحين بممر مقنطر مكون من ستة أقواس على كل جانب ما تزال واقفة، وأقواس مستديرة تستند على دعامات مبنية. وعلى الجهات الداخلية لهذه الدعامات يوجد ثقوب من أجل تثبيت حبال طويلة وربما كان المكان في وقت من الأوقات مزرباً للخيول، حيث تربط الخيول إلى أعمدة الأقواس. وقد سقفت الغرف الثلاث بعقود أسطوانية وكلا من الجدران والعقود قد بنيت بحجارة صغيرة ثبتت بملاط هش متفتت.

وعلى بعد بضع مئات من الياردات إلى الجهة الشمالية الغربية يوجد صهريج كبير، مفتوح ليس فيه مياه وقد كسيت جوانبه بالجص وفي إحدى زواياه درج متصل الدرجات. وكانت أكبر الخرب ما تزال أبعد إلى الشمال الغربي وهي تقع فوق قمة الهضبة تقريباً. ويطلق عليها العرب اسم خربة القصر وربما كانت قلعة أو ثكنة. كان المدخل الرئيسي من جهة الشرق، وحيث إن الأرض من هذه الجهة كانت منحدرة فقد دعمت واجهة المبنى بثمانية عقود سفلية كان فوقها آثار لثلاثة وربما أربعة ممرات لا يمكن الصعود إليها إلا بأدراج متصلة. وكانت دعامات مزينة قد بنيت على أطراف البوابات، ولكن القليل منها ما يزال في مكانه، وقد اغتنت الواجهة بأعمدة وأفاريز قد تناثرت قطع من حطامها على الأرض في الأسفل، مع رؤوس أعمدة بتصميمات متنوعة. وكانت جميعها من الطراز الكورنثي البدائي مع إن بعضها قد ابتعد بزخارفه كثيراً عن هذا الطراز.



٣٢ ـ تاج عمود في قصر الموقر

وبعض الزخارف على شكل أوراق نباتية بسيطة، وهي عبارة عن مجموعة من ثلاثية الأوراق النباتية في انحناءات متعاقبة للأغصان المتدلية. كما كان بعضها على شكل نتوءات مستديرة غطيت بنماذج من أوراق نباتات النخيل. وعرض الواجهة حوالي أربعين خطوة، وخلف الواجهة حجرة انتظار صغيرة فصلت بجدار عرضي عن ساحة مغلقة، ولا أستطيع أن أجزم فيما إذا كان هناك غرف حول هذه الساحة الداخلية المغلقة، فقد ارتفعت أرضها بالأنقاض وبنبات الطرفاء النابت فوقها. وفي كلا طرفي العقود الثمانية يوجد قبو، فيصبح مجموع العقود عشرة. ولكن القبوين الإضافيين لا يبدو أنهما قد دعما بأي أساس من أي نوع. والجهة الضخمة من جدران الغرفة الداخلية تستند على الجدران الخارجية للعقود المركزية الثمانية. والبناء مكون من حجارة مربعة بينها كِسَرُ حجارة تم تثبيتها بالملاط.



٣٣ - تاج عمود في قصر الموقر

وركبنا نازلين بشكل مستقيم من الهضبة، وتابعنا سيرنا بنفس الاتجاه في السهل عند سطحها مارين بموقع أثري آخر يطلق عليه العرب اسم (النجيرة) وهذه الكومة من الحجارة المنحوتة يطلق عليها العرب اسم (الرجم). وقد يكون من المستغرب أن يعرف الإنسان كم يجب أن يبعد باتجاه الشرق حتى يجدها. وكم كانت الصحراء مسكونة على الدوام فيما مضى من الأيام. وقال قبلان: إنه على بعد مسيرة يوم من جبل العليا توجد قلعة تسمى (القرنية) وقلعة ثالثة ليست بعيدة عنها تدعى (أم أرساسي) وأكثر من ذلك يوجد في بعضها نقوش

ومن السهل زيارتها جيمعاً في الشتاء عندما تكون المراعي الغربية خالية تقريباً [*]. وقد علمني بينما كنا نسير أن أقرأ الصحراء، أن ألاحظ حفر الحجارة الكبيرة المربعة وقد سطحت لتكون أسرة لأطفال العرب، والأعشاش نصف المستديرة في الأرض التي تفرغها النياق من أجل أبنائها الصغار. كما علمني أيضاً أسماء النباتات المتناثرة في الأرض، فوجدت أنه على الرغم من أن الثروة النباتية ضئيلة في الصحراء من حيث الكم فهي متنوعة جداً. وأن لكل نوع منها فائدةٌ ما عند العرب. فهم يعطرون زبدتهم بأوراق الأثروفان. ويصنعون من الكرسنة الشائكة سلطة رائعة. كما أن الجمال تتغذى من شوك البلان، والأغنام تقتات من الشيح، كما أن رماد القلو يستعمل لصنع الصابون. وقد سر قبلان أن يمثل دور الأستاذ فكنا إذا مررنا بباقة من الأعشاب المزهرة الرمادية الزرقاء الشائكة وبأخرى مشابهة كان يسأل: «ما هذا يا سيدتي؟» ويبتسم بفرح إذا كانت الإجابة صحيحة.

٣٤ ـ رأس عمود من قصر الموقر

كان علي أن أتعشى تلك الليلة في بيت فلاح العزو. وعندما كان آخر خيط من الشفق الأحمر يهبط في الغرب، جاء قبلان ليأخذني. وكان المخيم الصغير يضج بالحياة مقترناً بكل مظاهر الحيوية التي تميز مخيمات البادية بعد غياب الشمس، من عنين الإبل ورغائها إلى ثغاء الأغنام والماعز ونباح الكلاب الذي لا ينتهي، ولم يكن

(*) حاشية للمؤلفة: لقد زار السيد موزيل العديد من هذه الخرِب الأثرية، ولكن كتابه لم يطبع بعد.

هناك نور في بيت الشيخ إلا لهب النار. وكان وجه مضيفي الجالس في الجهة المقابلة للنار أمامي، يختفي من خلال عمود الدخان الخانق أمامي في بعض الأحيان، ثم يستنير أحياناً أخرى عند تصاعد اللهب. وعندما يزور ضيف محترم بيت العربي فمن الواجب أن تذبح ذبيحة على شرفه، وهكذا أكلنا بأصابعنا لحم خروف جميل ولبناً مخثراً وخبزاً مشروحاً. والمدهش أن العرب حتى في الولائم الليلية لا يأكلون إلا قليلاً، وأقل بكثير من امرأة أوربية ذات شهية جيدة. وعندما لا يكون هناك ضيف فإن الخبز وحليب النياق هو كل ما يحتاجون إليه [1]. والحق يقال إنهم يقضون معظم اليوم في النوم أو بالثرثرة تحت الشمس. وقد عرفت عربياً ارتحل مسيرة أربعة أشهر ولم يكن لديه إلا مقدار ضئيل من الطعام. وعلى الرغم من أنهم يستطيعون العيش على مقادير ضئيلة من الطعام إلا أنهم يعانون من الجوع في معظم الأحيان. وهم هزيلو الأجسام رقيقو العود وأي مرض تتعرض له العشيرة فإنه يحصد نسبة كبيرة من أفرادها. وقد حضر خدمي الوليمة، وحيث إننا كنا قد تركنا محمداً أو طريفاً حسب التسمية الجديدة ليحرس مخيمنا أثناء غيابنا، فقد أُرسل له صحن عارم من الطعام في الليل «وذلك من أجل الضيف الذي بقي في المؤخرة».

دخل فلاح العزو ونمرود في مناقشة ممتعة حول القهوة، الأمر الذي ألقى ضوءًا على أوضاع القبائل في البلقا. وقد ركزا على انتهاكات المدنية الزاحفة بالتدريج. وقد امتلأت مرابعهم الصيفية تدريجياً بالفلاحين والأمور إلى أسوأ حيث إن مناهلهم الصيفية بالمياه قد شغلتها القرى الشركسية الحديثة حيث

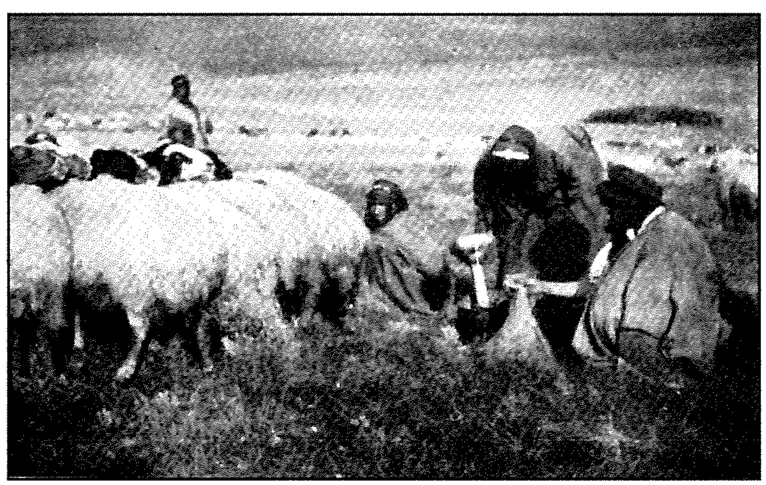
(١) الواقع أن المستوى الصحي عند البدو منخفض جداً، وهم يعانون عموماً من سوء التغذية، واللحم ترف لا يذوقه فقيرهم إلا نادراً، وغنيهم إلا إذا كان هناك ضيف كبير، خلافاً لما يتصوره عوام أهل المدن. (المترجم)

أسكن السلطان الشراكسة الذين طردهم الروس من بلادهم في القوقاز في المناطق الشرقية من سوريا. والشراكسة شعب كريه نكد المزاج محب للشجار. ولكنهم صناع مهرة، وتجار مغامرون بما لا يقاس، وهم ينتصرون بشكل دائم في صراعهم اليومي مع البدو. وقد جروا حديثاً المياه من الزرقا وأصبح البدو يعتمدون عليها للسقاية في الصيف، مما شكل سبباً للحرب وأصبح من المستحيل على البدو النزول إلى عمان، معقل الشراكسة الرئيسي، من أجل شراء الحاجات القليلة التي يحتاجها البدو مثل القهوة والسكر والتبغ. وكان من رأي نمرود أن تطلب قبائل الزرقا من الحكومة أن تعين مدير منطقة (قائم مقام) من أجل ضمان مصالحهم. ولكن فلاح العزو متردد في دعوة الطائر الملكي، مخافة أن تفرض عليهم الخدمة العسكرية، وتعداد الماشية وغير ذلك من الممارسات المكروهة. والحقيقة أن أيام عرب البلقا أصبحت معدودة أن يعاد سكن القرى المخربة كما كان الأمر في القرون الماضية وأن يتم توطين الناس على مقاطعتهم كلها فإن عليهم عندها أن يختاروا بين أن يتحولوا هم أنفسهم إلى فلاحين، فيبنوا القرى ويفلحوا الأرض أو أن ينسحبوا أكثر نحو الشرق حيث من الصعب الحصول على الماء في الصيف ودرجة الحرارة أعلى مما اعتادوا هنا.

وانتقل نمرود من هذه التساؤلات المنوطة بهم إلى مدح حكم الإنكليز في مصر. وهو لم يذهب إلى هناك ولكنه سمع حكايا من أحد أبناء عمومته الذي يعمل كاتباً في الإسكندرية. وقد عرف منه أن الفلاحين أصبحوا أغنياء وأن الأمان في الصحراء مثله في المدن.

«لقد توقفت الصراعات الدموية» قال: «والغزو، وذلك أنه عندما يسرق أحد ما جمل شخص آخر، انظري ما يعملون، يذهب مالك الجمل إلى أقرب

مخفر شرطة ويقدم شكوى، فيركب الشرطي جواده ويذهب وحيداً في الصحراء إلى خيمة السارق ويرمي السلام ويدخل. فماذا سيفعل صاحب الخيمة ؟ يعمل قهوة ويعامل الشرطي كضيف، وبعد أن يشرب الشرطي القهوة يدفع لصاحب الخيمة ثمن فنجان القهوة، وثمن الطعام الذي أكله، ولا يقبل ضيافة صاحب البيت. ويرجع في صباح اليوم التالي بعد أن يطلب من صاحب البيت إعادة الجمل أو الجمال المسروقة ويعطيه مهلة عدة أيام لجلبها إلى المخفر. ويخاف السارق من العاقبة، ويعيد الجمال التي سرقها إلى المخفر فإذا لم يكن العدد المعاد كاملاً يحاكم السارق ويسأل القاضي المالك كم ثمن الجمل، فيجيب ثماني ليرات فيطلب من السارق دفع الثمن، فيدفع السارق، والله»[1]



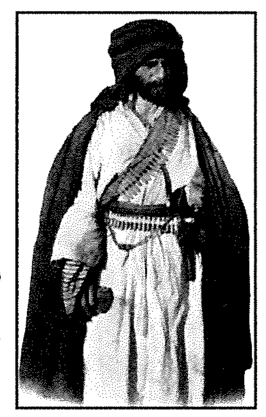
٣٥ ـ حَلْبُ الغنم

(١) تريد الكاتبة هنا أن تضفي حلة قشيبة على الاستعمار البريطاني في مصر، وهذا خلاف للواقع، لقد منع الاستعمار البريطاني مصر من استكمال المسيرة الحضارية التي بدأت في عهد محمد علي، وعندما خرجت بريطانيا من مصر مرغمة عام ١٩٥٦م كانت نسبة الأمية في مصر أكثر من ٧٥٪ وكان دورها في مصر وفي كل المناطق التي احتلتها في الوطن العربي دوراً مخزياً، فقد خرجت من عدن بعد استعمارها بمئة وثلاثين سنة ونسبة الأمية ٩٠ ٪ وليس فيها أي منشأة حضارية عدا مصفاة النفط التي بنتها من أجل تموين أسطولها في المحيط الهندي.

لم يبد فلاح العزو أي موافقة على مزايا النظام الإنكليزي في مصر، ولكنه أصغى باهتمام بينما كنت أشرح مبادئ مصرف الفلاحين كما فهمتها، ولكنه سأل في نهاية الحديث فيما إذا كان من الممكن إقناع اللورد كرومر بمد سلطانه إلى سوريا وهي دعوة لا أرغب بتبنيها باسمه.

وقد سئلت قبل خمس سنوات سؤالاً مشابها في جبال حوران، وقد أثقلت الإجابة عن السؤال آنذاك حنكتي السياسية. فقد اجتمع شيوخ الدروز في قنوات في خيمتي ليلاً في ذلك الوقت، وفي حذر كثير، وبعد حومان حول الموضوع، وتطمينات كثيرة من قبلي بأنه ليس هناك من يسترق السمع، سألوا فيما إذا كانوا يستطيعون اللجوء إلى اللورد كرومر في مصر، إذا ما نقض الأتراك اتفاقهم مع جبل الدروز، وفيما إذا كنت أقبل بمهمة إيصال هذه الرسالة إليه. وقد أجبت بلهجة من يزن الوضع من جميع جوانبه بأن الدروز شعب جبلي وأن مصر سهل وليس فيها جبال، وهي بالتالي لا تلائمهم بالتالي. فنظر شيخ البلد إلى شيخ العقل، وقد تفتحت أمام أعينهم صورة أرض من دون معاقل جبلية يمكن اللجوء إليها عند الحاجة، أو من دون ممرات جبلية يسهل الدفاع عنها، ولذلك فقد أجابوا أن الموضوع يحتاج إلى تفكير أكثر، ولم أعد أسمع الموضوع منهم مرة أخرى، مع ذلك فالمغزى واضح، ففي جميع أنحاء سوريا وحتى في الصحراء، وحيثما كان موقع الإنسان سواء من خلال إحساسه بفكرة العدالة، أو من خلال عجزه، فهو يرغب في أن يكون تحت الحكم الذي جلب الرخاء لمصر. وإذا كان احتلالنا لهذا البلد الذي حول عنا

عواطف المحمديين في البداية فإن سلوكنا هناك قدَّم أفضل دعاية للطريقة الإنكليزية في الحكم(*).



قبلان بن حمود الدجا

بينما كنت جالسة أصغي للكلام الذي يدور حولي وأنظر إلى السماء المرصعة بالنجوم، شرد ذهني في قطار الذكريات الذي كان أساس عملنا طوال اليوم، وأنا أستمع إلى مقالة قبلان عندما توقف عند بعض آثار مضاربهم في العام المنصرم، فقلت: «في عصور ما قبل الإسلام كان آباؤكم يتحدثون كما تتحدثون الآن، ويستعملون اللغة نفسها ولكننا لا نعرف الأسباب التي أدت إلى إضاعتكم معاني الكلمات التي كانوا يستعملون، والآن أخبروني ما معنى هذه العبارة أو تلك».

وانحنى الرجال المتحلقون حول النار، وعندما ارتفع اللهب رأيت وجوههم السمراء، عندما كانوا ينصتون لما أقول.

«بالله !، هل قالوا هذا الكلام قبل الرسول ؟»

ما شاء الله نحن مازلنا نستعمل الكلمة نفسها، إنها العلامة على الأرض حيث تنصب الخيمة.

(*) قد يبدو وكأن القلاقل في مصر الآن تلقي ظلالاً من الشك حول هذه الملاحظات. ولكن أنا لا أعتقد أنه يجب النظر إلى القضية من هذا المنطلق، لقد نسي المصريون المآسي التي خلصتهم منها الإدارة الإنكليزية، بينما مازال السوريون وسكان الصحراء يعانون من ثقلها ووضع جيرانهم في عيونهم مرغوب فيه على نحو لا لبس فيه. ولكن عندما يطرد الذئب بعيداً عن باب البيت فالكوابح التي تفرضها القوانين الثابتة، تؤثر سلباً في المزاج غير المستقر فالناس غير المستقرين معتادون على اعتبار الحكم السيئ والاستفادة من اللين المعتاد والفرص العرضية للتقدم غير المستحق الذي يميزه. والعدالة شيء كبير جداً عندما تقوم بالسهر على حقوقك، ولكنها لعينة جداً عندما ترغب باغتصاب حقوق الآخرين ولن يتوانى فلاح العزو وأمثاله باكتشاف عيوبها (المؤلفة).

وقد شجعني هذا الكلامُ فاستشهدت ببيت امرئ القيس الذي أوحى به كلام قبلان.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول وحومل

ورفع قبلان الواقف بجانب عمود البيت رأسه قائلاً: «ما شاء الله.. ذاك عنترة».

ينسب العرب الأميون كل الأشعار التي تروى إلى عنترة وقبلان لا يعرف اسماً آخر من أسماء الشعراء، «لا..» قلت: «لقد تحدث عنترة على نحو آخر». قال:

هل غادر الشعراء من متردم

أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وكان لبيد أفضل منهم جميعاً عندما قال:

عفت الديار محلها فمقامها

بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عُرِّيَ رسمها

خلقا كما ضمن الوجِّيُ سلامها

وأومأ قبلان موافقاً وقال:

بالله! كان المكان مليئاً بالمواضع حيث أقمت.

لقد التقط قبلان ملاحظتي ونظرت وراءه متمتعة بالليل، ورأيت الصحراء بعينيه، لم تكن قفر أبداً بل تعج بالصحاب من البشر أكثر من أي مدينة. كل مسلك فيها له نصيبه من الأهمية، كل حجرة تشبه شبح الموقد حيث دفء حياة العربي نادراً ما يعتريها البرد. مع أن النار قد خمدت في مئة السنة الأخيرة هذه، إنها مدينة من الصور الظليلة المتداخلة في بعضها، بحيث يمكن رؤية الواحدة منها تحت الأخرى، تتلاشى وتتبدل مشكلة أشكالاً بعناصر جديدة قديمة قدم الزمان، يتعذر تمييز جديدها عن قديمها وقديمها عن جديدها.

ليس لها اسم ينطبق عليها، لا يتحدث العرب عن الصحراء أو القفار مثلما نتحدث نحن، ولماذا عليهم أن يفعلوا؟ إنها بالنسبة لهم ليست صحراء ولا قفرا، ولكنها أرض يعرفون كل معالمها، إنها أمهم التي تقدم لهم كل ما يحتاجونه. إنهم يعرفون، أو على الأقل قد عرفوا في الأيام التي صاغت أفكارهم فيها نفوسهم في شعر خالد لا يموت، لقد عرفوا كيف يستمتعون بجمال هذه الفيافي الشاسعة، وكيف يجلون اندفاع العواصف، لقد مجدوا في العديد من أبيات الشعر مواطن الجمال في حومات المياه، ويتغنون بالذباب الذي يهوم غرداً مثل شارب الخمر عندما يدندن بالشعر لنفسه، أو ببرك مياه المطر التي تلتمع مثل قطع الفضة.

جادت عليه كل بكر حرة

فتركن كل قرارة كالدرهم

وخلا الذباب بها فليس ببارح

غرداً كفعل الشارب المترنم

هـــزجـــاً يـحـــــك ذراعـــه بـذراعـــه

قــدح المـكــب عــلــى الــزنــاد الأجـــزم

أو ببرك مياه المطر التي تلتمع مثل قطع الفضة، أو تومض في الظلام مثل درع الفارس عندما تحركه الرياح. لقد راقبوا وهم يعبرون وديان المياه الجافة، الليل البطيء السير على نحو مدهش حيث تبدو النجوم وكأنها مربوطة إلى السماء بسلاسل كما لو أن الفجر لن يأتي أبداً.

حتى تخيل امرؤ القيس أن الثريا التي تشبه شبكة من الجواهر قد شدت بأمراس إلى صم جندل فهي ثابتة في مكانها لا تريم.

ولـيـل كـمـوج الـبـحـر أرخـى سـدولـه

عـلـي بـأنـواع الـهـمـوم لـيـبـتـلـي

فـقـلـت لـه لمـا تمـطـى بـصـلـبـه

وأردف أعــجـــازاً ونـــاء بـــكـــلـــكـــل

ألا أيـهـا الـلـيـل الـطـويـل ألا انجـلـي

بـصـبـح ومـا الإصـبـاح مـنـك بـأمـثـل

فـيـا لـك مـن لـيـل كـأن نجـومـه

بـكـل مـغـار الـفـتـل شـدت بـيـذبـل

كما وصف الذئب الذي يعوي في الظلام وكأنه ينشد الرفقة والأنس.

وواد كجوف العير قفر قطعته

به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى إن شأننا

قليل الغنى إن كنت لما تمول

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته

ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ولكن في الليل أو في النهار لا يوجد خوف أكبر من قدرة الإنسان على السيطرة، خوف لا معنى له. ولا عدو لا يمكن قهره. وشعراء العصر الجاهلي لا يطلبون العون عند الشدة لا من الله ولا من البشر، وعندما يحيق الخطر بهم يتذكرون صانع سيفهم، وأصالة جوادهم، وبسالة قبيلتهم وذراعهم القادرة على القتال والمنافحة. ومن ثم فقد تألقوا كما يجب أن يتألق الرجال الذين تجري الدماء حارة في عروقهم، ولم يمدحوا من لا يستحق المديح.

هذا طبع شعر عظيم، يعادل في عظمته أعظم ما لفظته شفتا إنسان. كل خبط في تجربة العربي له أثره ودوره ويتم ترجيع أعمق المشاعر العاطفية. ولا يوجد أروع من الأبيات التي لخص بها لبيد تجربته في الحياة. شعر كل بيت من أبياته الأربعة عشر مفعمة بالأسى والحزن المهيب فوق كل مديح. كان يبدو حزيناً أمام العمر المديد والموت والنهايات مع تسليم رزين بمحدودية الحكمة الإنسانية.

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وصوت الإنذار ليس أبداً صوت الرعب. وهو يتكرر على نحو كاف، ولكنه لا يعكس أبداً خوفاً مسعوراً عند الشاعر. يقول طرفة:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطِّوَلِ المرخى وثِنْيَاه باليد

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟!

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ويعرض زهير تجربته غير خائف أيضاً:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

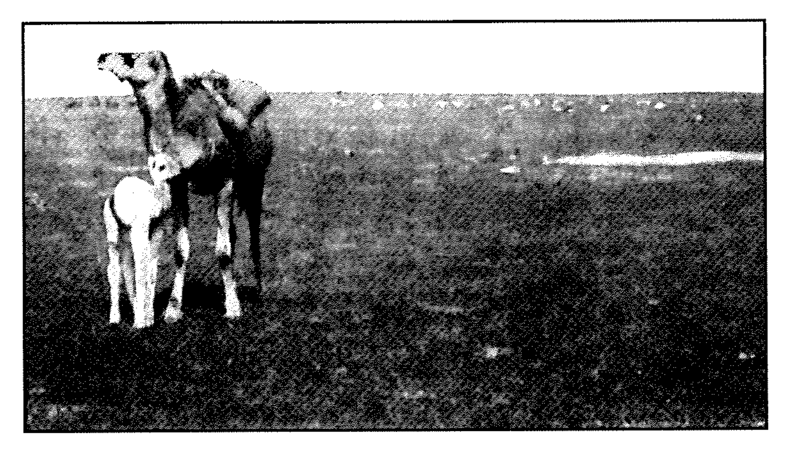
ولكنني عن علم ما في غدٍ عَم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

إن نسمة الحياة تتناول الجميع كهولاً وشباباً، رجالاً ونساءً، ومن بين أروع القصائد التي خلفها أدب الصحراء القصيدة التي رثت فيها قتيلة بنت الحارث، أخاها النضر بن الحارث، وقيمة هذه القصيدة كوثيقة تاريخية لا

تقل عن روعتها كقصيدة رثاء عاطفية، وملخص القصة، أن النضر أسره المسلمون في منطقة الأثيل، بعد معركة بدر فأصدر الرسول أمراً بقتله. ونحن نلمس في شعر قتيلة الشعور المتمرد الذي قوبلت به دعوة الرسول الكريم من قبل معاصريه الذين لم يقبلوها، ممتزجاً بالاحترام الضروري للرجل الذي ينحدر من المحتد النبيل نفسه الذي ينحدرون منه.(١)



٣٧ - على طريق الحج

يا راكباً إن الأثيل مظنةٌ

من صبح خامسة وأنت موفق

(١) كان النضر بن الحارث دائم السخرية من الرسول الكريم عندما كان في مكة، والسخرية من تعاليمه وآياته. وقد أسره المسلمون بعد معركة بدر فاستسمح من الرسول فعفا عنه وأطلقه، ولما عاد إلى مكة عاد إلى السخرية من الرسول مرة أخرى في أندية قريش، فلما قبض عليه مرة أخرى استسمح من الرسول فرفض الرسول قائلاً: «والله لا أدعك تمسح عارضيك بستار الكعبة وتقول خدعت محمداً مرتين». وأمر بقتله فقتل. ويقال: إنه عندما سمع رثاء قتيلة في أخيها النضر قال لو سمعت هذا من قبل لعفوت عنه. (المترجم)

بـلــغ بــهــا مــيــتــاً فــإن تحــيــة
مــا إن تــزال بــهــا الــركــائــب تــخــفــقُ
مــنــي إلــيــه وعــبــرة مــســفــوحــة
جــادت لمــائــحــهــا وأخــرى تــخــنــقُ
فــلــيــســمــعــن الــنــضــر إن نــاديــتــه
إن كــان يــســمــع مــيــت أو يــنــطــق
ظــلــت ســيــوف بــنــي أبــيــه تــنــوشــه
لــلــه أرحــاك هــنــاك تــشــقــق
أمــحــمــد ولأنــت نجــل كــريمــة
مــن قــومــهــا والــفــحــل فــحــل مــعــرق
مــا كــان ضــرك لــو عــفــوت وربمــا
مــنَّ الــفــتــى وهــو المــغــيــظ المحــنــق[1]
والــنــضــر أقــرب مــن أصــبــت وســيــلــة
وأحــقــهــم إن كــان عــتــق يــعــتــق

وعلى جناح أقوى لروح الحرية الصحراوية الجامحة التي كانت تتفاعل في صدر سجين في مكة، فغنى للحب والموت أبياتاً خالدة لا يمكن أن يعتورها النسيان:

هــواي مــع الــركــب الــيــمــانــين مــصــعــد
جــنــيــب وجــثــمــانــي بمــكــة مــوثــق

(١) رويت أيضاً ما كان ضرك لو مننت وربما. الخ.

عجبت لمسراها وأنى تخلصت
أيّ وباب السجن دوني مغلق

ألمت فحيت ثم قامت فودعت
فلما تولت كادت النفس تزهق

فلا تحسبوا أني تخشعت بعدكم
لشيء ولا أني من الموت أفرق

ولا أ نفسي يزدهيها وعيدكم
ولا أنني في المشي في القيد أشفق

ولكن عرتني في هواك صبابة
كما كنت ألقى منك إذا أنا مطلق

كربُ الأسْرُ والرؤية المتخيلة لحبيبة القلب التي لم تستطع جدران السجن أن تبعدها. ثم الاحتجاج المرهف لئلا يظن أعداؤه أو يتخيلوا أن روحه قد هزمت، وذاكرة الرجل القوي الشجاع للعاطفة التي هزت حياته وجعلت روحه جاهزة لقهر الموت.

نادرة تلك الأمثلة التي تمثل نبل العاطفة الموجودة عند هذا الشاعر الذي ولد ونشأ على رمال الصحراء. لقد ترك شعراء العصر الجاهلي الغنائيون شعراً شكل سجلاً عبّر عن عرقهم لا تستطيع أن تجاريه أمم أكثر غنى أو حكمة[1].



(١) حاشية للمؤلفة: لقد استعرت ترجمة السير شالز لايل الأكثر مدرسية لهذه القصيدة وللقصيدة السابقة. (المؤلفة)

الفصل الرابع:

هناك مثل عربي يقول: «حية ربدة ولا ضيف مدة». «حية ربدة ولا ضيف الظهيرة».[1] لقد كنا حريصين أن لا نخرق سلوكنا بإطالة بقائنا أكثر من اللازم؛ ولذلك فقد رفعنا خيامنا استعداداً للرحيل قبل غياب الشمس. أن تستيقظ في فجر يوم في الصحراء يشبه أن تستيقظ في جوف حجر كريم متعدد الألوان. كانت السدم ترفع رؤوسها من الوديان والندى يجري كأكاليل زهور شبحية في أطراف الخيام السوداء، وقد انبثقت في البداية مع بهاء السماء الشرقية اللطيف ثم تلا ذلك أشعة الشمس الذهبية القاسية عند الشروق. وأرسلت منديلاً أرجوانياً مفضضاً إلى فلاح العزو من أجل الولد الصغير الذي كان يلعب برزانة حول الموقد.

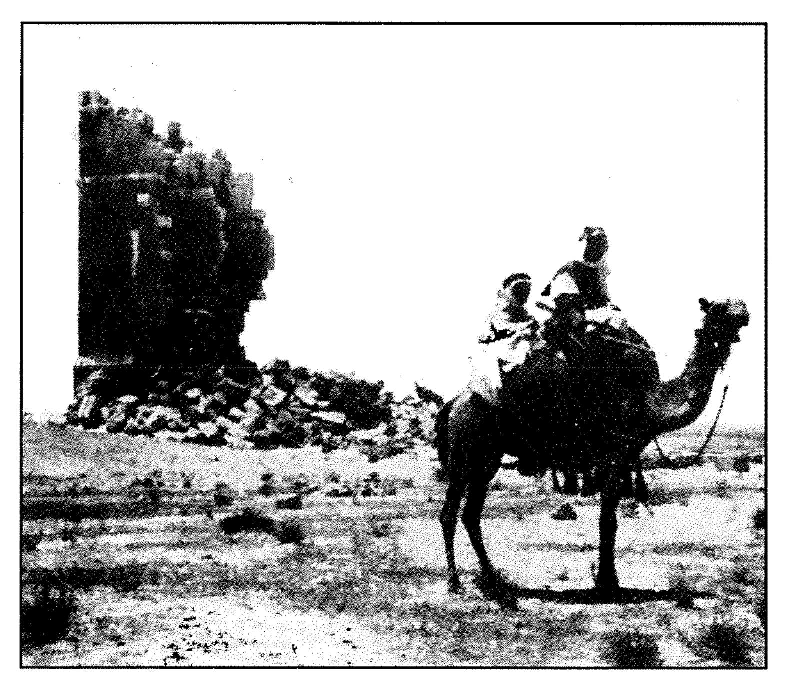
وودعت نمروداً وداعاً جميلاً وشربت فنجان قهوة الوداع عند الشيخ الذي أمسك ركاب فرسي. ثم ركبت مع قبلان للرحيل. وتسلقنا جبل العليا عابرين قمة السلسلة الجبلية العريضة، ويشبه المنظر العام حدود بلادنا الإنكليزية، ولكنه أوسع وأكبر، لأن المنحدرات المتعرجة أكبر، والمسافات أبعد في المدى. وأثمل النسيم البارد الرائع كل أحاسيسي، جاعلاً الدماء تنبض في عروقي - باعتقادي أن الحديث عن خليج نابولي يجب أن يجري على نمط آخر، شاهد الصحراء في صباح رائع ثم مت بعد ذلك، إذا استطعت. - وحتى البغال المتبلدة الحس شعرت بروعة النسيم فأخذت تتسابق عبر الأرض الإسفنجية «جن الملعون» حتى ترنحت الأحمال على ظهورها ووقعت على الأرض

---

(١) - «المقصود هنا الضيف طويل الإقامة وليس ضيف الظهيرة، كما ترجمت المثل المؤلفة».

واضطررنا للوقوف مرتين لنعيد توضيبها وتحميلها مرة أخرى. ونظرنا بابتهاج إلى القليب الصغير أعلى قمة في جبل الدروز يلتمع بعباءته الثلجية بعيداً إلى الشمال.

ودخلنا عند سفح المنحدرات الشمالية لهضاب العليا سهلاً واسعاً متموجاً يشبه ذاك الذي تركناه في الجنوب. وعبرنا العديد من تلك الرجوم الغامضة التي تدعو الخيال إلى التأمل في تاريخ هذه الأرض. ولم نسر إلا قليلاً حتى وقعت أنظارنا على مضارب قبائل الحسانية مبعثرة هنا وهناك، وهم أصدقاء للدجا وينتمون للأصول القبلية نفسها. ولمحنا خيالين قادمين عبر السهل، وذهب قبلان لملاقاتهما، ووقف معهما بعض الوقت، ثم عاد مكفهر الوجه. أول البارحة وبينما كنا نسير بأمان راحلين من طناب هاجم أربعمائة خيال من



٣٨ ـ عرب يركبون بطريقة المردوف

الصخور المتحالفين على الشر مع الحويطات على نحو مفاجئ جماعة متطرفة من بني حسان وأخذوا خيامهم مع ألفي رأس من الماشية. وفكرت لقد كان أمراً يدعو إلى الشفقة مقدمنا في وقت متأخر من اليوم. ولكن قبلان أصبح أكثر اكفهراراً عند هذه النقطة، وقال: إنه مضطر للاشتراك في النزاع وبالتالي قد يضطر لتركي. وهكذا كنت مضطرة للتسليم بمسؤوليته. لأن قبيلة الدجا كانت مرتبطة بحلف مع بني حسان ضد الصخور. وربما كان عمل الأمس كافيا لتحطيم الهدنة التي ولدت حديثاً بين هذه القبيلة الكبيرة وأحلافها من عنزة وأن يشعل الصحراء كلها بالحرب مرة أخرى.

وقد كان هناك حزن في خيام أطفال حسان. ورأينا رجلاً يبكي بجانب عمود خيمته وقد وضع رأسه بين يديه نتيجة لفقده كل ما كان يملك. وتحدثنا في الطريق حول الغزو والقواعد التي تحكمه. إن ثروة العربي تتغير مثل ثروات المقامرين في سوق الأوراق المالية. فقد يكون من أغنى قاطني الصحراء اليوم فيصبح معدماً لا يملك فِلْو بعير. فهو يعيش في حالة حرب وحتى لو تبودلت أوثق الضمانات مع القبائل المجاورة. فليس هناك ضمان من أن يتعرض لغزو مجموعة من غير الجوار تأتي من على بعد مئات الأميال، فتكبس مضارب عشيرته في الليل. كما حدث منذ سنتين عندما غزت عشيرة بني عطية غير المعروفة في سوريا منطقة تقع إلى الجنوب الشرقي من حلب، قاطعة مئات الأميال عبر الصحراء، مراديف من ديارهم فوق بغداد حاملين معهم كل قطعان العشيرة المغزوة بعد أن قتلوا عشرين رجلاً من أفرادها.

تُرى كم ألفاً من السنين مرت والعرب في هذا الوضع ؟ قد يخبرنا من سوف يدرسون تاريخ أعماق الصحراء في الأيام الخالية. لأن هذا التاريخ قد يعود إلى الأيام الأولى لسكن الإنسان لهذه البوادي. ولكن رغم تعاقب كل هذه

القرون لم يكتسب العربي أي جانب من الحكمة من التجربة. فهو لا يعرف الأمان ويتصرف مع ذلك كما لو كان الأمان خبزه اليومي وهو ينصب مضاربه بمعدل يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر بيت للفريق الواحد في سهل واسع غير محمي في منطقة لا تتوافر فيها أي حماية. فهو بعيد عن بقية عشيرته بعداً لا تفيد معه أي استغاثة من أجل المساعدة بشكل يسمح بتجمع عدد كاف من فرسان العشيرة لملاحقة الغزاة الذين ينسحبون ببطء حسب سرعة سير القطعان التي سلبوها، بما يتيح إعادة القطيع المسلوب إذا تم تجمع الفرسان بالعدد المناسب وبالسرعة المناسبة، وعندما يفقد العربي كل ما يملك يمضي متجولاً في الصحراء شاكياً حالته هنا وهناك فيتصدق عليه الناس.

فهذا يعطيه شقة أو شقتين من الشعر وآخر يعطيه دلة قهوة وثالث يعطيه جملاً ورابع بضعة رؤوس من الغنم بحيث يصبح له سقف يؤويه وقطيع صغير يقي أسرته من الجوع. وهناك عادات جيدة عند العرب كما قال نمرود، فهو يتحمل صعوبة العيش لشهور وربما لسنوات حتى تسنح الظروف وتقوم خيالة قبيلته مع حلفائهم بالإغارة على عشيرة الخصم وتسترد جميع القطعان التي سلبت وأكثر. وتدخل العداوة مرحلة جديدة وهكذا. والحقيقة إن الغزو وهو العمل الوحيد الذي تعرفه الصحراء وهو اللعبة الوحيدة أيضاً. وكصفة فهي تبدو للعقل التجاري مستندة على مفهوم خاطئ لقوانين العرض والطلب ولكنها كلعبة، هناك الكثير مما يمكن قوله في هذا المجال.

فروح المغامرة تجد فيها هدفها الأسمى، وتستطيع أن تتصور مقدار الإثارة التي يشعر فيها الفارس وهو يقطع الفيافي في الليل الدامس. ثم اندفاع الخيول في الهجوم وروعة أزيز الرصاص «غير مؤذ نسبياً» والإحساس بالبهجة لشعورك أنك شخص ممتاز وأنت تعود إلى مضارب عشيرتك بالغنيمة. إنها ـ كما يقولون في الصحراء ـ ذروة النشوة والخيال الجامح مع

تتبيلها بالإحساس بالخطر. وإنذار الخطر ليس كبيراً جداً. فمن الممكن الحصول على مقدار لا بأس به من المتعة دون إسالة مقدار كبير من الدماء. ونادراً ما يميل الغزاة العرب للقتل. فالعربي لا يرفع يده ضد النساء والأطفال. وإذا سقط هنا أو هناك رجل قتيل فهو بمحض الصدفة غالباً، حيث ليس من السهل التأكد من مسار طلقة البندقية النهائي عندما تطلق في الليل على نحو عشوائي؟ هذه هي وجهة نظر العرب بالنسبة للغزو.

أما الدروز فينظرون إليه على نحو مختلف، وهو بالنسبة لهم حرب حمراء. فهم لا يلعبون اللعبة كما يجب أن تلعب، فهم يذهبون للقتل وهم لا يوفرون أو يستثنون أحداً. فما دام لديهم ذرة بارود في القارورة وقدرة على سحب الزناد، فهم يقتلون كل من يجدونه أمامهم سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً.

لقد شاهدت من خلال معرفتي باستقلالية النساء العربيات والحرية التي يتم من خلالها الاتفاق على الزواج بين القبائل المختلفة المتساوية في العراقة أو المحتد العديد من القصص العاطفية بين الجنسين يمتزج فيها الحب بالكراهية في صور مركبة. يقول عنترة:



٣٩ - أحد مضارب العجيل

علقتها عرضا واقتل قومها

زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

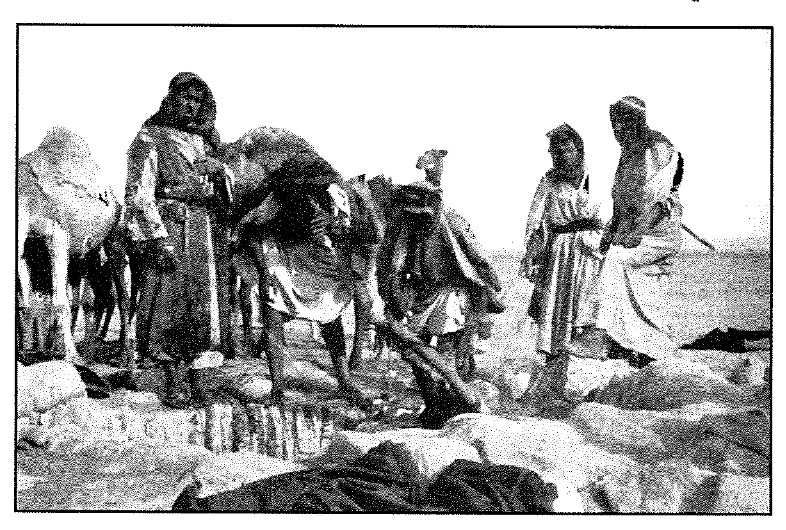
وقال قبلان: إن مثل هذا الوضع الصعب قد حدث في الواقع وقد كان ينتهي في بعض الأحيان نهاية مأساوية، ولكن إذا قنع العاشقان بالانتظار فمن الممكن أن تحدث وساطة أو تسوية في المستقبل، أو من الممكن أن يستطيعا الزواج في بعض الفواصل التي تمنحها هدنة ما، ولكن الخطر الحقيقي يحدث عندما يقتل أحد الرجال رجلاً آخر من عشيرته حيث يمكن أن تنفيه العشيرة فيصبح من دون مأوى أو ملجأ، فيضطر للجوء إلى الأغراب أو الأعداء، وهذا امرؤ القيس الذي نفاه أبوه من العشيرة، فأصبح خارجاً على القانون يناجي الليل:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وعلى بعد أميال قليلة من مضارب الحسانية لم يكن قد سمع أخبار البارحة السيئة، وقد كنا مسرورين لإذاعة الخبر الجديد السيئ. وقد ركب قبلان باتجاه كل فرق العرب لينقل إليهم الخبر الذي يثقل فؤاده. وازداد عدد الرجال الذين يرتدون الأقمشة الخشنة بينما كنا نذهب. وربما كنت على خطأ في قبول التصريح الأصلي الذي زعم أن عددهم أربعمائة لأنه كان لديهم الكثير من الوقت ليتكاثروا خلال الأربع والعشرين ساعة التي انقضت بين انصراف الغزو ووصولنا. وانشغلت معظم البيوت ليس في الاستعداد للحرب وإنما في عمل الوليمة. فغداً العيد الكبير عند المسلمين، (عيد الأضحى) وذلك عندما ينحر الحجاج في مكة أضحياتهم ويحذو حذوهم الأتقياء الحقيقيون في بيوتهم. في كل بيت كانت هناك كومة من الشوك ليشوى

بوساطتها لحم الجمل أو الغنم في اليوم التالي. وانتشرت القمصان في كل مكان على أطناب خيم العشيرة لتجف في الشمس بعد غسلها الذي يتم - ولدي أسبابي لأعتقد - مرة واحدة كل سنة. ووصلنا حوالي غياب الشمس إلى مضرب شيخ بني حسان حيث قرر قبلان أن يقضي الليلة. كان ثمة بركة موحلة في المتناول قربنا، وموقع جيد لنصب خيامنا في منخفض من الأرض حيث كان العرب ينزلون. لم يكن أي من المشايخ الكبار مخيماً هناك. لاحظ ذهن نمرود اليقظ، ورفضت كل دعوات العشاء، وقضيت المساء في البيت حيث جلست أراقب غروب الشمس ونيران الطبخ والدخان الأزرق يسبح بعيداً في الشفق. كان جمل الأضحية يرعى وقد زين بجلال بَيِّنٍ بغالي. واستقبل العيد بعد غروب الشمس بإطلاق مديد للرصاص من البنادق، وجلس قبلان صامتاً بجانب نار المخيم، كانت أفكاره مشغولة باللهو الصاخب على قدم وساق في مربعه. لقد مضت الأمور بمرارة ضد مزاجه حيث إنه مضطر أن يكون غائباً في مثل هذا اليوم. «كم خيال سينزل غداً في مضرب والدي؟ ولن

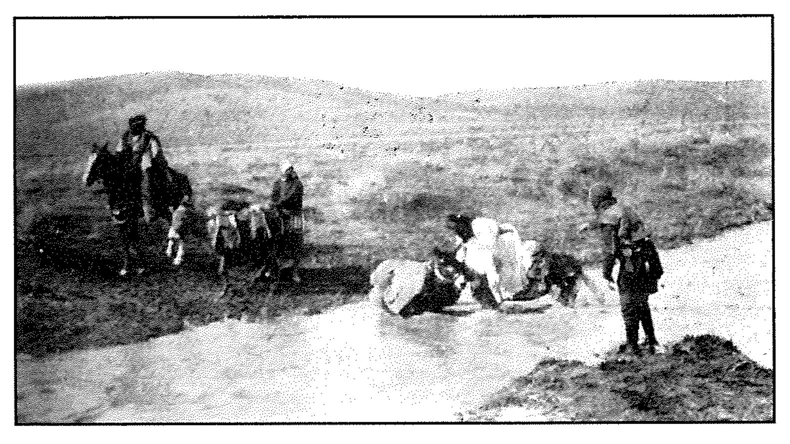


٤٠ - بئر صحراوية

أكون هناك لأُرحِّب بهم أو أن أتمنى عيداً سعيداً لابني الصغير». قال: وابتعدنا قبل ابتداء الفرح إذ لم يكن لدي رغبة بمشاهدة اللحظة الأخيرة لجمل الأضحية إضافة إلى أنه كان لدينا مسيرة يوم طويل عبر منطقة ليست آمنة بشكل خاص.

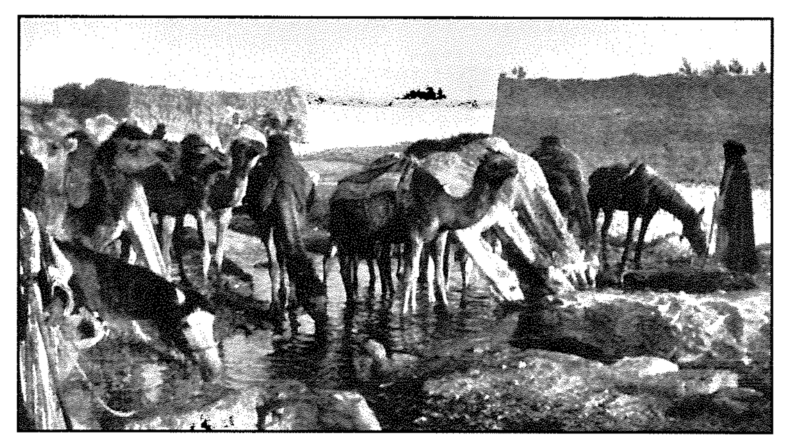
وبقدر ما كانت قافلتي موضع اهتمام، فإن المخاطرة كانت قليلة. كان لدي رسالة من فلاح العزو إلى نسيب الأطرش شيخ صلخد في جبل الدروز.

«إلى صاحب المقام الرفيع الشريف نسيب الأطرش (وهي تمضي كما سمعتها عندما كان يمليها على نمرود على النحو التالي): المبجل أطال الله عمره، السلام عليكم وعلى جميع أهالي صلخد وعلى أخوكم جاد الله وعلى ابن عمكم محمد الأطرش في أم الرمان وعلى أصدقائنا في أمتان، وبعد.. سوف يأتي إليكم من طرفنا سيدة من أكبر الأسر الإنكليزية. ونرسل تحياتنا أيضاً إلى محمد وإلى أصدقائنا. (وهنا تأتي لائحة أخرى من الأسماء) وهذا كل ما هو ضروري والسلام عليكم.. ثم ختم الرسالة بخاتمه».



٤١ ـ مجرى ماء في الصحراء

وبالإضافة إلى الرسالة وبصرف النظر عنها، فقد كان لدي ضمان ناتج عن انتمائي القومي، وذلك لأن الدروز لا ينسون تدخلنا إلى جانبهم في قضيتهم عام ١٨٦٠م[1] إضافة إلى أني سبق وتعرفت إلى عدد من مشايخ الطرشان الذي ينتمي إلى أسرتهم القوية الشيخ نسيب. ولكن قبلان كان في وضع مختلف، كان مدركاً إدراكاً قوياً غموض وضعه. فعلى الرغم من زيارة عمه للجبل لم يكن على يقين من كيفية استقبال الدروز له، لقد تجاوز آخر نقاط حدود حلفائه ودخل حدود أرض هي تقليدياً أرض معادية. لم يكن هو نفسه على معرفة بها فيما عدا الحملات التي كان يجمعها للغزو، وهو إذا لم يصادف أعداء بين الدروز فمن الممكن أن يقع بين أيدي مجموعة جوالة من أعداء أشد مرارة لعرب الدجا من عشيرة الحسنة أو ما شابهها من العشائر التي تخيم شرقي الهضاب. بعد مسيرة ساعة أو ساعتين اختلفت طبيعة المنطقة تماماً. فقد اختفت رمال الصحراء الناعمة وبدأت صخور حوران البركانية. وسرنا بعض الوقت فوق أخدود من الحمم البركانية، مخلفين وراءنا



٤٢ ـ جمال عشيرة الحسانية

(١) تشير المؤلفة هنا إلى الصراع بين الدروز والموارنة في لبنان عام ١٨٦٠م وتدخل الإنكليز إلى جانب الدروز وتدخل الفرنسيين إلى جانب الموارنة. (المترجم)

آخر خيام عشيرة الحسانية، في فسحة صغيرة من الأرض مفتوحة بين بعض التلال، لنجد أنفسنا بعد ذلك على حافة سهل ممتد حتى أطراف جبل الدروز، في امتداد فسيح مهجور تماماً، خالٍ تقريباً من النبات ومفروش بالحجارة البركانية السوداء. وقد قيل: إن حدود الصحراء تشبه الشاطئ الصخري الذي قد تتحطم عليه سفينة البحار الذي يقترب منه، بعد اجتيازه أهوال المحيط العميقة بنجاح. هذه الأرض التي كان علينا أن نخيم فيها. في مكان ما بين أرضنا هذه وبين الهضاب توجد آثار أم الجمال التي آمل أن أصل إليها مع الدروز ولكننا لن نبوح بمكانها من أجل سلامتنا، كان السهل المحيط بها مرتفعاً بما يكفي لحجب وحدتها عن الأنظار. ولأم الجمال الآن اسم مشؤوم، وأنا أظن أنني ثاني أوربي يعسكر بمخيمه على أرضها. وكان الأول عضواً في بعثة أثرية أمريكية وقد تُركت المنطقة قبل وصولي بأسبوعين.



٤٣ ـ خربة أم الجمال

عزز قلق قبلان الواضح سمعته السيئة فقد التفت نحوي مرتين ليسألني فيما إذا كان من الضروري أن نخيم في ذلك المكان. وقد أجبت بأنه تعهد أن

يقودني إلى أم الجمال. ولا مجال للتساؤل حول ذهابي، ودعمت عنادي مرة ثانية بإخباره إلى أننا بحاجة إلى الماء هذه الليلة من أجل سقاية الدواب وليس هناك مجال للحصول عليه إلا من صهاريج القرية الأثرية. وتواً أخرجت خريطتي وحاولت أن أخمن على الورق الأبيض الموضوع أمامي المكان الذي يجب أن نكون فيه، وانحرفت. بقافلتي قليلاً إلى الغرب باتجاه مرتفع ضئيل الذي ربما إذا أطللنا منه يمكن أن نرى هدف رحلتنا. وتقبل قبلان القرار برحابة صدر، وأوضح أنه يشعر بالأسف لأنه لم يكن مفيداً جداً في إرشادنا إلى الموقع تماماً. لقد مرَّ مرة واحدة في حياته بأم الجمال وكان ذلك في ليلة مظلمة أثناء عملية غزو. وقد توقف آنذاك مع جماعته لسقي خيولهم ثم توجهوا شرقاً عائدين من طريق آخر. لقد كانت ـ والحمد لله ـ غزوة ناجحة وكانت أول غزوة يقودها. وكان ميخائيل يستمع إلى مداولتنا بلا مبالاة، ولم يشترك البغالة بالمناقشة، ولكن عندما انطلقنا ثانية هيأ حبيب مسدسه ليجعله جاهزاً عند الضرورة.

وتابعنا المسير.. كنت معنية في البحث عن الرصيف وهو الطريق الروماني القديم الذي ينطلق من الزرقا مباشرة إلى بصرى، وفي التساؤل أيضاً عما يجب أن أفعله إذا اضطررت لحماية الدليل الصديق الذي أفعمت صحبته رحلتنا مرحاً وحيوية، والذي يجب أن لا يتعرض لأي أذى مادام في صحبتنا. ولاحظنا عندما اقتربنا أكثر من الأرض المرتفعة حظائر للغنم، كما استطعنا أن نرى في الوقت نفسه رجالاً يجمعون قطعانهم ويسوقونهم خلف الجدران السوداء. وكانت تحركاتهم السريعة تنذر بالخطر كما شاهدنا بعض الأشخاص لم نستطع أن نتبين ما إذا كانوا راجلين أو راكبين يتقدمون باتجاهنا

من خلال واد إلى اليسار وبعد لحظة ارتفعت نفثتا دخان أمامهم وسمعنا صوت البنادق.

والتفت قبلان باتجاهي بإيمائة سريعة قائلاً: «ضربونا»..

قلت بصوت عالٍ: «إنهم خائفون»

ثم همست لنفسي: «ونحن كذلك».

ورفع قبلان نفسه في ركاب فرسه، ثم سحب فروته المخططة من على كتفيه ولفها حول ذراعه الأيسر، ثم أخذ يحركها فوق رأسه، وتابع سيره وأنا معه بسرعة بطيئة نحو الأمام، وأطلقت طلقتان أخريان وواصلنا سيرنا نحو الأمام واستمر قبلان برفع علم السلام (تقصد فروته) وتوقف إطلاق النار ولم يحدث أي شيء بعد ذلك، فيما عدا الترحيب المتوقع تجاه الأغراب، مراراً بالأسلوب البربري الطائش، وتبين أن مهاجمينا كانا عربيين، وأخذا يتهامسان. وكانا جاهزين للتفاهم معنا ودياً حالما عرفا أننا لسنا من لصوص المواشي ورغبا جداً في إيصالنا مباشرة إلى أم الجمال. وحالما درنا حول التل رأينا أم الجمال أمامنا. كانت أبراجها السوداء وأسوارها تقف صامدة في الصحراء بحيث بدا من غير الممكن الاعتقاد بأنها قد هجرت قبل ثلاثة عشر قرناً. ولم نستطع أن نتبين الصدوع والشقوق في حجر البناء المسامي إلا بعد أن أصبحنا بقربها. واندفعت إلى الأمام إلى قلب البلدة، ولكن قبلان أمسك بي ووضع يده في لجام فرسي.

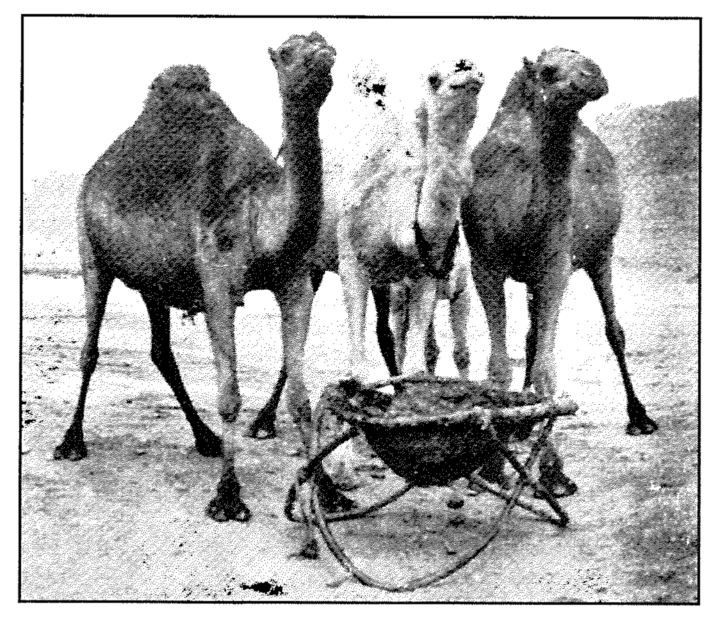
«أنا أذهب أولاً» ثم قال: «أنت في عهدتي يا سيدتي».

وحيث إنه كان الشخص الوحيد الذي يتحمل مسؤولية مغامرتي وكان عارفاً بالوضع تماماً فإن الحل الذي يقدمه يعطيه مزية.

وتحركنا بقعقعة فوق أسوار الخربة دائرين حول ساحة برج الدير الذي كان المَعْلَمَ الأساسي في أم الجمال. وركبنا داخل مكان مفتوح بين شوارع مقفرة، لم يكن هناك ما يخيف، كما لم يكن هناك إشارة تدل على الحياة ما عدا خيمتين صغيرتين سوداوين، وقد رحب بنا سكانهما بحماس وعرضوا أن يبيعونا حليباً وبيضاً بأسلوب حبي كبير.

والعرب الذين يعيشون في سفوح جبال حوران يسمون جبيلية (أي سكان الهضاب)، وهم لا يتمتعون باحترام كبير، فهم إما خدم أو رعاة عند الدروز. ففي الشتاء يرعون القطعان التي ترسل إلى السهل ويسمح لهم في الصيف برعي المنحدرات غير المفلوحة لغنمهم الخاصة.

لقد قضيت الساعة المتبقية من ضوء النهار في فحص مدينة الموتى النبطية الرائعة خارج السوار. وكان السيد داسو قد بدأ العمل بها قبل خمس



٤٤ ـ سقاية الجمال

سنوات والسيدان بتلر والدكتور ليتمان اللذان تلت رحلتهما مباشرة رحلتي سوف يجدان نفسهيما مضطرين للمتابعة عندما سيقدمان كتبهما للعالم. وقد فحصا عدة قبور لم تكن قد اكتشفت، كما لاحظا وجود عدة تلال يمكن أن تخفي قبوراً أخرى. وقد أبعدت مرافقي وتجولت في الغسق عبر شوارع خربة المدينة داخل غرف كبيرة وأدراج حجرية لا تزال سليمة، حتى أتى قبلان وطلب مني الدخول إلى الخيمة، قائلاً: «إن أي رجل يشاهد كائناً مرتدياً فروة يتحرك في هذا المكان بعد حلول الظلام سوف يعده شبحاً لغول وسيطلق عليه الرصاص». وأكثر من ذلك كان يريد أن يسألني فيما إذا كان يستطيع العودة إلى طناب، وأن أحد العرب يمكن أن يقودنا في اليوم التالي إلى أول قرية درزية. وعندئذ سيصبح قبلان غير قادر على الاقتراب أكثر من الجبل. وقد وافقت على رجوعه فوراً، والحقيقة أنني شعرت بالراحة أن أضمن سلامته وجدانياً. وقد تلقى ثلاث ليرات ذهبية فرنسية لقاء أتعابه، ورسالة ممتلئة بالشكر الحار لفلاح العزو. وودعنا بعضنا مع التأكيدات بأن الله سوف يجمعنا ثانية لنقوم برحلة أخرى معاً.

تتناثر القرى المهجورة في سفوح جبل حوران الصخرية منذ الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي. وقد زرت خربتين كانتا في طريقي وهما شبحا وشبحية، فوجدتهما تشبهان خربة أم الجمال، فهما تبدوان من بعيد كبلدتين جيدتي البناء، بأبراج مربعة ترتفع فوق شوارع من أبنية ثلاثية الطوابق. وفي الأمكنة التي سقطت فيها الأسوار بقيت الحجارة في مكان سقوطها لم تمس إذ لم يحفل أحد برفع هذه الأنقاض. وقد كان السيد دوفاج هو أول من وصف آثار حوران. ولا تزال كتبه هي المصدر الأساسي للمعلومات

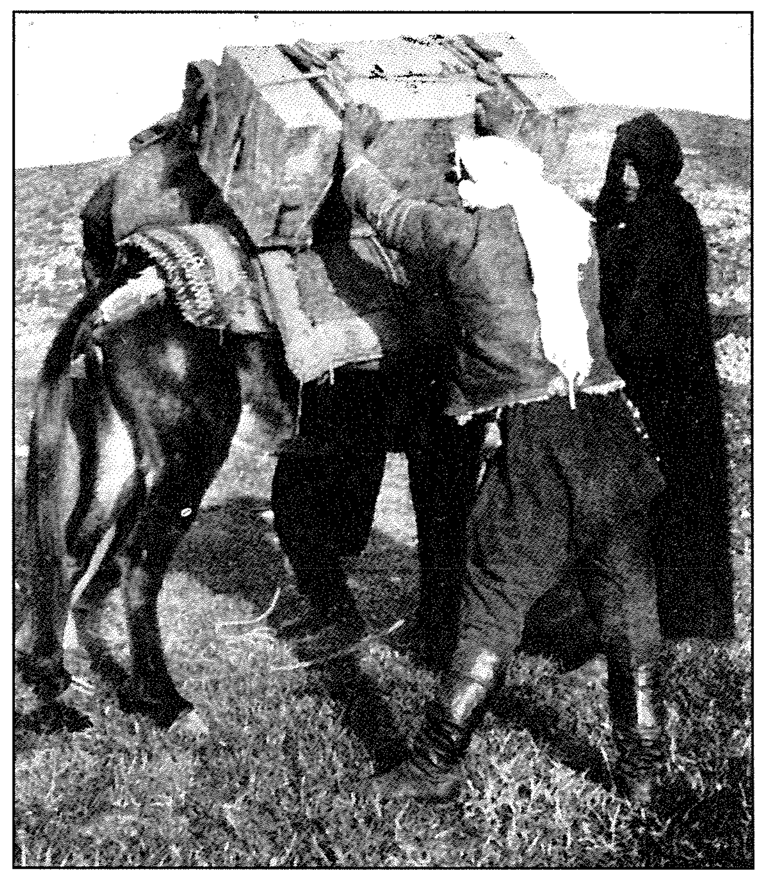
في هذا المجال. ولا يوجد أي خشب في هذه الأبنية، فحتى الأبواب مصنوعة من الحجارة الصلبة، وتدور على أجران أو مقاصل حجرية. كما أن النوافذ مكونة من أحجار مسطحة ثبتت بنماذج تجعلها قابلة لحركة الفتح والإغلاق. ويلاحظ في بعض الأحيان وجود آثار لأروقة معمدة أو أن الجدران تتخللها نافذة مزدوجة تم تدعيم قوسها بعمود صغير ورأس عمود بسيط خشن غير مصقول. وقد زينت الأبواب غالباً بصلبان أو رموز مسيحية. وفيما عدا ذلك فإن التزيينات قليلة، وقد تم سقف الغرف بوساطة أحجار مسطحة وضعت على ظهر أقواس بارزة. وبعيداً عن أي تأكيد فإن النقوش النبطية والقبور هي النقوش الأقدم التي تم كشفها في المنطقة، وقد تبع الفترة النبطية العديد من الآثار الوثنية الرومانية، ولكن الحقبة الأكثر ازدهاراً كانت فيما يبدو الحقبة المسيحية.

كان الفتح الإسلامي بمثابة النهاية لفترة الازدهار في أراضي حوران. وكانت القرى التي سكنت مرة أخرى قليلة العدد جداً أو نادرة، وعندما جاء الدروز قبل مائة وخمسين سنة إلى المنطقة وجدوها خالية من السكان[1] وقد اعتبروا الجبل جبلهم، وأعادوا سكن القرى المهجورة مدمرين في نفس الوقت البلدات القديمة، ثم امتدوا بملكيتهم إلى السهول الجنوبية. على الرغم من أنهم لم يوطدوا أقدامهم في القرى المتنازع عليها التي بقيت أرضاً سعيدة لدراسات علماء الآثار. وسوف تعمل البعثات الأميركية خيراً باستعمال الكميات الكبيرة من المواد الموجودة هناك. وهم يعلمون أن العمل قد تم بأيد

(١) ـ لم يكن الفتح الإسلامي هو السبب في هجرة سكان هذه المنطقة.. إن السبب الرئيسي للهجرة كان فترة الحروب الصليبية ثم غزوات المغول والتتار. ولا يزال الريف السوري مليئاً بالقرى المسيحية ولا شك أن انحلال الدولة المركزية وسيطرة البدو على البادية قد أدى دوراً في هجر الكثير من القرى سواء أكان سكانها مسيحيين أم مسلمين. (المترجم)

أفضل من يدي، فقد تابعت على الطريق نفسه وسلكت الخطى نفسها . ولكني لم أستطع أن أتغلب على غريزة طبيعية بالتوقف عن نسخ النقوش. والنقش أو النقشان اللذان هربا من عيني الدكتور ليتمان اليقظتين ووقعا بالمصادفة أمام عيني سلمتهما له عندما التقينا في دمشق.

واتخذ دليلنا الجديد فندي على عاتقه نقل الأقاويل والشائعات المنتشرة في الجبل إليّ. لقد كان ملك الموت مشغولاً بين عائلة الطرشان الكبيرة خلال



٤٥ ـ حزم متاع المخيم

السنوات الخمس الماضية. فقد مات فايز الأطرش شيخ قرية القِرَيَّه، وقال بعضهم إنه مات مسموماً. كما مات قبل أسبوع أو أسبوعين من وصولي أكثر زعماء الدروز شهرة. شبلي بك الأطرش. وقد مات في ظروف غامضة إثر مرض عضال، وقد قيل: إنه سمّ أيضاً. كما كان هناك الحرب الواقعة الآن، غزو مرعب لعرب وادي السرحان للانتقام وحساب مع الصخور يجب أن يسدد، ولكن ثمة تقدم بشكل عام، فهناك سلام يتمتع به الدروز على نحو معقول. وانقطعت المحادثة ببضع رصاصات أطلقت على أرانب مستلقين في الشمس، وربما كانت هذه رياضة غير نبيلة ولكنها تساعد على ملء القدر وتشكيل طعامه. بعدوقت قليل تركت فندي والبغال لتسير في طريقها. وأخذت طريقي الخاص مصطحبة معي ميخائيل، عاملة جولة كبيرة لزيارة البلدان المخربة. كنا قد أنهينا للتو غداءنا تحت جدار مخرب عندما أبصرنا خيالين متجهين نحونا عبر السهل. فرفعنا فوراً بقايا الغداء وركبنا فرسينا بسرعة، من خلال إحساسنا أنه من الملائم لنا أن يكون أي استقبال لنا على ظهور الخيل. ووقفا أمامنا وحيونا وأتبعوا التحية فوراً بالسؤال عن وجهتنا، وأجبت: إلى صلخد إلى نسيب الأطرش.. فتركونا نمرّ بدون ملاحظات أخرى. لم يكونا دروزاً لأنهما لم يكونا يضعان على رأسيهما تربان الدروز. كانا مسيحيين من القِرَيَّة حيث يوجد تجمع مسيحي كبير. وهما ذاهبان إلى أم الجمال لزيارة مرابع قطعانهما الشتوية. هكذا قال فندي الذي مروا به على مسافة ميل بعدنا. وشاهدنا قبل الوصول إلى الأراضي المزروعة حديثاً بعدة ساعات علامات زراعات قديمة، على شكل خطوط متوازية طويلة من الحجارة قد كومت على طرفي الأرض التي كانت في يوم من الأيام خصيبة مملوءة بالفواكه. كانت تبدو وكأنها حافة وثلم لمرج ضخم، ومثل أي حافة وأخدود

ليس من السهل محوها. إنها علامات العمل الذي توقف مع الفتح العربي[1] عند سفح تل الشيح وهو أول قمة من قمم الهضاب بعد تركنا الصحراء غير المزروعة ودخولنا منطقة الحقول المثمرة. كما تركنا أيضاً سهول الفيافي الطويلة النظيفة وعلقنا بالطرقات السورية الموحلة التي تغطس فيها سنابك الخيول، والتي قادتنا إلى هضبة أم الرمان على حافة أخفض نجد في جبل الدروز وهي نقطة موحلة قليلاً وجرداء، كما يمكن أن تأمل وتريد، وتوقفت في مدخل القرية، وسألت مجموعة من الدروز أين يمكن أن أجد مكاناً لأنصب خيامي فأرشدوني إلى مكان قذر جداً تحت المقبرة، قائلين: إنه لا توجد منطقة أخرى لا تفسد الأرض المزروعة أو المراعي. مع أن ما يدعو للسخرية هو أن الزرع ما يزال تحت الأرض والعشب ليس إلا قليل من العشب اليابس المغطى بالثلج الذائب. ولم أستطع أن أتقبل فكرة التخييم بجانب المقبرة، وأمرت أن نسير مباشرة إلى منزل محمد الأطرش شيخ أم الرمان. كان هذا الأمير جالساً فوق سطح منزله لمراقبة وتوجيه بعض العمليات الزراعية التي كانت تتم أمامه في الأرض الموحلة. لقد جعلته سنون عمره الطويلة مثل الشبح وقد تعزز التأثير بعدد لا يحصى من الأثواب التي اضطره البرد لارتدائها في هذا الشتاء القاسي، واقتربت بالمقدار الذي سمح به الوحل وصحت: السلام عليكم يا شيخ..

(١) مرة أخرى تعبر المؤلفة عن حقدها الصليبي على العرب والإسلام. إنها لا تريد أن تعترف أن الحروب الصليبية التي شنتها أوربا الهمجية المتخلفة والتي كانت بلاد الشام مسرحاً لها ودامت مائتي سنة هي السبب الرئيسي للدمار الحضاري الذي حدث في هذه البلاد وليس الفتح الإسلامي. لقد بقي المسيحيون حتى أوائل القرن العشرين يشكلون قريباً من نصف السكان وكانوا منتشرين في جميع أرجاء بلاد الشام في الريف وفي المدن. ولو كان العرب همجيين مثل الإنكليز أو الأوربيين الذين أبادوا سكان استراليا الأصليين وأبادوا هنود حمر أمريكا في العصر الحديث. كما طردوا كل العرب المسلمين من إسبانيا والبرتغال وصقلية وكريت إلخ. لما بقي المسيحيون بهذه النسبة. (المترجم)

«عليكم بالسلام» صاح بأعلى صوته.

«أين توجد في قريتكم بقعة جافة لأنصب خيامي؟»

وتشاور الشيخ بأعلى صوته مع أتباعه الذين يعملون في الوحل، وأجاب في النهاية أنه لا يعرف بالله. وبينما كنت محتارة إلى أين أذهب تقدم شاب درزي وأعلن أنه يمكن أن يريني مكاناً خارج البلدة. وشعر الشيخ بالراحة بالخلاص من المسؤولية، وأوصاني ـ بصوت عالٍ ـ أن أذهب بسلام. واستأنف أشغاله. كان دليلي شاباً ذا ملامح مسنونة واضحة، وتعابير ذكية صارمة تعكس أصله العرقي، كان يتمتع أيضاً مثل كل عشيرته بفضول قوي، وبينما كان يقفز من جهة إلى أخرى في الطريق لتجنب برك الوحل والثلج نصف الذائب، أخذ مني كل قصتي. من أين أتيت وإلى أين سأذهب، ومن هم أصدقائي في جبل الدروز، وما اسم أبي، وهو أمر يختلف فيه كثيراً عن العرب الذين يعدون أن من أهم الأمور التي تدل على كرم المحتد عدم سؤال الضيف عما لا يريد هو البوح به.



٤٦ ـ محمد الأطرش

«وثمة قصة طريفة في تاريخ الطبري تتحدث عن رجل لجأ إلى أحد مشايخ العرب، وطالت إقامته ومات الشيخ وخلفه بالمشيخة ابنه وتقدم بالابن العمر، وذات يوم سأل أكبر أولاد الابن أباه: ما اسم هذا الرجل الذي يعيش بيننا منذ عهد طويل؟ فأجاب الأب لقد جاء

ولجأ إلينا على عهد والدي وكبر أبي ومات وهو الآن تحت وصايتي وها أنا قد كبرت وفي كل هذه السنين لم نسأله عن اسمه ولماذا لجأ إلينا، ويجب أن لا تسأله أنت».

وبعد فقد تمتعت بأن أجد نفسي مرة أخرى بين أذكياء متميزين من ذوي العيون الجبلية المكحلة، حيث يستدعي كل سؤال جواباً سريعاً أو تفادياً رشيقاً. وعندما زاد محاوري تساؤلاته لم يكن علي إلا أن أجيب.

اسمع أنت: أنا لست أنتِ، نادني فخامتك !

فضحك وفهم وأخذ التعنيف مأخذ الجد.

هناك نقوش كثيرة في أم الرمان، قليل منها نبطي والبقية بالخط الكوفي، مما يثبت أن البلدة الواقعة على رف الهضاب كانت مستقراً ومسكونة من أزمان مبكرة، وأنها سكنت مرة أخرى بعد الفتح الإسلامي. وتبعني حشد مبهج من الأطفال الصغار، من منزل إلى آخر، متعثرين بعضهم ببعض من خلال شغفهم باكتشاف حجرة منقوشة مبنية في أحد الجدران، أو موضوعة على الأرض حول الموقد. وفي أحد البيوت أمسكت امرأة بي وتوسلت إليَّ أن أشفي زوجها. كان الرجل راقداً في زاوية غرفة ليس فيها نافذة ووجهه مضمد بأضمدة قذرة، وعندما تم رفع هذه الأضمدة انكشف جرح مريع، كان طريق رصاصة قد مرت من الوجنة محطمة الفك. ولم أستطع فعل شيء سوى إعطائه مطهراً ومناشدة امرأته أن تغسل الجرح وأن تضمده بأربطة نظيفة. وفوق كل ذلك أن لا تسمح له بشرب المطهر، مع أنني شعرت أن الفائدة سوف تكون صغيرة جداً بصرف النظر عن طريقة الاستعمال. وقد تخطفه الموت

سريعاً بعد مغادرتي. كان هذا أول سلسلة من المعاناة التي لابد أن تقع أمام العينين، وتمسك على نحو مؤسف بمشاعر أي رحالة في المناطق المقفرة. فيصاب الرجال والنساء بالقرحات والآلام المبرحة والحمى الروماتزمية. ويصاب الأطفال بالشلل حال ولادتهم، والعميان والمعمرون، لا يوجد منهم من لا يتأمل أن تقدم له الحكمة الغربية التي لا حد لها علاجاً لما يعاني منه، وأنت تقف وجهاً لوجه أمام عمق المأساة الإنسانية مشدوهاً عاجزاً فاقد الحيلة.

قادني طريق الآثار في النهاية إلى باب بيت الشيخ، ودخلت لأزوره زيارة رسمية، وكان الآن أكثر ميلاً لإظهار كرمه، حيث إن عمل النهار قد انتهى. وجلسنا سوية في المقعد (غرفة الضيوف) وهي غرفة قذرة معتمة خارج البيت في وسطها موقد حديدي، وتناقشنا في الحرب اليابانية والغزو، وبقضايا محلية بينما كان سلمان ابن الشيخ وهو شاب جميل في السادسة عشرة يعد القهوة، والشيخ محمد هو ابن حمو شبلي ويحيى بك الأطرش، الذي كان مضيفي قبل خمس سنوات عندما هربت إلى قريته عري من المدير التركي في بصرى. وسلمان هو الولد الوحيد لأبيه الطاعن في السن، وهو الباقي الوحيد لعائلة الطرشان الشهيرة في عري، حيث إن شبلي قد مات ويحيى ليس له أولاد. وسار الولد معي عند رجوعي إلى مخيمي وكان يقفز بخفة عبر الوحول، شخص مرح وشغوف على نحو مؤثر هيئة مميزة تتناسب مع من ينحدر من أسرة نبيلة مثله. وهو لم يذهب إلى المدرسة على الرغم من وجود مكتب كبير للدروز في قرية القِرَيَّة على بعد خمسة عشر ميلاً يديره مسيحي وبعض المتعلمين.

«والدي يعزني كثيراً» أوضح «لذلك لم يدعني أتركه»

«آه يا سلمان» أنا بدأت.

«يا ألله» التفت على عادة من يرد بقوة عندما ينادى باسمه.

«إن عقل الدرزي يشبه الفولاذ الجيد، ولكن ما قيمة الفولاذ إذا لم يصنع منه سيف قاطع ؟.»

فأجاب سلمان «ولكن عمي شبلي لا يقرأ ولا يكتب.»

قلت: «لقد تغير الزمان، يحتاج آل الأطرش إلى عقول مثقفة إذا أرادوا أن يقودوا الجبل كما فعلوا في الماضي».

ولكن تلك الزعامة أصبحت من الماضي، فشبلي قد مات ويحيى ليس له أولاد، ومحمد أصبح عجوزاً وسلمان غير متطور. وقد خلف فايز أربعة أولاد ولكن ليس لهم سمعة. ونسيب وسيم لكنه جاهل، وهناك مصطفى في متان الذي تخلى عن دوره كرجل مهم وهو قليل الذكاء، وحمود في السويداء الذي تميز بثرائه، وأن الأكبر بين الدروز بدون شك هو أبو طلال في شهبا. ولكن الأكثر تألقاً هو محمد النصر في عرمان.

كان الليل بارداً على نحو قاس، وكان ميزان الحرارة الخاص بي قد انكسر، ولذلك لم يكن ممكناً تسجيل درجة الحرارة بدقة، ولكن في كل صباح حتى وصلنا إلى دمشق، كان الماء في الكأس الموجود بجانب فراشي يتجمد كقطعة من الجليد، كما تجمد في إحدى الليالي جدول صغير، كانت المياه تتدفق فيه بسرعة فأصبح قطعة جليد قاسية وتوقف جريانه، وقد أوى البغالة والحيوانات إلى أحد الخانات أثناء فترة الصقيع هذه، ومحمد الدرزي الذي عاد إلى اسمه الأصلي وعقيدته، اختفى منذ اللحظة التي نصبت فيها خيامنا وأمضى الليلة متمتعاً بضيافة أقربائه.

ولذلك فقد قال ميخائيل ساخراً: «كل إنسان قدّم إليه وجبة طعام يعده ابن عمه».

كنت مضطرة أن أتأخر بانطلاقتي هذا الصباح من أجل أن أغتنم دعوة الشيخ للإفطار في ساعة تاسعة مطاطية جداً بعد شروق الشمس بساعتين. ومن يعلم بالضبط متى يروق لذاك الكوكب المنير أن يشرق؟.

كان جمع ظريف، وقد تناقشنا حول حرب اليوم وبكل ما تحمله من احتمالات نظرية؛ لأنني كنت الوحيدة التي لديها أنباء عنها، وقد أخذتها من جريدة التايمز الأسبوعية من عدد قديم صدر قبل شهر، ثم سألني محمد لماذا يبحث الأوربيون عن النقوش والآثار.

«ولكني أظن أنني أعرف» استطرد «لأنهم ربما يعيدون الأرض إلى ملاكها الأصليين».

وأكدت أن آخر سلالة ملاكها الأصليين في حوران قد مات منذ ألف سنة، وأصغى بأدب مغيراً الموضوع بنفخة في الهواء لإنسان لم يتلق جواباً صحيحاً.

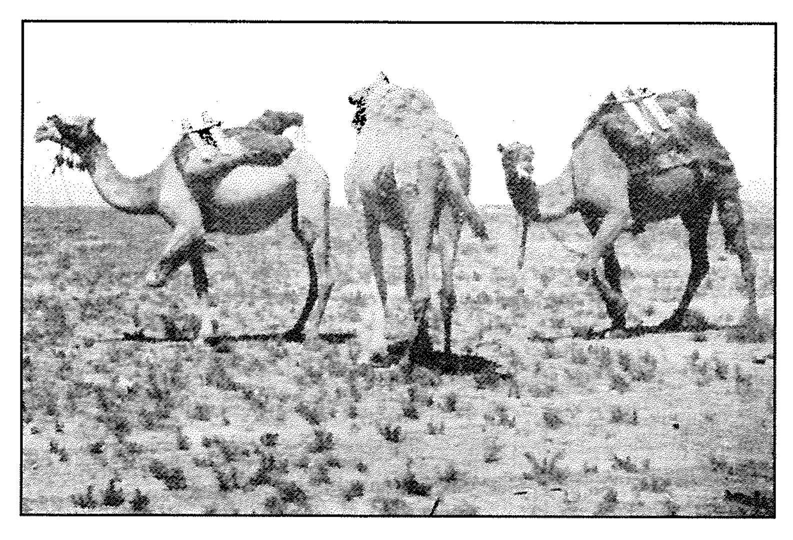
ركب الشاب الذي أرشدنا إلى أرض مخيمنا معنا إلى صلخد قائلاً: إن لديه عملاً هناك وأنه اختار حسن الصحبة بالمناسبة. كان اسمه صالحاً وهو من عائلة متدينة ويحسن القراءة والكتابة. وقد أخطأت جداً بالمناورة عندما سألته عمّا إذا كان من مشايخ العقل.

- ينقسم الدروز إلى عقال وجهال. ولكن حدود التمييز الاجتماعي والوجاهة لا تتبع هذا التقسيم فمعظم الطرشان من الجهال.

وقد وجه إلي نظرة حادة قائلاً: «ماذا تظنين ؟»

وشعرت بخطئي وقفلت الموضوع.

ولكن صالحاً لم يكن ليدع فرصة لا يربح منها بعض المعلومات، وقد سألني بدقة عن عاداتنا منتهياً إلى قوانين الزواج والطلاق، وقد فكر طويلاً في القاعدة الإنكليزية التي توجب على الأب أن يدفع للرجل الذي سوف يتزوج ابنته (وهكذا فسر العادة بإعطائها مركزاً بالزواج، وقد ضحكنا معا من سخف هذا النظام.) كان قلقاً حول معرفة وجهات النظر الغربية حول خلق العالم وبداية المادة. واضطررت إلى تقديم بعض الأفكار الهرطقية إليه، وقد تقبلها بكثير من التفهم والقبول بأكثر مما توحي به. وقد أمضينا صباحا مقبولاً بالرغم من الوحل ووعورة الطريق، وعلى حافة الأكاليل الثلجية أسرع



٤٧ ـ نباتات الصحراء وحيواناتها

الزعفــران الأرجــواني الأصـــفر بتكوين بـراعمـــه، وأزهــر مـعـه ثوم نجمي أبيض ـ الجبل غني جداً بأزهار الربيع ـ وكانت المناظر إلى الجنوب في السهل الكبير الذي عبرناه فاتنة. وأزهرت الهضاب إلى الشمال بالثلج الذي غطى المنحدرات بدون انقطاع، وكانت منطقة القليب تشبه مناطق جبال الألب بقممها المتجمدة المغطاة ـ تقريباً ـ بالضباب. ووصلنا صلخد هدف رحلتنا في الساعة الثانية بعد الظهر.

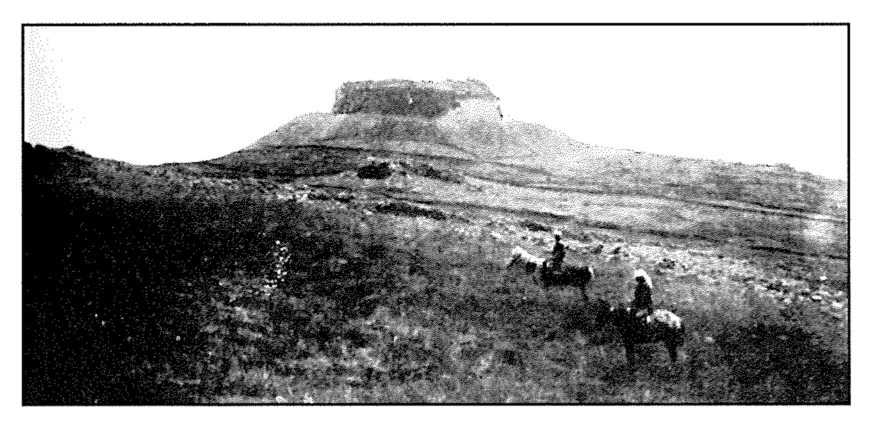


الفصل الخامس:

يجب أن تكون صلكاح مدينة الملك أوك في باشان مكانا حصيناً منذ بداية التاريخ، وتتعنقد المدينة الحديثة حول قاعدة بركان صغير، حيث بني على القمة في قلب فوهة البركان قلعة مخربة، وهذه القلعة وأسلافها من القلاع التي بنيت في فوهة البركان، تشكل مركز الدفاع الخارجي لجبال حوران ضد الصحراء، مركز دفاع أبكر المدنيات ضد أبكر الغزاة النهابين. وتسقط الأرض فجأة إلى الجنوب و الشرق، وينقطع هذا السقوط بتل أو تلين بركانيين فقط في الجوار مباشرة، ثم تستقر في السهول الطويلة حتى تصل إلى وادي الفرات ممتدة على نحو مستقيم مثل سهم انطلق من القوس الروماني الذي يشكل الطريق من صلخد باتجاه الصحراء في خط لم يسر فيه رحالة غربي أبعد من مرحلتين أو ثلاث. ويبتدئ خط القوافل إلى نجد من هنا ماراً قرب الكف وأثرح على طول وادي السرحان، حتى الجوف وحايل، وهو طريق محفوف بالمخاطر مع أن البلونت عبروه بنجاح وعبره بعدهم إيتنغ. ويتميز وصف إيتنغ بكل ما يتصف به العلم والدقة الجرمانيين، وهو أفضل ما لدينا. وعلى خط مستقيم إلى الجنوب من صلخد ثمة قلعة مخربة رائعة تسمى قلعة الأزرق، وهي واقعة في واحة حيث يوجد حرش كثيف ممتلئ بالخنازير البرية. وقد زار هذه الواحة دوسو وقدم وصفاً رائعاً لرحلته. ومما لا شك فيه أنه لا يزال هناك الكثير مما يمكن اكتشافه. وثمة قصص كثيرة تعرفها الصحراء لم تتم روايتها بعد. وفي صلخد من الصعب أن تحتفظ بقدميك ونفسك من الالتفات جنوبا حيث تدعوك بإغراء هذه السهول العظيمة الغامضة.

ذهبت مباشرة إلى بيت نسيب الأطرش وقدمت له رسالة فلاح العزو، وهو رجل في السابعة والعشرين من العمر، وإن كان يبدو أكبر بعشر سنوات.. قصير القامة أنيق مع ملامح قاسية يتميز بها الدروز وتعبير يوحي بالمكر أكثر مما يوحي بالبهجة، وقد استقبلني في مضافته حيث كان يجلس مع أخيه جاد الله وهو شاب طويل مع وجه جميل يوحي بالغباء وقد حياني بكلمة «بون جور» ثم انكتم صامتاً منتهياً بالكلمة الوحيدة التي يعرفها باللغة الفرنسية. وكما استعار عبارة من اللسان الأوروبي فقد استعار قطعة من اللباس من نفس المصدر، ياقة كثيفة عالية بدت غريبة مع ثيابه العربية. كان ثمة عدد ضئيل من الدروز الذين يحتسون القهوة في المضافة، وشخص أدركت منذ الوهلة الأولى أنه غريب. وقد تبين أنه مدير مال الحكومة التركية، والحقيقة أنني لا أعرف وظيفته بالضبط، ولكن ضآلة سيماه توحي بعلاقته بالمال. وصلخد من ثلاث مدن في جبل الدروز (المدن الأخرى هي السويداء وعرى). في كل منها قائم مقام ومحطة برق. وقد دهش القائم مقام يوسف أفندي، ومدير المال ملحم إليان كثيراً عندما جئت من الصحراء بدون إنذار، أو إذن، وكانا يرسلان ثلاث برقيات يومياً إلى والي دمشق يذكران فيها كل ما أقوله أو أفعله، وهكذا وعلى الرغم من أنني كنت على علاقة جيدة مع كليهما، فقد وجدت أن ملحم هو الأكثر ذكاء وحسن تصرف في القرية كلها، وأنا أخشى أن أكون قد سببت لهما الكثير من التشوش الذهني. والآن دعوني أقل: إن تجربتي مع الموظفين الأتراك قادتني إلى اعتبارهم من بين أكثر الرجال أدباً وحسن تصرف، فإذا أنت تقدمت إليهم بالوثائق المناسبة فليس هناك شيء لا يقدمونه لخدمتك ومساعدتك، فإذا أوقفوك فذلك بسبب أنهم مرغمون على إطاعة الأوامر العليا. وحتى عندما تُهمل كما يجب أن يحدث بين فترة وأخرى فإن الرفض

يعرض بلغة استرضائية وكأنه غلطة. ويخفون انزعاجهم ولا يظهرون لك أي استياء من المتاعب التي سببتها لهم، ويشغل موظفو الحكومة في الجبل وضعاً ليس سهلاً على الإطلاق. صحيح أن هدوءاً قد ساد الجبل في السنين الخمس الماضية، ولكن الدروز شعب زئبقي التكوين سريع الغضب، وقد فهمهم ملحم جيداً. ووظفيته في مركز برق صلخد الجديدة دليل على رغبة الوالي الحقيقية بتجنب المشاكل في المستقبل. وقد خدم في السويداء عدة سنوات قبل المجيء إلى صلخد، وهو مسيحي ولذلك لا يعتبره الدروز على الطرف الآخر من الفجوة التي تفصل بينهم وبين الإسلام، وهو يعرف جيداً أن الحكم التركي في جبل حوران يعتمد على قلة المطالب من هذا الشعب التابع اسمياً للدولة والمستقل عملياً. ولم يكن يوسف أفندي بعيداً عنه كثيراً في قوة اقتناعه بهذه المسألة، وكان لديه أعظم الأسباب التي تجعله يعلم مقدار ضحالة سلطته.



٤٨ ـ قلعة صلخد

ولا يوجد أكثر من مائتي جندي تركي في جميع أنحاء الجبل، وهناك قوة من الشرطة الدرزية قد سُروا بلبس الزي الرسمي، وأخذ الرواتب الحكومية في الحالات النادرة التي تصل إليهم، ولذلك فهم لا يعدون قوة حكومية

يوثق بها في حال وقوع أي خلافات جدية بين شعبهم وبين السلطان. وحسب المظهر الخارجي فإن نسيب وأخيه يرتبطان بعلاقة صداقة جيدة مع القائم مقام، وهما يجلسان دائماً في مضافته يحتسيان قهوته، ولكن حدث ـ وكنت وحيدة معه ـ أن قال بصوت مثير للشفقة بعربية مختلطة بالتركية: أنا لا أعلم ما يبيتون، وهم يعدونني عدوًا لهم، وإذا أرادوا أن يعصوا أوامر دمشق فإنهم يقطعون أسلاك البرق ويمضون بدون وجل، وليس لدي أي قوة تستطيع أن تمنعهم.


٤٩ ـ نسيب الأطرش

وعلى أي حال هناك إشارات تدل على أن شعب الجبل المتمرد هذا قد صرف فكره إلى أمور أخرى بعيداً عن الحرب مع العثمانيين. ومن بين أهم الأمور، الطواحين المائية التي تطحن القمح في صلخد وفي بعض القرى المجاورة، والرجل الذي يملك طاحونة مائية مضطر للمحافظة على النظام، فقد كلفه بناؤها مبالغ محترمة وهو لا يريد أن يراها مخربة من قبل الجيش التركي، مضيعاً رأسماله، بل على العكس من ذلك فهو يأمل أن يربح من ورائها بعض المال. وقد وجد نشاطه المتواصل منفذاً مفيداً في هذا الاتجاه. وفي رأيي أن السلام قد استقر على قواعد أكثر ثباتاً مما كان قبل خمس سنوات. وأن الحكومة العثمانية لم تكن بطيئة في تعلم الدروس من الحرب الأخيرة. ولو علم والي دمشق كم كانت إجراءاته الحديثة مواتية ومقدار

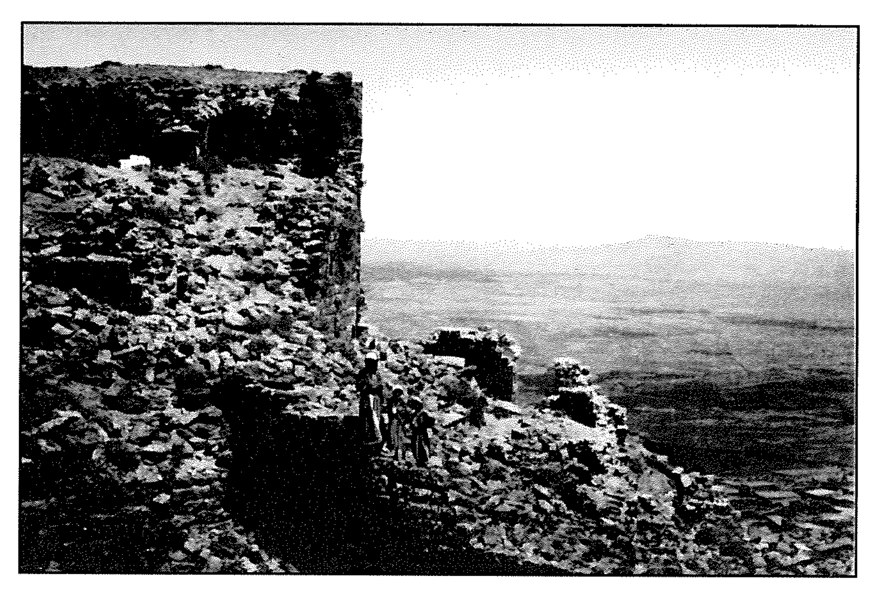
تأثيرها في تفكير هذه المرأة الإنكليزية المخادعة لكان وفر على عمال البرق الكثير من ساعات العمل.



٥٠ ـ جماعة من الدروز

من النادر الحصول على مثال عن الحرية التي يدير بها الدروز شؤونهم أفضل من ذلك الذي حدث أمامنا في مساء وصولنا إلى صلخد، كان قد ألمح سابقاً حسب شهادة فندي أن العلاقة بين الصحراء والجبل مفعمة باحتمالات حوادث القتال المعتادة، ولم يمرّ عصر ذلك اليوم في صلخد حتى اكتشفنا أن الغزو الذي حدث قبل عدة شهور كان الموضوع الرئيسي الذي يشغل نسيباً وأخاه، وليس ذلك الذي تحدثا به معي. ولكنهما أصغيا بانتباه عندما تحدثنا عن الغزو على عشيرة الحسانية، والدور الذي أداه الصخور في هذا الغزو.

واستخلصوا منا كل ما نعرفه أو نخمنه، مثل مكان مضارب الصخور الحالية، ومن أي مسافة جاء الغزو وبأي اتجاه انسحب الغزاة. كما همس البغالة على رأس الرجال في زوايا الشارع، وكان همسهم عن الاستعدادات للحرب. والمجموعة التي تجلس حول نار ميخائيل، وهي دائماً مركز نشاط اجتماعي حول الأذيات التي لا يمكن تحملها، أو السماح بمرورها وكأنها غير موجودة



٥١ ـ منظر الجنوب الشرقي كما يبدو من قلعة صلخد

وقد جلب أحد أبناء عم محمد الدرزي العديدين إلى البيروتي الجائع مع غداء منكه بتلميحات سوداء حول تحالف غير رسمي بين وادي السرحان وبني صخر الذي يجب أن يكبح قبل أن ينضج ويتخذ نسبة من الخطر. ولا يمكن أن تصل موجة الغزو صلخد إلا بصعوبة كبيرة، ولكن الأذى قد يفعل كثيراً بالأرزاق قبل أن يمس الإنسان، وهذه النقطة على جانب من الأهمية وخصوصاً في الشتاء عندما تكون كل ذوات الأربع باستثناء الخيول بعيدة في السهول الجنوبية.

تم نصب مخيمي في حقل خارج البلدة عند أقدام الجهة الشرقية لقلعة صلخد، كانت المنحدرات الشمالية مغطاة بالثلج حتى أسوار القلعة المخربة، وحتى في مكان نزولنا كان ثمة بقع من الثلج المتناثرة، ساقتها الرياح وهي تتألق تحت ضوء القمر. كنت قد أنهيت عشائي تواً، وأخذت أحدث نفسي فيما إذا كان يتعين علي أن أكتب مذكراتي في هذا الطقس الشديد البرد، عندما سمعت أهازيج وحشية مزقت صمت الليل. واندلعت نار عظيمة قرب أعلى نقطة في أسوار القلعة، إنها نار الإنذار قد اشتعلت لتحذر من مجيء الغزو إلى القرى الدرزية المتعددة المتناثرة على السهل أسفل القلعة، والأهازيج دعوة للسلاح. وكان ثمة شرطي جالس بجانب نار مخيمنا، وقد قفز على قدميه وحملق فيَّ في البداية، ثم بوهج النار أعلى القلعة. فقلت: «هل تعطوني إذناً في الصعود إلى القلعة؟».

قال: «ليس هناك مانع! شرفينا!».

وتسلقنا معاً فوق الطين نصف المتجمد من الجهة الشمالية المثلجة من البركان، جاعلين طريقنا في الظلام حول أسوار القلعة، حيث رماد اللابه ينهار تحت أقدامنا. ثم برزنا في ضوء القمر الكامل لنطل على أكثر المناظر التي يمكن أن تراها العين وحشية. جمع من الدروز، شباب وأولاد واقفون على حافة الخندق على شريط ضيق من الهضبة. كانوا جميعاً مسلحين بالسيوف والمدى، وكانوا يهزجون عبارة وراء عبارة بأصوات مفزعة. كان كل مقطع منها يعاد عشرين مرة أو أكثر، حتى يبدو للسامع وكأنها قد التصقت كما يلتحم الحمض بالنحاس في الأعماق الداخلية للعقل.

عليهم.. عليهم.. يا الله.. يا ربنا يوقعوا أعداءنا لنحصدهم بسيوفنا..

عليهم.. عليهم.. لتشرب حرابنا من قلوبهم!

لنجعل الرضيع يترك ثدي أمه!

والشاب ينهض ويروح!

عليهم عليهم يا الله يا رب تشرب سيوفنا من قلوبهم!

هكذا كانوا يهزجون، وبدا وكأن ثورة غضبهم لن تنتهي أبداً. وكأن أسوار القلعة لن تتوقف عن ترداد صدى غضبهم اللامتناهي، والليل لن يعرف السكون مرة أخرى. ثم توقفت الأهازيج فجأة وتفرق الهتافون، ثم عملوا دائرة بحيث أمسك كل رجل بيد جاره، ووقف في داخل الدائرة ثلاثة شبان بيدهم السيوف وأخذوا يدورون بخطوات واسعة حول دائرة الشباب المحيطين بهم، وكانوا يقفون أمام كل فتى من فتيان الدائرة ويهزون سيوفهم ويصرخون..!

هل أنت رجل طيب؟ هل أنت رجل حقيقي؟

وكل شاب يجيب.. «ها.. ها..»

وسقط ضوء القمر على الوجوه السمراء، منعكساً على السيوف المشرعة، وأخذت حرارة الجو الحربي الملتهب تنتقل من يد إلى يد، والأرض تصرخ باتجاه السماء: الحرب، الحرب الحمراء.

ثم شاهدني أحد الشبان الثلاثة أقف في الدائرة فخطى نحوي بسرعة وأشرع سيفه فوق رأسه، كما لو كانت أمّة تحيي أمّة «يا سيدة..» قال: «الدروز والإنكليز شعب واحد».

وقلت: «شكراً لله ونحن أيضاً شعب محارب».

وفي الواقع وفي مثل تلك اللحظة، يبدو الأمر وكأنه لن يكون هناك أمتع من أن تذهب وتقتل عدوك.

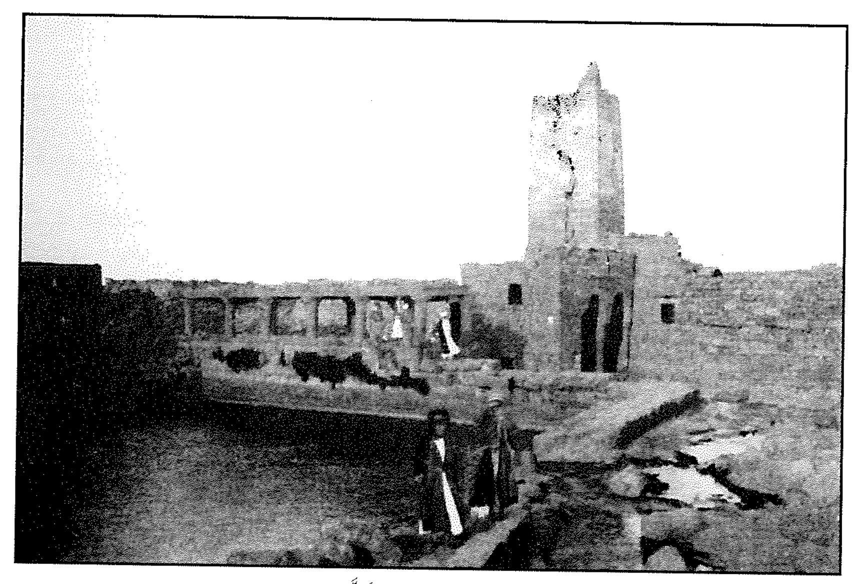
وعندما انتهت عهود المحاربين نزلنا الهضبة تحت ضوء القمر والأيادي مازالت متشابكة، وقد لاحظت أن بعض المشاركين كانوا أطفالاً صغاراً لم يبلغوا سن الجدعنة بعد. وقد سألت رفيقي الذي كانت يده ممسكة بيدي: «هل سيذهب كل هؤلاء الأطفال معكم؟».

«بالله.. ليسوا جميعاً.. الأولاد الصغار يجب أن يبقوا في البيوت ويدعون الله أن يأتي اليوم الذي يكبرون فيه ليذهبوا للحرب».

عندما وصلنا إلى مدخل البلدة، صعد الدروز إلى سطح أحد المنازل، وبدؤوا بأهازيجهم الشيطانية مرة أخرى، وأشعلت النيران على أسوار القلعة، وأصبح الليل بارداً على نحو مفاجئ، وبدأت أشك فيما إذا كان ملحم ووالي دمشق يمكن أن يتصوراني مشتركة في مظاهرة عسكرية مع الدروز ضد الصخور ويبقون على الاعتقاد ببراءة رحلتي. ولذلك تراجعت إلى الظل وركضت هابطة باتجاه مخيمي، وعدت أوربية مرة أخرى. وانكببت على عمل سلمي غير ملم بالعواطف البدائية المجردة للكائن الإنساني.

كان لدينا تساؤلات معينة لنجعل لرحلتنا معنى، وأن نُخزن مواداً تموينية قبل أن ننطلق إلى الجهة الشرقية للجبل حيث لا توجد قرى كبيرة ولذلك فقد قضينا يومين في صلخد، والصعوبة الكبيرة في موضوع التموين هي مشكلة الشعير للحيوانات. كان ثمة مقادير كافية منه في قرية أم الرمان،

ولكـــن لا يوجـد منه شيء في صلخـــد. ويجب دائمـاً الذهـاب إلى الســويداء لتأمين ذلك، وفي السـويداء المركز الرئيسي للحكومة التركية والطريق إليها بعيدة عبر التـلال، ولذلك فقـد قررنا أن نرسل إلى متـان حيث الطريق إلى هناك خالٍ من الثلج. ومن المهم أن نسـجل أنه في الشتـاء عندما تكون جميع قطعان الأغنام بعيدة عدة ساعات في السهول، يصبح من المستحيل الحصول على رأس من الغنم في الجبل ويصبح الرحالة مضطراً لأن يتدبر أمره بشيء آخر مثل تلك الفراريج الهزيلة التي يمكن أن يجدها. وقد أثر قصر النظر في العواقب ـ الذي جعل مخزن لحومنا فارغاً ـ على ميخائيل بشكل كبير. كان يتباهى بما عود نفسه على أكل شواء أفخاذ الضـأن وكان يتساءل كيف أن كل الكتب التي جلبتها معي لم تلمح إلى غياب الحيوان الذي يمكن أن يسد مسده مقدماً نفس الطعم الشهي. وقد أجبت أن كُتاب هذه الكتب أكثر اهتماما بالآثار الرومانية من الاهتمام بمثل هذه القضايا الخطيرة الشأن كاللحم



٥٢ ـ قرية القريّه

المشوي وصنوف اليخنة. حيث أجاب بحزم: «عندما تكتبين فخامتك كتاباً يجب أن لا تقولي: هنا توجد كنيسة جميلة، وقلعة كبيرة. فالسادة الذين سيقرؤون الكتاب يرون ذلك بأنفسهم، ولكن يجب أن تقولي: في هذه القرية لا يوجد دجاج، فعند ذلك سوف يعرفون من البداية أي نوع من البلاد هي».

قضيت اليوم الأول من زيارتي مع نسيب أراقبه وهو يصدر الأوامر من أجل طحن القمح اللازم من أجل الحملة العسكرية القادمة (الأمر الذي تجنبنا الإلماح إليه بإصرار) مصورة إياه والوجهاء من قريته. وتغدينا معه في مضافته خبزاً مرقوقاً مثل الورق بني اللون ومبرغلاً مع الدبس. «وهو نوع يشبه دبس السكر مصنوع من عصير العنب المغلي»، ونوعاً مقرفاً من الحساء المصنوع من اللبن الحامض ممزوج بفتات من الدهن يطلق عليه الدروز اسم (قرق Kirk) وهم يحفظونه ويقدرونه كثيراً.

وسافر نسيب بعد الظهر لمسافة عشرة أميال إلى الجنوب ليحل خلافاً بين قريتين من أتباعه. ودعاني لاصطحابه ولكنني فكرت أنه ربما كانت هناك قضايا أخرى آنية يمكن أن تكون مزعجة إذا كان على الغريب أن يطلب العون، وسويت المسألة بالموافقة على السير معه مدة ساعة ثم أنحرف جانباً لأصل إلى مزارٍ على قمة أحد التلال لولي الله الخضر الذي (ليس هو إلا مار جرجس). وركب نسيب في موكب مكون من عشرين رجلاً مسلحاً إلى جانبه. وقد ارتدى على نحو مترف معطفاً طويلاً من قماش أزرق غامق طرز بخيوط سوداء، مع حطة زرقاء فاتحة ثبتت بطيات التربان الأبيض المحيط بطربوشه. وبدا موكب الفرسان رائعاً، وكان كل الرجال يلتفون بعباءاتهم ويضعون بنادقهم على ركبهم، وقد ناولوني البنادق الواحدة تلو الأخرى لأقرأ الكتابة المكتوبة على

كل واحدة. كانت من أصول مختلفة، ومصنوعة بتواريخ مختلفة أيضاً، بعضها قديم بطل استعماله، مسروق من الجنود الأتراك، ومعظمها الآخر فرنسي حديث على نحو معقول، وقليل منها مصري قد نقش عليه الحرفان (V.R.) ذو حربة مسطحة. وركب نسيب معي بعض الوقت وأخذ يسألني عن طبقتي الاجتماعية، وعما إذا كنت أركب بمركب بريطاني، وما مقدار ثروة أبي. ولم يكن فضوله خالياً تماماً من الغرض. فقد كان الدروز يأملون دائماً في إيجاد دولة أوربية غنية يستطيعون أن يعتمدوا على تعاطفها، وتستطيع أن تمولهم وتسلحهم في أي حرب أخرى يمكن أن تندلع بينهم وبين السلطان. وقد عبرت إجاباتي عن الوضع المزري لأهليته في هذا المجال، لأني شعرت بالتحريض لأسأل من ثم وبطريقة أكثر مناورة من طريقة نسيب، عن مقدار الثروة في الجبل. وكان الجواب إن أغنى الطرشان هو حمود أمير السويداء، ويبلغ دخله خمسة آلاف ليرة فرنسية. ولم يكن دخل نسيب يبلغ هذا المقدار، إذ لا يتجاوز الألف ليرة فرنسية سنوياً، ربما كانت في معظمها على شكل محاصيل. وتأتي كل الدخول المالية من الأرض وتختلف على نحو معتبر حسب طبيعة السنة الزراعية.

وفجأة نزل نسيب عن جواده وانشغل بمحادثة هامسة مع رجل عجوز هو مستشاره الرئيسي، بينما تجمهر الباقون حولي وأخبروني حكايا عن الصحراء، وعن وجود خرائب كثيرة في الجنوب، وعن استعدادهم لمساعدتي في رؤيتها إذا بقيت معهم، وشاهدنا في سفح التل مجموعة من الخيالة، وقد أخبروا نسيباً بعض الأخبار الهامة حول العرب. ووقفت وميخائيل جانباً ننظر إلى مضيفنا وهو ينظر إلينا بارتياب من زوايا عينيه. كان كل ما سمعناه أن التيار لا يمشي على نحو ملائم، ولا يستطيع أحد أن يعرف ذلك من وجه

نسيب الماكر الجامد الملامح، و من عينيه اللتين تخفيان تحت جفنيهما ما لا يريد أن يظهره، وكأنه يريد أن يكون واثقاً من عدم خروج بريق واحد منهما يمكن أن يكشف أفكاره. وهنا تركناه لنجدته الحربية الواضحة وصعدنا إلى التل. الآن وفي هذه المنطقة لا يوجد تلال بارزة في جبل الدروز، فيما عدا وجود ملاجئ في قممها، والأبنية كلها من ذلك الطراز الذي يعود إلى ما قبل مجيء الدروز أو الأتراك إلى المنطقة[1]. ترى ما هو تاريخ هذه الملاجئ أو الملاذ.

هل أقيمت لإله الصخر والهضاب النبطية روزيرا واللات، أو مجمع آلهة سامية كتلك التي يعبدها عرب الصحراء ويتقربون إليها بأضحياتهم في الكعبة[2]. وفي العديد من التلال المنعزلة؟ فإذا كان ذلك كذلك فإن هذا يعني أن الآلهة القديمة مازالت مسيطرة تحت أسماء أخرى، وما تزال تشم رائحة دماء الماعز والأغنام وهي تتناثر على عتبات أبواب مساكنهم السوداء، وما تزال تسمع صلوات حجاجهم وهم يحملون أغصان الأشجار، وباقات الزهور، وكما هو الحال في ولي الله الخضر، يوجد دائماً في داخل الحرم المقدس نصب

(١) الحقيقة أنه لم تحدث هجرة تركية إلى العالم العربي، وبقيت البلاد العربية تحت الحكم العثماني الإسلامي محافظة على هويتها القومية، ولم يكن هناك فروق بين مواطني الدولة العثمانية، وكان تنقل الأفراد وسكناهم في أرجاء الدولة العثمانية يتم بشكل فردي وحر. والأفراد العرب الذين نزحوا إلى هذا الموضع أو ذاك من أجزاء السلطنة طُبعوا بطابع سكانه فاستتركوا أو استكردوا أو أصبحوا ألبانا أو بوسنيين أو يونان. والأتراك الذين سكنوا في البلاد العربية أصبحوا عرباً ، ولم يكن ثمة تمييز عرقي أو عنصري كما تريد أن توحي المؤلفة، وما يسمى بالجيش التركي لم يكن جيشاً تركياً، بل لا نغالي إذا قلنا أن معظم عناصره في البلاد العربية، كانوا من العرب أو الأكراد أو الشراكسة دون تفريق فالجميع إسلام، أما الدروز فقد كانت عوامل مذهبية تحول دون امتزاجهم بباقي السكان الذين كانوا في كثرتهم الساحقة من السُنّة بصرف النظر عن العرق. (المترجم).

(٢) لا يقدم العرب أو المسلمون أضحياتهم في الكعبة أو على الحجر الأسود، وحديث المؤلفة على هذا الشكل يعكس جهلاً أو تجاهلاً بالشعائر الإسلامية. (المترجم)

مثل الناووس مغطاة بمزق من الخرق الملونة وعندما ترفع القماش الملون وتحدق تحته فسوف تجد بعض الحجارة البركانية أصبحت ملساء بسبب إراقة دماء الأضاحي على هذه الحجارة أسوة بأخيها الحجر الأسود في مكة[1]. وفي القرب في متناول اليد ثمة حوض ماء حجري، كان الماء متجمداً في الحوض في ذلك اليوم كما أن الثلج اندفع إلى الداخل عبر الباب الحجري وذاب من خلال السطح. ولذلك فقد تجمع على شكل بركة موحلة على الأرض.

كان اليوم التالي بارداً على نحو أكبر بكثير، مع سماء رصاصية اللون ورياح قاسية تنذر بالثلج. وأتى ملحم اليان يدعوني للجوء إلى منزله، ولكني رفضت مخافة أن أشعر ببرودة خيمتي الشديدة قياساً بغرفته الدافئة. وبقي



٥٣ ـ فلاحون دروز

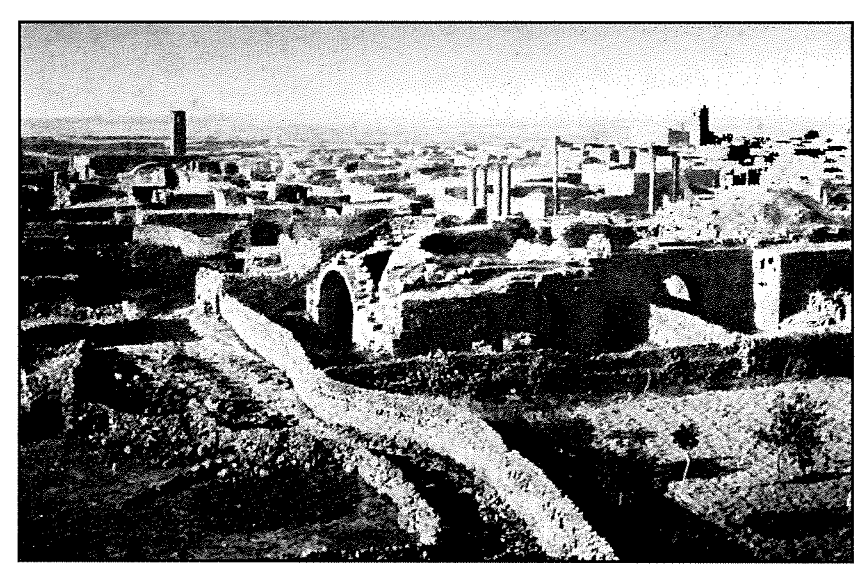
(١) لا يقدم العرب أو المسلمون أضحياتهم في الكعبة أو على الحجر الأسود. وحديث المؤلفة على هذا الشكل يعكس جهلاً أو تجاهلاً بالشعائر الإسلامية. (المترجم)

لبعض الوقت واغتنمت الفرصة لأناقش معه خطتي في الركوب إلى الصفا وهي القفر البركاني الواقع إلى الشرق من جبل الدروز. ولم يشجعني على الإطلاق، وقد فكر في الواقع أن اختراقها في الظروف الحالية مستحيل؛ لأنه يبدو أن قبيلة الغياث وهي القبيلة التي تقطن الصفا في حالة عصيان مسلح ضد الحكومة، فقد كمنوا للبريد الصحراوي الذي يذهب من دمشق إلى بغداد ونهبوه، ويتوقع أن ينالوا عقوبتهم على يد الوالي، وإذا أرسلوا معي حراسة صغيرة من الدرك فإن الغياث سيمزقونهم إربا. وقد وافق ملحم على أنني أستطيع أن أذهب وحيدة مع حرس من الدروز؛ لأن أي اعتماد على الجيش غير مفيد إطلاقاً. وقد وعد أن يعطيني رسالة إلى محمد الناصر، شيخ الصالح الذي وصفه بأنه صديقه الشخصي، وأنه رجل حكيم وذو نفوذ، وعلى نحو مشابه كان وضع الغياث مع الدروز كما هو حال الجبيلية، فهم لا يستطيعون أن يكونوا على علاقة سيئة مع الجبل، حيث إنهم يعتمدون على الرعي في مرتفعاته في الصيف.

رددت الزيارة لملحم حوالي غياب الشمس، كانت غرفته مليئة بالناس بما في ذلك نسيب الذي عاد للتو من حملته العسكرية. وقد طلبوا مني أن أخبرهم عن تجاربي الحديثة عن الوضع في الصحراء، وقد وجدت أن كل أصدقائي هناك على علاقة سيئة مع الدروز، وأن الأخيرين ليس لديهم حلفاء إلا قبيلة الغياث والجبيلية. فالشرارات والدجا وبني حسان بينهم جميعاً وبين الدروز الكثير من الدماء، في الصحراء تأتي كلمة عدو (كَوم) بعد كلمة ضيف. أما في الجبل فإن كلمة عدو تأتي دائماً في المقدمة.

قلت: يا نسيب يشبه الدروز أولئك الذين عناهم قُريط بن أُنيف عندما يقول:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طــاروا إليــه زرافـات ووحـــدانا



٥٤ ـ بصرى اسكي شام

واسترخى الشيخ الهادئ الماكر مرة ثانية، ولكن الكلام كان قد انحرف إلى موضوعات خطيرة جداً، وسرعان ما نهض بعد فترة وجيزة وذهب، وسرعان ما حل محله ضيف آخر (إن دلة قهوة ملحم تبقى مغلية على النار منذ فجر اليوم إلى ساعة متأخرة من الليل). وبعد قليل دخل شخص نهض الجميع لتحيته والترحيب به، كان القادم كرديش آغا وهو رجل عجوز ظريف بشارب أبيض وذقن حليقة نظيفة، وهو يأتي من دمشق بين فترة وأخرى لقضاء بعض أعماله، وكان ملحم من مواطني دمشق وكان لديه الكثير من الأسئلة التي يود سماع الإجابة عنها. وتحول الكلام عن الموضوعات المرتبطة بالصحراء وأخذ يتقافذ حول سكان المدن وطرق حياتهم ووجهات نظرهم.

«انظري فخامتك» قال الرجل الذي يصنع القهوة فوق كانون النار:«لا يوجد تدين في المدينة مثلما هو في الريف».

«نعم» عقب ملحم.

«الله ينعم عليك» هتف الكردي فجأة.

«الله يكافيك يا آغا قد تشاهد عدداً من الرجال في المسجد الكبير في دمشق أثناء صلاة الجمعة. وعدداً أقل في بيت المقدس، ولكن في بيروت وأزمير المساجد خالية وكذلك الكنائس، فليس هناك دينٌ أبداً.

قال كرديش آغا: يا أصدقائي أنا سوف أخبركم السبب، في الريف الناس فقراء وهم معوزون كثيراً، فممن يطلبون العون إن لم يطلبوه من الله؟ فليس هناك من هو شفوق بالفقراء إلا هو. أما في المدينة فالناس أغنياء، وهم يحصلون على كل ما يريدون، فلماذا يصلون للإله، في حين أنهم لا يريدون شيئاً؟.. إن فخامتها تضحك.. أليس الوضع مماثلاً في بلادها؟.

واعترفت أنه لا يوجد إلا فروق ضئيلة بين الوضع في أوربا والوضع في آسيا، وتركت ـ حالاً ـ الجماعة ليتابعوا شرب قهوتهم وأحاديثهم دون وجودي معهم.

أتى شخص في وقت متأخر من الليل وطرق عليّ باب خيمتي وسمعت صوت امرأة تناديني.

ـ يا سيدة.. يا سيدة.. قالت «أليس الإنكليز عطوفين؟». أصغ إلى قلب أم حزينة وخذي هذه الرسالة إلى ولدي، وسألت المتوسلة غير المرئية أين يمكن أن يكون ابنها؟.

«في طرابلس.. في طرابلس الغرب، إنه عسكري ومنفي ولا يستطيع أن يعود مع الآخرين بعد الحرب.. خذي هذه الرسالة وأرسليها مع يد أمينة من دمشق لأنه لا يوجد بريد موثوق في صلخد.؟»

وفتحت طرف الخيمة وتناولت الرسالة. فتابعت بصوت عال: «لقد أخبرتني زوجة نسيب أنك نبيلة.. قلب الأم.. أنت تفهمين قلب الأم الحزين..!»

وأرسلت الرسالة مع البريد الإنكليزي من بيروت، ولكننا لا نعلم إذا كانت ستصل إلى طرابلس الغرب أو إلى الدرزي المنفي ولن نعلم.

جاء القائم مقام لزيارتنا قبيل سفرنا في صباح اليوم التالي، وأمدنا بشرطي درزي ليدلنا على طريق صالحة. كانت الرياح باردة على نحو لاذع، وقد تحدثوا عن أن الثلج قد يوجد على نحو مرتفع جداً على التلال. ولهذا السبب أخذنا في مسيرنا طريق قرية عرمان، وهي قرية ذكر أنها كانت ساحة للقتال في الحرب الأخيرة بين الدروز والحكومة العثمانية. كان ملحم يثق بدليلنا يوسف فأعطاه الرسالة التي وصلت مع البريد الذي كان قد وصل إلى صلخد قبل وصولنا بقليل، وكانت كل ما يحمله وهي مرسلة إلى المسيحي الوحيد الذي يقطن عرمان، وقد قابلناه خارج القرية. وكانت الرسالة مرسلة من ولاية مساشوستس في الولايات المتحدة من أحد أولاده الثلاثة الموجودين هناك، وكانوا قد أرسلوا له على نحو مشترك ثلاثين ليرة في السنة قبل الماضية. وقد طغى عليه الفرح وشعر بالفخار عندما أعطيناه الرسالة التي تحتوي أخباراً جديدة عنهم. وفي عرمان يتجه الطريق نحو الارتفاع. وأنا لا أزال أدعوه طريقاً رغبة في إيجاد اسم يعبر عنه على نحو كاف. إنه نوع من النظام الدرزي في الدفاع الذي يقتضي عدم وجود مسلك في الجبل، ذي

عرض يتسع لسير شخصين، أو ممهدا بما يكفي ليسير فيه الإنسان بدون أن يتعثر وهذا هو الجزء الأكثر نجاحاً في الخطة الدفاعية. وسرعان ما أصبحنا بين الثلوج نصف مبللين، نصف متجمدين. وكان الثلج يختبئ في وهاد الطريق ولكن هذه الوهاد ليست صلبة بما يكفي لتحمي الحيوانات من الوقوع فيها. وكنا نصادف ما بين فترة وأخرى جروفاً عميقة فتصعدها البغال بكل ثقة لتسقط في منتصف الطريق مبعثرة حمولتها على الأرض. على حين كانت الخيول تقتحمها وثباً حتى لتكاد تسقطنا عن ظهورها. وقد وقع ميخائيل - الذي لم يكن خيّالاً ماهراً - في الثلج عدة مرات.

لقد سمح صانعوا خريطة اكتشاف فلسطين لخيالهم أن ينطلق حراً في وصف المنحدرات الشرقية لجبل الدروز. فقد قفزت بعض التلال مسافة أميال، وعبرت قرى الوديان الشديدة الانحدار واستقرت على الاتجاهات المعاكسة لحواف الوديان. وكمثل على ذلك، فإن قرية أبو زريق الواقعة على يسار وادي الراجل قد وضعوها في الخريطة على اليمين. وقد بدا كل شيء مع الوقت كما لو أننا في ذلك اليوم من رحلتنا مقبلون على ارتكاب خطأ كبير. وقد تتوجت مأساتنا عندما دخلنا حقل ثلج لا متناه، تقوم بمسحه عاصفة ثلجية من المطر المتجمد الجارح. وفي نهاية الرحلة الغامضة التي بدت قصية بعيدة المنال استطعنا أن نرى من خلال ندف الثلج المتساقط المتجمد المنحدرات التي تقع عليها صالة. واقتربنا من خلال كفاحنا ميلاً بعد ميل (كان من غير المجدي ركوب الحيوانات التي كانت تتعثر في هذا الطريق الثلجي الوعر إضافة للبرد الشديد) من هدفنا بعد أن سرنا سبع ساعات في طريق يمكن قطعه في أربع ساعات، وشققنا طريقنا في الوحل والرذاذ حتى وصلنا

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم عبر تلال من الثلج نصف الذائب والبرك التي قامت بواجبها كشوارع. ولم يكن ثمة أي مكان جاف في جميع أرجاء القرية. وكان الثلج يتساقط بكثافة. ولم يكن هناك مجال لعمل أي شيء سوى قرع باب محمد النصر الذي كان يمتلك سمعة مشرفة بكرم الضيافة. وعملت جهدي حتى صعدت درج مضافته المغطى بالجليد.

إذا كانت العناية الإلهية سوف تعوضنا عن متاعب اليوم فقد عوضتنا أو عوضتني على الأقل مقداراً من المتعة فاق ما أستحقه وزيادة من خلال المساء الساحر الذي قضيته في منزل الشيخ محمد النصر. وهو رجل حكيم عركته السنون، وقد امتد به العمر ليشاهد عائلة كبيرة من أولاده وأبناء إخوته وأخواته يكبرون ويتكاثرون حوله، وليشذبوا ذكاءهم اللماح بكياسته وعظيم مثاله. الدروز كلهم مهذبون على نحو متميز، ولكن نبل عائلة شيخ صالة لا يقاس فقط بحسن النشأة أو الخلق الطبيعي أو المكتسب، أو بأنبل أرستقراطية الأعراق الفارسية أو الراجبوتية، أو أي شيء آخر خارج ذواتهم، ولم تكن رسالة ملحم ضرورية لأحظى بكرم الضيافة. لقد كان كافياً أن أكون بردانة وجائعة وإنكليزية. كانت النار مشتعلة في الموقد الحديدي، وأخذوا أرديتي الخارجية المبللة، ومدت البسط ووضعت الوسائد فوق الديوان تحت إشراف الشيخ وتوجيهاته، وأتى جميع أقربائه القريبين والبعيدين ليشاركوا في بهجة المساء. لقد كانت البداية جيدة، وكنت أعرف أن أوبنهايم قد أخذ حراسة من صالة عندما ذهب إلى الصفا، وقد صدف وكان كتابه معي. وكم شعرت بالأسف لأن غريزة الحكمة لم تلهمني لاختيار مجلدي داسو الرائعين بدلاً من اختيار كتاب أوبنهايم الممل المحتوي على معلومات قليلة القيمة

وعديمة النفع في رحلتي الحالية. وميزة هذا الكتاب العظيمة هو وجود عدد من صور النقوش فيه، وكذلك صورة محمد النصر مع ولديه الأصغر لحسن الحظ. وحيث إنني كنت قد لخصت خرائط كيبرت فقد أظهرت كرمي الزائد بإعطاء جزء منها إلى أحد أفراد العائلة الذي كان قد رافق العالم الألماني في



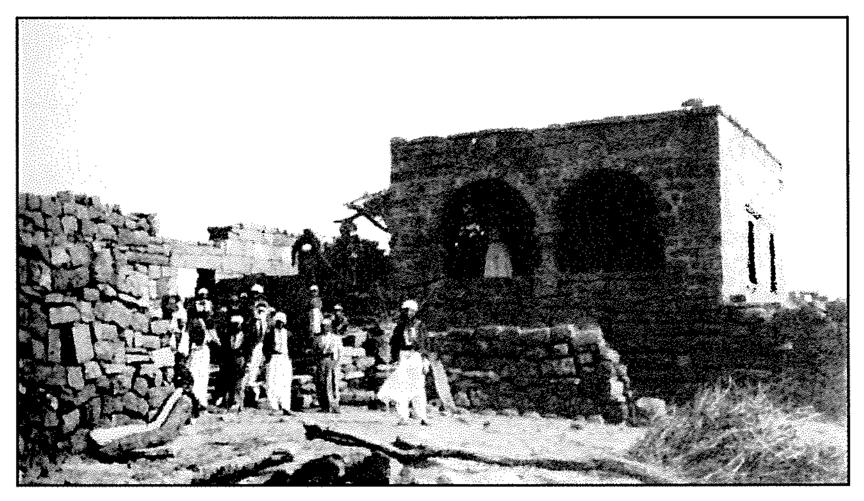
٥٥ - بوابة قرية حبران

بعثته الأثرية. وقد بقيت في صالة لتكون متعة ومجداً للمشايخ الذين سوف ينظرون إلى الصور دون أن يحاولوا تلمس طريقهم إلى النص. وقد سدت الثغرة في رف كتبي بالتذكر بمتعتهم.

وواصلنا الحديث طوال فترة المساء دون انقطاع مع توقف قصير أدخل أثناءه عشاء فاخر. وأكلنا أنا والشرطي والشيخ سوية، وأكل المقدار الكبير الباقي الكبار من أبناء الأخ أو الأخت وأبناء العم. وكان الموضوع المستحوذ على الاهتمام في صالة هو الحرب اليابانية. وفي الواقع كان اتجاه المحادثة يدور على نحو مغاير في الجبل، والسبب أن الدروز يعتقدون أن اليابانيين ينتمون إلى عرقهم[1]. وخط المناقشة أو المحاجة الذي قادهم إلى هذه النتيجة المدهشة بسيط. فالكتب السرية الخاصة بهم تتحدث عن آمال بأن جيشاً من الدروز سوف ينطلق من أبعد نقطة من آسيا ويحتل العالم. وقد أظهر اليابانيون في الحرب الأخيرة شجاعة لا تقهر، والدروز شجعان أيضاً، وقد انتصر اليابانيون، ونبوءة الدروز تقول: إنهم لن يُغلبوا، ولذلك فإن الطرفين يُعدان واحداً ومن الجماعة نفسها، وعواطف كل إنسان سواء في سوريا أو في آسيا الصغرى مع اليابانيين، مع استثناء وحيد متمثل بالطائفة المسيحية الأرثوذكسية التي تنظر إلى روسيا باعتبارها حامية لها. ويبدو من الطبيعي أن تشعر الحكومة العثمانية بالبهجة لمشاهدة هزيمة عدوتها المزمنة، ولكن من الصعب تفسير فرح العرب والدروز (بصرف النظر عن تنبؤات الدروز السرية

(١) ذكرت المؤلفة كلمة عرقهم أو عنصرهم، والواقع أن هذا مخالف للواقع، فالدروز يعتزون بعروبتهم اعتزازاً كبيراً، ولا يمكن أن يخالج أحد منهم شك أنهم يلتقون بأي حال من الأحوال مع العنصر الياباني. أما موضوع العقيدة فهو أمر فيه نظر وغير بعيد من خلال الجهل الذي كان مسيطراً في مطلع القرن، وهو الذي يفهم من سياق حديث المؤلفة. (المترجم)

التي ذكرت أعلاه). والأكراد الذين بينهم وبين الأتراك حب مفقود. فهذه الشعوب غير ميالة للشعور بالسرور لهزيمة أعداء السلطان الذين يشاركونهم المشاعر نفسها تجاهه. في الأساس يوجد - دون شك - نوع من الغموض، والحافز الطبيعي للعطف على الرجل القتيل ضد الكبير المتنمر المستأسد، ووراء كل ذلك، هناك الرابطة الغريبة الصعبة التصنيف فيما عدا اسم القارة والحرب التي تروق للآسيويين؛ لأنه ضد الأوربيين، مهما كانت رغبتك بالاحتجاج بأن روسيا لا يمكن اعتبارها نموذجاً للمدنية الأوربية. وعلى أي حال من الممكن أن



٥٦ - دروز في مضافة حبران

تكون قانعاً بعمق أن اليابانيين لم يظهروا إلا اهتماماً ضئيلاً بالأتراك أو بالدروز، وكان اهتمامهم بسكان بحر الجنوب والإسكيمو أكبر، ولكن نداء آسيا للآسيويين أو الشرق ينادي الشرق قد تردد صداه من بحر الصين حتى البحر المتوسط.

وتحدثنا حول الأتراك، وكان الشيخ محمد من بين من نفوا بعد الحرب بين الدروز والسلطان من الجبل، فزار إستنبول، كما شملت خبراته آسيا

الصغرى ولذلك يمكن أن يكون مؤهلاً لأعطاء رأي معقول حول صفات الأتراك، بتقييم عشوائي للطريقة التي يدير بها التركي معظم مصالحه. إن نقل جملة من مشايخ الدروز بالقوة وإرغامهم على العيش مدة سنتين أو ثلاثة في مدن بعيدة عن بلادهم قد وضعت حداً لما كان يمكن لبعد النظر في فن إدارة الحكم أن يفعله عبثاً. فالرجال الذين لم يبتعدوا قط أكثر من خمسين ميلاً عن قراهم قد تعلموا بالقوة بعض المعلومات عن العالم الخارجي، وقد عادوا ليمارسوا كما اعتادوا من سابق سلطاتهم نصف مستقلين، ولكن عقولهم عرفت على مضض الانطباع عن مدى سعة البلاد التابعة للسلطان. ومصادر إمكاناته اللانهائية، والمقارنة بعدم أهمية الثورات الدرزية في إمبراطورية ما تزال حية، مع أنها مرتبطة في جميع المنازعات الدولية.

وقد قنع محمد تماماً بأن هناك عالماً خارج حدود الجبل الضيقة، بحيث حاول أن يدفع اثنين من أولاده الستة خارج عالم الجبل المحدود فأرسلهما إلى دمشق حيث وضعهما في أحد المكاتب الحكومية هناك. وقد فشل رغم كل حكمته التي وضعها في أذنيهما. فالولدان كانا سميكي المخ، وقد أدت عقلية الشباب المهمل مع التعنيف القاسي من رئيسهم إلى رجوعهم إلى القرية، حيث يستطيعون أن يصبحوا شيوخاً مستقلين نموذجيين ومحترمين.

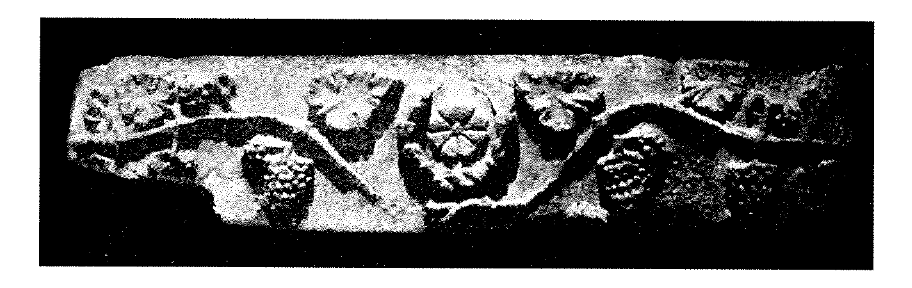
وقد اشترك محمد في جريدة أسبوعية تصدر في دمشق، وقد تابعت كل العائلة بأقصى درجات الاهتمام أخبار السياسة الخارجية، والبريطانية منها بشكل خاص باعتبارها هاربة من قلم الرقيب، وتغيب بعض الأخبار الهامة عن ملاحظتهم، كما قد تغيب عن محرر الجريدة. ولذلك فقد سأل مضيفي عن اللورد (سالزبوري) وقد حزنوا كثيراً عندما أعلمتهم أنه قد توفي قبل سنوات. والاسم الآخر الذي كانوا يعرفونه بالإضافة إلى اللورد كرومر الذي كان

معروفاً دائماً وفي كل مكان هو السيد (تشمبرلان). وعند هذه النقطة ثارت مناقشة حامية في المضافة الدرزية حول مالية الحكومة، وقد تم شرحها بإسراف من قبلي مع أمثلة مأخوذة من مصلحة الجمارك. ولعل حججي كانت أقل كشفاً للتناقض من تلك التي يطرحها معظم التجار الأحرار التي يمكنهم وضعهم من طرحها. لأن كل أهل صالة رفضوا مبادئ الحماية والمقابلة بالمثل المجمع عليه (لا يوجد هنا حل وسط).

كان ثمة نقطة واحدة لم تحظ بقناعة تامة بالنسبة للجميع وكانت قضية رحلتي إلى حرة الصفا، وكان لدي شك قاس بأن رسالة ملحم التي سلمت إليَّ مختومة بحيث لم أكن أستطيع قراءتها، كانت مثل الرسالة التي سلمها (بروتس) لـ (بليروخون) عندما أرسله إلى ملك ليشيا، وفيما إذا كان الشيخ محمد قد أمر بأن يتم إعدام حامل الرسالة فور وصوله. كان قد أوصى بقوة بعدم تشجيع حدوثها. وعلى أي حال فقد كان من رأيه أن البعثة لا يمكن إنجازها إلا إذا اصطحبت معي عشرين درزياً على الأقل كحرس. الأمر الذي يحتاج إلى تحضيرات كبيرة ونفقات، الأمر الذي أرغمني على نبذ الفكرة.

وسُئلت في الساعة العاشرة عن الساعة التي أرغب أن أذهب إلى النوم فيها، وبكدر واضح بالنسبة لتلك الجماعة التي لم تركب طوال النهار قلت: إن الوقت قد حان، وخرج الأبناء والأحفاد وجلبت لحف محشوة وكومت على ثلاث فرش واحدة في كل جهة على ديوان ضخم واندسسنا كل في فراشه أنا والشيخ ويوسف، ولم أعد أشعر بشيء حتى نهضت من النوم في وقت مبكر من الفجر على البرد القارس. ونهضت وخرجت من الغرفة استنشق الهواء النقي. وتنام صالة بعمق تحت الثلج حتى الجدول الذي يتدفق خارج النبع

الروماني في وسط القرية نام تحت معطف سميك من الجليد. وراقبت في سكون البرد النقي، السماء الشرقية حمراء وشاحبة، والشمس التي أرسلت شعاعاً طويلاً من الضوء فوق حقل الثلج الذي كنا نناضل فيه البارحة. وأرسلت تحية شكر قصيرة للطقس الملائم. وأيقظت البغالة والبغال الذين كانوا يستريحون في أقبية الخان المعتمة، وتناولت طعام الفطور الذي قدمه محمد النصر، وودعتهم جميعاً وداعاً طويلاً مع أعظم الشكر على ضيافتهم ولم أحظ باستراحة ليلية، ولا بصحبة شيقة ملائمة في أي من رحلاتي في السهول والجبال كما حظيت بهذه الليلة في صالة.



٥٦ ـ عتبة في الخربة

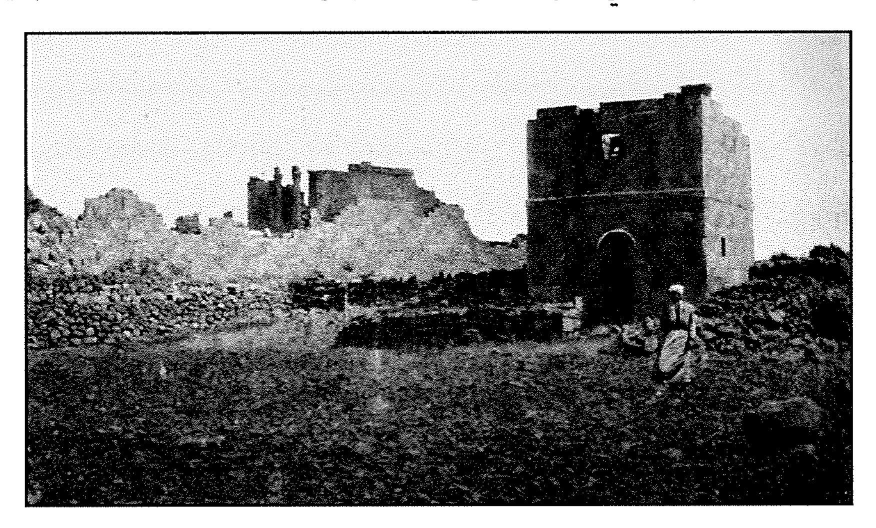


الفصل السادس:

كان هدفي ذلك اليوم هو قرية أم الرويق على الحافة الشرقية لجبل الدروز، وتذكرت أخطاء وتقلبات الخريطة، فأخذت معي أحد أحفاد محمد النصر كدليل، ـ واسمه فايز ـ وهو أخو كيشكاش شيخ أم الرويق. وكنت قد اخترته في الليلة الماضية حيث كان العضو الأكثر كياسة في حلقة المضافة. ولم تغير رفقتي معه التي استمرت أربعة أيام من نظرتي هذه ولم أشعر بأي أسف لهذا الخيار. وهو رجل ملامحه لا تثير الإعجاب فأنفه معقوف، وفمه ملتوٍ وأنت لا تستطيع أن تستخلص أي شيء من النظرة المستقيمة المستقرة في عينيه، وسلوكه مهذب على نحو متميز ولطيف ويتحدث بذكاء. وهو جيد النصيحة والمأخذ. ولم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن حافة الهضاب، وجعلت أنظر إلى السهل الشرقي وكأنه الأرض الموعودة التي لن تطأها قدماي، وذلك قبل أن يكشف فايز عن خطة تقضي بأن نترك البغال والخيام في أم الرويق، ونخطف رجلينا عبر حرة الصفا إلى الرحبة حيث توجد خربة أثرية عظيمة أضرم وصفها النار في مخيلتي. وبثانية واحدة تغيرت ألوان العالم، وظهر النجاح في السماء الزرقاء، وتعلق بضباب ذهبي فوق ذلك السهل الذي أصبح دخوله في المتناول.

كان طريقنا ينحدر انحداراً قوياً من صاله باتجاه السهل، وخلال نصف ساعة من السير كنا خارج منطقة الثلج والصقيع الذي كان يضربنا البارحة ليل نهار. وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا إلى وادي بوصان، حيث كانت المياه المنحدرة بسرعة تدير طاحوناً. وهكذا تركنا أرض الشتاء خلف ظهورنا، وقد

بدت صالة الواقعة إلى الشمال من وادي بوصان منطقة مزدهرة، وتحتوي على عينات جيدة من الفن الهندسي المعماري الحوراني، أذكر بشكل خاص عتبة فوق باب نُقش عليها درج مزدوج من عناقيد العنب، وأوراق الكرمة التي تنحدر من على جانبي مزهرية تشغل مركز العتبة الحجري. وعلى أطراف صالة قدمنا إلى حافة السهل العظيم، ورأينا حرة الصفا تنبسط مثل بحر تحت أقدامنا. والوجه الغريب فيها، هو أن سطحها يبدو أسود مثل سطح بيت شعر أسود، ويعود ذلك إلى ملاءة اللابة البركانية وحجارتها البازلتية السوداء التي كانت منتشرة فوقها. وكان ثمة بقع صفراء في بعض الأماكن التي اكتشفت فيما بعد أنها التربة التي تكومت فوقها الأحجار المسامية قد انكشفت بغياب



٥٧ - أسوار القنوات

هذه الأحجار على نحو عرضي. ويطلق العرب على هذه الأرض اسم البيضا نقيضاً لاسم الحرة أي أرض الحجر المسامي واللابة المحترقين. والأرض البيضا في حرة الصفا جرداء مثل أرض اللابة، مع أن كلمة بيضا تعني غالباً الأرض الصالحة للزراعة، ولذلك فقد سمعت فايزاً يصرخ بالبغالة ابعدوا عن

البيضا .. وذلك عندما دخلت البغال في حقل مزروع بالقمح. وهذا لا يمكن أن يعني حرفياً على أي حال قول المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وتمتد الصفا ككتلة سوداء من البراكين تنبسط من الشمال إلى الجنوب ولكننا كنا على ارتفاع كبير فوقها بحيث لم يكن بالإمكان إدراك مقدار ارتفاعها. واستطعنا أن نرى مرة أخرى البيداء الواسعة الامتداد خلفها حيث سهل الرحبة، وإلى الجنوب والشرق، وفي السهل العظيم الممتد حتى الأفق تحدد فوهات بركانية قليلة العدد جداً نهاية بروزات الحمم في حوران، وبداية سهل الحماد، وهو الأرض الصحراوية الخالية من المياه، والتي تمتد حتى بغداد. وإلى الشمال هناك توجد الهضاب المحيطة بقرية الضُّمَير. وأبعد من ذلك إلى الشمال ثمة سلسلة أخرى تحيط بواد عرضه عشرة أميال يقود إلى تدمر. كما تمتد هذه الهضاب نحو الخلف حتى منحدرات لبنان الشرقية ذات الرؤوس المغطاة بالثلوج والتي تشرف على الطريق المؤدي إلى حمص. ثم نتجه شرقاً إلى شبيكة وهي موقع غريب لافت للنظر مبني فوق واد تتكون حافته الشمالية من مجموعة من الكهوف تشبه قرص العسل. وإلى الشمال إلى الشخلي والرامة على الحافة الجنوبية لأعمق أخدود وهو ما يطلق عليه اسم وادي الشام حيث تقطنه أبعد القرى المسكونة إلى الشرق وهما قريتا الفضامة والجعتا، والمستقرات البشرية على هذه الجهة من الجبل لها قيمة أثرية كبيرة. فالقرى الكهفية ربما كانت تعود إلى الفترة ما قبل زمن الأنباط، وربما كانت تعود إلى ما قبل تاريخ الملك أوج الغامض، أو إلى الشعب الذي سمي باسمه

عندما كانت كل المدن تبنى تحت الأرض، والمثل الأشهر على هذا الطراز من البناء مدينة درعا في حوران الواقعة إلى الجنوب من مزيريب، وتركنا المشنف إلى الغرب ليس بدون أسف من جهتي، إذ لم يكن لدي وقت لمشاهدته حيث يعكس صهريجه الكبير أحد أكبر المعابد سحراً في جبل الدروز من دون استثناء آثار بلدة قنوات الرائعة. وتجشم العجلة إلى شمال وادي الشام على قمة تل عال، بحيث يلامس خط ثلج شهر شباط، وثمة واد آخر يهبط منه باتجاه الصفا. وقد سمعت عن وجود خربة أثرية ونقوش في مجراه السفلي ولكنني لم أزرها، ووصلنا إلى أم الرويق حوالي الساعة الرابعة ونصبنا خيامنا على حافة رف الجبل، حيث كنت أستطيع من خلال باب خيمتي المفتوح أن أشاهد كل امتداد حرة الصفا.



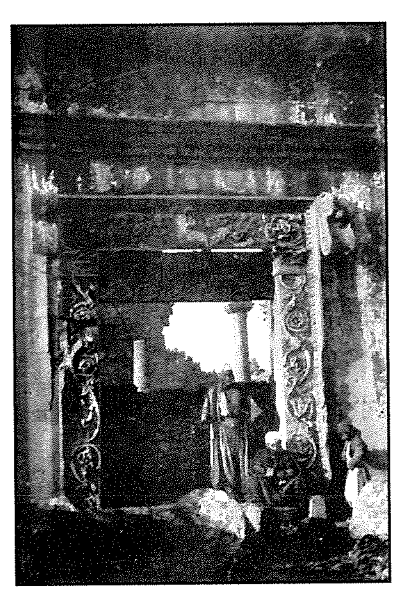
٥٨ ـ باسيليكا قنوات

كان الشيخ كيشكاش كله ابتسام، وكنت أستطيع طبعاً أن أركب إلى الرحبة لو أخذته مع ابنيه أحمد وفايز معي في هذه الرحلة. وسخر من فكرة عدد

الحرس الكثير. ولوجه الحق كان الغياث خدمه وحلفاءه وسوف يستضيفونا مثلما يجب أن يستضاف النبلاء ويقدمون لنا أفخم المأوى، وتغديت معه (لم يقبل أي رفض) واستخلصت إلى أنه سريع الغضب ومغرور وأحمق، كثير الكلام على الرغم من أن كل ما يقوله لا يعادل جملة واحدة تخرج من فم فايز. واحتفظ فايز بصمت نسبي بين جماعته، كما لم يتحدث أحمد إلا قليلاً، ولكن هذا القليل كان حساساً ويستحق السماع. وروى كيشكاش حكايا كثيرة حول الصفا وما تحتويه والزبدة التي يستخلصها الإنسان، إضافة لموضوع الخرب الأثرية المعروف من سابق هو عدم وجود أي شيء يستحق الذكر قبل مسيرة يوم كامل شرقاً بعد الرحبة، حيث تجد هناك مقلع حجارة وحصناً مخرباً يشبه الحصن الأبيض في الرحبة الذي سوف نذهب إليه، إلا أنه أصغر ومخرب أكثر، وخلف ذلك يمتد الحماد حيث لا مساكن ولا رجوم، وحيث يجبر أكثر العرب شجاعة على هجره في الصيف بسبب خلوه نهائياً من الماء. وذهب فؤادي إلى الحصن الغامض الواقع إلى الشرق من الرحبة، والذي لم يزره حسب اعتقادي أي من الرحالة. ولكنها رحلة بعيدة المدة ومن الصعب إنجازها ارتجالاً بدون تحضير مسبق. «وعندما تعودين مرة أخرى يا سيدتي» نعم عندما أعود، ولكني لا أستطيع أن أعتمد في فرصة المستقبل على ضيافة الغياث الرائعة الفخمة.

وبعد مناقشة قررت أن يرافقنا ميخائيل وحبيب وكان أخذ الأخير قد تم بناءً على طلبه. فسوف يركب بغلته المفضلة. قال: وسوف تستطيع أن تجاري بالخطو أي فرس وأن تحمل إضافة إلى ذلك البسط والبطانيات وخمسة فراريج سوف نأخذها معنا دعماً لضيافة الغياث. وكان لدي فروة من جلد

الغنم حزمت خلفت سرجي وآلة تصوير ودفتر ملاحظات، كالعادة موضوعان في خرجي، وهبطنا منحدرات الهضاب الشاهقة لساعة من الزمن والتحق بنا ثلاثة من الخيالة الدروز أثناء السير، واكتشفت فوراً أن الشيخين قد أضافوهم إلى الحرس المتعاقد معهم. ولكني امتنعت عن أي تعليق، كان أحد الثلاثة قريباً لكشكاش واسمه خطاب وكان قد سافر مع (اوبنهايم) وبرهن عن صحبة مفيدة، وعبرنا أرض كشكاش المفلوحة ثم هبطنا المنحدرات البور تقريباً والتي تؤمن مراعي كافية لأغنامه التي يرعاها العرب. ودخلنا عند سفح الهضبة وادياً محجراً حيث صادفنا قليلاً من الخيام محاطة بقطعان أكبر ترعى عشاءها بين جلاميد الصخور. وبعد ساعة من السير في الوادي المتمعج بين الصخور دخلنا إلى فسيح حرة الصفا المقفرة. وهي في معظمها منبسطة ولكن ليس بشكل تام.



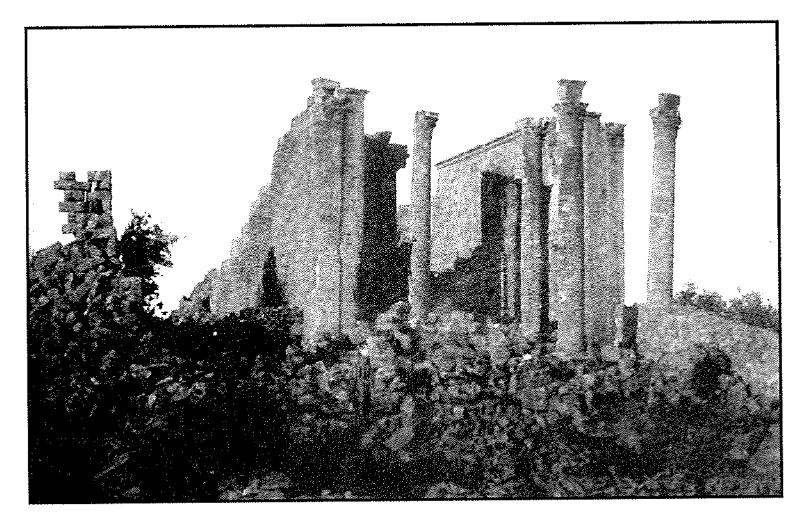
٥٩ ـ قنوات مدخل الباسيليكا

ويتكسر سطحها بتموجات صخرية قليلة الارتفاع ولكنها عميقة بما يكفي إغلاق المنطقة في وجه الفارس في المنخفض، بحيث أن الفارس قد يسير ساعة أو أكثر دون أن يرى شيئاً سوى خط سماوي من الحجر الأسود أعلى من رأسه بقليل وعلى الجانبين. وللتمعجات مخطط نظامي. فهي تشكل أودية خالية من الماء لكل واحد منها اسم عند العرب. وتغطي كتل الأحجار البركانية المسامية كلاً من الوديان والحواف بسماكة تختلف وتتراوح

بين ستة بوصات إلى قدمين أو أكثر. ويلاحظ الإنسان حيثما يوجد فسحات بين هذه الصخور التربة الصلبة الصفراء المكونة من الرمل البحري الملون الممتد تحت هذه الصخور، واندفعت أعداد كبيرة من شجيرات ضئيلة الحجم شقت طريقها بين الصخور كالحماض والشيح والحجانة، كما قد تبعثرت بينها هنا وهناك أعشاب إبرة الراعي الدقيقة والثوم النجمي وأوراق الخزامى. وبشكل عام ليس هناك فسح أو مسافات كافية بين الصخور لنمو أرفع النباتات ساقاً لأنها جد متقاربة. وهي سوداء ناعمة ليس لها حواف كما لو كانت مصقولة بالمياه الجارية، وعندما تشرق الشمس يلتمع الهواء فوقها كما يتوهج فوق صفيحة من المعدن المصهور، أما في الصيف فإن المقارنة يجب أن تتم مع شيء أكثر توهجاً من المعادن لأن الحرارة القاسية لا يمكن تحملها تقريباً. ويجب أن يكون قطع الصفا في الصيف صعباً إذا لم يكن من أجل حرها فمن أجل الممرات الدقيقة التي لا تحصى وتتقاطع متشابكة في داخلها. يكون الراكب غير عارف فيها في البداية فهي صغيرة وهزيلة. وتأخذه الحيرة حالاً بسبب وجود عدد كاف من الفسحات أمامه يستطيع الحصان أن يخطو من خلالها فيكتشف أنه يسير على طريق. لقد مرت مئات الأجيال على أقدامها مندفعة بين الصخور البركانية المسامية حتى لو كانت المسافات بينها ضئيلة جاعلة السفر ممكناً عبر هذا القفر من الصخور.

ومررنا قرب وهدة تدعى غدير الفرز وصادفنا بعد ساعتين رجلاً يلبس أسمالاً اسمه قلب الله. وقد سر كثيراً لرؤيتنا وتصرف كما لو كان صديقاً للعائلة منذ سنين عديدة (منذ ثمانين سنة يجب أن أعتقد) وقد دهش كثيراً عندما اكتشف وجودي بين الخيالة. وقد زالت دهشته عندما سمع أنني إنكليزية ولكن هذا لم يغير شيئاً من تصرفه، ولكن عقله لم يستطع استيعاب

أسماء وأنساب الأغراب. وقد أخبرنا أن ثمة ماء في الجوار وأن خيام بعض البدو لا تبعد عنا أكثر من مسيرة ساعتين. وأن خطة كشكاش تسير بسلام. ويجب أن ينعم بالسلام الغريب السائر برفقته. وقد كذب في موضوع وجود خيام العرب أو أننا لم نستوعب ما قاله، أما بالنسبة للماء فقد وجدنا بركة موحلة تغدينا بجانبها وتقاسمنا ذلك مع قطيع من الجمال. لا يوجد ماء في الصفا صالح للشرب وفقاً للقوانين الأوربية. كما يصح الأمر نفسه في جبل الدروز فلا توجد ينابيع في الجبل.



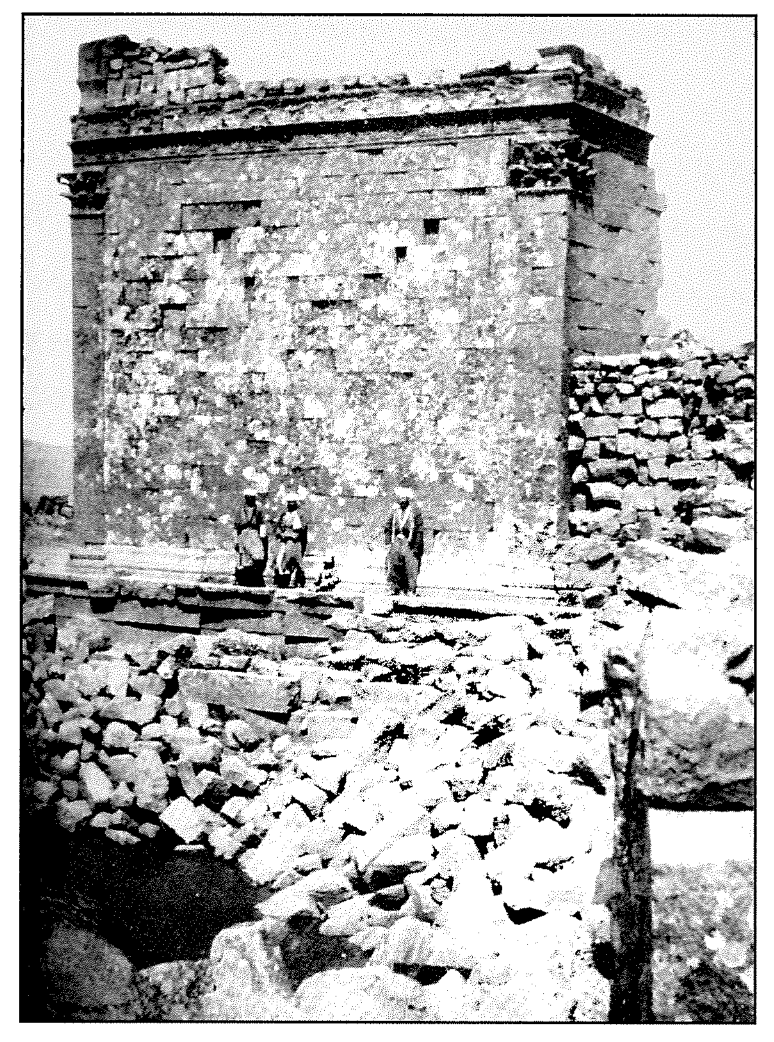
٦٠ ـ معبد قنوات

فالماء يتجمع في صهاريج مكشوفة، ويجب أن يعد الرحالة نفسه محظوظاً إذا لم يطلب منه أن يشرب من الماء الذي شاهد البغال والجمال تتمرغ فيه. وفي أفضل الظروف ملاءمة من المؤكد وجود شوائب ثقيلة وجزيئات غريبة لا تزول بالغلي ويمال إلى الظن بأنها ـ نسبياً ـ غير ضارة. والشاي الذي يعمل بهذه المياه له قوامه الخاص ونكهته الخاصة، ويشبه لونه لون القهوة العكرة، ويترك رواسب في قعر الكأس. ويحمل ميخائيل جرة من الفخار فيها ماء

مغلي من أجلي من مخيم إلى مخيم. وقد أجبره هذا الاحتياط الوقائي على رفضي الشرب من البرك والصهاريج التي يمكن أن نصادفها في طريقنا، ولم أجد صعوبة في اتباع نفس النظام في حرة الصفا. وكان هو والدروز والبغالة يشربون من الماء حيثما وجدوه سواء في الجبل أو الصفا، ولم تظهر عليهم أي أعراض مرضية. وربما كانت الجراثيم الموجودة في جرعاتهم الملوثة غير المبالية من الماء ذات فوعة قوية بما يكفي لتدمير بعضها.

وركبنا فوق الصخور المتتابعة، صخور بعد صخور، كما لو كانت صخور العالم كله قد اجتمعت هنا. وحتى كشكاش لزم الصمت أو تكلم فقط ليتساءل بعجب أين يمكن أن تكون خيام الغياث وارتأى خطاب بأننا عندما نصل إلى القنطرة سوف نجدهم، وأصغيت بانتباه شديد منتظرة أن أشاهد نوعاً من البناء ولكن القنطرة لم تكن إلا مرتفعاً صغيراً من الأرض أعلى قليلاً مما حوله وليس أقل صخوراً وكان هناك العديد من المرتفعات المشابهة لها، حيث ثمة مسلك في معظمها يقود إلى قمتها، حيث يزحف العرب على بطونهم ليراقبوا أعداءهم مختبئين خلف كومة من الحجارة السوداء قد أقيمت كمعقل دائم على القمة. وتجتاح الصفا في الصيف جحافل الغزاة. فتجوس خلاله قبيلة ضخمة مثل عنزة لتسدد ضربة إلى بعض أعدائها في الشمال أو الجنوب جارفين الغياث في طريقهم. وحيث لا يوجد الماء إلا في أماكن قليلة جداً في هذا القفر الصخري المتفاوت بدرجات الحرارة بين الليل والنهار فإن الغزاة شأنهم شان الغياث المتبقين في السهل ليس لديهم خيار إلا أن يرتادوا في الظلام برك الماء الموحلة نفسها. ويقضي الغياث أيامهم ليل نهار مطاردين مذعورين حتى تخرج القبيلة الكبيرة من الصفا متجهة مرة أخرى نحو الشرق إلى الحماد. ولم يكن هناك أي أثر لخيام يمكن رؤيتها من القنطرة. وبدا من

المحتمل أن نقضي الليل دون ماء بين الصخور تحت سماء جليدية، عندما صرخ خطاب قبيل غياب الشمس بنحو ساعة أنه استطاع أن يرى دخان مضارب بدو في الشمال الغربي، فعدنا مسافة كبيرة إلى الخلف إلى حيث أشار على شكل نصف قوس، ووصلنا إلى الخيام حوالي غياب الشمس بعد رحلة استمرت تسع ساعات. ومع عودة الماعز والجمال من مراعيها بعد يوم مجهد



٦١ ـ معبد المشنف

في الرعي كنا نسير باضطراب فوق الصخور. وكان منظر المخيم ضئيلاً وتعيساً على الرغم من أننا كنا في شوق كبير للوصول إليه.

كان كل ما تملكه عشيرة الغياث في الدنيا لا يصل ثمنه إلى مئتي ليرة ذهبية إلا بصعوبة. لم يكن لديهم شيء إلا خيامهم السوداء وعدد قليل جداً من الجمال ودلال القهوة، وإذا كان لديهم شيء آخر من سابق فقد أخذه غزو الصيف. كانوا يعيشون على الخبز فقط ـ الشراك وهو رقائق من الخبز تشبه الأوراق البنية ـ وهم يقضون طيلة أيامهم في التجول بين الصخور خائفين على أرواحهم عدا شهراً أو شهرين عندما يذهبون إلى جبل الدروز من أجل المرعى.

وتوزعنا لأننا كنا مجموعة كبيرة. وذهبت أنا وكشكاش وفندي إلى بيت الشيخ الذي كان اسمه فهيم، وأشعل ابناه محمد وحمد ناراً من الشوك وبعر الجمال الذي يدخن على نحو بغيض. وجلسنا حول النار نراقب صنع القهوة وتولى محمد الأكبر تلك المهمة. كان ماهراً في دق المهباج وكان يضرب لحناً رائعاً أثناء دق القهوة المحمصة في المهباج. كان وجهه أسمر ونحيلاً وكانت أسنانه البيضاء تلمع عندما يبتسم. وقد ارتدى ثوباً خفيفاً من القطن الأبيض وحطة قطنية تنزل من تحت عقاله المصنوع من وبر الجمال حتى صدره العاري.

وكان يتحدث من بلعومه على نحو تصعب متابعته. كان عشاؤنا من الخبز والدبس. كان الغياث فقراء جداً لا يستطيعون ذبح ماشية لضيوفهم. حتى ولو كانوا شخصيات هامة مثل كشكاش. كان في جوهره رجلاً أحمق. هندم نفسه وانتفخ غروراً وأخذ يمشط شاربيه الضخمين أمام نظرات إعجاب مضيفه

وتكلم بدون توقف حتى وقت متأخر من الليل، كلاماً سخيفاً فيما أظن أنا التي كنت مشوقة لأن يسمح لي بالنوم. كان لدي لحاف كغطاء وكان سرجي مخدة واضطجعت في زاوية قرب الساحة وهي القسم المقابل لقسم النساء. ومن حين لآخر كنت أستمع إلى محادثة ليست بالضرورة مهذبة على نحو خاص وفي أحيان أخرى كنت ألعن الدخان اللاذع. وحوالي منتصف الليل استيقظت على ضوء القمر المشرق وهو يرسل أشعة متلألئة حقيقية إلى قلب الخيمة.

كانت النار قد خبت في الأسفل والدخان تصاعد نحو الأعلى. وكان العرب والدروز قد ناموا حول الموقد البارد، وكان يقف فرسان بسكون قرب عمود الخيمة يحدقان بعيون كليمة بفارسيهما في الداخل وخلفهما جمل اضطجع بغباء بين الحجارة السوداء. كانت غرابة وجمال المنظر الساكن القديم قدم العالم قد أخذ بمجامع القلب وحفز الخيال حتى بعد أن خلد إلى النوم مرة أخرى.

وقبل الفجر نجح ميخائيل بعمل قدح من الشاي على لهب نار مناسبة من الشوك. وعندما كانت الشمس في أوائل أشعتها الذهبية كنا نركب جيادنا لأن أمامنا مسيراً طويلاً. وقد كسا «نور الله». السهل الأسود بملاحة بديعة، وألقت أشعة الشمس المنبسطة التي كنا نسير باتجاهها هالة من الذهب الوهاج على كل حجر.

ووقفت سلسلة التلال البركانية الشرقية بحدودها الواضحة المسننة مقابل السماء الصافية، وإلى الشمال الغربي تألقت الثلوج فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية وجبل حرمون على نحو لا يوصف فوق السواد اللامع لأرض الصفا المنبسطة أمامها. وانضم أحد العرب إلى مجموعتنا كدليل، وكان اسمه

عواد. كان يركب جملاً وكان يتحدث إلينا من ذلك الموقع المتميز بصوت أجش عال كما لو أنه يريد أن يجسر المسافة الكبيرة ما بين راكب الجمل وراكب الفرس. وكنا جميعاً نرتجف من البرد بسبب انطلاقنا في الفجر البارد، ولكنَّ عواداً أدار المسألة وحولها إلى نكتة فصاح من على ظهر جمله: «يا سيدة، يا سيدة، أتعرفين لماذا أنا بردان؟ لأن لدي أربع زوجات في البيت» وضحك الآخرون، لأن له سمعة كزير نساء صغير. وهكذا فإن ما يملكه من أموال يذهب لاستكمال نصاب حريمه وليس لملء خزانة ثيابه.

فكرت أنه يجب أن ندخل سريعاً غدير الفرز مرة أخرى. بعد مسيرة ساعتين عبرنا أرضاً مرتفعة قليلاً إلى الجنوب الغربي من تلول الصفا وهي خط المرتفعات البركانية وخببنا خيولنا عبر أرض منبسطة صفراء خالية من الحجارة على جانب لا بأس به من الاتساع ويطلق عليها اسم البيضا. وسرنا حتى وصلنا إلى الجهة الجنوبية من سرير اللابة.

كانت اللابة تقع على يسارنا ككابوس بحري أسود مريع، ولم تكن متجمدة تماماً كالخثارة. كما لو كان فزع خفي قد أوقف طوفانها وحفر خطوطاً من الخوف المقلص على سطحها. ولكن منذ زمن موغل في القدم رفعت يد قوية رأس غرغونة[1] قبل موجات تلول الصفا. وقد شكلت أشعة الشمس الحارقة والصقيع وتوالي الدهور المكونات الأصلية للحمم البركانية مصدعة سرير اللابة محطمة الجروف وطامسة المعالم الأصلية للتلال. وقد وطدت شجرة أو شجرتان من البطم لهما موطئ قدم في بعض الصدوع ولكني عندما مررت من

---

(١) الغرغونة: إحدى أخوات ثلاث في الميثولوجيا الإغريقية رؤوسها مكسوة بالأفاعي يتحول كل من ينظر إليهن إلى حجر. (المترجم)

هناك كانت هاتان الشجرتان مازالتا عاريتين ورماديتين ولم تخربا شيئاً من المنظر العام للقفر الخالي من الحياة. وبينما كنا ندور حول حدود الأرض الميتة أصبحت أعرف أنني أتبع مسلكاً قديماً قدم هذه الهضاب خيطاً رفيعاً من التاريخ الإنساني يقودنا مباشرة عبر الأرض الممنوعة. وطفق عواد يتحدث عن صخرة سماها «العبلة» وهي كلمة تعني صخرة بيضاء يمكن مشاهدتها من بعيد ولكني كنت قد اعتدت على سماع أسماء لا ترمز إلى شيء حتى أنني لم أعر المسألة أي اهتمام حتى أوقف جمله وصرخ:

يا سيده.. ها هي.. بوجه الله إنها العبلة..

لم تكن أكثر ولا أقل من حجرة بئر، وهي محاطة بثلم حبل بعمق بوصتين ويجب أن تكون قد استخدمت لوقت طويل وذلك أن هذه الصخور السوداء صلبة جداً، ولكن لا يوجد أي بئر على مسافة ميل من هذا الموقع. وعلى مسافة قريبة من الموقع كان يوجد كومة كبيرة من الحجارة ثم تتلوها كومة ثانية فثالثة. وهكذا كومتان أو ثلاثة في كل ربع ميل. وعندما دققت فيها أكثر اكتشفت أنها قد بنيت بناء، ولم تلق هكذا اعتباطاً. لقد تم فتح بعضها من قبل العرب الباحثين عن الكنوز.

وحيثما أزيلت الطبقات العليا تكشف فسحة مربعة قليلة العمق في وسط التلة تم بناؤها من أحجار نصف منحوتة. وقد قال عواد: إنه حسب معرفته فإن أحداً لم يعثر في هذه الأماكن على شيء يدل على ما كانت تحتويه في الماضي. وواضح أن هذه الكومات قد تم عملها لتدل على الطريق في هذا القفر الموحش. ووقف عواد مرة أخرى على بعد عدة مئات من الياردات من الصخور السوداء المستوية مع سطح الأرض كانت تشبه صفحتي كتاب مفتوح

حيث سجلت فيها مختلف الأعراق التي مرت من ذلك الطريق أسماءها على شكل خربشات رديئة يقول العلماء: إنها صفوية في اليونانية والكوفية والعربية[1]. وكان آخر هذه الخربشات هي نقوش أختام القبائل البدوية.

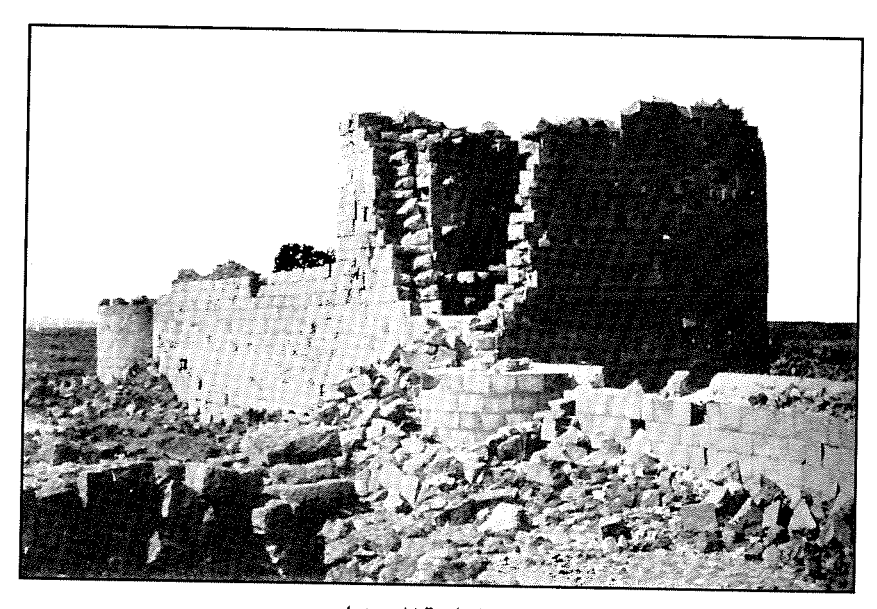
«من شريك بن نقفان بن نفيس بن نعمان» كان هذا أحد النقوش كما أن هناك نقشاً آخر «من بوخاله بن طعان بن أنعام بن رواق بن بوخاله»، ووجد عواد نقش عمه وكان مشوقاً لرؤيته. كما أن هناك نقشاً آخر لم أنسخه على نحو كاف بحيث أسلم بكشف معناه على نحو مؤكد، وربما كان محتوياً على اسمين موصولين بكلمة ابن وفوق كان عدد الأسماء سبعة سجلت على سبعة أسطر مستقيمة ترمز حسب تخيل داسو إلى الكواكب السبعة. وقد تم تهجئة النقش الإغريقي باسم «حنا لوس» التي تعني حنا، أو جون بالإنكليزية. وحنا كلمة سامية ربما كتبها كاتبها بخط غريب عندما كان يخدم في الجيش الروماني. والجمل الكوفية عبارة عن ابتهالات دينية تستنزل البركة على المسافر الذي توقف من أجل أن ينقشها. وهكذا ترك كل إنسان كلٌّ حسب جنسه ونوعه كتابته ورحل إلى غياهب الزمن. ولا نعرف بعد هذه الخربشات على الصخور السوداء أي شيء عن شخصية الكاتب أو جنسه أو تاريخ النقش. ولا عن الظروف التي قادته إلى غدير الغرز القاسي. وقد بدت العبارات وأنا أنسخها وكأنها تمتمات أصوات خافتة صادرة عن الأرواح الهائمة في الماضي المنسي ولن يستطيع اورفوس أن يسحر بقيثارته الصخور لتتحدث على نحو أكثر وضوحاً عن الأجيال الميتة التي مرت بها عبر تاريخها الطويل. إن الصفا جميعها ممتلئة بهذه الهمسات والظلال التي ليست إلا

(١) إن الخط الكوفي هو أحد الخطوط العربية وليس خط لغة أخرى (المترجم)

أسماء راعشة في هواء راعش فوق الصخور، تدعو الله بألسنتها الغائصة في غياهب الزمن.

ونسخت ما نسخته بسرعة لأنه لم يكن هناك وقت كبير لأضيعه ذلك النهار، كان الدروز يقفون حولي بنفاذ صبر، وكان عواد يصرخ «يا الله، يا الله يا ست» التي تعني (عجلي). وركبنا حتى الطرف الشرقي للصفا، ملتفين حول زاوية سرير اللابة وشاهدنا السهل الأصفر لمنطقة الرحبة أمامنا.

وقد بدا لي عندما نظرت إليه من قمم جبل الدروز كأنما يمتد مسافة بعيدة إلى الشرق، ولكنه بدا عندما وصلنا إليه لا يتجاوز عرضه نصف ميل وكان يمتد خلفه بحيرة رائعة الجمال من الماء السديمي المزرق. وارتفعت الصخور البركانية القليلة الموجودة إلى الشرق كجزر خارج البحر وقد سحرت في المياه الموجودة عند أقدامها.



٦٢ ـ القلعة البيضاء

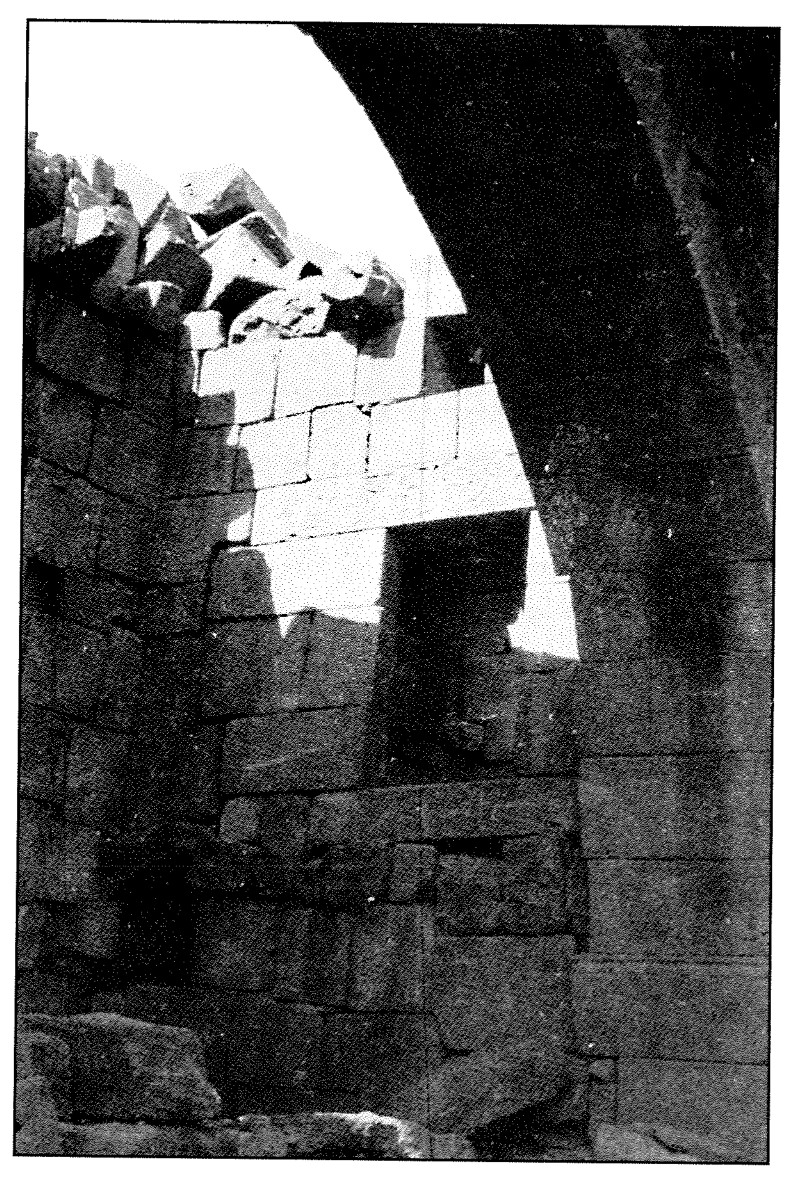
ولكن مع سيرنا باتجاه الغيض المائي إلى الداخل كانت شواطئه تتراجع أمامنا، لأنه لم يكن إلا سرابًا، حيث يخاله ضيوف حرة الصفا ماء ولا يزدادون بالسير نحوه إلا عطشاً ثم شاهدنا على حافة تلال اللابة برجاً رمادياً كان يرقد في السهل الواقع تحته مباشرة قبة مزار بيضاء، وكان هذا الموقع يدعى خربة البيضا، والمزار مزار الشيخ سُراق، وقد ورث الشيخ سراق موقعه كحارس للرحبة من زيوس سافاتينوس الذي كان بدوره الوريث المباشر للإله (إد)؛ إله الصفا الأكثر قدماً، كان عمله أن يرعى المحاصيل التي تنتجها الأرض المحيطة به والتي يزرعها العرب في السنين الخيّرة حيث تقطن روحه، وهو مقدس عند الدروز والمسلمين، وتتولى روحه رعاية عيد سنوي مَرّ قبل وصولي بأسبوعين.

والمزار مبني بالأسلوب الحوراني مع سقف حجري دُعم بأقواس متصلة، وثمة نقش فوق الباب أُخذ من خربة القلعة البيضاء.

واستطعت بشق النفس أن أبقى حيث رجالي مجتمعون هنا، وكنت مشوقة جداً لرؤية القلعة البيضا أو الخربة البيضا حيث يلفظها العرب على الوجهين، وتركت الدروز يلتمسون البركة من زيوس سافاتينوس أو من أيٍّ كان وخببت باتجاه حافة مصطبة اللابة.

كان ثمة منخفض عميق من الأرض يقع أمامها، وكان ممتلئاً بالماء إلى درجة أنني اضطررت إلى عبوره فوق جسر خشبي صغير نصب فوقه، وكان حبيب هناك يسقي بغلته، تلك البغلة التي تسابق الخيل، وعهدت إليه بحصاني، وأسرعت فوق صخر اللابة المتكسرة إلى داخل بهو القلعة. كان ثمة عربيان يمشيان الهوينا فيه، ولكنهم لم يعيروني إلا اهتماماً ضئيلاً مثلما فعلت أنا. هذه هي إذن القلعة الشهيرة حامية الأرض الميتة غير المسكونة، وحامية

الصفا ضد الحماد، لقد ارتفعت أسوارها المكونة من حجارة بيضاء رمادية فوق حجارة سوداء قد تم نحتها على نحو صقيل، المقر الشبحي القوي لعالم



٦٣ - قلعة البيضا

من الأشباح.. أيدي من تلك التي بنتها؟ من هذا الذي زين حُلاها الدرجية على أعمدة الأبواب والعتبات، عيون من تلك التي بقيت يقظى ساهرة على الأبراج، لا تستطيع أن تتمتع بأي يقين؟ هل تطلع حنا لوس وشريك وبوخالد إليها بينما كانوا يدورون حول زوايا وادي الغرز؟ وربما كان الإله (إل) قد شملها بحمايته، وربما رجعت بعض صلوات الشوافين إلى معبد بعيد، وقدمت إلى آلهة يونانية أو رومانية.. آلاف من الأسئلة التي لا جواب عليها تقفز إلى ذهنك وأنت تخطو عتبة القاعة.

وقد وصف دوفوج و اوبنهايم وداسو خربة البيضا، وأي إنسان ممن اهتم بأن يقرأ ما كتبوه يعرف أنها بناء مربع محاط بأربعة أبراج في زواياه الأربع ونتوءات مدورة بين الأبراج ودعامات مستطيلة قائمة على السور الجنوبي، وقد زينت بواباتها بتزيينات بارزة رائعة؛ حِلَى معمارية درجية أو أوراق وأزهار وحيوانات ترعى خلالها. وأنها ربما كانت قلعة حدودٍ رومانية بنيت ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين[1]، وتبقى الحقيقة بأننا غير متأكدين من أصولها أكثر مما نحن متأكدين من أصول الخرب القريبة منها في جبل سيس أو في المشتى أو أي بناء آخر قديم في الصحراء العربية. ثمة أمور متشابهة بينها جميعاً، كما إن ثمة اختلافات بيّنة، كما هو واضح من التشابه بين قلعة البيضا وفن العمارة في حوران.

وبعد.. أي نحات من نحاتي الجبل قد ترك لخياله العنان بحيث بز القواعد التقليدية في النحت؟ وذلك مثل ما فعل الرجل الذي نحت صور الحيوانات الصحرواية حول أبواب القلعة البيضاء؟ ثمة نقش غريب بعض

(١) لقد ثبت من التحريات الحديثة أن معظم هذه القصور والقلاع في البادية تعود إلى العصر الأموي. (المترجم)

الشيء عن أسلوب النحت في الجوار، وحشي محرر الخيال ليس ماهراً مثل ذلك النحات الذي نحت آثار قصر المشتى، ولكنه أقسى وربما كان أقدم. كلها أعمال خاضعة للتخمين. وقد تفشي الصحراء أسرارها إذا قرئت رسائل الصخور، وضُمَّ تاريخ الصفا والرحبة إلى بعضها ولكي يتم ذلك يحتاج الأمر إلى القيام برحلات أكثر في البداية وتنقيبات في الحدود السورية مع البادية وفي الحيرة وربما في اليمن.

ولكني أود فقط أن أقدم ملاحظة، وهي أن الأبنية الموجودة في قلعة البيضا لا يمكن كما هي عليه الآن أن تكون منتمية إلى نفس الفترة الزمنية، فالصيانة قد تمت في وقت متأخر عن تصوينة الأسوار بين البروج، على حين أن هذه الأبراج بنيت بالملاط مثل المعسكر الروماني في القسطل وفي قلعة الموقر فإن تصوينة الأسوار من حجارة خالية من الملاط تشبه تلك الأبنية السائدة في حوران كما أن في أسوارها حجارة منقوشة من المؤكد أنها قد وضعت في غير المكان الذي نحتت من أجله، وحتى الزينة حول باب القلعة الرئيسي كانت من حجارة مأخوذة من مكان آخر، والحجران المنحوتان الموضوعان في عتبة الباب العليا غير متوافقين مع بعضهما، كما أنهما غير متوافقين مع البوابة.

ولكن النتيجة الوحيدة التي أغامر بتسجيلها أن المقترحين حول أصل القلعة، واللذان قدمهما علماء الآثار، والذي يقول الأول منهما إنها معسكر روماني، والثاني الذي يقول إنها قلعة غسانية. قد يكون أيٌّ منهما صحيحاً.

وحافة نجد اللابة البركانية يرتفع عن السهل المجاور أقداماً قليلة، ويوجد على طول هذا الحاجر الدفاعي الطبيعي أبنية أخرى إضافة للقلعة البيضاء، ولكنها ليست بذات الأهمية؛ فقد بنيت أسوارها من أحجار التوفة

المسامية المربعة وضعت فوق بعضها بدون ملاط، على حين بنيت القلعة البيضاء من حجر رمادي، وبني قسم منها مع استعمال الملاط.

والبناء الوحيد الذي يرتدي بعض الأهمية من الأبنية التي زرتها يقع على بُعدٍ قليلٍ إلى الشمال قد سقف بالأسلوب الحوراني بأحجار مسطحة وضعت فوق أقواس مرسلة. وثمة أبراج صغيرة على مسافات متقطعة على طول سرير اللابة البركانية تشبه مخافر الحراسة تراقب الاقتراب من القلعة وقد بنيت هذه أيضاً بدون ملاط.

كان كل ما سمحنا به لأنفسنا بالتوقف والاستراحة ساعتين؛ وذلك لأنه كان علينا أن نكون على مرأى من مخيمنا قبل حلول الظلام؛ خوفاً من قضاء الليل بعيداً في حرة الصفا. وهكذا انطلقنا في اتجاه معسكرنا بعد التهام بقية الفراريج الخمسة التي اشتريناها من أم الرويق منكّهة بالبصل الحرّيف جداً الذي اكتشفه عوّاد في اللابة، ولم نسر أكثر من أربع ساعات في طريق العودة حتى رأينا الدخان المنبعث من نيران مخيمنا، فانطلقنا فوراً باتجاهه.

وقد قادتنا إليه سلسلة من الأحواز الحجرية الواضحة، وهذه الأماكن المفتوحة هي مراح قبيلة عنزة الذين كانوا قد اعتادوا أن يخيموا في حرة الصفا قبل أن يثبت الدروز أقدامهم في الجبل قبل قرن من الزمان [1].

وقد بقي مراح عنزة بيّناً يمكن رؤيته بعد أكثر من قرن، وربما سوف يبقى كذلك لعدة قرون أخرى. وثار في المساء هواءٌ باردٌ واضطررنا أن ندير الرواق

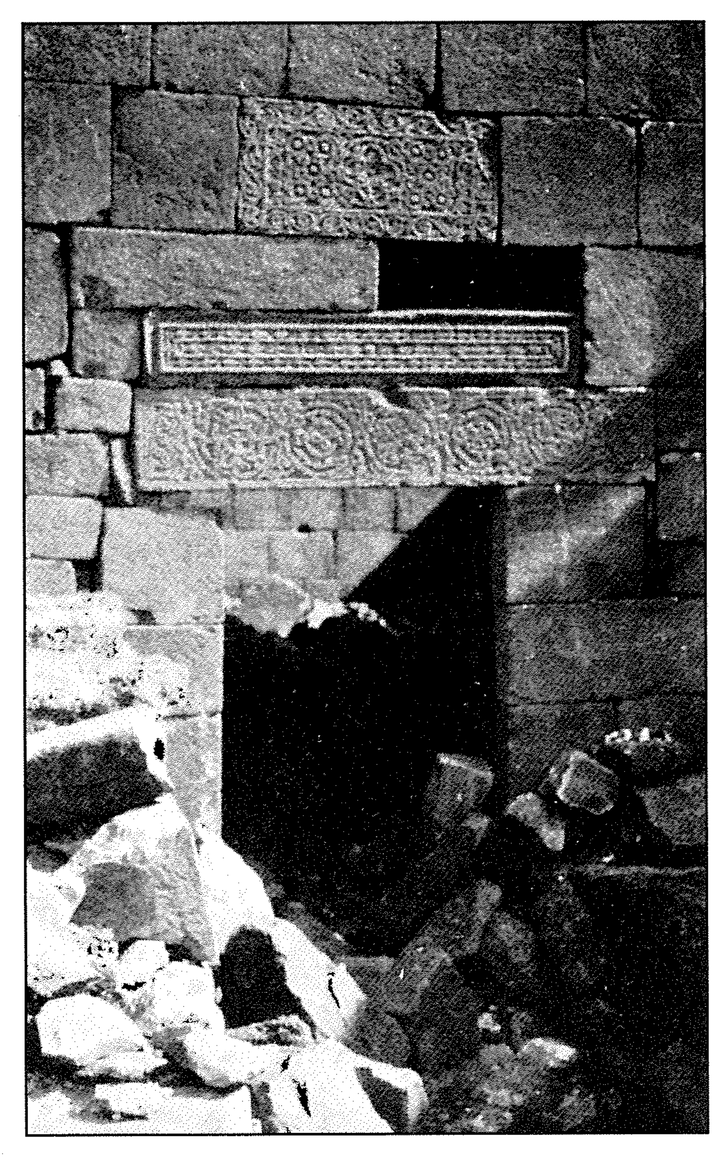
(١) الواقع أن الدروز بدؤوا بالهجرة إلى جبل الريان الذي سمى فيما بعد جبل الدروز بعد معركة عين دارة التي حدثت بين القيسيين واليمنيين عام ١٦٩٦م، وانتصر فيها القيسيون، فبدأ اليمنيون من الدروز بالهجرة إلى جبل حوران، أو جبل الريان. (المترجم)

الرئيسي للخيمة من أجل حمايتنا على نحو أفضل من البرد، وقد قضينا ليلة مريحة نتيجة لذلك، وأيقظني البرد عدة مرات في الليل على شعور غير مريح بأنني أنام على عش نمل.

كيف يستطيع العرب أن يجدوا الوسيلة لجمع هذا العدد الكبير من البراغيث في مقتنياتهم القليلة جداً، سرٌّ لا يمكن تفسيره، فلا يوجد إلا مكان محدود جداً لإيوائهم فيما عدا جدران بيت الشعر.

ويجب أن تتمتع بمهارة كبيرة عندما يتم هدم بيت الشعر وطي جدرانه من أجل البقاء في طيات هذه الجدران والانتقال معها إلى مكان التخييم الجديد. ولا شك أنها كفء لمثل هذه الرحلة، ويعرف ذلك كل من قُدِّر عليه أن ينام ليلة في بيت شعر البدوي. وقد بدت خيامنا وكأنها جنة النعيم بعد قضائنا ليلتين في خيام الغياث عندما عدنا إليها عصر اليوم التالي. وحمام تعتبر في الأوج لمن يستطيع أن يعيش الحياة السيبيرية حتى لو تمت في حرارة منخفضة بضع درجات عن درجة التجمد.

وقعت حادثة أثناء ركوبنا باتجاه مخيمنا، حادثة جديرة بالتسجيل، حيث تتعلق بالعادات الدرزية. تنقسم الطائفة كما قد لوحظ من سابق إلى عاقلين وجُهّال، والفرق بين الطرفين بالنسبة للغريب هو أن العارفين أو العقال ممنوعون من التدخين، وقد لاحظت عندما قضيت أمسية في صالة في بيت محمد النصر أن لا أحد من أفراد الأسرة حاول التدخين؛ ولذلك فقد دهشت عندما طلب فايز - وقد وجد نفسه وحيداً معي ومع ميخائيل - سيجارة من ميخائيل. وقد اعتذرت عندئذ؛ لأنني أغفلتُ تقديم سيجارة له قائلة: إنني قد

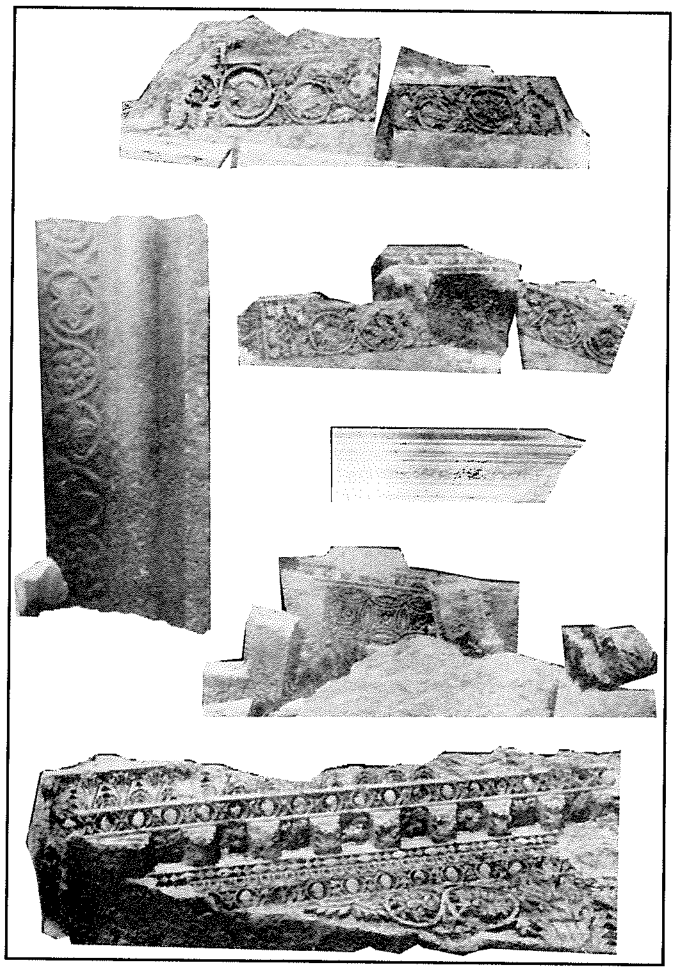


٦٤ ـ قلعة البيضا، باب التصوينة

فهمت أن التدخين ممنوع بالنسبة للعُقّال الذي هو منهم. وطَرَف فايز بعينيه المزويتين، وأجاب بأن الأمر كما ذكرت، وأنه ما كان ليقبل أن يأخذ سيجارة لو

كان أحد من الدروز موجوداً، ولكن حيث لا يوجد أي من أبناء طائفته فسوف يعطي لنفسه حرية التمتع بالتدخين، ورجاني أن لا أذكر شيئاً عن هذا الانحراف عن العقيدة أمام أخيه.

وفي تلك الليلة في مضافة أم الرويق تناقشنا أنا والمشايخ الثلاثة، ووضعنا خططاً من أجل القيام برحلات استكشافية أبعد في حرة الصفا،



٦٥ ـ حلًى معمارية من القلعة البيضا ومن تدمر، الحجرة القائمة من قلعة البيضا

واتفقنا على عدد الجمال التي سوف آخذها معي، وحتى الهدايا التي سوف أقدمها للحرس في نهاية الرحلة. وسوف يكون فايز وأحمد وخطاب ضمن بعثة الاستكشاف طبعاً إذا كان الخيار مرتبطاً بي.

في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي بدأنا رحلة مسيرة الأيام الثلاثة إلى دمشق. بالنسبة لأم الرويق أريد أن أضيف أننا احتجنا ثلاثة أيام من أجل أن نجمع بصعوبة من مجموع سكانها مبلغاً من المال يعادل ليرة ذهبية واحدة. وكنا قد جلبنا معنا حقيبة من النقود النحاسية والفضية عندما خرجنا من القدس، وعندما أنفقت وجدنا منتهى الصعوبة في دفع ديوننا، وهذه واحدة من التلميحات الموجهة إلى الرحالة، التي ناقشني ميخائيل بوجوب الإشارة إليها في الكتاب الذي سوف أكتبه.

وسرنا عبر منحدرات فاتنة مغطاة ـ حيثما كانت الثلوج ذائبة ـ بالسوسن الأزرق الغامق، وقضينا ساعة أو ساعتين في شكا التي كانت أحد المشاهد الرئيسية التي تحدث عنها عالم الآثار دوفوج. والباسيليكا التي كانت صورة تامة على عهده تقريباً هي الآن حطام تماماً.

ولم يبق إلا الواجهة، ولكن القيصرية ما تزال قائمة والدير الذي يعتقد أنه الأقدم بين الأديرة في الوجود[(١)]، ومررنا بجانب حيت وهي قرية ظريفة تحتوي على بيت يعود إلى ما قبل الإسلام يسكنه الشيخ، ونصبنا مخيمنا في باثانية في جو صقيعي أرسلني مرتجفة إلى الفراش. وكان ثمة جدول جارٍ قد تحول كلياً إلى جليد. وعملت جولة في اليوم التالي لزيارة الحيات، حيث كان

(١) الواقع أن هذه الآثار بقيت سليمة إلى حد بعيد أكثر من ألف سنة حتى بدأ الرحالة الأوربيون والأمريكيون يفدون إلى البلاد، وباعتبار أنهم في معظمهم من اللصوص فقد تعاونوا مع الجهلة وطمعوهم بالمال من أجل تهريب هذه الآثار وسرقة أكبر مقدار ممكن منها. (المترجم)

هنـاك قليبة بديعة كتب عنها (فوجيه Vogue) وقلعة وكنت أريد أن أسد بعض الثغرات المتخلفة عن رحلتي السابقة، وأرى أي نوع من الأبنية يمكن العثور عليها في المنحدرات الشمالية للجبل إذا لم أستطع أن أفعل شيئاً آخر أكثر.



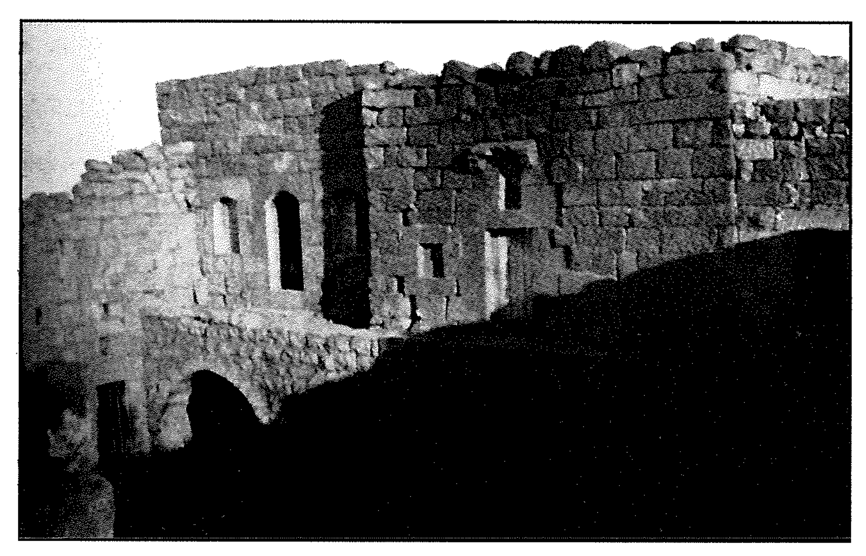
٦٦ - بوابة شكا

لقد امتلأت القرى الكبيرة بسرعة بالناس، ولن يبقى إلا أثار قليلة في سنوات قليلة. وهكذا هبطنا سهلاً متصلاً بطريق اللجا بين شهبا ودمشق في قرية لحيتا، وتبعنا بغالنا إلى براق، أبعد قرية في حوران، ويوجد مركز عسكري في براق فيه عشرون عسكرياً، وقابلنا قبل أن نصل إليه فتاة درزية صغيرة كانت تجثم مرتعدة على جانب الطريق وقد بكت خوفاً عندما شاهدتنا «أنا خادمة» صرخت «أنا خادمة»، وتلقى كلماتها ظلاً من الشؤم على النظام التركي الذي سوف نجد أنفسنا تحته مرة ثانية. وأمام القلعة تقريباً مررنا باثنين من الدروز عائدين من دمشق، وقد حيوني تحية ودودة، وقلت: «هل أنتم متجهون إلى الجبل؟»

قالا: «بالله، الله يسلمك»

قلت: أنا قادمة من هناك سلموا عليه!!

فأجابا: الله يسلمك ! مع السلامة!.



٦٧ ـ منزل الشيخ في الحيات

لا يترك الرحالة جبل الدروز خلفه بدون غصة، ودون أن يأخذ على نفسه عهداً بأن يعود إليه حالما يستطيع.

والأتراك في براق (كان الأتراك شعباً رائعاً في الجزء الشمالي من آسيا الصغرى) حاولوا إقناعي بقوة بالعدول عن أخذ الطريق القصير مقاطعة عبر الهضاب إلى دمشق، وكان النصح بقوة إلى درجة جعلتني أتخلى تقريباً عن الفكرة. لقد قالوا إن الهضاب محاطة باللصوص، وربما كانت خالية من مضارب العرب في هذا الوقت من السنة؛ ولذلك فإن اللصوص يسرحون فيها وحدهم ويمرحون. ولحسن الحظ سمعنا في صباح اليوم التالي أن مجموعة من الجنود قد تقرر إرسالها إلى دمشق عن طريق التلال، وقد شجعنا الخبر على أخذ نفس الطريق، ولم نرهم على الإطلاق.

وأنا لا أعتقد أنه كان لهم أي وجود حقيقي، ومن جهة أخرى فقد رأينا بعض الخيام السوداء التي أشعرنا وجودها بالثقة والأمان في أسوأ نقطة من الطريق، ويجب أن يكون اللصوص متورطين في مكان آخر، ولذلك لم يظهروا على الإطلاق، ولكني لاحظت باهتمام لأول وهلة أن الصحراء تمتد إلى مسافة لا تبعد أكثر من ساعتين عن دمشق، وهي حقيقة لم أكن قادرة على ملاحظتها سابقاً عندما سافرت على الطريق الرئيسي.

والملاحظة الثانية هي أن السلم السلطاني إذا كان من الممكن أن ندعوه سلماً لا يجاوز جدران المدن الرئيسية في سوريا. وعبرنا نهر الأعوج ووصلنا بسرعة بعد منتصف النهار إلى قرية نجها الشركسية حين توقفت لأتغدى تحت عدد قليل من شجر الحور، وهي المجموعة الأولى من الأشجار التي رأيتها منذ غادرت السلط. سواء ركبت باتجاه دمشق متخذاً الطريق القصير

مقاطعة أو الطريق الرئيسي من حوران أو من تدمر فإنك سوف تجد هذا الطريق دائماً أبعد من أي طريق أنت تعرفه. ربما بسبب شوق الرحالة المسافر لأن يصل بسرعة إلى مدينة العرب الرائعة العظيمة الواقعة ضمن حزام من الأشجار المثمرة والممتلئة أجواؤها بدمدمات الأنهار الجارية. ولكن إذا كان صبوراً فقط فليس هناك من طريق بلا نهاية.

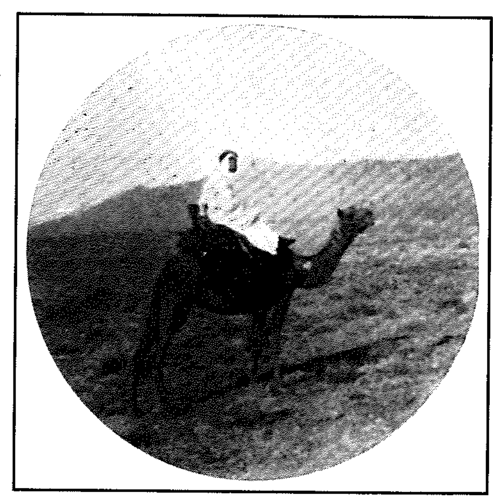
ونحن أيضاً وصلنا في النهاية إلى حافة بساتين المشمش، ثم عبرنا بوابة الله، وبعد ذلك مررنا من حي الميدان ذلك الحي الطويل المزدان بالدكاكين والخانات ممتداً يشبه يد ملعقة كبيرة في وعاء ممتلئ بالمآذن والقبب في أحياء دمشق الغنية. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كنت قد أويت إلى فندق فكتوريا وحصلت على بريد شهر من الرسائل والصحف.





الفصل السابع:

عندما جئت إلى دمشق قبل خمس سنوات كان مستشاري الرئيسي وصديقي ـ وهو صديق سوف يأسف لموته العديد من الرحالة الذين يزورون سوريا، السيد لوتيك ـ (رئيس المصرف الذي يحمل نفس الاسم، وقنصل ألمانيا الفخري). وكانت ملاحظة عابرة منه قد كشفت لي المكان الذي مثلته هذه المدينة، ومازالت تمثله في التاريخ العربي. قال: «أنا مقتنع أن في دمشق وما حولها يمكن أن ترى أفضل السكان العرب من أي مكان آخر، فهم أحفاد الفاتحين الأصليين الذين جاؤوا مع الموجة الأولى للفتح الإسلامي، وقد حافظوا على أصولهم العرقية نقية تقريباً».



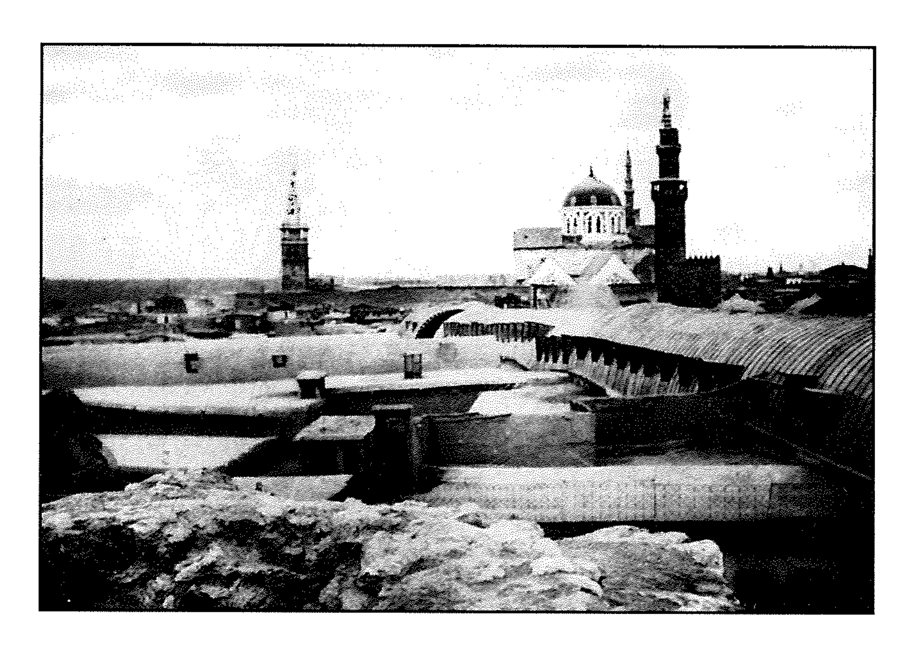
٦٨ ـ في الصحراء التدمرية

تعتبر دمشق أكثر من أي مدينة أخرى عاصمة الصحراء. فالصحراء تمتد حتى أسوارها وتهب أنفاسها مع كل نسمة ريح، وتعبر روحها عبر بواباتها الشرقية مع كل قائد جمل. ولمشايخ القبائل الغنية في دمشق منازلهم الخاصة. فأنت يمكن أن تشاهد محمد شيخ قبيلة الحسنة أو بسام آل رشيد شيخ شمر يمشون تيهاً في أسواق دمشق في يوم جمعة ظريف بعباءاتهم المطرزة وحطاتهم الأرجوانية والفضية مثبتة فوق جباههم بِعُقّلٍ من وبر الجمال قد لفت بخيوط

الذهب، وهم دائماً رافعو الرؤوس بكبرياء، سادة القفر والبيداء، هؤلاء يخطرون بين حشود يوم الجمعة ينتظرون أن يفسح لهم الطريق كما لو كانت دمشق هي مدينتهم الخاصة، وهي كذلك؛ لأنها كانت أول عاصمة للخليفة البدوي خارج الحجاز، وهي تحافظ وتتذكر أعظم التقاليد والأعراف العربية، لقد كانت أول المدن العالمية المعروفة تقريباً التي سقطت بيد فرسان الصحراء، الذين لا يقاوَمون والذين دعاهم محمد لحمل السلاح وأعطاهم هدفاً وشعاراً للمعركة، كما إنها المدينة الوحيدة التي بقيت ذات أهمية تحت حكم الإسلام كما كانت تحت حكم الرومان[1]. وقد جعلها معاوية عاصمة له وبقيت المدينة الإسلامية الرئيسية حتى سقوط الحكم الأموي بعد تسعين سنة. لقد كانت آخر العواصم الإسلامية التي حكمت طبقاً لتقاليد الصحراء. لقد وضع القادة العسكريون الفرس أبا العباس السفاح على عرشهم في الهلال الخصيب، وكانت التأثيرات الفارسية والتركية مسيطرة في بغداد، وعن طريقهم جاءت عادات الشرق القاتلة التي لم تعرفها الصحراء، ولم يعرفها الخلفاء الأوائل الذين كانوا يحلبون أغنامهم بأيديهم ويقسمون الغنائم بين المؤمنين. وقد دمرت النتائج المنبعثة من البيئة الفاسدة جداً في ما بين النهرين قيم الرجولة. وانبعثت أشباح قصور البابليين والآشوريين المتآمرة من قبورها قوية وشريرة لتطيح بجند الخليفة وتجرده من سلاحه، ولتقيد يديه وقدميه بخيوط من

(١) لم يكن العرب المسلمون غزاة دائماً، كانوا محررين لبلاد الشام من الاستعمار الروماني اليوناني، كان سكان بلاد الشام يتكونون في معظمهم من الشعوب العربية التي خرجت على مر التاريخ من الجزيرة العربية مثل الآراميين والكنعانيين والأوغاريتيين والآدوميين والأنباط والتدمريين والغساسنة، ولم يكن الرومان إلا قشرة خارجية مستعمرة مثلهم مثل الإنكليز في الهند ومصر إلخ. ولم يتركوا أي جذور حضارية ذات طابع ثقافي، تركوا أبنية ومنشآت وهي خاصة بهم، شأنها شأن المنشآت التي أشادها المستعمرون في الشمال الأفريقي وفي الهند، والتي لا ترتبط بأي جذور ثقافية بالشعوب المستعمرة. (المترجم)

ذهب، وكانت دمشق بريئة منهم. كانت دمشق تغتسل برياح الصحراء النظيفة وقد حكمت إمبراطورية الرسول بالروح الإسبارطية القوية للأيام الأولى، لم تكن محدثة النعمة مثل العواصم التي قامت على الدجلة، لقد سبق ورأت ملوكاً وأباطرة داخل أسوارها وتعلمت الفرق بين القوة والضعف والطريق الذي يؤدي إلى السيطرة والآخر الذي يؤدي إلى العبودية.



٦٩ ـ الجامع الكبير بدمشق (جامع بني أمية) وأسطحة السوق من القلعة

عندما وصلت إلى دمشق حييت تحية ممزوجة بالأخبار بأن رحلتي إلى حوران قد أثارت على نحو معتبر فكر نسيم باشا والي سوريا. ويجب أن يسجل الآن أن هذا الرجل، الكثير الخبرة، والكثير التهذيب قد شعر بالغيظ ليس بسبب ظهوري المفاجئ في صلخد فقط ، في وقت كان يغط في نومه، ولكن في تركي المنطقة قبل وصول جاسوس يوسف أفندي، وقد ارتأى بعضهم

أن السبب الحقيقي لانزعاج جنابه المفاجئ كانت رغبته في تجنب أن يكون موضوعاً في مذكرة الأرشيدوق سيرج، وإذا كان ذلك كذلك فقد أرسل لي في يوم وصولي رسالة مهذبة يعبر فيها عن أمله بأنه سوف يكون مسروراً بالتعرف إليّ. أعترف إن إحساسي الأولي كان شعوراً بالندم عندما أذن لي بدخول القصر الجديد الكبير الذي بناه الوالي لنفسه في نهاية الصالحية، وهي ضاحية دمشق التي تمتد على طول سفح الهضاب العارية في شمال المدينة.

كان لدي رغبة كبيرة بالاعتذار أو أن أبرهن له بأي وسيلة أن لا ينظر إلي كعدو كائد. وقد تعززت هذه المشاعر باللطف الذي استقبلني به والإحساس بالاحترام الذي ينفح به أولئك الذين يفدون للتعرف إليه، وهو رجل ذو مزاج عصبي خاص جاهز دائماً للتدخل لحل الصعوبات التي لا تقصر ولايته على وضعها أمامه، وهو حي الضمير، وأنا أظن بكل تواضع، قلقة وبألم بأن التوفيق بين المصالح المتعارضة لا يمكن مزجها مع بعضها بسهولة إلا كما يمزج الخل مع الزيت. إنه ينظر بطرف عينه باستمرار إلى سيده السلطان الذي يحرص بأن يكون شخصاً متميزاً مثل نسيم باشا بعيداً عن شواطئ البوسفور على نحو معتبر.

إن للوالي ثماني سنوات في دمشق ومدة الولاة المعتادة خمسة، وقد وطد عزمه بوضوح على البقاء في دمشق؛ لأنه قد بنى لنفسه بيتاً كبيراً أحاطه بحديقة جميلة، هذا التخطيط الذي يصرف ذهنه ـ دعنا نأمل ـ عن المشاغل الكثيرة التي نادراً ما تكون سارة.

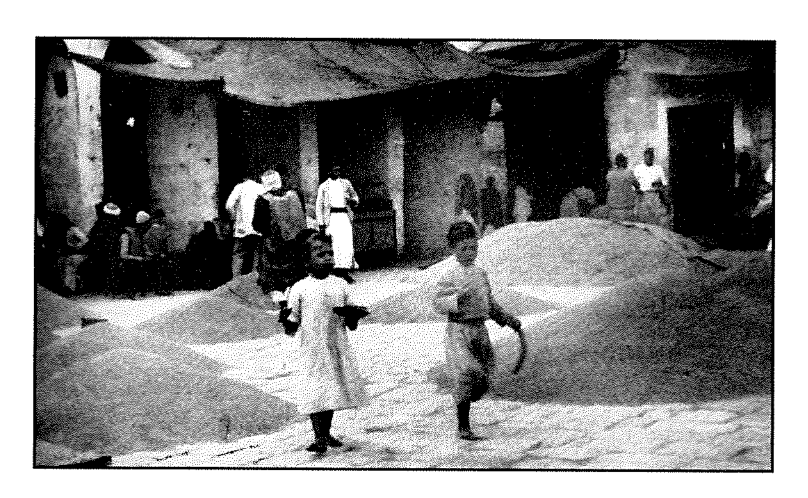
وأحد العوامل التي توجب بقاءه اهتمامه النشط بسكة حديد الحجاز التي يهتم بها السلطان أقصى درجات الاهتمام وما لم يتم بناؤها أو يصرف النظر عنها فهو مفيد بما يكفي للاحتفاظ بمنصبه(*).

والرأي العام في السوق لا يعتقد أن المشروع سيهمل على الرغم من معارضة شريف مكة وعشيرته الذين لم يقتنعوا أبداً بحق السلطان بادعائه أنه خليفة المسلمين، ولا يريدون أن يصبح على تماس مباشر مع مكة عاصمة الإسلام، والسوق يساند السلطان ضد الشريف وضد كل مسانديه سواء أكانوا ملحدين أو متدينين.

إن المطحنة التركية تطحن ببطء، ولكنها في النهاية تطحن قليلاً وبشكل خاص عندما يكون القمح المعد للطحن الطبقة الأولى من القبائل العربية الهشة بشكل خاص بحسدهم وارتيابهم وادعاءاتهم. والسياسة التركية تشبه وتتمثل ما قاله عمرو بن كلثوم:

متى ننقل إلى قوم رحانا
يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقي نجد
ولهوتها قضاعة أجمعينا
نزلتم منزل الأضياف منا
فأعجلنا القرى أن تشتمونا
قريناكم فأعجلنا قراكم
قبيل الصبح مرداة طحونا

(*) بعد كتابة هذه الرسائل دارت عجلة السياسة وأنزلته إلى القاع وهو الآن يشغل مركزاً ثانوياً في جزيرة رودس. (المؤلفة)



٧٠ـ سوق الحبوب

ورغم أن لنسيم باشا ثماني سنوات في سوريا إلا أنه لا يتكلم اللغة العربية، ونحن في أوربا عندما نتحدث عن تركيا نتحدث عنها وكأنها مملكة تتكون من أصل واحد، مثلما لو تحدثنا عن بريطانيا باعتبارها تتضمن الهند وبرما والولايات الثانية وهونغ كونغ وأوغندا. فيما يتعلق بالأراضي التي يسكنها الأتراك فقط لا تمثل ما يسمى بالدولة التركية، فالمناطق التي تسكنها أغلبية تركية هي عموماً ضئيلة.

وبالنسبة للمناطق الواقعة تحت سلطته في سوريا ـ حيث الأتراك نادرون ـ فإن وضعه يشبه أن يكون حكماً أجنبياً بمساعدة قبضة من الجنود وخزينة خاوية، مجموعة مختلفة من الأشخاص المعادين له والمتعادين مع بعضهم بعضاً.

وهو غير ملم بلغتهم. ومما يتنافى مع العقل توقع أن يكون منسجماً مع طموحاته السياسية والدينية التي أصبحت معروفة عنه بين حملة البنادق. وإذا حدث وتوجه الرصاص كما يحدث غالباً نتيجة لعصيان مسلح من أقليم

عاص في الولاية ضد أقليم آخر عاص في نفس الولاية فمن غير المرجح أن يشعر بالأسف كثيراً لضياع الأرواح نتيجة لذلك، وهو عندما يترك بحاله يهتم ويرتاح لتطبيق القانون والنظام.

وإذا أنت لاحظت التنظيمات الداخلية لقرية تركية سوف ترى أن التركي يعرف كيف يخضع لقواعد الإدارة والسلوك وكيف يطيعها وينفذها. وأنا أعتقد إن أفضل موظفينا من المواطنين في مصر هم من أصل تركي الذين جلبوا وعينوا من أجل تطبيق التنظيم الجديد، ويتمتعون بالشعور الطيب والموهبة الطبيعية، هذا التنظيم الذي لم يفهموا هدفه تحت الحكم السابق. لقد برهنت الطبقات العليا في السلطة الحاكمة في الإمبراطورية العثمانية على فسادها.

والطبقات العليا ممتلئة بالإغريق والأرمن والسوريين، وشخصيات من أمم مختلفة ينظر إليها في الشرق بشكل عام بنوع من عدم الاحترام والثقة (ليس بدون سبب)، والحقيقة أن هؤلاء الرجال الذين يبدو وكأن وصولهم إلى القمة أمر لا يمكن اجتنابه هم السبب الحقيقي للفشل التركي. إنه لا يستطيع أن يحكم مناطق واسعة على أنه يستطيع أن ينظم جمعية في قرية، وفوق كل هذا لا يستطيع أن يحكم بلاداً غريبة، ولسوء الحظ إنه يؤتى به إلى مناطق بعيدة مرة بعد أخرى للاحتكاك بأمم غريبة. حتى رجاله التقطوا عدوى التقدم.

فالإغريق والأرمن أصبحوا تجاراً ورجال مصارف، والسوريون أصبحوا تجاراً ومالكي عقارات، لقد وجدوا أنفسهم محاطين في كل نقطة بعراقيل من قبل الحكومة، إن الأمة الغنية تتألف من أشخاص أغنياء، ومع ذلك وبسبب كل إخفاقاته لا يوجد أحد رغب أو سيرغب أن يحل محله، وبسبب هدفي الحالي

في أن أتحدث فقط عن سوريا، وهي الإقليم الذي أعرفه أكثر من غيره. ما قيمة جمعيات الاتحاد العربي، والكراسات الملتهبة التي يصدرونها في مطابع دور النشر الأجنبية. الإجابة سهلة.. إنهم لا قيمة لهم على الإطلاق، لا يوجد شيء اسمه الأمة العربية.. فالتاجر السوري يفصله عن البدوي مسافة أكبر بكثير من تلك التي تفصله عن العصملي (العثماني)، فسوريا تسكنها أعراق تتكلم اللغة العربية وكل واحد منها توّاق للإمساك بخناق العنصر الآخر، وما يمنعهم من إتمام رغباتهم الطبيعية هذه هو خوفهم من الجندي العثماني الجائع الذي يرتدي أسمالاً، ويقبض رواتبه من خزينة السلطان بفترات غير منتظمة نادرة. وهذا الجندي ـ سواء أكان كردياً أو شركسياً أو عربيًا من دمشق ـ ذو قيمة طيبة أكبر بكثير من الرواتب التي يتلقاها. قد تتمرد جيوش أخرى على حكوماتها و قادتها ولكن الجيش التركي سيبقى إلى جانب السلطان[1].

جيوش أخرى قد تنهزم أمام المعاناة والحرمان والمرض الذي لا يعالج، ولكن جيش السلطان سوف يبقى محافظاً على التقدم إلى الأمام مادام يستطيع الوقوف، ويقاتل مادام في يده سلاح، ويحتل ويقهر مادام لديه قواد. لا يوجد مشهد أكثر روعة ولا إثارة للشفقة أكثر من منظر قطعة عسكرية تركية أثناء المسير؛ شباب ملتحون مكسوون نصف كسوة، سيئوا الهندام وغالباً حفاة، مضغوطون ومتعبون ولكن لا يُقهَرون، دعونا نحييهم هكذا وهم يمرون، وفي الأيام التي كانت فيها الحرب فناً أكثر مما هي علِم، كان الجيش التركي هو القوة التي قهرت العالم.

(١) بعد سنة من طبع هذا الكتاب تمرد الجيش التركي فنى، وأجبر السلطان على إعلان الدستور، وبعد سنة من ذلك في عام ١٩٠٩ خلع الجيش التركي السلطان عبد الحميد وعين بدلاً منه السلطان رشاد خلافاً لثقة المؤلفة. (المترجم)



٧١ ـ قبة الخزنة

ولكني تركت حاكم سوريا ينتظر طويلاً، تكلمنا من ثم باللغة الفرنسية التي كان يلم بها إلماماً ضعيفاً، وكان ثمة رجل سوري لطيف يشرح له بين الحين والآخر وباللغة التركية بعض غوامض وأصول اللغة الفرنسية، كان السوري صاحب

أطيان ماروني، غني من لبنان، كان على علاقة حسنة مع بيت الحاكم مع أنه قد خرج حديثاً من السجن الذي أمضى فيه سنة واحدة، وقد رافقني خلال كل زيارتي، وقد طلب منه الوالي أن يكون دليلي السياحي في تجوالي هنا وهناك، كان اسمه سليم بك.

وقد دار الحديث بشكل رئيسي عن الآثار وقد أصررت وعلى نحو متعمد أن يكون حديثي حول اهتمامي بهذا الموضوع مقارنة بالسياسة أو الجبل أو الصحراء، وبذلك تجنبنا أي إلماح جدي لهذه الموضوعات. كان الوالي الدماثة نفسها، وقد أهداني صوراً لمخطوطات معينة لا تقدر بثمن لقبة الخزنة في الجامع الكبير، وقد أغلقت الآن إلى الأبد أمام المتفرجين، ووعدني أن يعطيني بقية المجموعة.

وفي نهاية الزيارة انحنى انحناءة احترام، وأخذ مني عنواني باللغة الإنكليزية، وسجله بعناية في كراس، ولن أحتاج إلى القول إن ذلك كان آخر عهدي بالموضوع. وحالاً أعلن الوالي أن زوجة الباشا وأطفاله ينتظرون زيارتي، وتبعته إلى الطابق الثاني إلى غرفة مشمسة بنوافذ مفتوحة على شرفة يمكن منها رؤية دمشق كلها، وحديقة المنزل والهضاب الواقعة خلفه. ولم يكن هناك إلا زوجة الباشا وهي امرأة جميلة دقيقة الملامح من أصل شركسي (ولكن كان هناك زوجة أخرى توفيت قبل سنة تقول الشائعات إنها كانت المفضلة). كان الأطفال جذابين.

وقد أنشدوا قصائد بالفرنسية أمامي، وكانت عيونهم تتحرك بسرعة استجابة لأي تعبير عن الاستحسان أو الإحساس بالمتعة يصدر عني، وقد عزفوا بالإيقاع رقصات بوهيمية وهم جالسون. منتصبوا القامة أمام آلة

العزف وذيول ستراتهم السوداء متدلية خلف ظهورهم المخملية. ووقف الباشا أمام النافذة يبتسم لهم بابتهاج. ودخنت الزوجة الشركسية سجائر وكانت تنحني محيية كلما التقت عيناها بعيني. وكشر ولد أسود رقيق كان واقفاً عند الباب تكشيره من الأذن إلى الأذن عندما أنهى سادته وسيداته الذين هم في نفس الوقت زملاؤه في الدراسة واللعب عزفهم الموسيقي. وخرجتُ من الغرفة بانطباع مبهج، وابتسامات حلوة مهذبة، وذكاء لماح، وعبّرت عن سروري للباشا عندما كنا نهبط الدرج.



٧٢ - التكية النقشبندية

«آه» قال بتهذيب شديد: «لو كنت أستطيع أن أعلمهم اللغة الإنكليزية ماذا تفعلين؟ نحن لا نستطيع الحصول على مربية إنكليزية تتلاءم مع عاداتنا، وليس لدي إلا السيدة الإغريقية التي رأيتها لتعلمهم اللغة الفرنسية».

وقد لاحظت في الواقع المرأة الإغريقية، امرأة من الطبقة الدنيا، صغيرة الجسم، والتي لم يكن ما تتحمله في الطابق العلوي للأسرة السعيدة يفر من الملاحظة. ولم أبطئ بالإطناب بلغتها الفرنسية الرائعة ـ ليسامحني الله ـ وهز الباشا رأسه.

«لو أستطيع الحصول على امرأة إنكليزية» قال.

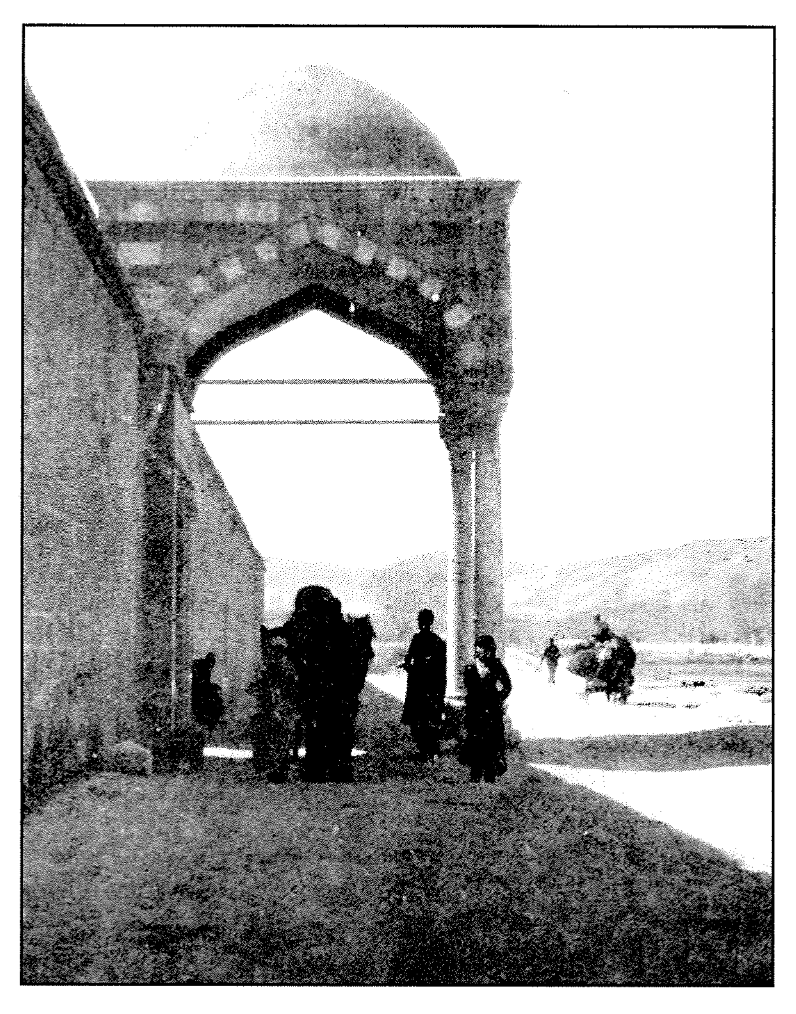
ولسوء الحظ لم يكن لدي ما أقترحه للمراسلة، كما لم يبدو عليه أنه يرحب باقتراح.

قبل أن أترك وصل شخصان بارزان لمقابلة الوالي، كان الأول بملامح شبه زنجية ولكن نظرته وعراقة محتده لا تخطئها العين، كان الأمير عبد الله باشا بن الأمير عبد القادر الجزائري الكبير من أمة زنجية، وكان الثاني الشيخ حسان النقشبندي خليفة الطريقة النقشبندية. وكنت قد تحدثت تقريباً عن فرقة إسلامية مستقيمة مشهورة في دمشق حيث تقع تكيتها الرئيسية.

«التكية الآن مؤسسة دينية يقيم بها المتصوفة الدراويش وغيرهم من الأشخاص المباركين، تشبه الدير إلى حد بعيد، ولكن لا يوجد نذر بعدم الزواج مفروض على المنتسب القاطن في التكية، ويستطيع أن يتزوج النصاب الشرعي من الزوجات مثل من يعيشون خارج التكية».

وحسان نفسه لديه أربع زوجات وتبدو كل علامات ذكاء ومكر الكاهن واضحة من سيماء هذا الرجل البارز، ولم أكن أعلم أن ذكاءه بارز بشكل خاص. ولكن انعدام ضميره يجب أن تدعم أي نواقص. كما أن ابتسامته قد تعطي فكرة خاطئة عنه، وقد يؤدي لقاء هذين الشخصين الهامين إلى الدخول

إلى المجتمع الدمشقي. وقد قدم كلاهما دعوة حارة لي لزيارتهما في منزليهما في التكية أو أي مكان أرغب، وقبلت الدعوتين ولكني ذهبت إلى الأمير عبدالله في البداية، أو لنقل إنني ذهبت في البداية إلى منزل أخيه الأكبر الأمير علي باشا؛ لأن في هذا المنزل كان يعيش الأمير عبد القادر، وهناك حمى وآوى أثناء الأيام السوداء لمذابح عام ١٨٦٠ ألفاً من المسيحيين وقد



٧٣ ـ مدخل التكية السليمانية

حيكت حول شخصه قصص عاطفية،حول شجاعته ونبله ووطنيته، وتوجت هذه القصص بالحكمة والعمر المليء بالاحترام والإحساس بالمسؤولية مع القوة المستندة إلى الثروة، حيث تمتلك أسرة عبد القادر كل الحي الذي يقطنون فيه، والمنزل مثل كل المنازل الدمشقية الكبيرة لا يبدي أي منظر متميز من الخارج.

ودخلنا عبر باب صغير في زقاق ضيق ملتوٍ عابرين ممراً مظلماً ينعطف بزاويتين لنجد أنفسنا في فناء رخامي مع بحيرة ماء ينبع من قلبها الماء في الوسط وحولها أشجار البرتقال، وكانت كل الغرف الكبيرة تنفتح على هذا الفناء، وبدت الأبواب واسعة بالنسبة لي. وقدمت القهوة والحلوى بجانب غرفة الاستقبال المصقولة، في الوقت الذي كنت أبدي إعجابي بزينة الجدران والماء الذي ينبع عالياً في حوض من الرخام، ثم يجري بعيداً في أقنية رخامية. وهناك وفي معظم القصور الدمشقية يوجد في كل نافذة مجرى ماء مقرقر بحيث أن الهواء عندما يهب عبر النافذة يجلب معه رطوبة منعشة. لم يكن الأمير علي في المنزل، ولكن وكيل أعماله الذي يبدو كتشريفاتي القصر، ويتمتع بالسلوك العائلي الجدير بالاحترام، والتابع الشرقي يعرف جيداً كيف يتلوى أثناء عرض كنوز وتحف سيده، السيف المحلى بالجواهر الذي أهداه نابليون الثالث للأمير عبدالقادر، بنادق عبدالقادر وسيفان ثقيلان محليان بالفضة أرسلا السنة الماضية هدية من عبد العزيز بن رشيد. وقد علمت أن هناك صداقة تقليدية بين العائلة الجزائرية وسادة حايل. وأرانا كذلك صوراً للأمير عبد القادر وهو يقود فرسانه، وصوراً أخرى للأمير في قصر فرساي وهو يهبط الدرج مع نابليون الثالث يشق طريقه وكأنه هو الرجل الذي ربح الحرب وليس الرجل الذي خسرها، ثم صورة للأمير بعد أن أصبح مُسنّاً في

دمشق، ودائماً في ثوبه الجزائري الأبيض الذي لم يتخلى عنه. ودائماً بنفس المظهر الرائع الوقور الرزين.

وأخيراً مررنا فوق جسر صغير فوق جدول من الماء خلف الفناء الرئيسي، فدخلنا حديقة مزدانة بالبنفسج، عبرنا منها إلى زريبة الخيل المضيئة والمهواة والجافة كأحسن مزارب الخيول الأوربية. وكانت تقف بجانب المزاود فرسان عربيان بديعان من خيول الرولا الأصيلة، وبغل أصيل لا يقل قيمة عن الفرسين، وكان ثمة رجل حزين المظهر رافقنا في جولتنا هذه مع أنه لا يبدو عليه أنه ينتمي إلى المجموعة، كان وجهه كئيباً جداً بحيث لفت انتباهي وقد سألت سليم بك عنه. «مسيحي» قال: من عائلة غنية اضطر لتغيير دينه وبحث عن ملجأ عند الأمير علي. ولم أسمع أكثر عن قصته، ولكنه يثبت الصورة في الأذهان عن منزل الأمير عبدالقادر كملجأ وملاذ باعتباره منزل نبلاء، يحرسه خدم أقوياء أوفياء يقدم الراحة في الحياة والحماية للبؤساء.

ذهبت في صباح اليوم التالي لزيارة الأمير عبدالله الذي يعيش في منزل مجاور لمنزل أخيه، ورأيت هناك ابن أخ آخر للأمير عبد الله اسمه الأمير طاهر، وقد قوبلت زيارتي بترحيب كبير وارتياح؛ لأنه اتفق وكان عندهم ضيف متميز كنت بدون شك توّاقة لرؤيته، هو الشيخ طاهر الجزائري وهو رجل معروف بسبب علمه وطباعه الحادة وأفكاره الثورية السياسية.

كنا جالسين مجتمعين في الغرفة التي قد فرشت أرضها بالبسط وجوانبها بالأرائك عندما دخل كالعاصفة وأجلس نفسه بجانبي وقرع أذني وآذان الجالسين بالجوار؛ لأنه كان يتكلم بصوت عال، كان متألماً بسبب عدم دعوة الوالي له للاتصال بحرية بالأجانب الموهوبين مثل علماء الآثار الأمريكان

ومثلي أنا «وهمست بتواضع ـ أستغفر الله ـ» إضافة إلى عدد كبير من المظالم، وعندما انتهى من الحديث عن هذه الأمور نسبياً أرسل الأمير طاهر ليجلب بعض المطبوعات من تأليفه التي أهداها لي، وهي تبحث باللغة العربية واللغات الشقيقة لها مثل النبطية والصفوية والفينيقية، والأحرف الهجائية التي نظمها بعناية شديدة واضعاً إياها بلوحة واحدة للمقارنة على الرغم من أنه لم يكن لديه أية فكرة عن معنى أي منها خلاف لغته العربية.

والشيخ طاهر مثل نموذجي غريب للباحث الشرقي. ولكن من الأمثلة التي حصلت عليها في حديثي معه كان انسجام هؤلاء الناس الذين يحترمون السلام والنظام وإن لم يكونوا مع الوالي، وسرعان ما دخل رجل مشهور آخر، كان مصطفى باشا البرازي، وهو من عائلة البرازي إحدى العائلات الأربعة التي تتولى زعامة مدينة حماة.

وانشغل الحضور جميعاً بالحديث في شؤونهم الخاصة، مثل السياسة السورية وغير ذلك من القضايا بينما كنت أصغي وأنظر من النافذة إلى حديقة الأمير والجدول الجاري فيها، وأعجب لحسن حظي الذي قادني لقضاء هذا الصباح الدمشقي الرائع، وأخيراً أخذني الأمير عبد الله وابن أخيه جانباً وناقشا معي جدياً موضوعاً كبيراً تحدثا فيه طويلاً وكنت قد طرحت هذا الموضوع عليهم من قبل وأنا لن أكشف عنه هنا[1]، وبعد أن انتهت الزيارة ذهبتُ وسليم ومصطفى وتغدينا في مطعم دمشقي رائع في سوق الأروام جالسين جنباً إلى جنب مع بدوي من الصحراء وأكلنا أفضل طعام

---

(١) باعتبار أن غير ترود بل من أهم المبعوثين الإنكليز الذين ساهموا برسم الخريطة السياسية للمنطقة وفقاً للمصالح البريطانية، فأنا أرجح أن تكون قد تحدثت معهم عن إمكانية تشكيل دولة سورية مستقلة عن السلطنة العثمانية. (المترجم)

وأفضل حلوى دمشقية محشوة بالقشطة لقاء ثمانية عشر بنساً بيننا نحن الثلاثة بما في ذلك القهوة والبخشيش.

وكان ثمة صباح آخر لا يقل بهجة عن هذا الصباح وذلك عندما ذهبت مع سليم الثقة لنقدم احترامنا لعجوز رائع يعتبر من أشهر الخطاطين في المدينة واسمه مصطفى الإصبعي، وكان قاطناً في منزل مزخرف بروائع زخرفية تعود إلى مئتي سنة حفرت ضمن رخام ملون أو غطيت بالجص المذهَّب عملت واجهاتها وفقاً لنقوش فارسية مضيئة، ثم طليت بألوان ناعمة غنية كان السائد فيها الذهبي والذهبي البني.

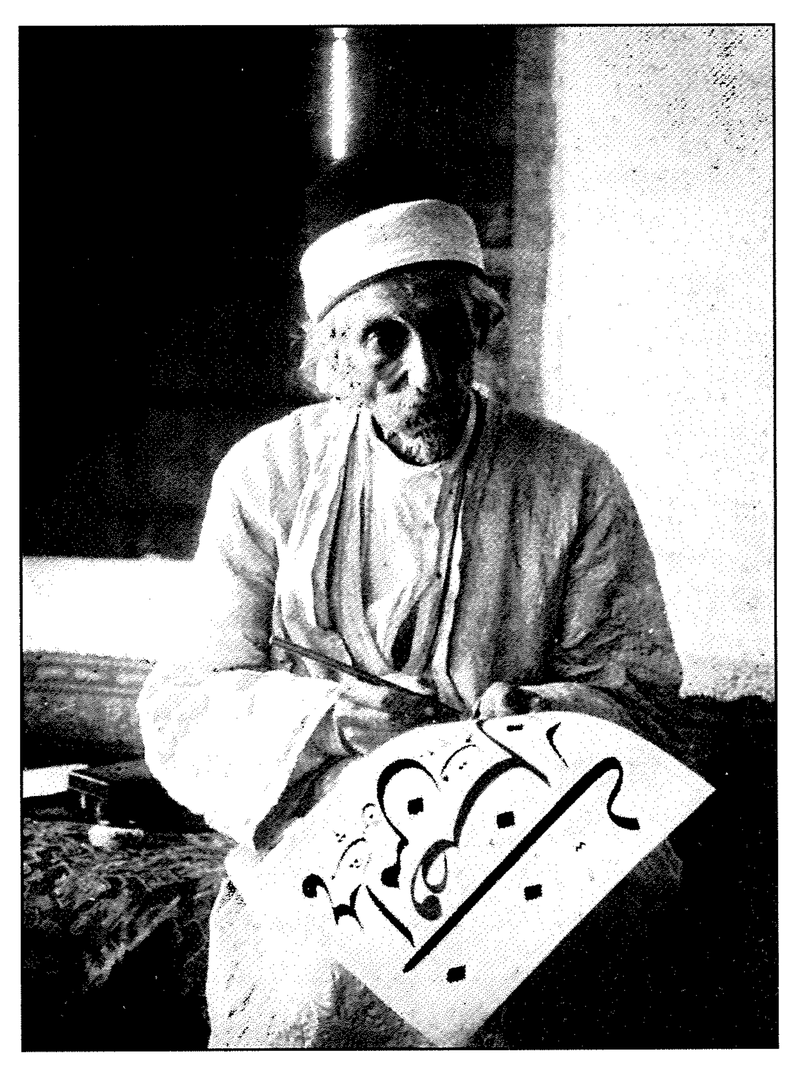
وأخذنا عبر غرفة الاستقبال إلى غرفة صغيرة في الطابق العلوي حيث يحب مصطفى أن يحبس نفسه ويكتب تلك اللوحات الخطية التي تمثل الشرق المسلم. كان ثمة لوحات معلقة على جدران الغرفة بأيدي فنانين قدماء مشهورين وأخرى لفنانين حديثين، وقد عرفت من بينهم صديقي محمد علي ابن بهاء الله النبي الفارسي وهو في رأيي أمهر من أمسك بالقلم في وقتنا الحالي، على الرغم من أن الشهرة والامتياز قد ذهب إلى شخص آخر فارسي أيضاً من نفس الطائفة اسمه موشقين كلام الذي أعده هو الآخر من أصدقائي.

وجلسنا على الطراريح وشربنا القهوة، واستعرضنا المخطوطات الرائعة في كل التواريخ والقرون، بعضها كتب بالذهب وبعضها بالفضة، وكتب البعض على البروكار وأُخر على رق لين (بعض هذه الأخيرة صفحات من نصوص بالخط الكوفي سرقت من قبة الخزنة قبل أن تغلق)، وقبل أن نغادر أهداني مصطفى ثلاثة نماذج من عمله الخاص وحملتها معي بكل سرور.

في عصر ذلك اليوم ركبنا باتجاه وادي بردى وعرجنا في طريقنا على ولد ثالث من أولاد عبد القادر «أمير عمر برنس عبد القادر» (هكذا كتب على بطاقته المطبوعة بالأحرف اللاتينية)، كان الأمير الذي يسكن الضاحية من العائلة. ارتفع مع رياح النفوذ الكبير بزواجه من أخت عزت باشا العابد الرجل القوي خلف العرش في إستنبول. ولعبدالله دائماً ألف خطة ومشروع تحت التنفيذ تستوجب بقاءه في المدينة، ولكن عمر يهتم بالصيد والقنص ويهتم بحديقته ويعيش حياة بسيطة.

كانت بسيطة إلى درجة أننا شاهدناه يضع قبعة منزلية ومبذلاً وخفاً من القماش يتمشى في مماشي حديقته، وأخذنا إلى منزله الذي يشبه بقية منازل أسرته مزداناً بالزهور وأصعدنا إلى مقصورة على السطح حيث تبعنا كلبه بهيئة مليئة بالصداقة والود، وهناك وسط زنابق المكحلة الياقوتية والخزامى جلسنا نراقب غياب الشمس فوق الهضاب الثلجية ونتحدث عن لعبة الصحراء والرياضة.

والآن إن وجودي بين الطبقة العليا قد أنساني أصدقائي الأكثر تواضعاً، الأفغاني بخُصَل شعره السوداء المتدلية على وجنتيه، والذي يحييني كلما قابلني (لأمير أفغانستان ممثل في دمشق من أجل رعاية مصالح الحجاج الأفغانيين). بائع الحلوى عند بوابة الجامع الأموي الذي ساعدني مرة أو مرتين في المرور بشبكة ممرات السوق المعقدة، والذي يناديني كلما رآني قائلاً: «هل فخامتكِ بحاجة إلى دليل سياحي اليوم؟». أو دراويش تكية الشيخ حسان الذين دعوني لحضور صلاة الجمعة، وليس أقل من هؤلاء الفارسي ذو اللحية الحمراء الذي لديه دكان لشرب الشاي في سوق الحبوب، والذي هو عضو في



٧٤ ـ مشقين كلام (الخط البديع)

الطائفة البهائية الذين لدي بينهم عدة أصدقاء. وبينما كنت أشرب شاياً فارسياً على مائدته حييته باللغة الفارسية وهمستُ: «لقد استقبلتُ بحفاوة بالغة من قبل العائلة المقدسة في أكرا»[١]. فهز رأسه مبتسماً وأجاب:

(١) مدينة في غانا على خليج غينيا في أفريقيا.

«فخامتكِ معروفة جيداً في طائفتنا». وعندما نهضت من أجل الذهاب وسألته ثمن شايه أجاب: «بالنسبة لك ليس هناك ما يستحق الدفع.» وأنا أقسم أنه ليس هناك شيء أكثر دفئاً للقلب من أن يرى الإنسان نفسه مقبولاً في حلقة سرية من العطاء الشرقي، وأشياء مثل هذه قليلة ونادرة جداً.

هربت بعد ظهر يوم مشرق من العديد من الناس الذين كانوا دائماً في انتظار أن يأخذوني إلى هذا المكان أو ذاك، وذهبت وحيدة في جولة في الأسواق التي تعتبر من أكثر المناطق سحراً للتسكع على سطح الأرض حتى وصلت إلى بوابات الجامع الكبير، كان الوقت وقت صلاة العصر، وتركت حذائي عند الزنجي المقعد عند بوابة الجامع وتجولت في الرواق المعمد على طول الجهة الغربية من الجامع.

وقد سَلبتْ نارٌ حدثت قبل عشر سنوات، والإصلاحات التي حدثت بعد ذلك الكثيرَ من رونقه وجماله، ولكن يبقى مركز اهتمام علماء الآثار الذين يندهشون من بقايا الكنيسة والمعبد الروماني وما لا يعلم إلا الله غير ذلك من الآثار التي يمكن أن تكون مدفونة تحت جدرانه وبواباته، كانت باحة المسجد مملوءة بظل العصر وبنصف شمس، وكان عدد كبير من الأطفال الصغار يحملون بأيديهم قضباناً من الصفصاف الأخضر يركضون جيئة وذهاباً في لعب بدون ضجة في شمس العصر الذهبية في الوقت الذي كان الأتقياء يصلون تحية المسجد قبل أن يدخلوا الحرم، ودخلتُ وراءهم ورأيتهم يقفون في صفوف طويلة تحت سقف الحرم والجناح من الشرق إلى الغرب. كل أصناف الناس وطبقاتهم؛ من الطبيب الذي يرتدي معطف الفرو والثياب الحريرية إلى لباس جَمّال يرتدي أثمالاً قادماً من الصحراء؛ لأن الإسلام هو الدين

الجمهوري في العالم الذي لا يعرف التمييز بالنسبة للمنصب أو المال. وعندما بلغ عدد المصلين ثلاث أو أربع مئة بدأ الإمام التلاوة، صاح «الله!»[1] ونزل المصلون جميعاً بحركة واحدة على وجوههم، وبقوا كذلك لمدة دقيقة كاملة حتى صاح الإمام مرة أخرى وتلى: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ولا الضالين. الله أكبر» وكما تردد صدى اسم الله عبر الأروقة المعمدة منذ ما يقارب من ألفي سنة فإن المصلين الذين كانوا خاشعين صامتين خروا سجداً مرة أخرى وللحظات كان الحرم ساكناً تماماً!.

في الليل ذهبت إلى أمسية مجموعة بدعوة من شكيب أرسلان وهو درزي من عائلة لبنانية مشهورة إضافة إلى أنه شاعر، أُهديتُ نسخة من آخر قصيدة له. وقد حدثت الحفلة في حي الميدان في بيت أحد تجار الحبوب الذي هو عميل لدروز حوران من أجل بيع الحبوب، وهو على دراية جيدة بالوضع السياسي في الجبل. كان عدد الحضور يتراوح بين اثني عشر إلى أربعة عشر، أنا وشكيب وتجار الحبوب يرتدون ثياباً تدل على الثراء، ثياب حريرية زرقاء، وعمائم درزية مزخرفة.

وآخرون أعرفهم. كانت الغرفة فارغة إلا من بُسط وديوان وموقد من النحاس، وهذا أمر جدير بالملاحظة؛ لأنه حتى بيوت الأمير عبد القادر ليست خالية من مزهريات زجاجية زرقاء وحمراء وحُصر مزركشة ذات أهداب، والتي تبرز مثل نتوءات عرضية بشعة في الكوى الرخامية، وعلى رفوف

(١) ذكرتُ هنا ما كتبته المؤلفة بدون تعديل والحقيقة أن الإمام يقول: (الله أكبر) وليس (الله منفردة، كما أخطأت في وصف الصلاة ونسيت مرحلة الركوع، وأخطأت بتلاوة الآية.

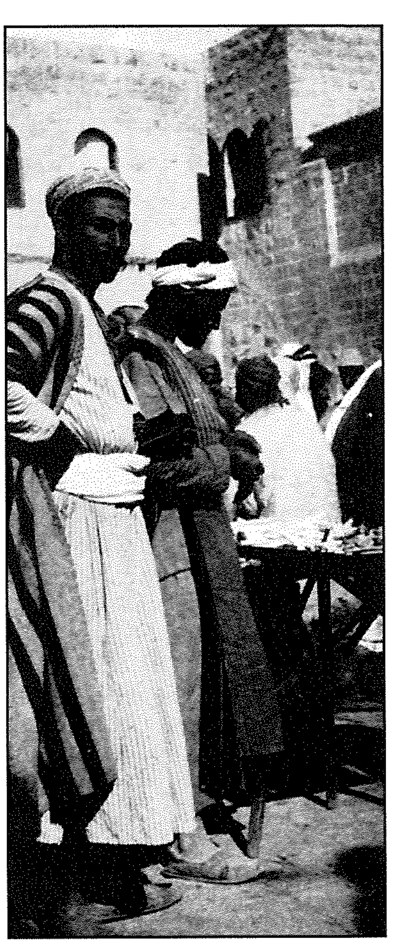
الخزائن المجصصة والمذهبة كان شكيب رجلاً مثقفاً وذا خبرة في الحياة وعرف العالم، وقد سافر مرة بعيداً حتى لندن، وأخذ يتكلم باللغة الفرنسية حتى أوقفه أحد مضيفينا قائلاً، ايه شكيب أنت تعرف اللغة العربية والسيدة كذلك، تكلم حتى نفهم عليكم.

كانت وجهة نظره بالسياسة الروسية تستحق السماع. «يا أصدقائي» قال: «المساوئ التي نعاني منها تعود للأمم الأجنبية التي ترفض السماح للإمبراطورية التركية بالتحرك بأي اتجاه، فعندما تقاتل يقطفون ثمر انتصارها كما فعلوا بعد حربها مع اليونان، ما الفائدة من قهرنا للثوار الألبان، لأن البلغاريين فقط سوف يقطفون الثمرة وأتباع نبينا لن يستطيعوا «هذا حرفياً رغم أنه درزي» أن يعيشوا تحت سلطان البلغاريين، كما لم يستطيعوا أن يعيشوا تحت نير الإغريق في كريت، انظروا إسلام كريت الآن يقطنون الآن في الصالحية كما تعلمون جيداً وتعاني كريت من هجرتهم».

يوجد مقدار كبير من الحقيقة في هذا الكلام بحيث رغبت وأنا أسمع هذا الكلام لو أن أكراد تركيا تمكنوا من سماع هذا الكلام، وتفكروا ملياً بوجهة النظر هذه التي يقدمها رجل مثقف وحسن الإطلاع على أوضاع الإمبراطورية العثمانية.

كان يومي الأخير في دمشق يوم جمعة. ولدمشق في يوم جمعة ظريف كهذا اليوم منظر يستحق أن يرحل الإنسان من بلاد بعيدة لمشاهدته، جمهور كبير من الذكور يرتدون أفضل الثياب، يخطرون بالشوارع متنزهين، بائعوا الحلوى، ودلالوا الثياب المستعملة ينادون علي بضائعهم بصوت عال، ودكاكين المطاعم تتصاعد من قدور طعامها الجاهز أبخرة أروع الأطعمة المغرية، والخيول الرائعة ذات السروج المزركشة تتراقص على طول الطريق بجانب نهر بردى.

في وقت مبكر من بعد الظهر جاءني زوار متميزون، كان أولهم محمد باشا الجيرودي شيخ جيرود، وهي واحة على منتصف الطريق بين تدمر ودمشق.



٧٥ - بائع الحلوى

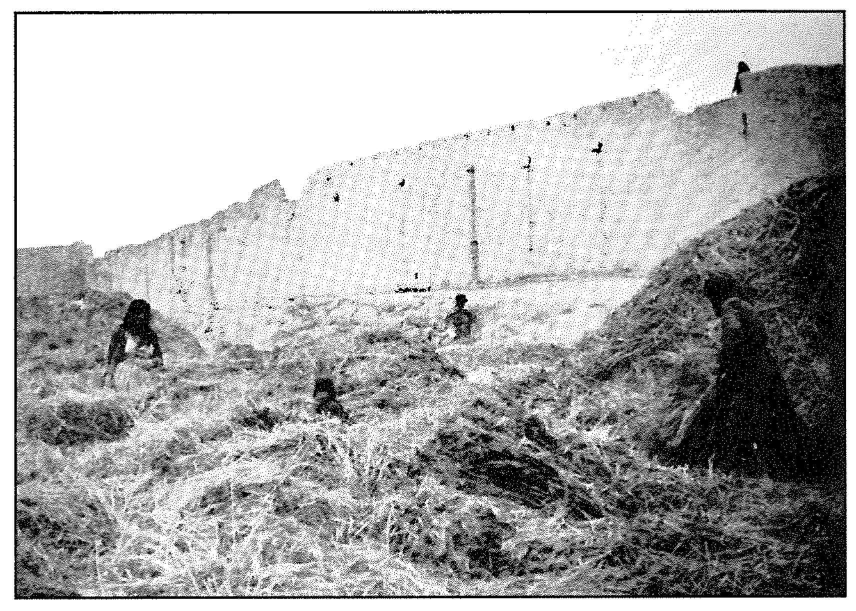
والجرودي هو ثاني أعظم قطاع الطرق في المنطقة (لا أحد يشك بهذا اللقب)، وقاطع الطريق الأول هو فياض آغا من بلدة القرتين وهي واحة أخرى على الطريق بين دمشق وتدمر. وأنا أتخيل أن فياض آغا شرير محتال على الرغم من أنه كان مؤدّباً معي عندما مررت بطريقه، أما الجيرودي فمخادع من صنف آخر، وهو رجل ضخم قوي البناء بعين حولاء، وربما كان فارس زمانه ومن أكبر الغزاة؛ لأن ثمة دماءً عربية تجري في عروقه، كما أن جده كان من شيوخ عنزة، ولكنه طعن في السن ويعاني من النقرس وثقل الجسم، وأصبح يتوق إلى السلام، والسلام صعب المنال؛ فانحداره من أسلاف محاربين، وموقع جيرود على أطراف البادية، الأمر الذي يجعل منها الملجأ الطبيعي لروح الصحراء العصية على الترويض، وهو مضطر لأن يكون على علاقة طيبة مع عشيرته العربية من جهة ومع الحكومة من جهة أخرى، وكلا الطرفين يحاول



٧٦ ـ فناء الجامع الكبير (جامع بني أمية)

أن يستفيد من نفوذه بعلاقته بالآخر. كما أنه من جهته يحاول أن يستفيد من الجهتين وهو ينظر بعينه الحولاء باتجاه متطلبات القانون وعينه السليمة مثبتة على مصالحه الخاصة. إذا كنت قد أحسنت فهمه. ولطالما طلب القناصل الغاضبون وعدة مرات من الوالي أن ينصفهم من الجرودي، ولكن الوالي رغم إشارته غير مرة على عدم موافقته على بعض أعمال الجيرودي المخالفة للقانون بشكل واضح، والحديث عن السجن لم يُتخذ أبداً هذه الخطوة النهائية قائلاً: إن الحكومة ترى أن الجيرودي رجل مفيد، ولا شك أن الوالي خير حكم.

ويأسف محمد الجيرودي كثيراً؛ لأنه ليس له أولاد ذكور حتى يرثوا ثروته الكبيرة، وقد أحاطت الجنادب ممثلين بقبيلة من أبناء أخوته وأخواته لتشكل عبئاً فوق عبء السنين. وقد تزوج حديثاً من فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها من عائلة الفياض، ولكنها لم تنجب له أطفالاً. وهناك قصة مشهورة شائعة في دمشق وهي حكاية لا يجري الحديث فيها بحضوره وهي



٧٧ - أرض البيادر في القرتين

أن الجيرودي أراد - أثناء حرب الثورة الدرزية الأخيرة - أن يُعبّر عن إخلاصه للسلطة، وحيث إنه يعرف الجبل جيداً فقد أُرسل بمهمة استطلاع مع ثلاثين أو أربعين رجلاً، وسار الجيش خلفه، واتفق أن مرّ على قرية صغيرة قرب عرمان، ورآه شيخ القرية وهو على معرفة سابقة به فدعاه إلى طعام، وبينما كان جالساً في المضافة ينتظر غداءه سمع الدروز يتناقشون خارجها فيما إذا لم يكن من الأفضل اغتنام الفرصة لقتله باعتباره ضابطاً في الجيش التركي.

فأراد جدياً الخروج منها، ولكن قواعد اللياقة الاجتماعية تلزمه بالبقاء وأكل الطعام الذي كان يُعد له على النار؛ ولذلك فقد أكل طعامه بسرعة عندما قُدّم إليه؛ لأن المناقشة خارج المضافة وصلت إلى نقطة أشعرته بقلق كبير، وما أن أنهى طعامه حتى ركب حصانه بسرعة وخرج سريعاً قبل أن يصل الدروز إلى قرار، وما أن ابتعد حتى وجد نفسه بين نارين؛ لأن الجيش التركي

كان قد وصل والمعركة الأولى في الحرب قد بدأت، وخاف هو ورجاله كثيراً وارتبكوا والتجؤوا خلف بعض الصخور بقدر ما استطاعوا، ثم انسحبوا واحداً إثر آخر إلى مكان بعيد في مؤخرة الجيش التركي. وقد ألّف الدروز شعراً حول هذه الحادثة، وهي تبتدئ على النحو التالي:

فرس الجيرودي مشهورة

جميلة وخيالها هرب مثل الطير

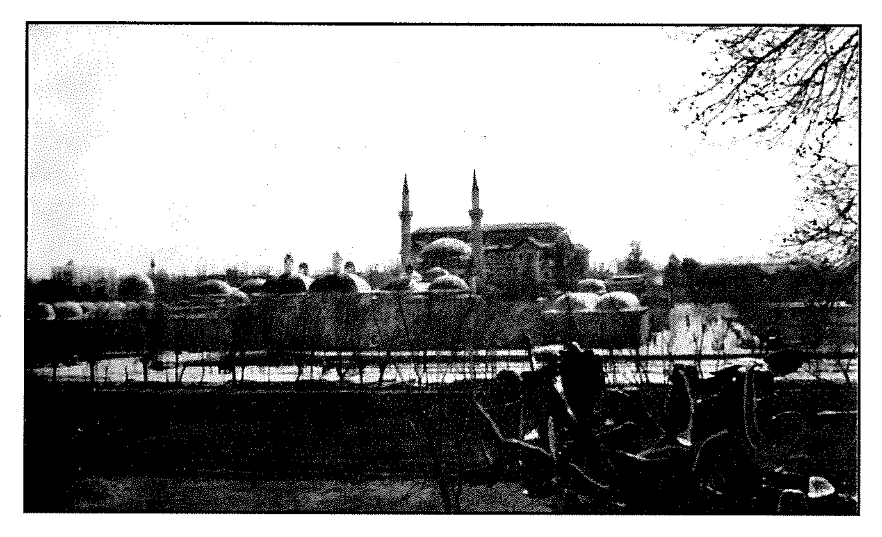
محمد باشا خبر دولتك

أين أصبح جنودك أين أصبح سلاحك.

ولا تُغنى هذه القصيدة أمامه.

كان زائري الثاني في هذا اليوم الشيخ حسان النقشبندي وهو ذو وجه يعكس المكر والدماثة، وقد استنبط وسيلة للاستفادة من الدقائق العشر التي قضاها في بهو الفندق لأخذ خاتم مبهرج رآه بإصبع سليم بك، حيث سأله رؤيته، فأعجب به إلى درجة أنه وضعه في جيبه قائلاً: إن سليم لابد أنه يرغب في تقديمه هدية لأصغر زوجاته التي تزوج منها في العام الماضي أو الذي قبله، فأجاب سليم: إنه في هذه الحالة يجب أن نذهب فوراً إلى منزل النقشبندي في الصالحية حتى تقدم الهدية، وكانت عربتا حسان ومحمد باشا من طراز فيكوريا واقفتان بالباب فركبنا نحن الأربعة بهما وسقنا باتجاه الصالحية عبر الشوارع المبتهجة بشمس الجمعة المشرقة، وعندما وصلنا باب المنزل قال سليم: عليّ أن أستأذن الوالي الذي يسكن في الجوار بالسفر، وأن أستعير عربة الجيرودي؛ لأننا يجب أن نذهب بأبهة، ثم التفت إلى محمد باشا

قائلاً: «ألن تأتي معنا؟» وقد صيغ السؤال بلهجة تهكمية؛ لأنه كان يعرف أن الجيرودي يمر بمرحلة إبعاد عن السرايا، وأنه قد خرج منذ فترة قريبة من السجن بعد أن أمضى عقوبة يستحقها.



٧٨ ـ التكية النقشبندية. أو تكية السلطان سليم

وهز الجيرودي رأسه واقترب منا ونحن جلوس في عربته وهمس: «قولوا شيئاً بالوساطة بيني وبين الباشا»، ووعدنا أن نتكلم من أجله، مع أن سليم أفضى إليّ ونحن نبتعد، إنه عندما كان مُبعداً عن السراي ـ وكان الموضوع بمجمله نتيجة لكيد أعدائه ـ لم يتقدم أحد لمساعدته، أما الآن وبسبب جودة وضعه فإن الجميع يرجون وساطته. ولفّ نفسه بمعطفه وتصدر إلى الوراء مستنداً إلى وسادة عربة الجيرودي شأن الفخور بنفسه المدرك أنه في موقع يستطيع أن ينجز ما يطلب منه إلى أبعد مدى.

كان ناظم باشا واقفاً عند باب قصره يودع القائد العام للجيش، وعندما رآنا نزل درج قصره ودعانا للدخول بأقصى درجات الترحيب واللطف، وكانت

هذه زيارتي الثانية لقصره، وقد كانت أقل تقيداً بالرسميات من الأولى، وتحدثنا عن الحرب اليابانية وهو موضوع لا ينفك محاوري على التحدث به قليلاً أو كثيراً، سواء أكان ذو منصب عال أو إنسان عادي، وتجرأت وسألته عن رأيه فقال: «رسمياً أنا على الحياد».

«ولكن بيننا كأصدقاء؟»

«طبعاً أنا مع اليابانيين» أجاب، ثم أضاف: «أأنتم الطرف الذي ربح من انتصارهم».

وأجبت: «ألم تربحوا أنتم أيضاً؟»

فأجاب بحزن: «نحن لم نربح شيئاً حتى الآن ولا شيئاً في مكدونيا».

ثم سألني إذا كنت قد تمتعت بزيارتي إلى دمشق..

فأجاب سليم بسرعة:

«لقد أصيبت بخيبة أمل كبيرة اليوم..»

وبدا الوالي مهتماً

«نعم» تابع سليم: «لقد أمّلت أن ترى زعيم قطاع الطرق، فلم تجد إلا شخصاً راغباً في السلام من سيادتكم».

قال الوالي: «من هو؟»

أجاب سليم: «محمد باشا الجيرودي».

لقد عُرضت الكلمة الطيبة بأسلوب ماهر جداً.

عندما عدنا إلى منزل الشيخ حسان أعدنا الحديث كما جرى عن الجيرودي الذي زوى وجهه تعبيراً عن الإستياء، ولكنه عدّ نفسه قانعاً بما حصل. ثم أخذني الشيخ حسان لأرى زوجته الخامسة حيث كان قد طلّق واحدة، لئلا يتجاوز النصاب المسموح به وهو أربع. وكان من الحصافة بحيث وضع كل واحدة منهن في بيت منفصل عن الأخريات.



٧٩ ـ خارج أبواب دمشق

ولم أحاول أن أستفهم فيما إذا كان قادراً على تأمين السلام حول موقده. كان هناك ثلاث نسوة في الغرفة الداخلية.. الزوجة وامرأة أخرى بدا واضحاً أنها ليست مدبرة القصر؛ لأنها غطت وجهها بملاءة الفراش عندما دخل الشيخ حسان إلى الغرفة، والثالثة مسيحية تقوم بالخدمة للضيوف من الرجال (وهناك أخريات عند الجيرودي وسليم)، والذهاب إلى السوق حيث تستطيع أن تتحرك بحرية أكثر من أختها المسلمة. كان حريم الشيخ غير مرتبات على نحو ملفت للنظر، ولم تكن النساء يتوقعن زيارة ويتهيأن لها، فلا يوجد منظر أكثر إهمالاً وشعاثة من منظرهن، ولعل فوضى غرفهن اللواتي يعشن فيها يعود إلى عدم وجود خزائن أو دروج فيها، وكل مقتنيات المرأة وحاجاتها موجودة في صندوق كبير ملون باللونين الأخضر والذهبي الذي يجب أن ينكث الإنسان جميعه عندما يحتاج إلى تناول أي حاجة منه ولْنَقُلْ

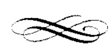
مندیلاً. ثم يبقى بعد ذلك غير مرتب على الأغلب. كانت زوجة حسان شابة وجميلة على أن شعرها يتدلى خصلاً حول وجهها ورقبتها وهي ترتدي عباءة منزلية وسخة على جسد يبدو وكأنه قد أمسى حطاماً.

ولكن المنظر من شرفة النقشبندي لا ينسى، دمشق العظيمة الرائعة بحدائقها وقببها ومآذنها تنتشر منبسطة في الأسفل وخلفها الصحراء التي تصل إلى بواباتها تقريباً، وفي هذا المكان لب كل المسألة.

هذا كل ما أعرفه عن دمشق أما بالنسبة لكنائسها وقلاعها فإن الجماعة التي تهتم بها تستطيع أن تشاهد ذلك بنفسها.



٨٠ـ السقاء. بائع الماء



الفصل الثامن:

كان الوالي قد سألني عن وجهتي بعد خروجي من دمشق، وعندما أخبرته أنني أريد الذهاب إلى بعلبك أجاب إنه سوف يرسل معي مجموعة من الحرس؛ لأنه لا يجوز أن تترك شخصية على جانب من الأهمية مثلي دون حراسة، وقد أجبت فوراً من أجل تجنب مزيد من المناقشة بأنني سوف أسافر في القطار، وحيث إنه لم يكن لدي رغبة حقيقية في أن أسافر بهذه الوسيلة المتقدمة فقد كان عليّ أن أبدأ سفري في البكور إذا كان عليّ أن أسافر وحيدة.

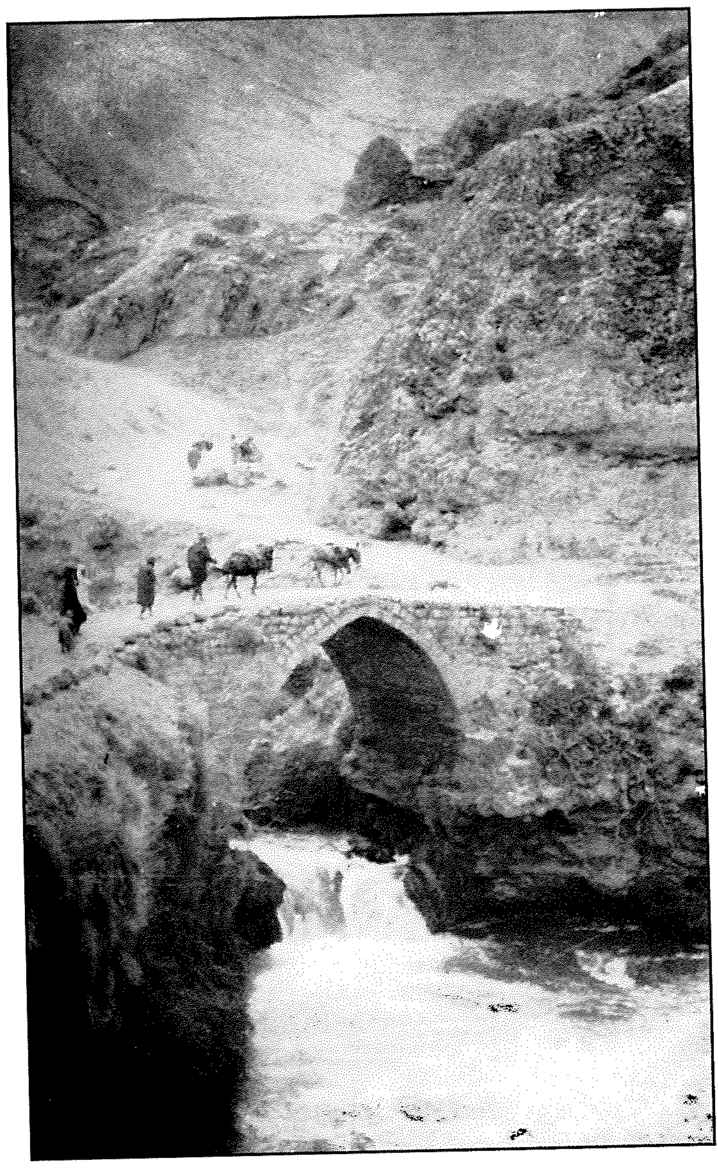
وغادرنا المدينة في صباح مشمس مشرق، حيث كان الطريق مزدحماً بعابري السبيل المبتهجين، وخيولنا تقاوم مكابحها بعد أسبوع من الراحة. ومررنا قرب منزل الأمير عمر في وادي بردى وشاهدنا ذلك الرجل النبيل يتمتع بالصباح المشرق على سطح بيته، وصاح من فوق سطحه يدعوني للدخول، ولكني أجبت إن لدي عملاً عاجلاً ورجوته أن يدعني أمضي في سبيلي.

أجاب: «مع السلامة، أرجو أن تأتي يوماً لنتخيل معاً».

قلت: «نرجو الله، الله يكافيك».

وبعد مسيرة ميل أو ميلين قدمنا إلى مفترق طرق، فغيرت طريقي وانطلقت باتجاه جبال لبنان الشرقية مباشرة من أجل تجنب لفت نظر الشخصيات الرسمية التي ستشرفني بدعوتها، وصعدنا فوق وادي بردى الجميل المزدان بأشجار المشمش (الذي لم يزهر بعد)، عابرين النهر فوق سوق

وادي بردى، ثم مضيق رائع ثم تابعنا بين الجبال المكسوة بالثلوج إلى الزيداني المشهورة بتفاحها.



٨١ ـ سوق وادي بردى

وهنا نصبنا مخيمًا منعزلاً في مرج أخضر بجانب نبع. كانت خواصر حرمون الثلجية تسد المشهد إلى جنوبنا، والقرية المبعثرة فوق منحدر الهضبة إلى شمالنا، ولا أحد في الزبداني سوف يعير انتباهاً لخيمتينا الصغيرتين.

في اليوم التالي عبرنا جبال لبنان الشرقية وسط رياح عليلة، كانت رحلة بديعة جداً فوق خيولنا بدون شك ولكنها رحلة طويلة استمرت ثماني ساعات وربع الساعة.

كان هناك نقوش في اللغة اللاتينية في أماكن متفرقة محفورة في الصخور على طول الوادي الذي ينحدر حتى يحفوفا في جنتا، أنا أتصور إننا كنا نسير في الطريق الروماني القديم ما بين دمشق وبعلبك. وسرنا الأميال الأخيرة الطويلة الجرداء تحت مطر غزير، رافقنا حتى بعلبك التي وصلناها مبللين، كان الجو عاصفاً على نحو لا يمكن معه التخييم، وكانت روحي تشمئز من فكرة المبيت في فندق. واقترح ميخائيل لحسن الحظ حلاً؛ قال: إنه يعرف امرأة مسيحية الأصل تعيش في مدخل القرية، والتي يمكن أن تؤوينا بدون شك. وقد حدث ما تنبأ به، فقد سُرّت المرأة المسيحية برؤيتنا، كان بيتها يتكون من غرفة نظيفة فارغة جُهزت بسرعة من أجل أثاث مخيمي، ورتب ميخائيل نفسه وجهاز طبخه في غرفة. وكان الهواء العاصف يفعل فعله في المصاريع، ولكن لم يسبب لنا أي أذى.

كان اسم مضيفتي قرنفلة، وقد كانت زوجة ليوسف الأواس الذي ذهب للارتزاق في أمريكا حيث ترغب أن تلحق به، وقد قضيت ساعة أو ساعتين معها ومع ابنها وابنتها وعدد قليل من الأقارب الذين جاؤوا للتمتع بقليل من السمر وقليل من الموسيقا جالبين معهم أعوادهم، وقد حدثوني أنهم قلقون جداً حول مستقبلهم.

إن معظم سكان بعلبك والمنطقة المحيطة بها ينتمون إلى طائفة إسلامية متعصبة تدعى المتاولة، الذين يتمتعون بسمعة خاصة جداً بتعصبهم وجهلهم، وهم عندما سمعوا بانتصار اليابانيين على الروس جاؤوا إلى جيرانهم المسيحيين وهزوا قبضاتهم في وجوههم قائلين:

«لقد انهزم المسيحيون هزيمة مُرة، ونحن بعد وقت قليل سوف نطردكم ونستولي على أملاككم». وتدخّل ميخائيل في الحديث قائلاً: إن الشيء نفسه حدث في القدس، قال: (أنا لا أعرف في الحقيقة أين الصدق). « فهناك أرسل المسلمون وفداً إلى المفتي وقالوا: إن الوقت قد حان لطرد المسيحيين، ولكن المفتي أجاب: إذا أثرتم اضطرابات فإن الدول الأوربية سوف تتدخل؛ لأن القدس هي سواد عيونهم» (هكذا أكد المفتي)، وسوف يأخذون كل البلد، وسوف يصبح حالنا أسوأ مما كان من قبل».

وحاولتُ طمأنة قرنفلة بالقول: إن من غير المحتمل أن يتعرض المسيحيون للاضطهاد في سوريا، فالبلد أصبحت معروفة جيداً، ويتردد عليها سواح كثيرون الذين لن يقصروا في إعلان ذلك على العالم. والحقيقة أن التدفق السنوي للسائحين أفضل ضمان لدوام استتباب النظام.

وقرنفلة الآن امرأة لبنانية، وقد سألتها لم لا تعود إلى قريتها في لبنان حيث تكون تحت حماية القوى الأوربية مباشرة وتتجنب الخطر؟ فقالت: «يا سيدة، البيت هنا لزوجي ولا أستطيع بيعه حتى يعود، كما لا أستطيع أن أتركه خالياً، وأكثر من ذلك فإن الحياة في جبل لبنان ليست مثل الحياة في السهل، وأنا التي تعودت على أشياء أخرى لا أستطيع تحمل الحياة هناك، ففي الجبل

ليس للناس من عمل إلا مراقبة جيرانهم، وإذا اتفق ولبست تنورة جديدة فإن القرية سوف تتهامس وتسخر منك وتقول: «ألم تروا الست؟».

انظري أنا سوف أريك ماذا تشبه الحياة في لبنان، أنا آكل في بعلبك لحمة كل يوم، أما في لبنان فيأكلونها مرة في الشهر، وهم يقسمون البصلة ثلاثة أقسام ليأكلوا في كل مساء قسماً من أجل أن يُنكّهوا البرغل، وأنا أضع حفنة من البصل في الطبق كل مساء. الحياة في لبنان موجعة».

الحياة في لبنان مليئة بالحرمان على نحو شديد بحيث إن كل من يستطيع أن يجمع بالتعاون مع أهله أجرة السفر إلى أمريكا، لن يتأخر في السفر. ثانياً: من المستحيل أن يجمع الإنسان المال الكافي لزراعة القمح أو التوت أو الكرمة. لا يوجد أي تقدم على الإطلاق (باستعمال التعبير السوري).

يشبه جبل لبنان زقاقاً محصوراً، وهو بدون ميناء على البحر وبدون تجارة. في الحقيقة إنك سوف تمشي هناك أميناً على حياتك، ولكن أي حياة هذه التي لا تقدم لإنسان إلا ثلث بصلة كل يوم على العشاء؟.

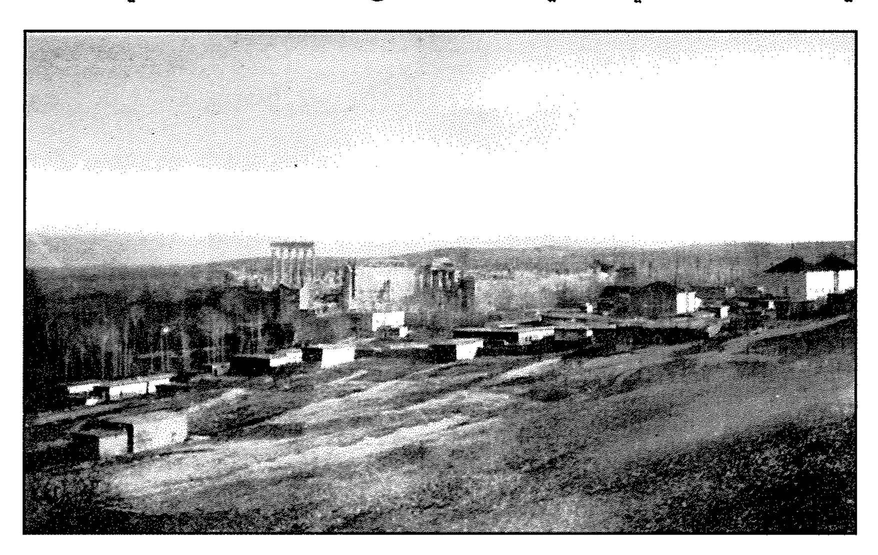
وكالعادة فإن الباب العالي لديه الكثير مما يستطيع تقديمه للقوى العظمى، لقد منحوا كل ما طلبوه. آه نعم، وبسرور، ولكن التنازلات التي بدا أنها تفتح الباب للتقدم قد أغلقت في الحقيقة البوابات إلى الأبد على أولئك الذين يفترض أن يستفيدوا منها.

ولم ينقطع المطر في اليوم التالي. واستقبلتُ ضابط الشرطة الذي اكتشفني بعد أن بحث عني طويلاً. لقد برهن على أنه رجل نبيل. كما قمت بزيارة عائلة برتغالية كبيرة تنزل في فندق مزعج قرب مأوانا، كان رب العائلة واسمه السيد لويس دوسومار مع زوجته وبناتهما وأحفادهما، وقد جاؤوا من

القدس إلى دمشق عن طريق جبل الدروز، وكنت قد سمعت عن وصولهم إلى السويداء عندما كنتُ في صلخد، وعجبتُ كيف استطاعوا أن يحصلوا على إذن بولوج ذاك الطريق، وكانت القصة غريبة وتعزز رصيد السيد دوسومار في الوقت الذي تبين مقدار رغبة الحكومة وحرصها على إبقاء الجبل بعيداً عن أعين السياح الفضولية. كانت العائلة البرتغالية قد قابلت السيد مارك سايكس في عمان وقد نصحهم بأن يغيروا طريقهم بحيث يمرون من قرية قنوات في جبل الدروز قائلاً: إنهم لن يجدوا صعوبة في الحصول على إذن بذلك. وسار السيد سومار ببراءة في ذاك الاتجاه، ولكنه عندما وصل إلى السويداء ـ التي كانت مركز الحكومة ـ أوقفه القائم مقام ورجاه بتهذيب ـ ولكن بحزم ـ أن يعود من حيث أتى، فأجاب بنفس الحزم إنه لن يفعل. وأرسل برقيات إلى قنصله في دمشق ووزيره المفوض في إستنبول، وحصل على هذا الأساس تبادل رسائل مثيرة، وكانت النتيجة أن سُمح له بمتابعة السفر إلى قنوات على أن يرافقه مئة شرطي كحرس.

وقال القائم مقام: إن المنطقة جد خطيرة مع أن تلك المنطقة ـ كما أعرفها أنا ـ تستطيع أن تسير بها المرأة دون حراسة، إلا من طفل درزي صغير، دون أن تخشى على نفسها شيئاً حتى ولو كان خرجها مملوءاً ذهباً. ولكن السيد سومار كان حصيفاً؛ فقد قال: إنه يرغب فعلاً بأن يرافقه مئة شرطي، ولكنه لن يدفع قرشاً واحداً لهم، وإزاء هذا الهجوم المعاكس غيّـر القائم مقام نغمته، وخفض عدد الحراس إلى عشرين.

وصل السيد سومار بحراستهم إلى قنوات بأمان، وهنأتُهم على عملهم الجريء كما هنأتُ نفسي لأخذي الإذن من فلاح العزو وليس من والي سوريا[1].



٨٢ - بعلبك

على الرغم من المطر لم يكن قضاء اليوم في بعلبك دون جدوى.. كان الألمان قد كشفوا منذ زيارتي السابقة معبد الشمس، وكشفوا مذابح كنيسة وينابيع وقطعاً من الزخارف وقواعد كنائس، كن جميعاً موضع اهتمام عميق. وأكثر من ذلك لقد كانت المجموعة الكبيرة من المعابد والأسوار المحيطة بها والواقعة بين سلستي لبنان الغربية والشرقية تعطي انطباعاً ليس له شبيه

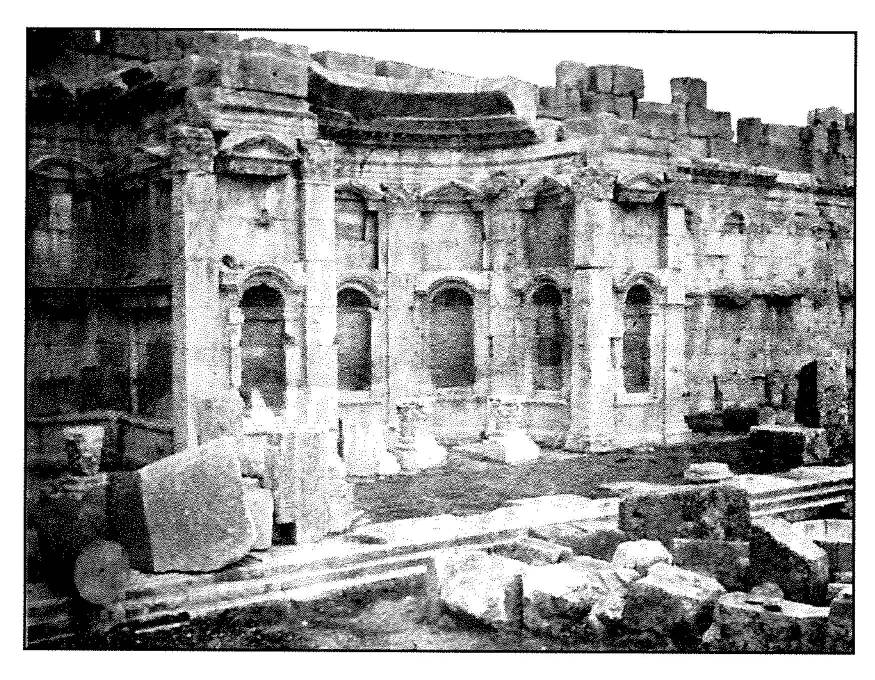
(١) لا شك أن هذا البرتغالي جاسوس، شأنه شأن السيد سايكس الذي طلب منه السفر إلى قنوات، وهو ليس ساذجاً، كما تحاول أن توحي به المؤلفة. إن هؤلاء الجواسيس ومنهم المؤلفة كانوا يتذرعون للدولة العثمانية بحجة التنقيب عن الآثار أو غير ذلك من الحجج، ويستغلون ذلك من أجل دراسة الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطرق الواجب اتباعها لتمزيق الدولة العثمانية واقتسام البلاد فيما بينهم مستقبلاً. ورغم معرفة العثمانيين لنيّات الدول الأوربية الخبيثة إلا أنهم لم يكونوا قادرين على منعها؛ بسبب ضعفهم وبنية الدولة النخرة. (المترجم)

سوى بمجوعة معبد اكروبول أثينا في اليونان الذي ليس له نظير، فتفاصيل وزخارف معبد بعلبك ليست جيدة مثل معابد أثينا، فالعظمة التي لا تجارى، وحصر هذه العظمة بين إبداعات المهندسين التي لا يمكن الوصول إليها، والموقع الرائع على قمة الهضبة المطلة على زرقة البحر وعلى خليج سالاميس لا يمكن منافسته. ولكن وبشكل عام إن الأثر الذي تتركه آثار بعلبك في النفس يقترب من أثرها أكثر من أي مجموعة أبنية أثرية أخرى وهي تبعث بالنفس، مصادر لا تنتهي للتأمل والتفكير بأولئك الذين شغلوا أنفسهم بالربط بين العنصرين الإغريقي والآسيوي، الذي أبدعها وزخرف مواقع أبوابها وعتباتها ورؤوس أعمدتها بزخارف لا تنتهي في تنوعها وأسلوب تنفيذها البديع.

وبالنسبة لعالم الآثار إما صاف أو غير صاف، وتهبط كل أعمال الخيال الإنساني في مكانها المشار إليه في تاريخ الفن مشيرة ومنيرة فهمه لها. وهو سعيد على نحو مزدوج، وذلك أنه عندما يكون الناتج عن أعماله جميلاً يعود مفعماً بالشكر.. ولكن أيّاً كانت النتيجة فمن المؤكد أنها سوف تزوده بشيء جديد أو برباط جديد بين هذا الفن وذاك، أو تنقله درجة أعلى في سلم التاريخ. وهو على هذا حريٌّ بأن يكون راضياً جداً عن الشيء الذي يراه، وفوق كل ذلك هو لن يقول: «واأسفاه.. واأسفاه.. هذه الكلاب السورية! لقد كان فيدياس سيعمل كذا وكذا». وذلك أنه سوف يكون سعيداً بملاحظة محاولة جديدة على طريق المساحي الغنية ونفساً غضاً جديداً يحرك أوراق العرائش الشوكية الزخرفية، وحلية العنب المزخرفة على تيجان الأعمدة والأفاريز.

ترافق خروجنا من بعلبك بحدث مؤسف ـ لقد اكتشفت فقدان كلبي كورت. وهو على خلاف معظم الكلاب السورية الشاردة، ذو مزاج ودود جداً،

كما أنه نَهِم وشَرِه (وهو في هذه النقطة لا يختلف عن فصيلته نصف الجائعة) وكان الاحتمال أن يكون قد أُغري بعظمة وسحب بعيداً ثم حبس حتى نذهب في طريقنا بعيداً عن القرية. وانطلق حبيب عبر القرية في اتجاه وانطلق



٨٣ ـ فناء القصر الكبير في بعلبك

ميخائيل باتجاه آخر، في حين حاول ضابط الشرطة الذي ظهر في هذا المشهد المثير للقلق أن يضع بلسماً على مشاعري الجريحة. وبعد عدة دقائق ظهر حبيب مع كورت الذي كان يهز ذنبه خلفه وبرقبته سلسلة. وأوضح حبيب لاهثاً أنه وجده في بيت رجل فكّر بسرقته وربطه بعد أن وضع جنزيراً في رقبته، وعندما سمع كورت صوتي نبح، ودخلتُ إلى حوش المنزل فشاهدته، وطلب صاحب الجنزير جنزيره، فرفضت بالله أن أعطيه له، ورميته أرضاً بدلاً من ذلك وضربته به، الله يلعنه متوالي حرامي وهكذا تركته.

وهكذا كنت مسرورة لأسجل بأن المتاولة طائفة غير شريفة كما تقول عنهم الشائعات، ولكن مكائدهم لم تستطع شيئاً أمام يقظة المسيحيين.[1]

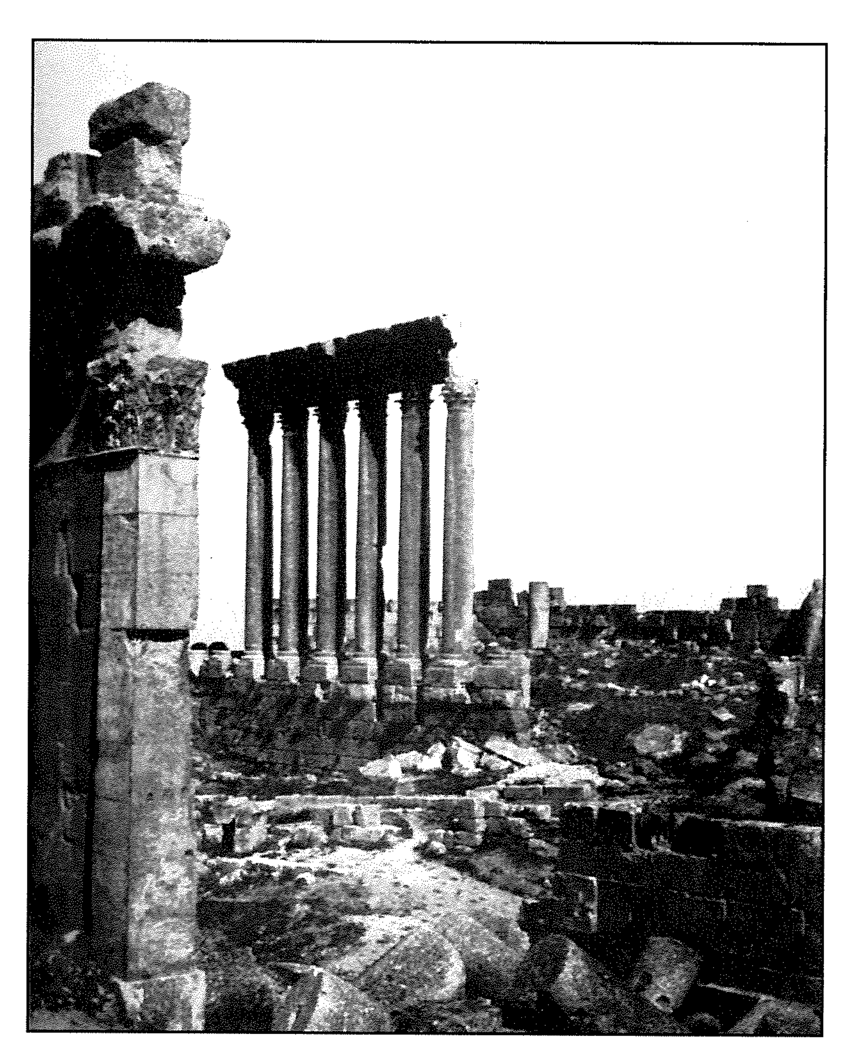
وهبطنا سائرين في الوادي الموحش جداً بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، وقد كان يمكن أن أسافر بالقطار إلى حمص وأن أتابع بعد ذلك إلى حمّاة، ولكني فضّلتُ أن أسير من مكان إلى آخر بين جنبات الوادي حيث ما ذهب بي الخيال، وأن أزور الأماكن ذات الأهمية التي تستحق المشاهدة في المنطقة، وهذا لا يمكن أن يتم إلا على ظهر الجواد. كنت أجهل كل المناطق السورية الواقعة إلى الشمال من بعلبك، كما أنها علامة بارزة أيضاً للدلالة على وصولنا إلى حدود «خريطة اكتشاف فلسطين».

وقد لجأت الآن إلى خريطة كيبرت الصغيرة، ولكن الرائعة التي سبق ونقلتها من كتاب اوبن هايم الذي تركته في صاله في جبل الدروز، ولا يوجد خريطة أخرى مقنعة على نحو كاف حتى خط يصل إلى ثلاثين ميلاً جنوبي حلب، حيث تبتدئ خرائط كيبرت قياس ١ / ٤٠٠,٠٠٠ وعندما يتم طبع المعجم الجغرافي الأميركي فإني آمل أن يتم استكمال النواقص.

بعد أربع ساعات ونصف وصلنا إلى اللبوه حيث تتفجر المنابع الرئيسية لنهر العاصي من باطن الأرض في عدة ينابيع رائعة المنظر. وهنا أدركنا دركيان كانا قد أُرسلا خلفنا من قبل القائم مقام وسألاني بأدب فيما إذا كنت أرغب بحراسة، وقد أعدتُ أحد الدركيين واستبقيت الآخر لئلّا أجرح مشاعر القائم مقام، وكان اسم هذا الأخير درويش، وكان متعاونًا ودمثاً شأنه في ذلك

(١) حكمت المؤلفة أن المتاوله طائفة من اللصوص من خلال حادثة شخصية. تُرى ما حكم الإنسان على القراصنة الإنكليز وعلى الشعب الإنكليزي ككل من خلالهم؟. (المترجم)

شأن كل من أتى بعده من حراسنا أو مرافقينا حتى وضعت رجلي في القطار في قوفية، وقد أضاف بعضهم الكثير من المتعة للرحلة قاصاً لي العديد من الحكايا عن تجاربهم ومغامراتهم أثناء ركوبنا خيولنا معاً ساعة بعد ساعة.



٨٤ ـ أعمدة معبد الشمس في بعلبك

كانوا يتمتعون بالشظف في الحاميات العسكرية والقلاع وهو ما كانت تقدمه لهم، كما كانوا يبتهجون بالمجيدي[1] اليومي الذي أمنحه لهم، وهو أكثر بكثير من الراتب الذي يتقاضوه من الحكومة، كما كنت أعطيهم مكافأة قليلة عند انتهاء مهمتهم، وكانوا يأكلون ويُطعِمون خيولهم على حساب مؤن الفلاحين وحبوبهم التي كانت كما أعتقد بالقوة، وهي طريقة من الاغتصاب الوظيفي، لا يملك الرحالة أي وسيلة لمنعه.

يوجد في اللبوه خرائب معبد بُني بحجارة ضخمة على نمط آثار بعلبك؛ منصة مكونة من أربعة ممرات ضخمة من الحجارة متوّجة بحلى معمارية بسيطة، وببقايا وجه مفلطح. والقرية يملكها رجل متوالي غني اسمه أسعد بك، وهو أخ لدكتور من نوع خاص اسمه حيدر، المشهور كرجل من أهل الله في شمال سوريا، وأنا لم أذهب إلى دمشق دون أن أقابله، ولم أقابله إلا وشعرت بالرضا، وذلك أنه مطّلع جيداً على الأدب العربي، وذكي على نحو متميز. وقد تعاقد في الفترة الأخيرة على عمل في سكة حديد الحجاز، وهو كما أعلم النموذج الوحيد من طائفته الذي تلقى ثقافة عالية وتبوّأ مركزاً ممتازاً.

وخيّمنا عند رأس بعلبك بجانب نبع رائع في ممر ضيق بين التلال الشرقية الجرداء يبعد عن اللبوه حوالي ساعة ونصف الساعة، ولم يعد الصقيع يقرصنا والحمد لله ولكن الطقس مازال بارداً، ولكن عندما استيقظنا عند الفجر كان المطر المتجمد يضرب جدران الخيم، وركبنا طيلة النهار في طقس عاصف قاس، كنا في الثامن من آذار والربيع يسافر ببطء في شمال

(١) عملة في العهد العثماني صُكّت في عهد السلطان عبد الحميد في القرن التاسع عشر، وهو يعادل حسب رأي المؤلفة في ذلك الوقت أربع شلنات إنكليزية.

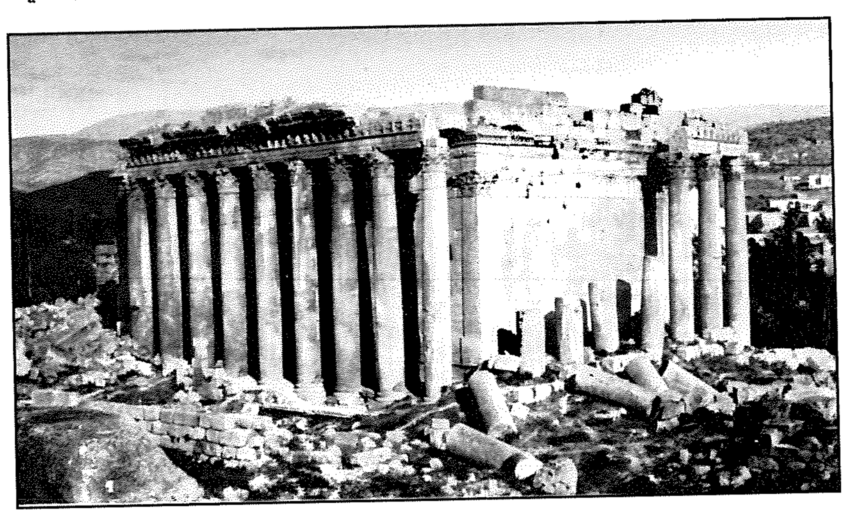
سوريا، وأرسلت مخيمي في الطريق المستقيم، وركبت مع درويش إلى أثر يقع على بعض المرتفعات في منتصف وادي العاصي، والذي يمكن رؤيته في ذلك الفسيح المنعزل من الأرض من مسافة يوم كامل في كلا الجانبين، كان برجاً طويلاً بني بحجارة ضخمة تُوّج برأس هرمي، وزين ببروزات من الجدران وطنف خشن ونقش منخفض بارز يصور مناظر صيد وصور معارك حربية، ويدعوه السوريون قاموع هرمول على اسم القرية القريبة منه.

ويقول العلماء: إنه ذكرى لمعركة كبيرة من العهد الروماني، ولكن لا يوجد نص مكتوب يبين صحة أو خطأ زعمهم، وهو يقع على بُعد ساعتين من رأس بعلبك، وركبنا ـ تضربنا الرياح الغاضبة بعنف شديد ساعة ونصفاً أخرى ـ نحو سلسلة من التلال تحمي فتحات تهوية قناة ماء، وهي كلمة عربية قد تكون من أصل فارسي، والعكس. وبعد ساعتين ونصف أخرى وصلنا إلى القصير وتأخرت البغال عنّا ربع ساعة، ونصبنا خيامنا بصعوبة بجانب المقبرة خارج القرية الطينية البشعة، وسكنت الرياح بعد غروب الشمس وخيم سلام مادي ومعنوي على مخيمنا، وحتى مزاج ميخائيل الظريف الطيب الباحث عن الفكاهة قد أصابه نوع من الهمود تأثراً بالجو العام، ولكن حبيباً جاء وهو يبتسم كالعادة.

وأنا الآن سعيدة بأن أتذكر أنني رغم تعكر مزاجي تحت ثقل العاصفة إلا أنني استطعت أن أحتفظ بهدوء الفلاسفة. ولم يكن محمد الدرزي معنا؛ لأننا خلفناه وراءنا في دمشق. كانت الصعوبات والمشاجرات تنبثق باستمرار بينه وبين الآخرين سواء لأسباب تعود إلى أخطائه أو تعود لتآمر الآخرين عليه، وكان لابد من التضحية بأحد أفراد الطاقم حفاظاً على السلام في القافلة،

وكان عقدي معه ينتهي في دمشق وافترقنا على أحسن حال، وخلفه أناس آخرون مستأجرون عاديون غير متميزين حسب الحاجة واحداً بعد الآخر.

كان وادي العاصي سابقاً موطناً لمضارب البدو، ولا يزال عدد محدود من مشايخ الحسنة يخيمون فيه في الفصول الجافة، إضافة إلى بعض مشايخ الرولة من عنزة، ولكن كبد العشيرتين قد طرد بعيداً بسبب تحول المراعي إلى أرض مزروعة، ويحمل قاموع هامول سجلهم على شكل وسم العشيرة القديم. وقد كان مما يلفت النظر أكثر أن نتذكر أننا نقف الآن في القواعد الرئيسية الجنوبية للحثيين أيّا كانوا. وأكثر النقوش التي اكتشفت من آثارهم في حماة



٨٥ـ معبد جوبيتر في بعلبك

لا تزال غامضة لم تحل كتابتها بعد، وهي تقبع الآن في متحف إستنبول وقد حيّرت كل علماء الآثار.

وسكان القصير حالياً يتكونون جزئياً من المسيحيين وعدد محدود من طائفة تدعى النصيرية (وهي طائفة لا يعتبرها المسلمون مسلمة تماماً).

وكذلك فهم يحاولون شأنهم شأن الفرق الدينية الصغيرة أن يبعدوا الأمور التي تظهر خلافهم مع عقيدة الطائفة المسيطرة، فهم يبقون عقائد مذهبهم سرية ما أمكن، ولكن داسو استطاع بصعوبة الدخول إلى قلب عقيدتهم ووجدها ممتلئة ببقايا العقائد الفينيقية.

وقد بقيت هذه العقائد الفينيقية سليمة لم تمس؛ بسبب عزلة هذه الطائفة في معاقلها الجبلية بعيداً عن المؤثرات الخارجية، وقد حافظوا على الطقوس الدينية السامية القديمة، وقد شغلوا موضعاً شريفاً متميزاً في أعين حاملي الثقافة السورية باعتبارهم ينحدرون مباشرة من أسلافهم الوثنيين في الوقت الذي بقي أكثرهم جاهلاً لأصولهم القديمة، ويروي سكان المنطقة أحاديث سقيمة حول معتقدهم متبعين العادة الثابتة في همسات القيل والقال فيما يتعلق بالأمور التي لا يتاح لهم فهمها وقد أُخبرتُ بأن الإشارات والعلامات المشاهدة من سلوك هذه الطائفة تجعل كل شيء مرغوب، وقد أبعد العالم داسو الغموض الذي كان يغلف عقائدهم. وحسب تجربتي من سلوكهم تجاه الغرباء قادتني لتبني موقف كريم محايد.

وقد قضيت خمسة أيام في الجبال غربي حمص، وأسبوعاً قرب إنطاكية، وهي المقاطعة الرئيسية التي يتواجدون فيها، ولم أجد أي سبب يدعوني للشكوى منهم. لم يكن كلبي كوت سعيداً جداً مع المجموعة التي وجد نفسه بينها في القصير، فقد استمر بالنباح طيلة الليل، حتى كدت أرغب لو بقي في حوش المتوالي.

كان الطقس رائعاً في اليوم التالي، وقد عملت جولة طويلة مع ميخائيل من أجل احتمال زيارة تل النبي مندو في موقع قادس على العاصي، وهي

العاصمة الجنوبية للحثيين، ويجب أن تكون هذه المدينة في أيامها جميلة. كان التل الذي بنيت فوقه يطل على سهل فسيح مزروع بالقمح، وإلى الجنوب منها يقع نهر العاصي الذي يجري بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، وإلى الغرب منها تقع جبال النصيرية التي تحميها من البحر، وبين سلسلة جبال لبنان وجبال النصيرية فرجة منخفضة يسلكها التجار والسلع التجارية إلى الساحل، وإلى الشمال تقع سهول الداخل السورية الممتدة حتى الأفق، وإلى الشرق تقع البادية السورية الممتدة حتى تدمر، وتغتسل أقدام التل بمياه العاصي الفتي الشغوف المتمرد، وعلى بعد ستة أميال منه تقع بحيرة حمص (قطينة)، ويتم الوصول إلى التل عبر مروج من العشب.

كما أن ثمة طاحونةً مائية تدور بمرح بين أشجار الصفصاف، ولا شك أن المنطقة مازالت مسكونة منذ أيام الحثيين وحتى الآن؛ لأن التاريخ يتحدث عن مدينة سلوقية تدعى لودوشيا العاصي. كما أن هناك آثاراً لبلدة مسيحية. وقد بنى كل جيل خلف فوق رماد من سبقه مما أدى إلى ارتفاع التل أكثر فأكثر، وأصبحت آثار من سكنوه أغنى فأغنى بدون ريب، ولكن من غير الممكن التنقيب به؛ بسبب البيوت الطينية التي تشبه خلايا النحل التي خلفت مدينتنا لودوشيا وقادس. والجبانة الصغيرة الواقعة في الجهة الشمالية من القرية، والتي يجب أن تبقى حسب رأي المسلمين بعيدة عن أي إساءة حتى ينفخ جبرائيل في الصور ليبعث من في القبور[1]. وقد لاحظتُ شظايا أعمدة

---

(١) لا يوجد قدسية للمقابر عند المسلمين؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «خير القبور الدوارس». إن تقديس المقابر الموجود الآن عند بعض المسلمين أتى تقليداً للمسيحيين الذين يهتمون كثيراً بمقابرهم. أما البعث فإن الملَك الموكل به هو إسرافيل وليس جبرائيل كما قالت المؤلفة. (المترجم)



٨٦ ـ تيجان في معبد جوبر في بعلبك

وتيجاناً عالية جداً بين البيوت، ولكن اهتمامي عندما كنت واقفة فوق قمة التل كان منصبّاً بشكل رئيسي حول تصوري للمعركة التي جرت في قادس بين الملك الحثي والفرعون المصري الذي كان يعاصره، والتي سجلت وقائعها على نُصب في اللغة الهيروغليفية في مصر، وعلى مسافة ربع ساعة من السير إلى الشمال من تل النبي مندو كان ثمة تل ترابي آخر يقول العرب إنه مرسى سفينة

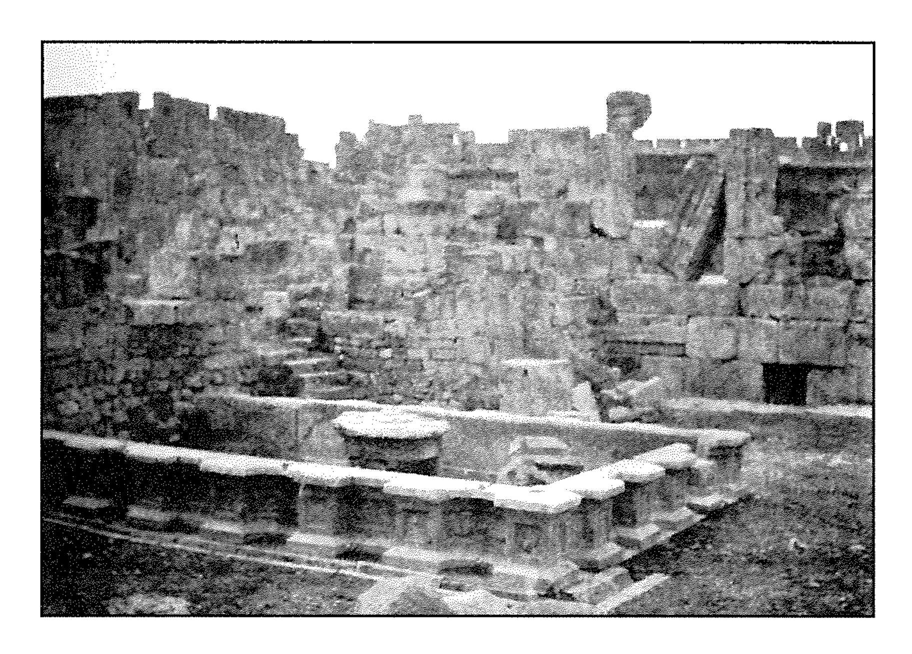
نوح وفي رأي علماء الآثار إنه قلعة آشورية. وعلى كل طرف أن يدعم وجهة نظره على مسؤوليته الخاصة.

كان مرتفعاً من الأرض مربع الجوانب، وقد وجهت جوانبه بدقة حسب اتجاه البوصلة، يرتفع عن السهل المحيط به ما بين أربعين إلى خمسين قدماً ومحاط بخندق ما تزال زواياه حادة حتى الآن.

وقد صعدنا بخيولنا إلى قمته التي لاحظنا أنها منبسطة وصلبة التربة تبلغ مساحتها حوالي ثمن ميل مربع، وكانت زواياها الأربعة مرتفعة قليلاً كما لو كانت بقايا أبراج، وكانت الأرض وبقايا السوار مغطاة كلها بقمح الربيع. ترى من بناه؟ بطريرك أو آشوري، ويجب أن يكون قد تعب في بنائه.

ولكن وفيما عدا خنادق محدودة جداً قد تم حفرها عبره فإن الهدف الذي وجه سير الأعمال يبقى غير محدد. وهبطنا بعد ذلك إلى البحيرة وتغدينا بجانب مائها المتموج على شاطئ من المحار النظيف، وكان ثمة تلان قريبان من الشط.

وآخر على بعد ميل أو ميلين خارج حمص. على حين أن قلعة حمص قد بنيت فوق رابع، وكل هذه التلال تبدو صناعية وربما كانت تحتوي على آثار لمدن كانت شقيقة لقادس، ويجب أن يكون السهل الخصيب الواقع إلى الشرق من نهر العاصي، والذي كان دائماً قادراً على إعالة أعداد كبيرة من البشر، كان موطناً بشكل دائم لأعداد كبيرة من السكان، ربما كان عددهم في العهد الحثي أكبر من عددهم الآن. واستمر ركوب ذلك اليوم من الساعة التاسعة والنصف حتى الساعة الثانية بعد الظهر بما في ذلك ثلاثة أرباع الساعة في تل النبي مندو ونصف ساعة على شاطئ البحيرة.



٨٧ ـ حوض في ساحة القصر الكبير في بعلبك

دخلنا حمص عبر المقابر، وهذه المقبرة التي ربما زاد طولها على ربع ميل من القبور ليست مَعْلماً خاصاً بحمص، وإنما هو حالة عامة في كل المدن الشرقية، تحرس كل مدينة ككتائب من الموتى، وتتموج حياتها من وإلى عبر أفواج من شواهد القبور الحجرية المعممة. وقد اتفق وكان دخولنا مدينة حمص في يوم خميس، ويوم الخميس هو يوم جميع أرواح الميتين في العالم المحمدي [1]. مجموعات من النساء المحجبات يضعن الزهور على قبور موتاهن، أو يجلسن حولها منغمسين في أحاديث مفعمة بالحيوية والنشاط.

(١) يحب المستشرقون والأوربيون أو الغربيون عموماً أن يسموا المسلمين باسم المحمديين مثلما يدعى النصارى بالمسيحيين وهذا خطأ كبير لأن ثمة فارق كبير بين النسبتين فالمسيحيين يعبدون السيد المسيح وهو مساو للأب في الجوهر وهو مع الأب والروح القدس يشكلون إلاهاً واحداً. على حين أن المسلمين موحدون لا يعبدون محمداً، وإنما يعدّونه نبياً مثل غيره من الأنبياء والرسل، وهم جميعاً بشر يتزوجون ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. (المترجم)

وتعُدّ المقابر الأماكن المفضلة للنساء الشرقيات للتنزه والمتعة، وكذلك مكاناً مناسباً للعب الأطفال، ولا تترافق مع الغم الذي يغلف المكان ليترك أثره في بهجة الزائرين.

ونصبت مخيمي على طرف المدينة بمكان مفروش بالعشب الأخضر تحت خرائب حظائر عسكرية بناها إبراهيم باشا، وتم هدمها مباشرة بعد موته [1] من قبل السوريين الذي كانوا يرغبون بإزالة أي أثر يذكرهم باحتلاله. كان قد تم تجهيز كل شيء لي، الماء المغلي من أجل الشاي ورسالة من القائم مقام تؤكد لي أن كل ما أرغب فيه سوف يحظى باهتمام فوري. وعلى الرغم من كل شيء لم أحب مدينة حمص ولن أخيم فيها مرة أخرى باختياري، وهذا القرار يعود لسلوك سكانها الذي سوف أصفه فيما يلي:

كان تصرف القائم مقام ليس غير عاديّ. وقد زرته بعد شرب الشاي، ووجدته تركياً مقبولاً، يُحسن قليلاً من العربية، دمث الحديث.

وكان هناك عدة أشخاص بين الحضور، المفتي المعمم وشيوخ وقورون.

ودار حديث ممتع حول فنجان القهوة، وعندما أردت الذهاب قدم إلي القائم مقام جندياً لحراستي أثناء تجوالي في المدينة، ولكني رفضت قائلة: إنني ليس لدي ما أخاف من أجله إضافة إلى أنني أتكلم اللغة العربية. وكنت على خطأ، فمعرفة اللغة العربية ليست كافية ليتمكن الغريب من التعبير عن رأيه عند أهالي حمص. ما إن مشيت قليلاً في السوق حتى بدأت المضايقة،

(١) لقد احتل الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا سوريا عام ١٨٣٠ وخرج منها عام ١٨٤٠، ومات إبراهيم باشا في مصر عام ١٨٤٨ أي بعد خروجه من سوريا بثماني سنوات. ولعل المؤلفة تريد أن تقول أن هذه المنشآت العسكرية قد هدمت بعد خروج إبراهيم باشا من سوريا وهو أقرب إلى المنطق. (المترجم)

ولعلي كنت كشخصية المهرج في الرواية الهزلية ـ (بيب بيبر اوف هاملين) ـ بالنسبة للأطفال الصغار الذين كانوا يسيرون ورائي زرافات أين ما سرت، وقد تحملت فضولهم لبعض الوقت، ثم أخذت أناشدهم الابتعاد عني، ولما لم أستفد شيئاً طلبت المساعدة من أصحاب الحوانيت في السوق.

وقد ساعد هذا لبعض الوقت، ولكنني عندما حاولت غافلة أن أدخل المسجد لم يتبعني الأولاد الصغار فقط، وإنما كل الرجال في حمص ـ أو هكذا بدا الأمر لخيالي المحموم ـ تجمعوا خلفي. لم يكونوا منزعجين، لم يكن لديهم رغبة لمنعي، بل على العكس كانوا شغوفين بأن أدخل لوقت طويل ليصبح لديهم وقت أطول لمراقبتي.

ولكن الأمر كان أكبر من أستطيع التحمل، ولذلك فقد هربت راجعة إلى مخيمي، تتبعني مئتا زوج من العيون الفضولية، وأرسلتُ مباشرة أستدعي شرطياً. وكنت عاقلة في اليوم التالي حيث اصطحبت معي شرطياً منذ البداية، وصعدنا إلى قمة القلعة لنلقي نظرة شاملة على المدينة.

وعلى الرغم من أن المدينة لا تتمتع بجمال خاص إلا أن لها شخصيتها المتميزة، إنها مبنية من الحجارة البركانية، وقد بنيت بيوتها الكبيرة محاطة بفناء، وقد زينت جدرانها بأسلوب جميل حيث وضعت الحجارة الكلسية البيضاء في صفوف مستقيمة بين صفوف الحجارة السوداء على نحو متعاقب من السواد والبياض مثل واجهة كاتدرائية سينا. ويذهب الذهن أكثر إلى إيطاليا عندما يشاهَد أسلوب بناء المآذن المكونة من أبراج مربعة طويلة في كل أنحاء العالم مثل أبراج سان كيميكنانو (Gimignano)، فيما عدا تلك المبنية في حمص التي تُتوّج بقبة جميلة جداً ومؤثرة. ولاحظت أن كل الآثار الباقية في

القلعة إسلامية الأصل. وكذلك الأسوار المحيطة بالمدينة فيما عدا جهة واحدة إلى الشرق حيث بدا وكأن السور العربي قد بني فوق قواعد أقدم، ولم أشاهد أي أثر لبناء يعود لما قبل العهد الإسلامي سوى خربة من القرميد خارج بوابة طرابلس التي تعود بشكل مؤكد إلى العهد الروماني، وهي التذكار الوحيد لمدينة إيميسا الرومانية، والقلعة هي أيضاً خارج المدينة، وعندما أنهيت استطلاعي العام دخلنا من البوابة الغربية، ومضينا نبحث عن الأماكن التي تستحق المشاهدة، وهذه العملية تحتاج إلى وقت؛ وذلك لأنها كانت تُقطع دائماً بدعوات قوية من أجل قبول الضيافة وشرب فنجان قهوة.



٨٨ - قطعة من إفريز سطح معمد في بعلبك

ومررنا بجامع التركمان حيث كان هناك نقشان إغريقيان على حجرين استُعْملا في بناء المئذنة. كما رأينا ناووساً حجرياً نقش عليه أشكال رؤوس ثيران، وأكاليل زهور قد استُعْمل كحوض ماء. وكان من رأي الشرطي أن أذهب

لأقدم احتراماتي لأسقف كنيسة الروم الأرثوذكس، فذهبت إلى قصره، ولكنني اكتشفت أنني قد بكرت جداً في ذهابي لرؤية سعادته.

وقد استضافوني على أي حال وقدموا لي مربى وقهوة وماء، وأصغيتُ لتفجّع أمين سر الأسقف على الانتصار الياباني، وقد استمرت كنيسة الروم الأرثوذكس طيلة فترة الحرب بإقامة صلوات التوبة عندما كانوا يسمعون بهزائم الروس، ويدعون العلي القدير أن يصفح عن أعداء المسيحية. وقد انتدب أمين السر خادماً من أجل أن يريني كنيسة مار الياس الصغيرة التي تحتوي على ناووس رخامي رائع نُقِش على هيكله صُلبان لاتينية وصُلبان إغريقية على غطائه، وهو إضافة متأخرة ـ كما أتصور ـ لقبر تقليدي.

وقابلتُ خارج الكنيسة رجلاً يدعى عبد الوهاب بك كنت قد رأيته سابقاً عند زيارتي لدار الحكومة تلبية لدعوة القائم مقام، فدعاني إلى منزله. وهو مَثَلٌ لهندسة البيوت الحمصية التقليدية، وقد زينت ساحة الحريم على نحو جميل بالحجارة الكلسية البيضاء والحجارة البازلتية. وعندما خرجت من منزل عبد الوهاب بك قال الشرطي ـ الذي التقط المشاهد التي أرغب بمشاهدتها ـ إنه سوف يأخذني إلى منزل حسن بك النئي الذي يعتبر الأقدم في حمص. وبينما كنت أمرُّ في الشوارع الضيقة ـ ولكن النظيفة على نحو ملفت للنظر ـ لاحظت أنه ربما يوجد في كل بيت نول نسيج حيث ينسج النساجون قماش الحرير المقلم الذي تشتهر به حمص، على حين كانت معظم الشوارع مزدانة بالخيوط الحريرية. وقال الشرطي: إن العمال يأخذون أجرهم على القطعة ويربحون من سبعة إلى اثني عشر قرشاً في اليوم (من شلن إلى شلنين)، وهذا يُعد أجراً عالياً في الشرق. وأضاف إن الحياة رخيصة؛ إن

الرجل الفقير يستطيع أن يستأجر بيته المكون من غرفة واحدة بمئة قرش في السنة، ويطعم أسرته لقاء ثلاثين إلى أربعين قرشاً في الأسبوع، وحتى أقل من ذلك إذا لم يكن لديه عدد كبير من الأولاد.



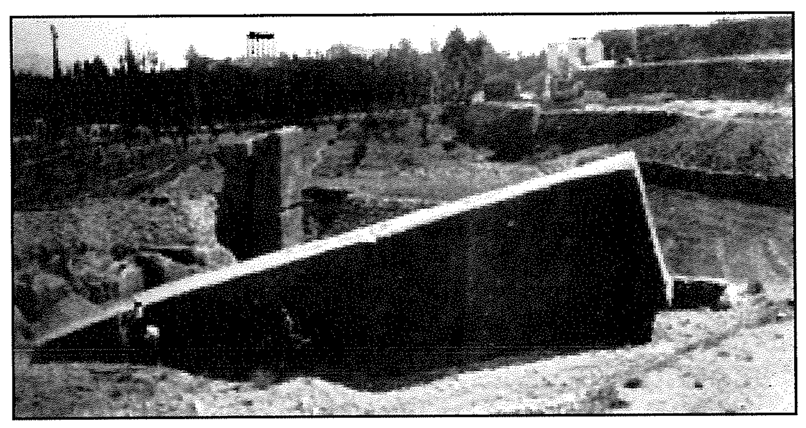
٨٩ - باسيليكة قسطنطين في بعلبك

كان حسن بك النئي رجلاً أحمر الشعر أحمر اللحية بملامح وجه قاس يشبه وجوه سكان الأراضي المنخفضة في إسكتلندا، ولم يكن مسروراً بالمرة لرؤيتي، ولكنه أمام طلب الشرطي خرج متمهلاً من مضافة حيِّه حيث كان يشرب فنجان قهوة صباح الجمعة مع أصدقائه، وأخذني عبر الشارع إلى جناح حريمه، وتركني مع جنسي من النساء اللواتي كن لطيفات بمقدار ما كان فظّاً، وكن مسرورات جداً بالفعل بأن يكون لديهن زائرة؛ لأن حسن بك كان رجلاً صارماً، ولم يكن يسمح لزوجته ولا لأمّه ولا لأي امرأة في كنفه أن تمد أنفها خارج أبواب البيت، ولا حتى بالذهاب إلى المقبرة، أو أن يركبن عربة

ويذهبن إلى المرج بجانب العاصي في عصر يوم صيف جميل، كان جناح الحريم بيتاً عربياً جميلاً جداً من طراز البيوت الدمشقية.

كان ثمة قباب مجصصة فوق الغرف وفوق الليوان، ولكن الجص تشظى قطعاً صغيرة، كما تقوضت الأرض والدرج تحت الأقدام التي تدوسهما، كما بني في أحد الجدران عمود رخامي عليه تاج زُيِّن بأوراق نبات شائك. كما كان ثمة تاج عمود رخامي على أرض الإيوان أو الليوان، بسيطٌ في طرازه، ولكنه من نوع جيد، وقد حول إلى حوض ماء، وقد يكون استُعمل لفترةٍ ما كجرن للمعمودية قبل أن يستولي العرب على حمص. وبعدُ أخذت الأبنية الرومانية الأكثر قدماً تتساقط وتستعمل مواد بنائها لأغراض أخرى.

ومررت وأنا في طريقي إلى مخيمي بمئذنة مربعة جميلة بنيت بصفوف من الحجر الأبيض والأسود، والمسجد أو الكنيسة المسيحية التي ينتمي إليها البرج قد تهدمت. وسمعته «قال الشرطي» إنه أقدم برج في المدينة، والمسجد في مدخل السوق كان قطعاً كنيسة بدون أي ميزة معمارية.



٩٠ - حجر كبير في مقلع الحجارة في بعلبك

(١) كتبت المؤلفة بدلاً من الشكل الحسن المرأة الجميلة خلافاً لشطر بيت الشعر العربي الذي أوردته أنا (المترجم)

(٢) ليست الناعورة ابتكار فارسي، وإنما هي من ابتكار آراميو وادي العاصي.

لم يعد هناك ما هو جدير بالمشاهدة في حمص، وحيث كان عصر اليوم جميلاً فقد نزلت باتجاه المرج على شط العاصي، وهو المنتجع المنتقى لكل راغبي التنزه في الربيع والصيف. ويوجد مجرى العاصي على بعد ميل إلى الجنوب الغربي من المدينة. وإمداد الماء سيئ وغير كاف حيث يأتي من قناة تبتدئ من الجهة الشمالية لبحيرة قطينة. ومرج العاصي نموذج للمكان الجميل الذي يتمتع به الشرقيون سواء أكانوا تركاً أو سوريين أو فُرْساً ويقضون فيه أيام عُطلهم. ويقول المثل العربي: تتطلب المتعة ثلاثة أمور الماء والخضرة والشكل الحسن [1]. وسار نهر العاصي برشاقة بين المروج مرصعاً بزهور الربيع حيث السيدات المسيحيات المهملات في معظمهن الحجاب، وقد ترجلن عن بغالهن، يجلسن تحت أشجار الصفصاف، يتلمسن أول أنفاس الربيع، ويدير النهر ناعورة كبيرة فارسية الأصل تملأ الجو بترنيمها العذب [2]. وقد نصب قهواتي مجمرته على طرف الطريق، كما نشر بائع حلويات بضاعته بجانب النهر، وعلى امتداد الأرض المعشبة العريضة كان ثمة عدد قليل من الشباب المرح يهدبون ويدورون بخيولهم العربية. إن الشرق يقضي عطلته بطريقة ممتعة وبسيطة متمتعاً بالشمس اللذيذة.

كرّست البقية الباقية من عصر اليوم للأمور الاجتماعية، وبالمحاولات غير المجدية للهرب من فضول سكان البلدة.

لقد كان عصر يوم جمعة، وكان أفضل طريقة لقضاء وقتهم هو التجمع بأعداد وصلت إلى عدة مئات حول خيامي، ومراقبة كل حركة أو تصرف من

(١) كتبت المؤلفة بدلاً من الشكل الحسن، المرآة الجميلة خلافاً لشطر بيت الشعر العربي الذي أوردته أنا (المترجم).

(٢) ليست الناعورة ابتكار فارسي، وإنما هي ابتكار آرامي وادي العاصي.

أي فرد من أفراد مخيمي، كان الرجال سيئين بما يكفي، وكانت النساء أسوأ، أما الأطفال فكانوا أسوأ من الجميع. ولم يكن هناك شيء يستطيع إبعادهم، وكانت الأمور قد بلغت ذروتها عندما وصل عبد الحميد باشا الدروبي - أغنى رجل في حمص - بصحبة القاضي محمد سعيد الخاني. ولم أستطع أن أعير حديثهما المهذب والعذب ما يستحق من الاهتمام؛ بسبب الجمع المهتاج الذي كان يحيط بنا من كل جانب، ولكني رددت دعوتهما بعد ساعة، فذهبت إلى بيت الباشا الجديد الذي بناه في مدخل البلدة، وقد تبعني إلى هناك ما لا يقل عن ثلاثمئة شخص، ولاشك أنني تنفست الصعداء عندما أغلق الباب في وجه مرافقيّ من العامة، وجلستُ في الإيوان الرطب الهادئ.



٩١ - رأس العين - بعلبك

وقال عبد الحميد: «أرجو الله أن لا يكون العامة قد ضايقوا سعادتك؛ لأنه إذا حصل ذلك فإننا يمكن أن نستدعي فصيلاً من الجنود». وتمتمتُ بصمت من نصف قلبي رافضة عرضه، مع أنني كنت سأشعر بالسعادة أن أرى

هؤلاء الأطفال الصغار يرمون بوابل من رصاص البنادق. وأضاف الباشا متأملاً: «لقد أعطى إمبراطور ألمانيا ـ عندما زار دمشق ـ أمراً بأن لا يُمنع أحد من المواطنين من المجيء والنظر إليه».

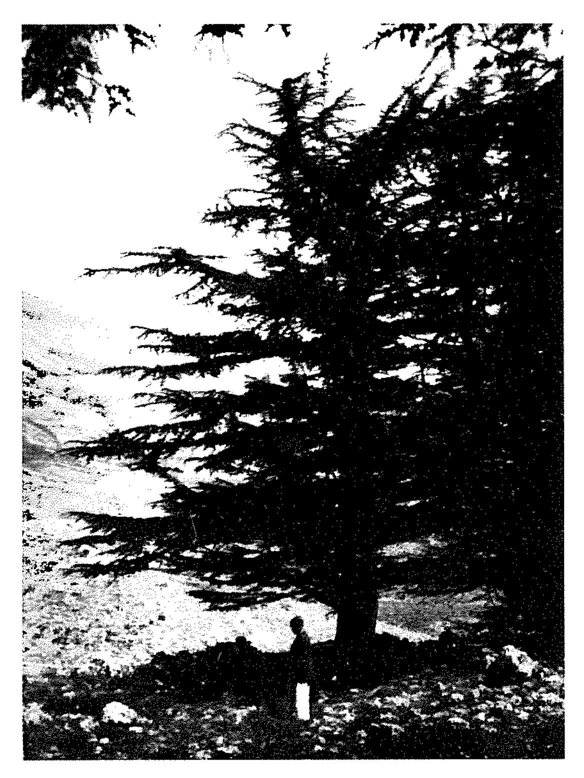
ورأيت من خلال هذا المثال الجليل الذي ذكره أمامي أن عليّ أن أتحمل ضريبة العظمة والغربة بدون شكوى.

وتحول الحديث نحو المعتقدات الدينية، وبدأته بالسؤال عن النصيرية، وزم القاضي شفتيه وأجاب: «ليسوا أناساً جيدين، بعضهم يعبد علياً، وبعضهم يعبد الشمس، وهم يعتقدون أن الإنسان عندما يموت فإن روحه تذهب إلى شخص آخر، بل حتى إلى حيوان، كما هو الحال في معتقدات الهنود والصينيين».

قلت: «لقد سمعت قصة عن رجل كان يملك كرماً من العنب، ولما مات ترك الكرم لابنه، واشتغل الابن في الكرم حتى جاء موسم القطاف، ونضج العنب، وأخذ ذئب يتردد على الكرم كل مساء ويأكل من العنب، وحاول الابن أن يصطاده عدة مرات، ولكنه كان يعود كل مساء، وفي أحد الأمسيات صرخ الذئب محتجاً: «ألا يحق لي أن آكل من عنب الكرم الذي غرسته؟» واندهش الابن وقال: «ولكن من أنت؟» فأجاب الذئب: «أنا أبوك»، فأجاب الابن: «إذا كنت فعلاً أبي فأين خبّأت المنجل فإنني لم أجده منذ فارقتْ روحك جسدك». وعند ذلك أخذه الذئب إلى المكان الذي كان المنجل مخبأ فيه، فصدّق الولد وأيقن أن الذئب هو والده[1].

---

(١) لقد كانت هذه الخرافات وغيرها منتشرة كثيراً في مطلع القرن العشرين، وهي مما يتناقله العوام (المترجم).

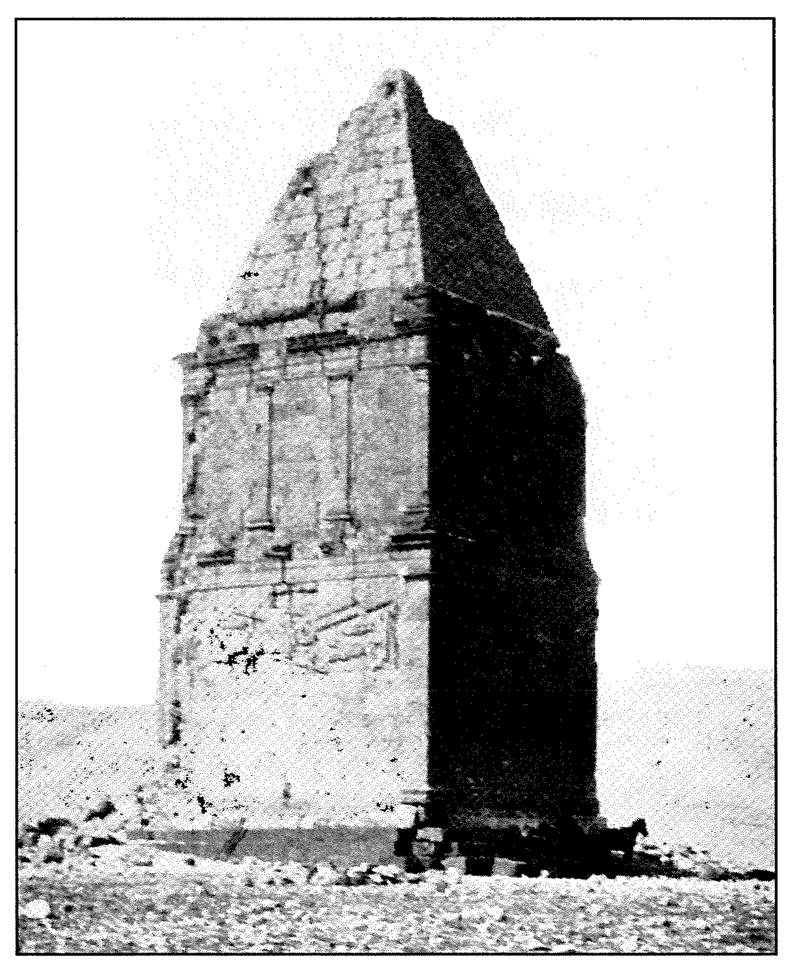


٩٢ ـ شجر الأرز في لبنان

ورفض القاضي الشاهد قائلاً: «إن القصة كاذبة بدون شك». وسألته بعد ذلك فيما إذا كان يعرف شيئاً عن الطائفة البهائية، فأجاب:

«بالنسبة للفرقة البهائية وأمثالها من الفرق فأنتِ تعلمين يا صاحبة الفخامة أن النبي عليه السلام قال بأن هناك اثنتين وسبعين فرقة ضالة، ولا يوجد إلا فرقة واحدة صحيحة، وأنا أستطيع أن أدلك على خمسين فرقة دينية من أصل الاثنتين والسبعين في بلادنا».

وأجبت: إن الرسل وحدهم يستطيعون أن يميزوا بين الكاذب والصحيح، ونحن في أوربا حيث لا يوجد من يساعدنا في هذا المجال نجد الأمر صعباً جداً.



٩٣ ـ قاموع هرمول



٩٤ ـ التنزه في عطلة شرقية

قال القاضي: «في أوربا سمعت أن أنبياءكم هم العلماء».

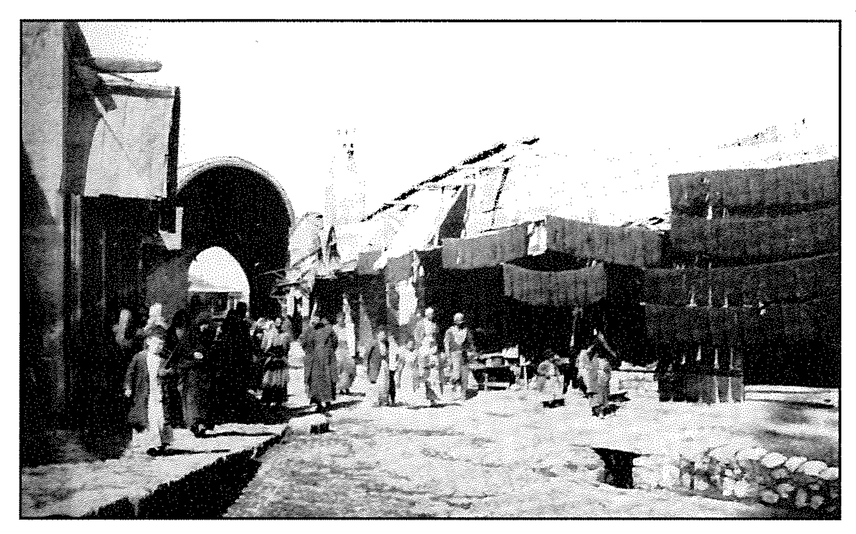
فأجبت: «ولكنهم أجابوا وقالوا: إنهم لا يعرفون شيئاً، لقد اكتشفت عيونهم النجوم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لنا كلمة اللانهاية.»

قال القاضي: «إذا كنت تتحدثين عن نهاية السماء فنحن نعتقد أن هناك سبع سماوات».

قلت: «وماذا بعد السماء السابعة؟».

قال: «ألا تعلمين فخامتك أن العدد الأول هو بداية كل شيء؟»، ثم تابع: «وعندما تخبريني ماذا يأتي قبل الأول فسوف أخبرك ماذا يأتي بعد السماء السابعة».

وضحك الباشا، وقال متسائلاً فيما إذا كان القاضي قد أنهى مناقشته وأنه يريد في حال الإيجاب أن يسألني ما رأي الأوربيين الحالي بقضية قراءة الأفكار.



٩٥ ـ شارع في حمص

قال: «لأنه قد فُقِدَ لي منذ شهر خاتم ذهبي ثمين، ولم أستطع معرفة اللص، وسمع بالموضوع أحد الأفندية من أصدقائي، فقال: إنه يعرف رجلاً في لبنان ماهراً في مثل هذه الحالات، قلت: «اعمل معي معروفًا واجلبه لي». وأتى الرجل، وبحث في أرجاء حمص حتى وجد امرأة قد أُعطيت القدرة على التنبؤ، وعمل مترجماً لأفكارها فقالت: إن صفة اللص كذا وكذا، وإنه قد أخذ الخاتم إلى بيته، وذهبنا إلى البيت المعين وفتشنا فيه ووجدنا الخاتم، هذه تجربتي وقد حدَثت الحادثة أمام عيني».

وأجبتُ: «إن قارئي الأفكار أو المنجمين في لبنان يجنون أموالاً من موهبتهم أكثر مما يجني أي منجم في لندن». فأجاب الباشا متأملاً: «ربما كانت المرأة التي أرشدت إلى السارق قد غضبت منه لسبب ما فدلّت على منزله، الله وحده يعلم، المجد لاسمه». وغادرنا بعد ذلك بيت الباشا.

عندما عدت إلى خيمتي وجدت على منضدتي بطاقة زيارة عليها اسم وعنوان: «حنا خباز. كاهن الكنيسة البروتستانتية في حمص»، وقد كُتبتْ تحت هذا النقش الرسالة التالية: «يا سيدة.. أنا وزوجتي جاهزون لتقديم أي خدمة تحتاجينها في خدمة المسيح والإنسانية، ونحن نجد أن من الواجب علينا أن نزورك إذا تلطفت وقبلت ذلك، أنا خادمك المطيع».

وأرسلتُ لهم أنني أقبل زيارتهم بكل امتنان إذا جاؤوا فوراً، وقد جاؤوا قبيل غياب الشمس، شخصان لطيفان جداً، تواقان لأداء أي خدمة ولاستضافتي، الأمر الذي لم يكن باستطاعتي الإفادة منه، وقد كان أسفي ليس كبيراً؛ لأن الباشا والقاضي كانا صحبة طيبة لعصر ذلك اليوم. وأنا الآن عندما أنظر إلى الخلف إلى زيارتي المضطربة لحمص، وللساعة التي قضيتها مع هذين السيدين اللطيفين الكريمي المحتد تقف مثل ذكرى مأوى لجأت إليه في وسط عاصفة هوجاء.





الفصل التاسع:

غادرنا في اليوم التالي في ساعة مبكرة، ولكن أهالي حمص نهضوا مبكرين ليتفرجوا علينا ونحن نخرج، ولم يكن هناك حل سوى التصميم على تحملهم.. ولم يكن أبعث على التسلية من استطاعتي المحافظة على هدوئي الظاهري، بعد ربع ساعة كنا نعبر بوابة طرابلس والبناء الروماني الآجري.

وفيما عدا منظر الأطفال الذي أصبح أبعد ما يكون فقد اجتاحني سلام الصباح الجميل، والتفت لأتعرف على المرافقين الذين أرسلهم القائم مقام معي، كانوا أربعة اثنان منهم أحرار واثنان مقيدان، كان الأوليان شرطيان كرديان، كان أحدهما مكلَّفاً بأن يدلّني على طريق قلعة الحصن، والآخر من أجل حراسة الاثنين الآخرين، وهما سجينان قَبض عليهما القائم مقام قبل بضعة أيام.

وقد انتظر حتى وجد مناسبة ـ مثل تلك التي توفرها رحلتي ـ من أجل إرسالهما إلى قلعة في جبل النصيرية، ومن ثم إلى السجن الكبير في طرابلس. كانا يرتديان ثياباً قطنية رثة بالية، وقد قُيدا إلى بعضهما يداً بيد، وبينما كانا يسيران معاً بشجاعة عبر الغبار والوحل، قلت كلمة تعبر عن الشفقة، فَردّا بأنهما يرجوان الله أن يطيل عمري.

أما بالنسبة لهما فإنها إرادة سيدهما السلطان التي قضت أن يسيرا يرسفان بقيودهما على القدمين، وتدخّل أحد الكرديين موضحاً أنهما فارّان من جيش السلطان. الله يجازيهما على فعلتهما النكرة. وأكثر من ذلك إنهما

إسماعيليان من السلمية. وهما يعبدان إلاهاً غريباً يعيش في الهند، ويقول بعض الناس: إن هذا الإله امرأة، وهم يعبدونها لهذا السبب، وفي كل سنة ترسل بعثة إلى تلك المدينة لتجمع لها الأموال المستحقة، وحتى أفقر الإسماعيليين عليه أن يدفع لها ولو قروشاً قليلة. وبعد فهما يدّعيان أنهما مسلمان.

من يعرف حقيقة معتقدهما؟

تكلم يا خضر وقل ما هو معتقدك؟

فأجاب السجين بتصميم: «نحن إسلام».

وقدّمتْ إليّ كلمات الجندي مدخلاً أستطيع أن ألج من خلاله عندما حانت الفرصة. واقترب مني السجينان السيئا الحظ وأصبحا بجانب حصاني وهمس أحدهما:

«يا سيدة.. يا سيدة، هل سبق ورحلتِ إلى الهند؟»

قلت: «نعم».

«الله ينعم عليكِ! هل سمعتِ هناك عن ملك عظيم يقال له الملك محمد؟».

ومرة أخرى كنت قادرة على الإجابة بالإيجاب، وأن أضيف بأنني أعرفه وقد تحادثت معه. وذلك أن ملكهم محمد لم يكن إلا زميلي ال «آغا خان». كان السجينان يمثلان بفخر عقيدة قديمة محترمة أنشأها الذي كان يطلق عليه اسم شيخ الجبل، وهم الممثلون المتواضعون للطائفة المفزعة وربما المؤذية التي يطلق عليها اسم طائفة الحشاشين.

وأمسك خضر رِكاب فرسي بيده الحرة وقال بحماس: أليس ملكاً عظيماً؟.

ولكني أجبت بحذر لأن آغا خان هو رجل يشبه ملكاً كبيراً من بعض النواحي لنقل إنه غني جداً.

وقد كان من الصعب أن يوضح الإنسان لأتباعه بالضبط ما ذاك الرجل المصقول الكريم المحتد في هذا العالم، والذي كنت قد قابلته أخيراً في لندن على مأدبة عشاء، والذي أعطاني نادي مالبورو كعنوان له. إن هذه الأمور إذا استطاعوا أن يفهموها لن تصدمهم فآغا خان قانون بحد ذاته، وإذا اختار أن يطلق لشهواته العنان أبعد كثيراً مما تسمح به حفلة عشاء، فإن عمله هذا سوف يقدس من خلال الحقيقة المجردة بأنها إرادته. لقد كان أبوه يرسل رسائل إلى جبرائيل من أجل أن يؤمّن لأتباعه مكاناً مناسباً في الجنة، ولكن الابن بثقافته الإنكليزية وحميمية انسجامه مع الثقافة الغربية قد أقلع عن ممارسة هذا الامتياز على الرغم من أنه مازال بنظر أتباعه ممسكاً بمفاتيح السماء، وهم يعبّرون عن إيمانهم به بطريقة مادية، وذلك بالتبرع بمبالغ كبيرة من المال تصل إلى عشرة آلاف ليرة إنكليزية ذهبية في العام تجبى من كل أتباعه في آسيا وأفريقيا[1] .

وسرنا حوالي ساعة بين البساتين، وقابلنا مجموعة من البدو الرزيي الهيئة يمشون متمهلين باتجاه حمص، يحملون على حميرهم الحليب والسمن إلى السوق، ثم وصلنا إلى السهل الواقع بعد العاصي حيث موطن هؤلاء البدو،

(١) إن ما تقوله المؤلفة على جانب كبير من الصحة، وقد سألت أحد أصدقائي من الأساتذة الذين لا يزالون يؤمنون بالمذهب الإسماعيلي عن تفسيره لسلوك آغا خان وابنه علي الذي دفن عندما مات في سلمية، حيث كان هذا الأخير يعيش حياة الأمراء الأوربيين بكل ما تمثله من حرية جنسية ولهو، والذي تزوج من ريتا هايوارت الممثلة المعروفة، فقال هذا الصديق: «إن هذه أعمال جسده، أما روحه فهي طاهرة». وأعترفُ أنني لم أستطع أن أفهم هذا الفصل بين الروح والجسد. (المترجم)

كان منظر السهل مألوفاً، وهو غير متباين عن منطقة هضاب جبل الدروز، ويشبه سهول حوران بكونه مغطى بالحجارة البركانية، ويشكل مقلع حجارة فسيح بالنسبة لحمص.

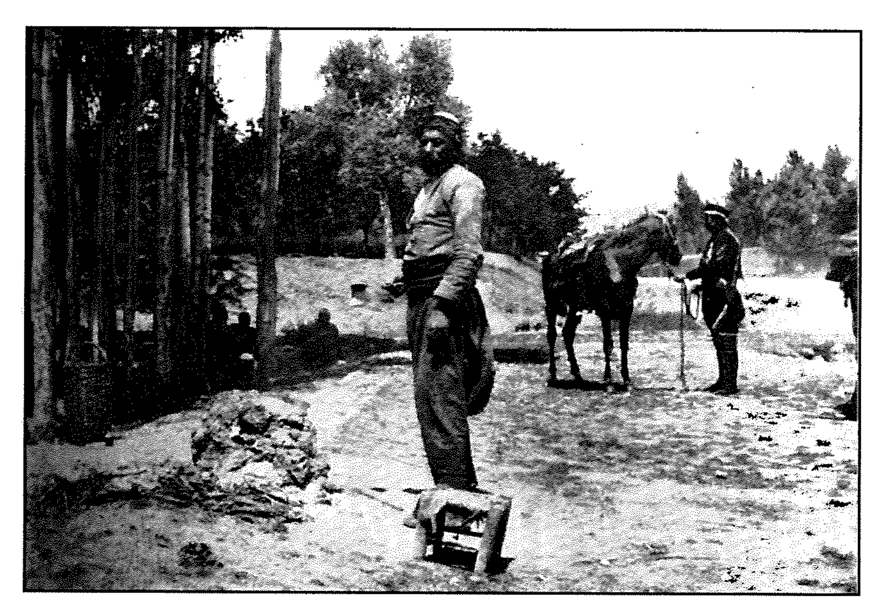
فكل الحجارة التي تستعمل في البناء تنقل على ظهر الحمير من هذا السهل، ويبلغ ثمن حمل الحجارة متليكاً في المدينة. (والمتليك الآن عملة معدنية ذات قيمة متدنية جداً، وليس لها نظير في أوربا) والرجل الذي لديه مجموعة من الحمير للنقل يستطيع أن يربح عشرة قروش في اليوم.

كل العرب الذين يقطنون وعر حمص من جنس محتقر؛ بسبب الخدمات التي يؤدونها لأهل المدينة، ويجب أن تلاحظ أنه لا يوجد بدوي يحترم نفسه يقبل أن يعيل نفسه من خلال بيع اللبن، أو أي شيء آخر سوى القتال. ولكن في الصيف تأتي عشيرة الحسنة الضخمة لتقضي بضعة شهور هناك، وكذلك بعض بطون عنزة التي تأتي بإبلها لترعى بقايا الحصيد، وهذه القبائل الكبيرة تشبه كثيراً سمك السلمون الذي يأتي من البحار البعيدة متأخراً ولا يقدّم إلا قليلاً من اللحم للمقلاة[١].

عندما عبرنا السهل في آذار كان لا يزال هناك الكثير من الماء الراكد في الحومات هنا وهناك، والعشب والزهور نمت بين الحجارة، وعندما كنا نتقدم باتجاه الغرب فوق أرض كانت ترتفع تدريجياً باتجاه الهضاب أتينا إلى منطقة كانت أشبه بحديقة رائعة من الزهور؛ مكاحل حدقية شاحبة رفعت أجراسها

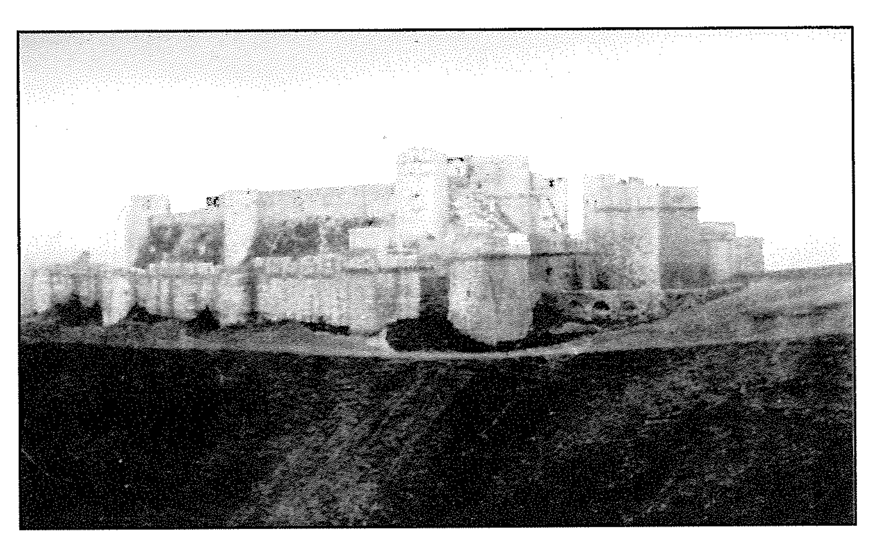
(١) الحسنة فرع من قبيلة عنزة الكبيرة وهي شبه مستوطنة في بادية حمص منذ القرن السابع عشر. حيث جاءت إلى سوريا من نجد أربع قبائل كبيرة تنتمي إلى عنزة، وهي الحسنة التي اختارت بادية حمص، والرولة التي اختارت بوادي سوريا الجنوبية، والإسبعة التي اختارت بوادي حماة، والفدعان التي اختارت بوادي حلب والرقة من الجهة الشمالية. (المترجم)

المتعنقدة فوق كتل الحجارة البركانية، السوسن وشقائق النعمان وعشبة الصقر والخربق الأرجواني الجميل تناثرت منقطة العشب، كل هبات الربيع السوري السخية كانت موجودة تحت أقدامنا السعيدة.



٩٦ ـ قهوة بجانب الطريق

وسرنا في الساعات الخمس الأولى متبعين طريق العربات الذي يقود إلى طرابلس، مارّين بالخان الذي يحدد المرحلة النهائية قبل مدينة حمص، وخط الحدود بين ولاية دمشق وبيروت. ثم انعطفنا يميناً ودخلنا ممراً خاصاً بالجياد فوق أرض متموجة العشب مزروعة جزئياً ومليئة بالزهور أكثر مما هو في العادة على حواف الطريق؛ شقائق النعمان المشرب بالأبيض والأرجواني والسوسن الأزرق متعنقداً بجانب الطريق والزعفران الأصفر على حواف الجدول.



٩٧ - قلعة الحصن

وبالنسبة للعيون التي أتت حديثاً من جنوب سوريا واعتادت على رؤية الأعشاب هناك، فإن العشب هنا كان أكثر روعة من الزهور. لقد ارتدتْ أعلى قمم جبال النصيرية بُسطاً من الأعشاب الخضراء لا يستطيع أن ينافسها فيه أي منحدر في جبال اليهودية والسامرة في فلسطين. وعبرنا جسراً صغيراً مرتفعاً يقع في طريقنا، ثم هبطنا نحو قرية كردية مكون نصفها من خيام البدو والنصف الآخر من سور طيني، ويجب أن يكون قد مضى على سكانها زمن طويل في سوريا؛ لأنهم نسوا لغتهم الأصلية ولا يتحدثون إلا العربية بجرس خاص يشبه نطق الشرطيين الكرديين، والذي يتميز به الأكراد.

وبعد القرية يمتد سهل البقيعة بعرض ثلاثة أميال حتى منحدرات كتف جبال النصيرية، ومن أعلى قمة في هذه الجبال تطل علينا قلعة الحصن الصليبية العظيمة التي هي هدف رحلتنا، كانت الشمس تنير بروجها، ولكن سحابة سوداء كانت تزحف من خلفها، كنا نسمع صوت الرعد مدمدماً على

الهضاب ونرى البرق وهو يمزق غلالة الغيوم خلف الحصن، كان الطريق المباشر عبر سهل البقيعة متعذر الاجتياز على الخيول؛ بسبب طوفان الوحول التي كانت عميقة جداً، وكما يقول القرويون: لطمر البغل مع حمله.

وهكذا انعطفنا على كره إلى اليمين إلى حواف سفوح الهضاب، وقبل أن نذهب بعيداً قابلنا خيالان قد أُرسلا للترحيب بنا من قبل قائم مقام قلعة الحصن، وبينما كانا يلتحقان بركْبنا خفت العاصفة، وغطتنا بغلالة من المطر، ووصلنا سفح الهضبة وقد تلوثنا بالوحل وتبللنا بالمطر حوالي الساعة الخامسة. وهنا تركتُ القافلة لتسير على الطريق وتسلقت الهضبة مع أحد خيالة القائم مقام عبر مسلك منحدر ضيق خاص بالخيالة يقود مباشرة إلى قمة الهضبة.

وهكذا وصلنا عند غياب الشمس البرج المعتم ومررنا عبر بوابة عربية رائعة إلى داخل الممر المقبب الذي بني فوق درج ملتوٍ، كان داخله مثل الليل تقريباً، وسمحت فتحات الرمي القليلة للغسق الرمادي بالدخول من الخارج مقدمة أبلغ اعتذار لضوء النهار، وكنا أثناء سيرنا نمر بين حين وآخر على بوابات تقود إلى كهوف معتمة، كان الدرج الحجري خفيفَ الارتفاع وعريضاً، ولكن كثيراً من حجارته مكسرة.

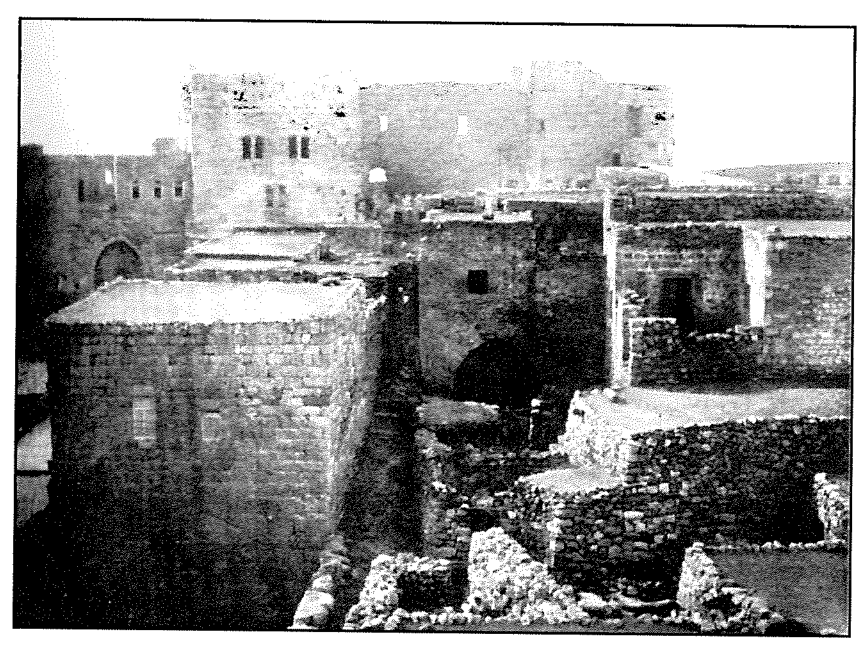
وتعثرت الخيول وقعقعت سنابكها، بينما كنا نصعد أعلى فأعلى منعطفين عبر زاوية إثر زاوية ومارين تحت بوابة إثر بوابة حتى وصلنا في النهاية إلى الساحة المكشوفة في وسط الحصن، وأحسستُ كما لو أنني كنت أركب مع أحد فرسان الملكة، ونصف متوقعة أن أرى الكتابة على الأقواس تقول: «تشجعي.. تشجعي.. ولكن لا تكوني متهورة». ولكن لم يكن هناك ساحر في

قلب الحصن، لا شيء ماعدا جمعاً من الفلاحين يتطاولون بأعناقهم لرؤيتنا، والقائم مقام يبتسم بود، معلناً أنه لم يكن ليقبل بالتفكير بأن يدعني أنصب مخيمي في مثل هذه الليلة العاصفة وقد جهز لي مأوى في البرج.

قائم مقام قلعة الحصن رجل متميز بالأدب، كان اسمه عبد الحميد بك رفيعة زاده، وقد جاءت أسرته من مصر حيث ما يزال عدد من أبناء عمومته يعيش هناك، كان يسكن في أعلى برج في الحصن حيث قد جهز هناك غرفة للضيوف واسعة جداً، جهزها بالبُسُط وبأريكة وسرير له أربعة أعمدة وخزانة ثياب من خشب نفيس، بابها مزود بمرآة قد تكسر زجاجها إلى قطع صغيرة أثناء نقلها على الجمل من طرابلس إلى درجه أنه كان من المستحيل على الإنسان أن يرى أصغر زاوية من وجهه من خلالها.

كنت مبللة حتى الأعماق، ولكن واجبات اللياقة الاجتماعية يجب أن تراعى، وقد حتموا علينا الجلوس على الأريكة، وتبادل بعض العبارات المهذبة بينما كنا نتناول كؤوس شاي خفيف. كان مضيفي مشغول البال بوضوح بالنسبة لموضوع المحادثة ـ لسبب معقول كما استنتجت في النتيجة ـ ولكن مجرد أن سمع إجابتي على تحيته الأولى تنفس الصعداء وهتف: «الحمد لله.. سعادتك تتكلمين اللغة العربية، كنا خائفين بأننا لن نستطيع التفاهم معك، وقد دعوتُ مسبقا سيدة سورية تتكلم الإنكليزية لتقضي عندنا المساء من أجل الترجمة فيما بيننا». وقضينا ساعة في حديث متقطع بينما كانت الرطوبة تنفذ أكثر فأكثر في معطفي وتنورتي. ولم ينهض القائم مقام ويستأذن بالانصراف قائلاً إنه سوف يتركني لأرتاح إلا بعد وقت طويل من وصول البغال وإنزال أحمالها.

والحقيقة أننا سرنا اليوم لمدة طويلة، وقد أمضت البغال إحدى عشرة ساعة حتى وصلت إلى قلعة الحصن، وقد كان لدي الوقت الكافي لأبدل ثيابي المرطبة قبل أن أسمع قرعاً لطيفاً على باب غرفتي الداخلية معلناً وجود نساء من المنطقة، وفتحت الباب وأذنت لمدبرة المنزل وزوجة القائم مقام وسيدة متكلفة حيتني بالإنكليزية بلهجة منمقة جداً، كان اسم المرأة الست فريدة وهي مسيحية متزوجة من مساح الأراضي الحكومية الذي كان مسيحياً هو الآخر.



٩٨ ـ قلعة الحصن ـ داخل الحصن ـ

وكانت قد درست في مدرسة إرسالية أجنبية في طرابلس. ولم ينقض وقت طويل على جهلي أنها كاتبة مؤلفة، وأن عملها العظيم كان ترجمة كتاب «آخر أيام بومبي» إلى اللغة العربية. كانت زوجة القائم مقام شابة بخدين تفاحيين، وكان يمكن أن تكون جميلة لولا أنها بدينة على نحو غير طبيعي.

كانت زوجته الثانية وقد تزوجها قبل شهر أو شهرين فقط، بسبب وفاة زوجته الأولى أم أطفاله، كانت خجولة جداً؛ لأنه مضى بعض الوقت قبل أن تغامر وتحرك شفتيها بالكلام بحضوري، ولكن الست فريدة قامت بسد الفراغ فتدفقت بالحديث بلسان ذرب مهذار سواء بالإنكليزية أو العربية مع التأكيد بابتهاج على تصرفها الصحيح باعتبارها مسيحية، لقد كانت سيدة مرحة وذكية، وقد تمتعتُ بصحبتها أفضل بكثير من تمتعي بصحبة مضيفتي، كانت الكلمة الأولى التي قالتها الخانم كلمة ترحيب، وذلك عندما سألتني متى أُفضّل العشاء؟.

وقد أجبت بحماس بأنني أفضله بسرعة. وهكذا نهضنا بعد قليل وعبرنا ساحة موحلة ودخلنا غرفة مُدت فيها مائدة عامرة شهية، وهنا انضمت إلينا سيدة جليلة قُدِّمتْ إليّ: «صديقة جاءت ترى سعادتك». وجلسنا جميعاً لنأكل أفضل عشاء مع جمع يعتبر أفضل منكه لهذا العشاء. حساء ثخين وصحون ضخمة مملوءة باللحوم والخضار، وتوجت الوليمة بالرز بالحليب في نهاية الطعام. وعدنا إلى غرفتي بعد نهاية العشاء.

وأتوا بكانون مليء بالفحم المشتعل مع نراجيل للسيدات، وجلسنا معاً لدردشة مسائية، ورفضت السيدة العجوز الجلوس على الأريكة قائلة أنها تشعر بالراحة أكثر بالجلوس على الأرض، وجلست أقرب ما يكون للكانون ومدت يديها المعروقتين فوق النار المتوهجة. كانت ترتدي ثياباً سوداء وقد غطت رأسها بشاش أبيض لفته بشكل جيد على رأسها وجبينها، ثم لفته حول ذقنها مما أعطاها شكل رئيسة دير عجوز في أخويه دينية. كانت الرياح تعول خارج غرفة البرج، والمطر يضرب زجاج النافذة الوحيدة، وكان طبيعياً أن يدور

الحديث عن الأعمال المفزعة، وذلك النوع من الحكايا الهامة حول الجريمة والموت، وأن تروع الأشباح في تلك الغرفة المعتمة لعدة قرون وقرون.

وكانت مأساة محلية محزنة مفزعة قد وقعت على رأس القائم مقام قبل عشرة أيام؛ فقد أطلقت على ابنه النار من قِبل زميل له في المدرسة في مشاجرة أطفال ـ وقد بدت النسوة وكأنهن يرين بأنه ليس من غير الطبيعي أن يؤدي غضب ولد مفاجئ إلى مثل هذه النتيجة ـ واستدعي القائم مقام برقياً، وقد سار هابطاً الطريق الجبلي الطويل وقد قبض قلبه الخوف أن يجد الولد ميتاً وكان حزنه أكبر من أن يستطيع تحمله. هكذا قالت الست فريدة. وكورت العجوز نفسها فوق كانون النار متمتمة: «القتل هنا مثل شرب الحليب. ياالله لا إله إلا أنت».

وانفجرت عصفة ريح جديدة ملتفة حول البرج وأمسكت المسيحية بطرف الحديث..

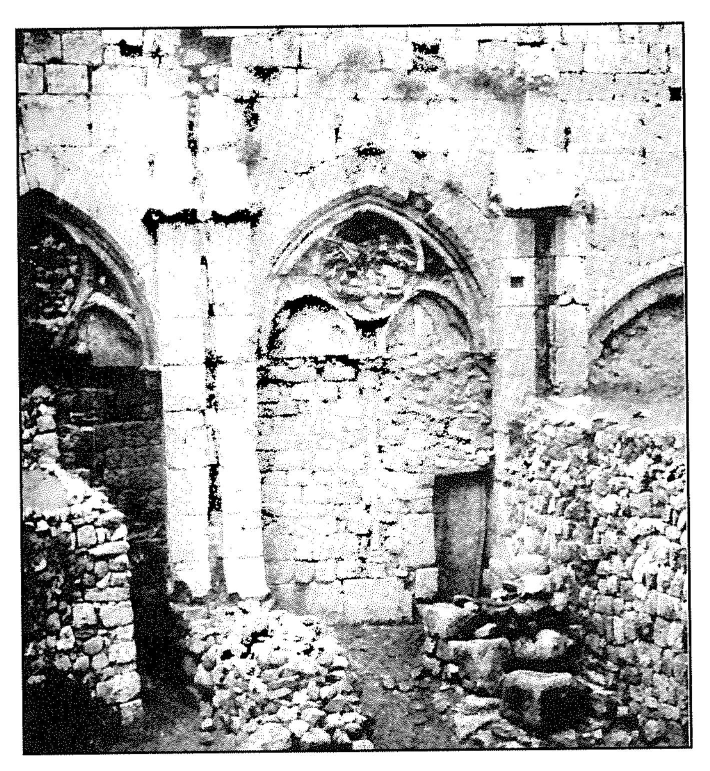
«هذه الخانم» وأشارت برأسها باتجاه العجوز المكورة قرب النار «تعرف أيضاً ماذا يعني البكاء والحزن، فقد قتل ابنها في مثل هذا الوقت في الجبال من قبل اللصوص الذين ذبحوه بسكينة، وقد وجدوا جثته مقطعة قرب الطريق».

«إراقة الدم مثل إراقة الماء هنا» وأنت «يا لطيف!»

كان الوقت متأخراً عندما تركتني النساء، وقد عرضت إحداهن أن تقضي الليلة معي في غرفتي، ولكني رفضت بأدب وحزم.

أفقت في صباح اليوم التالي على صوت الرعد وقرع حبات البرد على مصراعي نافذتي، ولم يكن هناك سوى الإقامة أربعاً وعشرين ساعة أخرى تحت سقف القائم مقام شاكرين الله بوجود سقف نأوي تحته. واستكشفت

الحصن من نهايتيه مع قناعة كبيرة بالطفولة السرمدية التي تعيش في روح كل واحد منا. وتشعر بمزيد من المسرة في الأبراج والمعارك في القلاع أكثر من أي أثر آخر تذكاري. وقلعة الحصن كبيرة إلى درجة أن نصف سكان القرية يسكنون في أقبية الحصن، على حين تقطن الحامية العسكرية في الأبراج العلوية. وترتفع أبراج الحصن من خندق داخلي بني داخل الأسوار الخارجية وهي الأسوار التي عبرناها في الليلة قبل الماضية تحت الرواق المقبى، ويقيم لحَّام الحصن بجانب بوابة السور الداخلي، ويذبح كل يوم ماشية على العتبة، ويضطر أولئك الذين يريدون الخروج أن يخطوا فوق بحرة من الدماء، كما لو كانت أضحية بربرية يجب أن تنجز عند البوابة كل يوم.



٩٩ ـ نوافذ قاعة الطعام

يحتوي الحصن على كنيسة صغيرة حولت الآن إلى مسجد، وثمة قاعة طعام لها نوافذ على الطراز القوطي قد سدت آثارها بجدار من الحجارة لوقاية الساكنين داخلها من البرد. ويشكل البرج الذي أويت إليه الجزء الأعلى من الدفاعات، ويرتفع فوق ثلاثة طوابق من الأقبية، وينطلق منه ممر ضيق رأساً باتجاه قمة السور، ويقود إلى غرفة كبيرة رائعة يوجد وراءها برج دائري يحتوي على غرفة مستديرة مسقوفة بقبة رباعية الأضلاع، وتمتاز هذه الحجرة بنوافذ بارزة مع حلى معمارية على شكل وردة، وحلى أخرى بارزة حول الأقواس، كان الحصن مركزاً للفرسان، وتأريخاً للحروب الصليبية. كان يخص الفرسان الاسبيتارية، وقد جعله رئيسهم الكبير مقراً دائماً له، وقد طردهم منه سلطان مصر الملك الظاهر، ثم أعاد ترميمه ونقش تخليد انتصاره على البوابة الرئيسية.

إنه واحد من أعظم مجموعة من الحصون تقف شاهدة على اللخبطة الغريبة للتعصب النبيل، تعصب وطموح وجريمة ارتبطوا جميعاً ليشكلوا تاريخ الحروب الصليبية، صفحة لا تستطيع الأمة المسيحية حيثما نظرت إليها دون أن تشعر بالخجل، ولا تقرأ عنها دون أن تشعر بالشفقة العفوية المنتزعة من الشجاعة العبثية؛ وذلك أن الموت من أجل سبب لا قيمة له هو قمة الهزيمة.

ينتمي حصن الكرك على نحو قريب جداً إلى الهندسة العسكرية في جنوبي فرنسا، ولذلك فهو يحمل آثار تأثيرات شرقية حيث إن نظامه العظيم غير معين، مع أن فرسان المعبد طبقوه على نحو أكثر كمالاً من الاسبيتارية. ومثل القلاع العربية المعاصرة لها تزداد سماكة الأسوار كلما اتجهت نحو الأساسات أو القاعدة من أجل الوقاية من هجوم اللغامين، ولكن الأبراج

الدائرية ببروزها الكبير خارج خط السوار تحمل بشكل كلي ملامح فرنسية، وقد قيل إن الصليبيين قد وجدوا قلعة على قمة الهضبة واستولوا عليها من المسلمين، ولكني لم أشاهد آثاراً أقدم من الآثار الصليبية تدل على هذا الزعم، إن قسماً من الأبنية الحالية متأخر عن أيام الصليبيين. فعلى سبيل المثال هناك بناء ضخم قرب الخندق الداخلي نُقشت على جدرانه صور أسود لا تشبه نقوش الأسود السلجوقية.

بعد الغداء نزلت أخوض عبر الهضبة الموحلة إلى القرية، وذهبت إلى بيت الست فريدة وزوجها، وكان عندهم زوج آخر من المسيحيين، كان الرجل أمين صندوق في الحكومة، وتحدث الرجال حول ظروف الفقراء في سوريا. قال المساح: لا أحد يموت في سوريا من الجوع، ثم تابع وأخذ يحسب دخل الفلاح المتوسط سنوياً. قال: قد يكسب أفقر الفلاحين ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة قرش سنوياً (تعادل من ٧ إلى ١١ ليرة إنكليزية ذهبية)، ولكنه ليس بحاجة كبيرة إلى النقود، ففيما عدا ضريبة الرأس، وشراء بديل ليخدم عنه خدمة العلم لا يوجد أوجه صرف أخرى جدية، فاللحم ترف غير معروف، وعنبر السمن يكلف ما بين ثمانية إلى عشرة قروش على الأكثر. وهو يساعد على جعل البرغل وغيره من الحبوب مستساغاً أكثر ولا يتم استهلاك العنبر قبل عدة شهور، وإذا قلَّ السمن وقلَّ البرغل أو الحبوب فليس على الفلاح إلا الخروج إلى الجبال أو إلى الأراضي البور التي ليس لها مالك وجمع الأوراق الخضراء الصالحة للأكل، أو استخراج الجذور، وهو يبني بيته بيديه وليس هناك تجهيزات أو أثاث في داخله، والأرض التي يبني عليها لا تكلف شيئاً، أما بالنسبة للثياب، فماذا يحتاج؟ زوج من قمصان الكتان وعباءة من الصوف كل

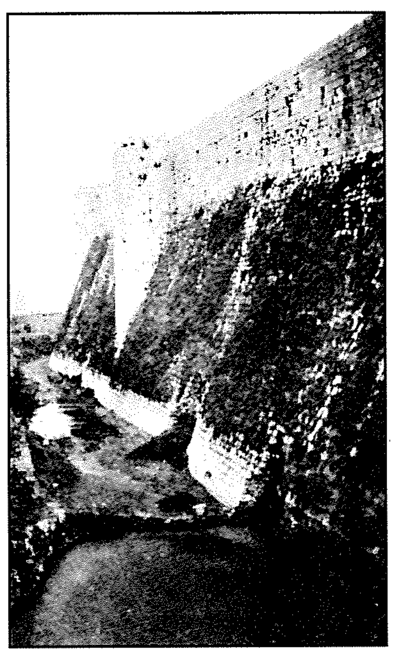
سنتين أو ثلاث سنين وكوفية قطنية كغطاء للرأس. ونادراً ما يُترَك المسنّون والمرضى دون عناية، لأن أسرهم تتولى ذلك إذا كان لهم أسرة، فإذا لم يكن لهم أقارب فمن الممكن أن يُؤمّنوا معيشتهم عن طريق الشحادة؛ لأنه لا يوجد في الشرق من يرفض إعطاء شيء ما عندما يُسأل، رغم أن الفقراء نادراً ما يعطون نقوداً، والفلاحون الذين يملكون أراضي نادرون جداً، إنهم يعملون لقاء حصة لدى الملاّكين الأغنياء، والدنادشة هم الملاّكون الرئيسيون للأراضي الواقعة حول قلعة الحصن وقد جاؤوا من طرابلس، وحتى أمد قريب لم تكن الحكومة تشغل الحصن، وكان ملكاً لأسرة من الزعبية التي استمرت تملكه لمدة مئتي عام، ولا تزال تقيم في بعض الغرف على السور الخارجي.

وتدخل هنا أمين الصندوق قائلاً:

«حتى الإسلام يكرهون الحكومة العثمانية، وهم يفضّلون في النهاية حكم الأجانب حتى ولو كانوا كفاراً، وهم يفضلون الإنكليز؛ وذلك لأن التقدم الذي حدث في مصر يضغط كثيراً على أذهان السوريين»[١].

في ذلك المساء أرسل لي القائم مقام رسالة يسأل فيها فيما إذا كنت أرغب بأن أتعشى وحدي أو أقبل دعوته وزوجته للعشاء عندهما. واخترت الخيار الأخير، وبالرغم من رغبته بأن يكون مثال المضيف الجيد فقد كان بَيِّن التأثر والحزن وبقي صامتاً في الفترة الأولى من الجلسة أثناء العشاء، حتى طرقنا موضوعاً سحبه من ذكرى أحزانه.

(١) الحقيقة أن بريطانيا أوقفت حركة التطور التي بدأها محمد علي باشا في مصر عندما احتلت مصر عام ١٨٨٢ ولم تكن هي أبداً سبب الازدهار هناك. وتذمُّر المواطنين من الحكم طبيعي عند كل الشعوب، ولكن هذا لا يعني أنهم يفضلون حكم الأجنبي كما زعمت المؤلفة على لسان المسيحي المنافق. (المترجم)



١٠٠ ـ أسوار الحصن الداخلي

وخرج الموت القوي ليساعدنا مع الكلمات على شفاههم، هذه الكلمات التي جبرت القلوب الكسيرة لأجيال الإنسانية. كان القائم مقام على معرفة جيدة بالأدب العربي، وهو يحفظ الشعراء الجاهليين عن ظهر قلب، وعندما اكتشف أنني أمتلك بعض المعرفة في هذا المجال، وأنني أُكنُّ الكثير من الحب والإعجاب للشعر الجاهلي بشكل عام.

أخذ يستشهد بأبيات متتالية لهذا الشاعر أو ذاك، ولكنه في ذوقه الشعري كان أميل للشعر الغنائي الأكثر حداثة، وكان أبو الطيب المتنبي شاعر القرن العاشر الميلادي هو شاعره المفضل، كانت بعض النار القديمة ما تزال تدخن في شعر المتنبي، وقد اشتعلت مرة أخرى عندما أنشد القائم مقام قصيدته المشهورة التي يتحدث فيها عن متعة الشباب:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه

ولو أن ما في الوجه منه حراب

لها ظفر إن كل ظفر أعده

وناب إذا لم يبق في الفم ناب

يغير مني الدهر ما شاء غيرها

وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

ولـلـخـود مـنـي سـاعـة ثـم بـيـنـنـا
فـلاة إلـى غـيـر الـلـقـاء تجـاب

تـركـنـا لأطـراف الـقـنـا كـل لـذة
فـلـيـس لـنـا إلا بـهـن لـعـاب

أعـز مـكـان فـي الـدنـا سـرج سـابـح
وخـيـر جـلـيـس فـي الأنـام كـتـاب

وتابع القائم مقام: «وسعادتك يجب أن تعطي للبيت الأخير كل اعتبار».

عندما عدنا إلى غرفة الضيوف سألني فيما إذا كان يستطيع أن يقرأ آخر قصيدة له نظمها بطلب من طلاب الكلية الأمريكية في بيروت (أكثر المؤسسات شهرة من نوعها في سوريا) في احتفالهم السنوي الذي كانوا قد أوشكوا على إقامته، وقرأ في البداية رسالة الطلاب التي كُتبتْ بأسلوبٍ منمق. ثم أوراق مخطوطته. وألقى قصيدة بأسلوب خطابي مشدِّداً على الطريقة الشرقية متوقفاً ما بين فترة وأخرى ليوضح معنى جزلاً لتشبيه مجازي أو استعارة أو ليقدم صورة لبيت صعب.

كان يتحدث في قصيدته عن العلم، وأنهاها على نحو غير منطقي بمدح باعث على الغثيان للسلطان وهي رسالة كان فخوراً بها جداً. وبقدر استطاعتي على الحكم أقول: إنها ليست قصيدة جيدة جداً.

ولكن ماذا في ذلك؟ لا يوجد تعزية عن المصيبة التي تصيب الإنسان مثل الكتابة.



١٠١ - فلاحون عرب

وخلال أقل من ساعة نسي القائم مقام مصيبته ودخل في ساحات ليس فيها موت ولا نواح، وواسيته ومدحته بعبارات مناسبة. وضحكتُ عندما وجدت نفسي أتكلم نفس الهراء المناسب في اللغة العربية مثلما اعتدنا أن نفعل باللغة الإنكليزية، وخلت نفسي جالسة في قاعة استقبال في لندن بدلاً من وجودي بين جدران عارية في برج صليبي، والعالم بعد كل شيء مصنوع من نفس المادة في كل مكان.

كانت ماتزال تمطر في صباح اليوم التالي، ولبست ثيابي وأفطرت بمعنويات هابطة. ثم كما لو كان الأمر حرك بعصا سحرية انقشعت الغيوم وانقطع المطر وانطلقنا في الساعة السابعة والنصف تحت شمس مشرقة رائعة، في أسفل منحدر الهضبة التي تربض فوقها قلعة الحصن ثمة دير إغريقي في وسط أيكة زيتون، وعندما وصلت باب الدير ترجلت عن جوادي

ودخلت لأحيي رئيس الدير، ولاحظت متعجبة، لقد كان من معارفي القدماء، وقد سبق وقابلته في دير معلولا قبل خمس سنوات عندما كنت عائدة من تدمر، وكانت هناك بهجة عظيمة لهذه الصدفة السعيدة، ثم أكل الكثير من المربى وشرب الماء والقهوة احتفالاً بهذه المناسبة.

وكان قد أعيد بناء الدير فيما عدا كنيسة صغيرة تشبه سرداباً تحت الأرض التي قالوا أنها تعود إلى / ١٢٠٠ / ألف ومئتي سنة من الآن. وقد تم تدعيم القبة بزوج من الأعمدة الرخامية كسرت تحت الرأس وتم إعادة بناؤها داخل الجدار، وهي خطة غريبة أكثر منها جذابة، كانت تيجان الأعمدة على شكل رؤوس الزنبق من طراز بيزنطي، وبجانب حاجز المذبح قطعة من الخشب الحديث محفورة بشكل جيد، كما أن هناك بعض الآجر الفارسي الجميل، ورأيت في الجدار الغربي للدير باباً ضيقاً ما بين العضادتين من الممكن أن يضيق فيما بينهما إذا حاول أي إنسان غير نقي القلب أن يمر. قال رئيس الدير، ولم أغامر بسمعتي بمحاولة المرور في الممر.

وركبنا عبر واد ضحل مشجّر مليء بالأزهار، ووصلت أشجار الفاكهة إلى مرحلة التبرعم وأورقت زهور صريمة الجدي [1]، ووقفنا للغداء في بستان صغير تحت سنديانة متبرعمة. كانت تتبسط أمامنا منطقة مسيرنا الصعبة لذلك اليوم، واستطعنا رؤية قلعة صافيتا على التلة المقابلة، ولكن كان هناك نهر فائض بيننا، والجسر الواقع فوقه جرفته المياه، وأفادت الأخبار أن من المستحيل قطع المخاضة، وعندما وصلنا شواطئ الأبرش لاحظنا النهر مندفعاً في مجراه العريض مشكلاً تياراً متواصلاً من المياه المتدفقة التي لا يمكن

---

(١) شجيرة أزهار غنية بالرحيق.

للبغال المحمّلة المرور عبرها أبداً، وركبنا حوالي ساعتين منحدرين مع مجرى النهر ووصلنا في الوقت المناسب إلى الجسر الثاني، جسر الوادي الذي كان قد وصل إلى آخر مرحلة من التداعي حيث كانت القنطرة الوسطى بالكاد متماسكة.

كانت الهضاب خلف الضفة الأخرى من النهر مغطاة بأشجار قصيرة، وقد انتشر بينها السوسن الجميل منتصباً رافعاً تويجاته الزرقاء، واكتسب المنظر حيوية أبعد بالمرور المستمر لنصيريين مرتدين الثياب البيضاء متجهين أسفلاً نحو الجسر.

كان معي شرطي كردي اسمه عبد الحميد الذي كان يعرف الجبال وسكانها على نحو جيد وعلى الرغم من أنه كان محمدياً [١] إلا أنه لا يحمل أي شعور معاد للنصيرية الذين كان يجدهم دائماً أناساً طيبين، وكان كل واحد منهم يحييه بمودة عندما كان يمر بنا، وقد أخبرني أن جماعة الثياب البيضاء كانوا في طريقهم إلى مأدبة على روح شيخ كبير اشتهر بالصلاح والتقوى وقد مات منذ أسبوع، وتقام المأدبة في هذه المناسبة بعد يومين من الوفاة، وبعد أن يأكل الضيوف طعامهم يدفع كل رجل حسب قدرته المالية لأسرة المتوفى مبلغاً من المال يتراوح ما بين ليرة إلى خمس أو ست ليرات [٢]. إن اكتساب سمعة حسنة عند المشايخ في جبال النصيرية أمر جيد مثل التأمين على الحياة عندنا.

---

(١) تقصد المؤلفة سنياً.

(٢) إن الشرطي يبالغ بدون ريب فالوضع الاقتصادي بالنسبة لمعظم الناس في ذلك الزمان لا يمكنهم من دفع مبلغ كبير كهذا. وخصوصاً بين الطائفة العلوية (النصيرية)، والأصح أن يكون المبلغ يتراوح ما بين قرش إلى خمسة أو ستة قروش، وربما أقل. (المترجم)

لم نصل صافيتا إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر بسبب دورتنا الطويلة، ورفضت ضيافة ضابط الشرطة، ونصبت مخيمي على مرتفع من الأرض خارج القرية، والحصن الذي رأيناه من بعيد هو كل ما تبقى من الحصن الأبيض الخاص بفرسان المعبد، وهو يقع على قمة هضبة، وتتجمع القرية متلاصقة تحت قدميه، ومن الممكن رؤية البحر الأبيض المتوسط والساحل الفينيقي الشمالي إذا وقفنا في أعلى نقطة فيه، وشاهدت عملة معدنية فينيقية بين العملات القديمة التي قُدمت إليّ لشرائها، كما شاهدت قطعة معدنية برونزية صغيرة نُقش عليها وجه إله فينيقي.

وقد تكون صافيتا قاعدة تجارية داخلية مهمة لهذه الأمة من التجار، وقد بني الحصن بمهارة هندسية مدهشة، وهو لا يحتوي على القاعة الكبيرة المقببة أو قاعة الطعام التي يتوقع أن يراهما الإنسان، دائماً كنيسة كبيرة هي التي تشغل قلب القلعة، وكانت الصلاة قائمة عندما دخلنا وقد توردت خدود المصلين بأشعة الشمس المؤذِنة بالغياب، والتي كانت تدخل من أبوابها الغربية، ومعظم سكان صافيتا مسيحيون، وكثير منهم يتكلم الإنكليزية بلهجة أمريكية اكتسبوها عندما ذهبوا إلى الولايات المتحدة ليجمعوا ثرواتهم الصغيرة.

وقد اكتسبوا بجانب اللهجة الأمريكية إلفة ورفع كلفة في التخاطب لم أُسرّ لها كثيراً، فاقدين بعض سلوكهم المهذب الذي نشؤوا عليه. ورافقني ضابط صف الشرطة المهذب عبد المجيد أثناء تجوالي في البلدة منقذاً إياي من كنائس المسيحيين المتأمركين بارماً شاربيه العسكريين القاسيين في وجه الأطفال الصغار الذي فكروا بالسير وراءنا، متّبِعاً تراجعهم بأظرف ألفاظ التوبيخ المنتقاة التي كان لي شرف سماعها أو الاستماع إليها.

وفي وقت متأخر من المساء أعلن عن وصول زائرين تبين أن أحدهما ضابط، والآخر موظف أرسلهما قائم مقام دريكيش للترحيب بي ودعوتي، والذهاب بي لزيارة قريته، وسرنا نحن الثلاثة في الصباح الباكر يتبعنا جنديان يسيران خلفنا بطريق ملتو عبر التلال.

وبعد ركوب ساعتين وصلنا إلى قرية مليئة بكروم الزيتون حيث تقع دريكيش على المنحدر فوقها، ووجدنا عند أول أجمة زيتون قبل مدخل القرية ثلاثة رجال مهمين، يرتدون معاطف سوداء وطرابيش واقفين لاستقبالنا، وركبوا جيادهم حالما اقتربنا منهم وساروا معنا، وبدأ عددهم يتضخم أثناء صعودنا شوارع القرية حتى أصبحوا حوالي ثلاثين خيالاً عندما وصلنا إلى بيت القائم مقام، واستقبلنا القائم مقام عند باب منزله مرتدياً المعطف الأسود الطويل وبأسلوب احتفالي، وقادني إلى غرفة استقباله حيث شربنا القهوة.

وفي هذه الأثناء وصلت مجموعة الخيالة المكونة من ثلاثين رجلاً من وجهاء البلدة، وعندما انتهى الاستقبال الرسمي أخذني القائم مقام إلى بيته الخاص، وقدمني إلى زوجته، وهي سيدة دمشقية رائعة حيث تحادثنا قليلاً. وأصبحتُ على معرفة جيدة به، كان اسمه رجا بك العابد، ويدين بمنصبه الحالي إلى أنه ابن عم عزت باشا حيث لا يوجد أي رجل ينتمي إلى أسرة هذا الرجل المهم إلا وكان له منصب قائم مقام على الأقل.

وقد يكون رجا بك قد ترقى في السلم الوظيفي بدون مساعدة، فهو رجل يتمتع بمواهب استثنائية جيدة، معطاء عن سعة، مع الذكاء الحاد الذي يتميز به السوريون، وأسرته التي ينتمي إليها عزت باشا من أصل عربي، ويدعي عدد منهم الانتماء إلى قبيلة الموالي النبيلة التي ينتسب شيوخها إلى هارون الرشيد.

وعندما تُقابِل عزت باشا من المستحسن أن تهنئه على انحداره من هذا الخليفة العظيم، مع أنه يعرف ويعرف أنك تعرف أن الموالي ينكرون هذا الإدعاء مع الازدراء، ويقولون: إنه ينحدر من أحد عبيدهم كما يدل على ذلك اسمه (عبد يعني في العربية رقيق)، وسواء أكان أسلافه عبيداً أو أحراراً فقد ارتقى عدد من أسرة العابد على نحو بارع بحيث وضعوا أقدامهم فوق رقاب الأتراك، وسوف يبقون في وضعهم الخطير هذا حتى يهوي عزت باشا من عليائه [1]، وقد اتخذ وجه رجا بك طابعاً جدياً عندما ألمحت إلى صلته العالية، ولاحظ أن هذه القوة التي تتمتع بها أسرته قضية خطيرة، وكيف أنه سيكون سعيداً لو انسحب إلى مركز أقل ظهوراً من منصب القائم مقام، ومن يعرف فيما إذا كان الباشا نفسه يفضل أن يستبدل بمتع إستنبول منصباً أكثر تواضعاً وأكثر أماناً. وهو افتراض له أساس معقول كما استطعت أن أعرف بيسر، حيث إن عزت باشا إذا كانت الشائعات صحيحة قد حصل على كل ما يتوقع الإنسان أن يحصل عليه في السنتين التي كان فيها قريباً من العرش، وأكدتُ للقائم مقام أنني سوف أعدّ زيارتي لتقديم احترامي للباشا شيئاً أساسياً عندما أصل إلى إسطنبول، وهي خطة حملتها في النهاية بنجاح بحيث يمكن أن أعتبر نفسي الآن ضمن دائرة نفوذ عزت كواحدة ممن يتمنون أن يتمتعوا بدوام صداقته.

(١) الحقيقة أن أسطورة انتماء أمراء الموالي إلى هارون الرشيد قصة غير صحيحة على الإطلاق. وهم يزعمون أن جعفر البرمكي قد تزوج من العباسة أخت الرشيد سراً، وأنها ولدت منه ولداً، هُرِّبَ إلى البادية أثناء نكبة البرامكة، وأنهم بالتالي من سلالة هذا الولد، والحقيقة أن هذه القصة غير صحيحة على الإطلاق، وشيوخ الموالي في الحقيقة من طيء وهم من أحفاد عيسى بن مهنا وهم أبناء عمومة الفضل مشايخ الفاعور في حوران. (المترجم)

في هذا الوقت أصبح الغداء جاهزاً، وانسحبت الخانم وجاء الضيوف الآخرون، وكانوا أربعة، الضابط والقاضي وآخران، كانت مائدة عامرة ووجبة ممتعة. ودار الحديث على نحو مرح على المائدة، بحض وتشجيع من القائم مقام الذي كان يتناول موضوعاً إثر آخر بسهولة مصقولة لإنسان يعيش العالم.

وعندما كان يتكلم لاحظت مرة أخرى جمال ورِقّة اللهجة العربية السورية عندما تدور على لسان المثقفين، وكان كلام القاضي مقيداً بسمعته كمعلم، فأجبر نفسه على التقيد بلغة القرآن الميتة [1].

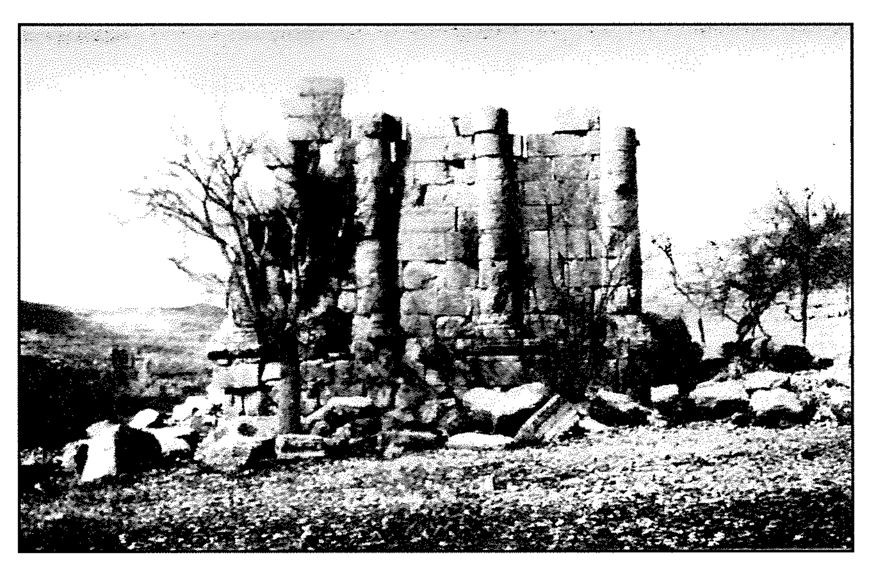
وقبل أن أذهب أوضح القائم مقام أنني مازلت ضيفته لليلة المقبلة، وقال: إنه قد علم أنني أرغب أن أخيّم عند آثار معبد سليمان، وإنه قد أرسل قافلتي إلى هناك تحت حراسة ضابط، وإنه أرسل أيضاً خدماً ومؤناً مع ابن عم له ليسهر على راحتي، وكان علي أن آخذ الضابط وراغب أفندي الحلو وهو أحد المدعوين إلى الغداء معي، وإنه يتمنى أن أكون راضية.. وشكرته كثيراً جداً على لطفه قائلة: إنني قد تأكدت من أصله العربي من خلال كرمه.

كان طريقنا يصعد قمة جبال النصيرية ويسير على طول خط القمم، وهو طريق صخري جميل، كانت الهضاب منحدرة جداً وعارية من كل شيء عدا الأعشاب والزهور، ماعدا أماكن متفرقة هنا وهناك على القمم الأكثر

(١) الحقيقة أن لغة القرآن ليست ميتة، بل هي أساس بقاء العرب كعرب ووحدتهم، وقد كان المستعمرون وأعوانهم يشجعون دائماً اللهجات العامية والكتابة بها كوسيلة من وسائل المساعدة على تمزيق الوطن العربي إلى دويلات خاضعة للاستعمار، فرأينا من يقترح تبديل الحروف العربية بحروف لاتينية، ومن يتحدث عن وجود لغة لبنانية وأخرى مصرية وأخرى عراقية ... إلخ، وقد ثبتت لغة القرآن لكل هذه الحملات ونحن نشهد الآن مع انتشار العلم تراجع اللهجات العامية لحساب الفصحى. (المترجم)

ارتفاعاً، حيث توجد مجموعة من أشجار السنديان الضخمة محيطة بقبة بيضاء ترى من بعيد، وهي تلتمع بأشعة الشمس النافذة من خلال الأغصان، وهذه القبب هي مزارات أولياء أو مشايخ النصيريين، وليس عند النصيريين مساجد ولا كنائس، ولكنهم يبنون على كل قمة جبل مزاراً يشير إلى وجود قبر، ومع أن هؤلاء الأموات المتوجين عالياً قد غادروا عالم الأحياء لم يتوقفوا عن أداء أعمالهم الخيّرة، حيث إنهم يُعدون حُماة الأشجار التي تحيط بقبورهم التي تبقى وحدها سليمة لا تُمس.

يقع حصن سليمان في رأس واد عال في الجبال، وينبثق نبع صاف من تحت أسواره، ويجري حول منبسط من الأرض طبيعي من الطرفاء الخضراء حيث نصبنا مخيمنا عندها، وترتفع الهضاب على نحو مدرج خلف المعبد وينحدر الوادي بشدة تحته، والآلهة التي كرست لها تتمتع منفردة بجمال خرائب مزارها. وقد غطى اللبلاب الأسوار المحيطة بالمبنى كما تفتحت أزهار



١٠٢ ـ معبد حصن السليمان

البنفسج الذي نبت في صدوعها، كان ثمة أربع بوابات تقود إلى الساحة التي يقع المعبد في وسطها، وعلى مسافة قصيرة جنوب المصلى كانت تقع أساسات المذبح، وهي تحوي كتابة يونانية ظريفة تروي كيف أن قائد مئة روماني يدعى ديسيموس من فيلق فلافيان قد قدم مع ولديه وابنته مذبحاً من النحاس إلى إله بيتو كايس وثبته على منصة بناء في سنة ٤٤٤، والتأريخ بالتقويم السلوقي وهو يوافق ١٣٢ بعد الميلاد، ومن المؤسف أن ديسيماس لم يجد ضرورة لذكر اسم الإله الذي بقي غير محدد في كل النقوش.

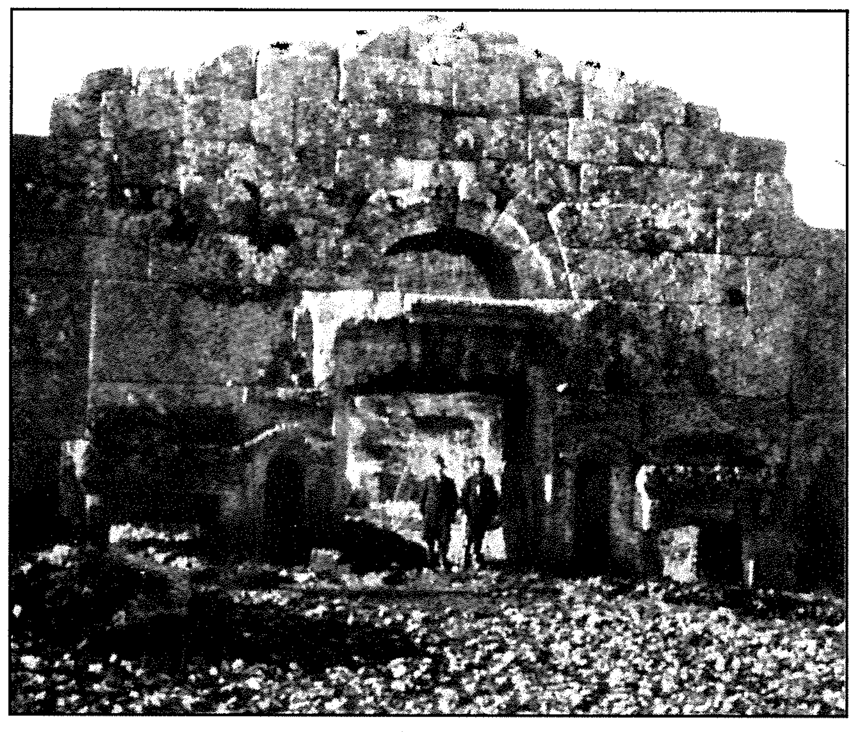
والبوابة الشمالية مثلثة الأبواب، تقع مقابلة لباحة ثانية مستطيلة مغلقة تحتوي على معبد صغير من الحجر الصلب في الزاوية الشمالية الشرقية، ورواق نصف دائري من حرم مقدس في الجدار الشمالي، وربما كان هذا الملجأ الأخير هو مقر الإله المجهول؛ لأن هناك درجات تصعد نحوه وإلى قواعد الأعمدة على الجانبين، وكما هو الحال في بعلبك فإن المسيحيين كرَّسوا قدسية المكان ببناء كنيسة فوقه، التي كانت تقع في الساحة الثانية على زاوية قائمة من الحرم الشمالي. والحجارة التي بنيت فيها أسوار كلا الساحتين ضخمة جداً، وقد بلغت أطوال بعض الحجارة ما بين ستة إلى ثمانية أقدام. النقوش التزيينية أبسط بكثير من تلك الموجودة في بعلبك، ولكن بعض التفاصيل الحميمة تذكر بالأخيرة حتى أنني أشعر بالإغراء بأن أخمن أن نفس المهندس قد عمل في المكانين، وأنه هو الذي نحت الجهة السفلية لكثبان بيتوكايس، النسور والملائكة التي زين بها عتبة معبد جوبتر. وقد قال الفلاحون: إنه كان هناك أقبية عميقة تحت المعبد والساحة، ويجب أن تكون المنطقة غنية جداً للاستكشاف الجيد، علماً أن أي معرفة إضافية جديدة لن تعزز جمال المزار العظيم في التلال.

لم يخرج القائم مقام عن حرف واحد من وعوده، مذبحة كاملة من الخراف والدجاج قدمت لنا ولأصدقائي، فقد أولم لي وللجنود وللبغالة كل في دوره. وتوهجت نار المخيم مضيئة في هواء الجبل الحاد الصافي، واكتسبت السماء حياة بنجومها الساطعة، وقرقر الجدول متدفقاً فوق الصخور وكل شيء ما خلا ذلك كان صامتاً لأن كلبي كورت الذي كان يملأ الجو نباحاً ضاع، تاه في مكان ما بين التلال وقد ذهب ولن يعود، وتفجعت لفقده ولكنني أحس بالأمان ربما أكثر من أي وقت مضى.

وفي اليوم التالي ركب معنا كل أصدقائي والجنود حتى حدود منطقة دريكيش، وهناك تركونا بعد أن أخرجوا نصيرياً تعيساً من منزله في عين الشمس وأمروه بمساعدة الشرطي الذي سوف يرافقنا على إيجاد أفضل طريق صخري إلى مصياف. وبعد أن ذهبوا استدعيت ميخائيل وسألته عن رأيه في يومنا الممتع.

واتخذ وجهه التعبير العربي المعبر عن الإزدراء وقال: «تظنين جنابك بدون شك أنك كنت ضيفة على القائم مقام، أنا سوف أخبرك على مَنْ كنتِ ضيفة، هل رأيت أولئك الفلاحين النصيرية، الفلاح البائس الذي باعك القطع الأثرية في الخربة هذا الصباح، هؤلاء هم مضيفوك، كل ما قُدّم لكِ أُخذ منهم بدون مقابل، هم الذين جمعوا الحطب لإشعال النار، والدجاج دجاجهم والبيض بيضهم والخِراف التي ذُبحت أُخذت من قطعانهم، وعندما رفضتِ أن تأخذي أكثرَ قائلةً: لقد حصلت على كفايتي أخذ الجنود خروفاً آخر وحملوه معهم،

وكل ما أخذه الفلاحون كان المتاليك [1] التي أعطيتِهم إياها ثمناً للنقود القديمة التي اشتريتها منهم. ولكن إذا سمعت مني» تابع ميخائيل على نحو



١٠٣ - البوابة الشمالية في حصن السليمان

غير منطقي «أنت تستطيعين أن تسافري عبر أراضي الأناضول كلها دون أن تخرجي ربع مجيدي من محفظتك؛ تذهبين من قائم مقام إلى قائم مقام، وفي كل مكان سوف يستضيفونك، وهذا الطراز من الضيافة لا يستلزم دفع نقود، هم يرغبون أن تقولي سعادتك بحقهم كلمة طيبة عندما تصلين إلى إسطنبول.

(١) (المتليك يجمع متاليك والمجيدي يجمع مجيديات) عملتان كانت متداولتان في العصر العثماني. (المترجم)

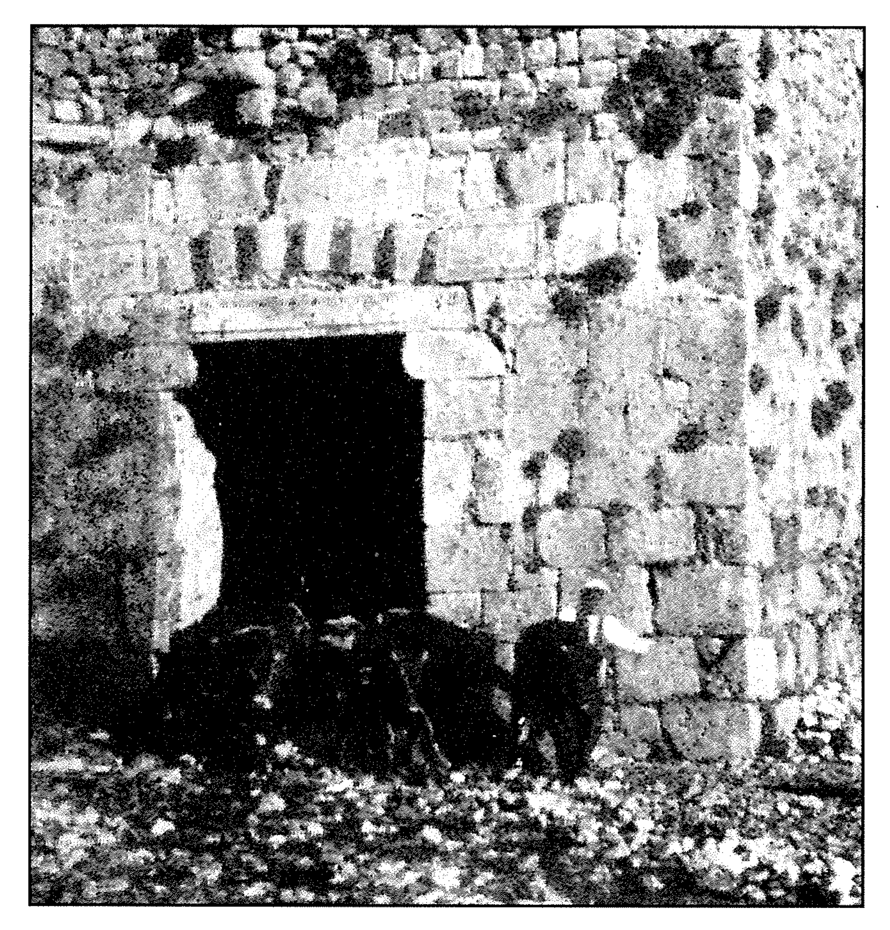
ستنامين في بيوتهم وتأكلين على موائدهم مثلما حدث عندما سافرت مع سايكس».

ولكن إذا كان عليّ أن أتحدث عن كل ما قاله ميخائيل عن رحلته مع مارك سايكس فلن أذهب أبداً إلى مصياف.

كان اليوم يوماً يستحق الذكر بما لاقينا فيه من صعوبة الطريق وبجمال الأزهار في جنباته، فقد نمت على قمم الهضاب، زهور بخور مريم الألبية، والزعفران الأصفر والأزرق والبرتقالي، ومنحدرات مغطاة كاملاً بزهور الربيع البيضاء، ونبتت في الأماكن الأكثر انخفاضاً أزهار السوسن والنرجس، وزهور السحلبية السوداء والخضراء، والسحلب الأرجواني، وأنواع متعددة من شقائق النعمان البتلة الزرقاء في أدغال من الآس.

وعندما وصلنا أكثر المنحدرات انخفاضاً أرسلت النصيري السيئ الحظ إلى بيته بعد إعطائه مكافأة التي كانت كبيرة أكثر مما كان يتوقع بالنسبة لمغامرة أمره بها ضابط من الجيش.

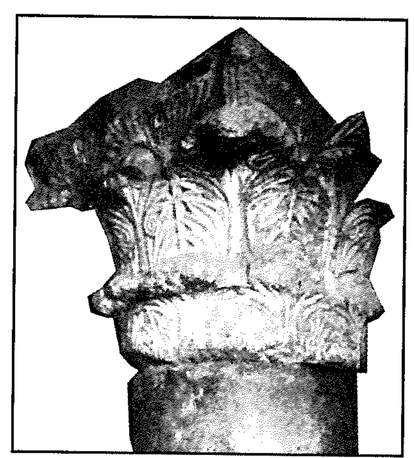
عند الثالثة وصلنا مصياف وعسكرنا عند أقدام الحصن، إن مصياف الآن مخيبة للأمل، هناك في الواقع حصن كبير، ولكن حسب تقديري هو حصن عربي البناء، وكذلك السور المحيط بالمدينة، إن الطريق الروماني الآتي من حماة يمر في مصياف، ويجب أن يكون هناك آثار رومانية في المدينة، ولكني لم أر شيئاً. وقد سمعت عن حصن في أبو قبيس على قمة إحدى الهضاب، ولكن قيل: إنه يشبه حصن مصياف، فقط أصغر، ولم أصعد إليه. ولقلعة مصياف سور خارجي وحصن داخلي يتم الوصول إليه عبر ممر مقبى يشبه ذلك الموجود في قلعة الحصن، وقد دُمّر الحصن الداخلي القديم تماماً،



١٠٤ ـ بوابة المدينة في مصياف

واستُبْدِل به قاعات وغرف تعوزها المتانة بناها الإسماعيليون منذ بضعة مئات من السنين عندما احتلوا المكان. هكذا أخبرني رجل عجوز من أهالي مصياف يدعى الأمير مصطفى ملحم الذي ينتمي إلى نفس الطائفة وقد عمل كدليل لي، وقد قال: إن أسرته أقامت في الحصن لمدة سبعمئة أو ثمانمئة سنة. ولكن من المحتمل أن يكون كاذباً، مع العلم أن الإسماعيليين قطنوا مصياف منذ هذه المدة. وقد بني في البوابة الخارجية تيجان وأعمدة يجب أن تكون قد

أخذت من بعض الأبنية البيزنطية، وبوجود بعض الكتابات العربية منقوشة على جانب البوابة الثانية وقد سجل عليها أسماء بناة ذلك القسم من القلعة، ولكن الكتابة مكسرة كثيراً. وقد أخبرت فيما بعد أنه كان عليّ أن أزور مكاناً يدعى دير الصليب حيث يوجد كنيستان وحصن صغير، وهو غير محدد في الخريطة، ولم أسمع شيئاً عنه إلا بعد أن أصبح خلفي بمسافة كبيرة [1]. وقد شاهدت قسماً من الرصيف وهو الطريق الروماني عندما سافرت في اليوم التالي إلى حماة. وثمة جدار خشن البناء مبني بحجارة ضخمة، مبني على تل ملفت للنظر عند الجسر الواقع على نهر الساروت على مسيرة أربع ساعات ونصف من مصياف.



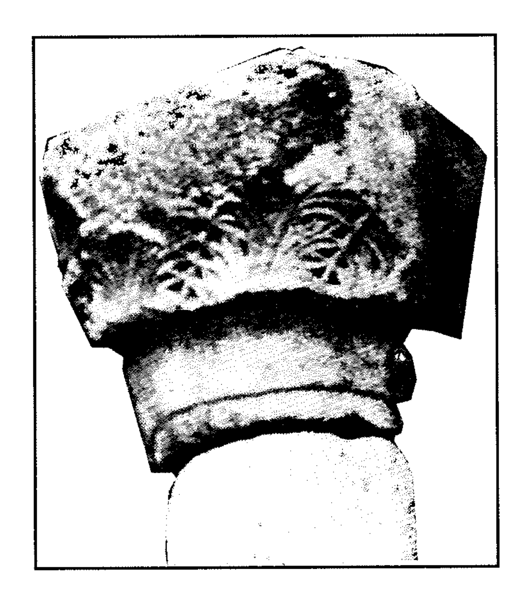
١٠٥ ـ تاج عمود في مصياف

وقد وجد ميخائيل قطعة نقود رومانية في أثلام الحقل الواقع عند سفح التل. ومن النهر كان أمامنا ساعتان ونصف من السفر الممل حتى نصل إلى حماة، وقد ذهب هذا الملل بوجود عجوز تركي ظريف يعمل في دائرة البرق وقد التحق بركبنا عند الجسر، وقد أخبرني بقصته بينما كنا راكبين بجوار بعض: «أفندم.. موطن أسرتي قرب صوفيا، أفندم.. أنت تعرفين المكان؟ ما شاء الله، إنها منطقة رائعة! حيث كنت أسكن كانت الأرض مغطاة بالأشجار، أشجار مثمرة وصنوبر في الجبال، وحدائق من الورد في السهل، أفندم..

(١) الحقيقة أن دير الصليب يقع على الطريق الواصل بين مصياف وحماة، وهو لا يبعد عن الطريق العام أكثر من كيلو مترين، ولا يحتاج الخيَّال إلى أكثر من نصف ساعة ركوب لكي يصل إليه، ولعل من حدثها عن دير الصليب لم يحدد مكانه بدقة. (المترجم)

العديد منا جاء إلى هنا بعد الحرب مع المسكوب؛ لأننا لم نقبل أن نعيش تحت أي يد إلا يد السلطان، وقد عاد كثيرون بعد أن جاؤوا. أفندم؟ ما هو السبب؟ لم يريدوا أن يسكنوا في بلاد ليس فيها أشجار. بالله، لم يستطيعوا تحملها».

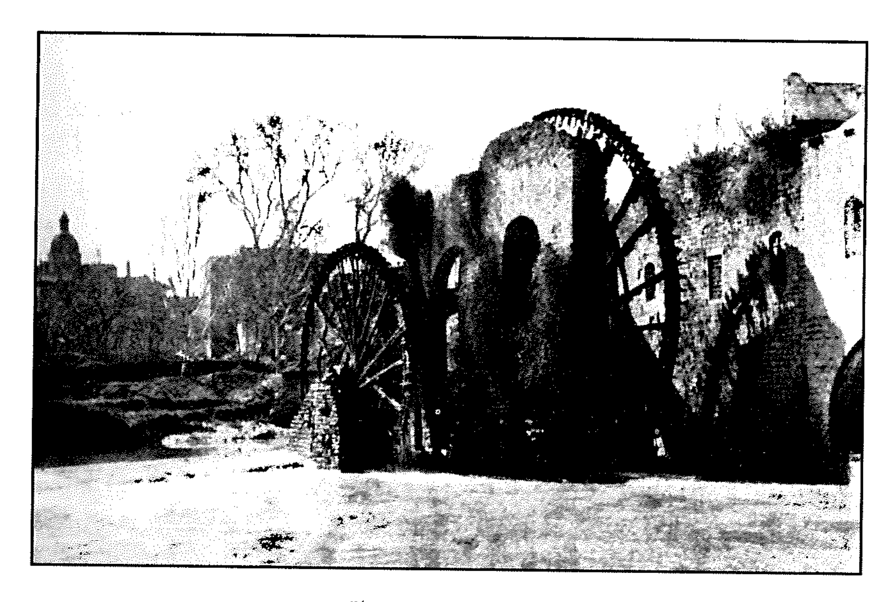
عند هذا الحد من الحديث وصلنا حماة.



١٠٦ - تاج عمود في مصياف



الفصل العاشر:



١٠٧ ـ نواعير حماة

أنت لا ترى حماة إلا بعد أن تطل عليها تماماً، ولا يوجد عبارة أخرى تصف الموضع بالنسبة للقادم الجديد، فالعاصي يجري في هذه النقطة في سرير عميق والمدينة بأكملها تختبئ بين جنباته، وتمتد أمامك حقول الحبوب امتداداً رتيباً بدون انقطاع حتى تصل إلى مقابر مترامية الأطراف.

كان خميس الأموات قد عاد مرة أخرى، وقد احتشدت المقبرة بالأحياء احتشادها بالأموات، وانتهى السهل فجأة تحت أقدامنا، ووجدنا أنفسنا على حافة جرف والمدينة كلها ممتدة أمامنا، وعلى جنبات العاصي نواعير فارسية،

وإلى الخلف تل مخروطي تجثم فوقه قلعة حماة أو أبيفانيا، ومن يعرف ماذا يقع غير ذلك في جوانبها فالمكان هو واحد من أقدم الأمكنة في العالم(١).

وبرز جنديان من الأرض، وانتصبا أمامي، وعرضا أن يدلاني على بقعة أنصب فيها مخيمي، ولكني كنت تعبة وتجاوزتهما، وهي حالة ذهنية قد تحدث للإنسان أثناء الترحال، إضافة إلى أن البقع الخالية من البناء بين البيوت حيث أخذانا كانت كريهة على نحو متميز.

وأخيراً أعلن التركي الرائع ـ الذي لم يكن قد تركنا ـ أنه يعرف منطقة جميلة جداً يمكن أن تسرني، وقادنا على طول حافة الخندق إلى أبعد نقطة إلى شمال المدينة حيث أوصلنا إلى مرج معشب في موقع بديع كما نحب ونشتهي، كان النهر يخرج من المدينة الواقعة تحتنا بين بساتين المشمش المزهرة، وقد انبسطت أشعة الغروب الذهبية خلف مآذنها، وناعورة ضخمة ترتفع عالياً فوق الأرض تغني للنهر أغنية عذبة.

إن حماة الآن هي الحد الذي وصل إليه الخط الحديدي الفرنسي(*)، كما أنها مركز المتصرف(٢).

وقد زودني الخط الحديدي بدليل ومرافق في نفس الوقت في شخص رئيس المحطة السوري الأصل، وهو رجل ضئيل الجسم شديد السمرة على

---

(١) تقول المؤلفة: إن النواعير فارسية، ولكن بدون أي دليل، والحقيقة أن هذا غير صحيح، فالنواعير ليست فارسية ولا رومانية، ولا يوجد أي سبب يدعو إلى نسبتها إلى هؤلاء، والمرجح أن تكون من ابتكار آرامي وادي العاصي؛ لأنه لا يوجد لها مثيل في العالم إلا هنا. (المترجم)

(*) حاشية للمؤلفة : سوف تبقى حماة الحد النهائي للخط لمدة شهرين آخرين ثم سيمد الخط حتى يصل إلى حلب.

(٢) اسم المحافظ في ذلك الزمان.

جانب من الغرور، وكان قد تعلم في إرسالية أجنبية ويزدري الكلام في اللغة العربية عندما يستطيع أن يفأفئ بالفرنسية.

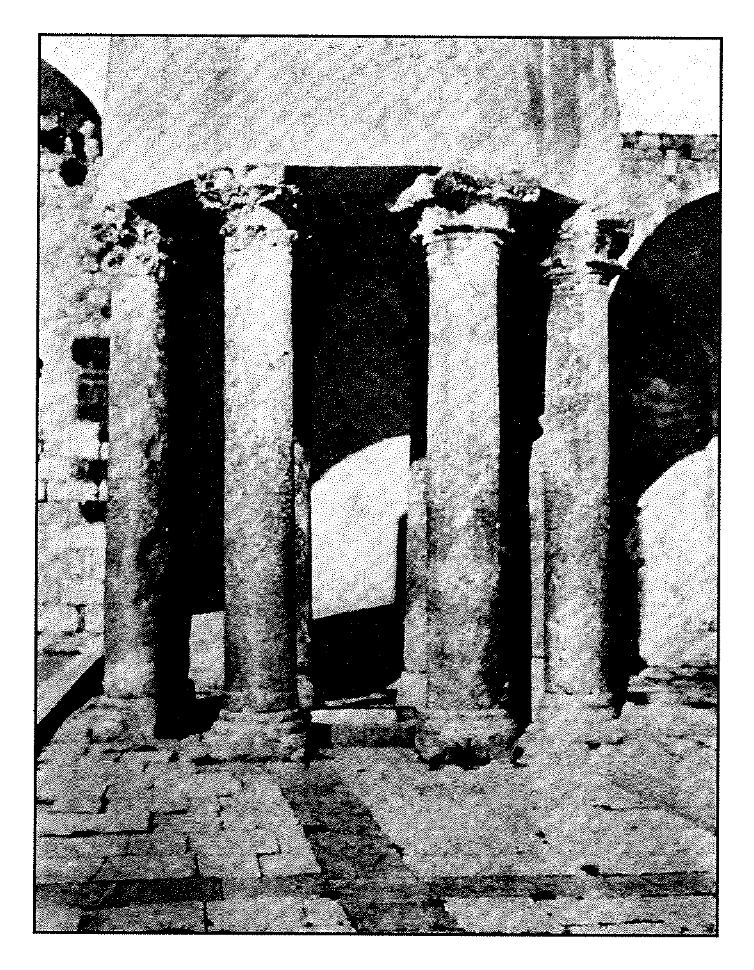
وقد قال إن اسمه هو السيد كبيس وإنه يهوى علم الآثار، ويعد نفسه خير مثال للفكر الحديث، وكان ينسب كل الآثار الموجودة في حماة إلى الحثيين سواء أكانت رؤوس أعمدة بيزنطية أو مخرمات تزيينية عربية.

وقد أوشكت أن أصطدم فوراً مع المتصرف بسبب إصراره على تزويدي بثمانية جنود لحراسة مخيمي في الليل، وهي قوة منافية للعقل، قائلة: إنني كنت أكتفي دائماً بحارسين في كل المناطق التي زرتها، وسوف يكون مثل هذا العدد الكبير من الحرس أمراً بغيضاً غير محمول؛ لأنهم سوف لن ينقطعوا عن الكلام طوال الليل، ولن يعرف المخيم من ثَم الهدوء، ولذلك فقد صرفت ستة منهم رغم احتجاجهم بأنهم مجبرون على طاعة أوامر رؤسائهم، وقد وفقوا بين أوامر المتصرف وبين رغبتي بأن قضوا الليلة في مسجد مهدم يبعد حوالي ربع ميل عن مخيمنا، حيث استطاعوا أن يقضوا استراحة رائعة متحللين من المسؤولية.

من حيث الجمال والمناظر الطبيعية لا تستطيع أي مدينة في سوريا أن تنافس حماة بجمالها؛ فالنهر العريض ونواعيره الضخمة مصدر دائم من مصادر الجمال، وأبراج المآذن المزينة بصفوف من الحجارة السوداء والبيضاء مظهر آخر من مظاهر الجمال الهندسي، كما تشكل الطرقات الضيقة المقببة مصائد لتأثيرات الظل والضوء الجمالية لا تجارى، كما أن أسواقها لم تُسقف بسقوف حديدية تُدمّر خصوصيتها كما حدث في أسواق حمص ودمشق(١).

(١) لقد سقفت هذه الأسواق فيما بعد. (المترجم)

أما المسجد الكبير الواقع في منتصف المدينة فقد كان كنيسة بيزنطية، ومن الممكن أن تلمس آثار أبواب ونوافذ البناء القديم بسهولة في جدران المسجد، وربما كان القسم الأسفل من المئذنة الغربية قاعدة لبرج قديم، وساحة المسجد مليئة بالأعمدة البيزنطية والتيجان، والقبة الصغيرة الجميلة قد قامت على ثمانية أعمدة كورينثية.



١٠٨ ـ قبة الخزنة في الجامع الكبير في حماة

وقد لاحظت المؤثرات البيزنطية في الزخرفة النباتية البارزة، فعندما نمت هذه النباتات ضعيفة بحيث لم تستطع أن تنتصب على نحو قائم، فإن نحات الحجر جعلها تلتف قليلاً على رأس العمود كما لو كانت السعف النباتية قد التوت بفعل الرياح، وكانت تأثيراتها الجمالية عظيمة ورائعة.

تسلقتُ وكبيس هضبة القلعة ولاحظتُ أن مساحة قمتها كبيرة. ولكن كل حجارة التحصينات المنحوتة قد جرى أخذها واستخدامها في أبنية البلدة في الأسفل.

وانطباعي أن عزلة التل عما حوله غير طبيعية، وأنه قد جرى عزله بالحفر من جهة الباشورة التي تقع خارج الوادي بحيث تم عزل قسم منها عن حافة القلعة الأساسية، فإذا كان هذا ما حصل فإنه عمل عظيم ضخم من أعمال العصور الوسطى لأن الخندق عريض وعميق.

كان اهتمامي الرئيسي في النهار منصبّاً على السكان، الأُسر المسلمة المتنفذة في حماة أربع، يشكلون وجهاء البلدة: عظم زاده، طيفور، كيلاني، برازي. وقد قابلتُ أحد أفراد الأسرة الأخيرة في دمشق. وربما يصل الدخل السنوي لكل أسرة من هذه الأسر إلى ستة آلاف ليرة ذهبية، تأتي كلها من الأرض والقرى حيث لا توجد حركة تجارية في حماة، وقبل أن تتوطد السلطة العثمانية كما هي عليه الآن كانت هذه الأسر هي الحاكمة الفعلية للمدينة والقرى المحيطة بها[1]. وما يزال لهم نفوذ قوي في إدارة شؤون البلدة،

(١) إن هذا الكلام غير دقيق، فقد يكون صحيحاً بعض الشيء بالنسبة لآل الكيلاني وآل العظم باعتبارهما أسر قديمة في حماة حيث يعود تاريخ آل العظم إلى أوائل القرن الثامن عشر، وآل الكيلاني إلى فترة أقدم من تلك. أما عائلتا البرازي وطيفور فهما أسر حديثة ويعود وجودهما في المدينة إلى أواسط القرن التاسع عشر، حيث تولى عبد الله باشا طيفور ـ وهو أصلاً من دير الزور متصرفية حماة ـ في عهد إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر في فترة الاحتلال المصري بعد عام ١٨٣٠م. أما آل البرازي فأصلهم من عشيرة البرازية في عين العرب، وقد كان جدهم رقيباً (شاويش) في الدرك في أواسط القرن التاسع عشر، واستطاع أن يكتسب نفوذاً من خلال الخدمات التي كان يقدمها لملتزمي تحصيل الضرائب. (المترجم)

وموظفو السلطان يتركون لهم الحبل على الغارب، وتصرفاتهم بالإجمال شريرة، وثمة قصة شريرة قديمة تروى عن آل العظم على نحو متكرر متواتر، ولم ينف صحتها على حد علمي أحد من الأسرة:

كان فيما مضى من الزمان رجل من آل العظم اشتهى - مثل الملك داوود - بستان جاره [1]، ولكن صاحب الأرض رفض البيع، فدبّر ابن العظم مكيدة، فقد أمر بقتل أحد عبيده، وتقطيعه إلى قطع صغيرة، ودفن هذه القطع عميقاً في زاوية من بستان جاره، وبعد أن انتظر فترة مناسبة أرسل إلى جاره البستاني رسالة يقول فيها: «إنك دعوتني أكثر من مرة لشرب فنجان قهوة في بستانك، سوف آتي في اليوم الفلاني، جهّز لنا مجلساً»، وجاء ابن العظم في اليوم الموعود إلى البستان، ومُدّت المائدة تحت عريشة ظليلة، ولكن الضيف لم يعجبه المكان، وادعى أنه يثير أعصابه، وذهب مباشرة إلى حيث دفن عبده المقتول، فاحتج صاحب البستان قائلاً: إن المكان قريب من المزبلة، ولكن السيد العظم قال: إنه مرتاح للمكان، وابتدأ بتناول المسلّيات، وفجأة رفع الضيف رأسه قائلاً: «أشم رائحة كريهة»، فقال البستاني: «يا بك إنها رائحة الزبالة» قال السيد العظم: «لا، هناك رائحة مختلفة»، ثم استدعى خدَمَهُ وأمرهم أن

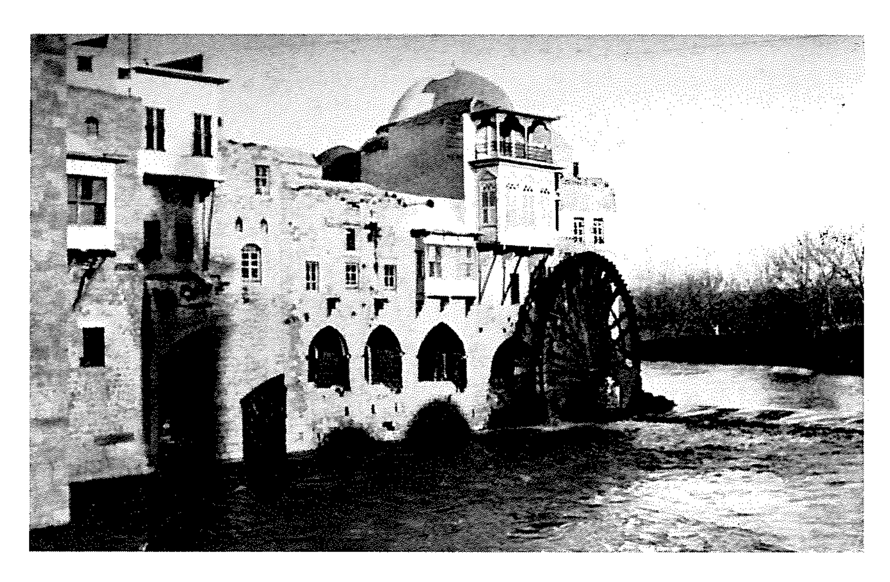
---

(1) قصة الملك داوود معروفة وقد وردت في الكتاب المقدس، وملخصها أن الملك داوود اشتهى زوجة جاره اوريا الحثي، وكان هذا الأخير ضابطاً في الجيش يقاتل في جبال موآب، فاستغل داوود غياب الزوج ونزى عليها، فحملت سفاحاً، فأرسل إلى قائد الجيش في جبال موآب أن يرسل أوريا الضابط الحثي في إجازة ليتجنب الفضيحة، فأتى الضابط، وعندما قام داوود في الليل يتفقد جواره وجد الضابط نائماً على باب داره، فسأله عن السبب، فقال: إنه وجد من العيب أن ينام إلى جانب زوجته ورفاقه يقاتلون في الجبال، فأرغمه داوود على الدخول إلى بيته والنوم عند زوجته ثم أرسل رسالة لقائده في جبال موآب أن يضع اوريا الحثي في مقدمة الجنود لأجل أن يقتل، وقتل فعلاً فتزوج داوود زوجة الحثي التي ولدت له فيما بعد سليمان. «راجع العهد القديم من الكتاب المقدس» (المترجم)

يحفروا الأرض حيث أشار، وتم الكشف عن أجزاء العبد المقتول والتعرف عليها، ووجّه الاتهام بالقتل إلى صاحب البستان وأُودع السجن، وأَخذ السيد العظم البستان تعويضاً عن عبده المقتول.

قال كبيس: ولم تتوقف هذه الطرق المنافية للعدالة حتى الآن، فمنذ عهد قريب جداً سُرقت كمية من البصل من دكان تخص السيد عبدالقادر العظم، تقع في الحي الواقع تحت مخيمي، فجاء خدم عبد القادر إلى منزل مختار الحارة وطلبوا منه مسروقات سيدهم، ولم يكن يعرف أي شيء عن الموضوع ولا يعرف من هو السارق، وأبلغهم ذلك، فلم يصدقوه، وأمسكوا به وبابنه، وجرحوا الابن برصاصة في يده، ثم سحبوا الاثنين إلى شاطئ النهر وجلدوهما بالسياط حتى شارفا على الموت، ثم تركوهما ليعودا إلى البيت بشق النفس، وقد انتشر الخبر في كل أنحاء المدينة ولكن الحكومة لم تفعل شيئاً لمعاقبة عبدالقادر.

ذهبت إلى منزل خالد بك العظم الذي يعد أجمل قصر في المدينة، ويشبه في جماله قصر العظم الشهير في دمشق، وأدخلني خالد إلى غُرفٍ نُقشت كل بوصة منها بتزيينات متنوعة من التجصيص الفضي والذهبي من الطراز الفارسي، والخشب المحفور والفسيفساء، وهذه الغرف مفتوحة على باحة في وسطها بحيرة وحولها رواق من أَجلّ الأعمال العربية، وثمة أصص على الجوانب مزدانة بالنرجس والحوذان موضوعة في زوايا الباحة. ولنساء قصر العظم سمعة في المدينة ربما أكثر ضخامة من سمعة جمال القصر الذي يضمهن، ويقال: إنهن من أجمل نساء المدينة.



١٠٩ - التكية الكيلانية في حماة

زرت كذلك منزل آل الكيلاني الساحر على العاصي والتكية الكيلانية، وهي تحتوي على ضريح يضم ثلاثة من أجدادهم، وغرف مطلة على النهر وعلى النواعير الفارسية الشجية.

وذهبت من هناك لزيارة المتصرف الذي كان عجوزاً محنيّاً عن طاقين، ولا يتحدث إلا اللغة التركية، وقد شعرت بالارتياح جداً؛ لأنني وجدته لا يحمل أي ضغينة لي بسبب تصرفي القاسي في قضية الحرس.

وفي طريقنا إلى الغداء في البيت قابلْنا عجوزاً أفغانياً مرتدياً ثياباً بيضاء، اسمه درويش أفندي، وقد أوقف موكب المتصرف ليسأل عن شخصي ومن أكون، وعندما علم أنني إنكليزية اقترب مني مكشراً وحيّاني وقال بالفارسية: «الإنكليز والأفغان أصدقاء». وقد كان يعرف مثلما يعرف رجل

الشارع البريطاني وربما أكثر عن الزيارات المتبادلة بين كابول وكالكوتا[١]، ومغزى هذه الحادثة العرضية «التي تطورت من خلال زيارة ودّيّة جداً ومملة من قبل درويش أفندي» يبين أن ما يحدث في أبعد زاوية قَصيَّة من آسيا ويعرف تقريباً وفي الحال في أقصى نقطة في الطرف الآخر، ولا أبالغ إذا قلت: إن عبور فرقة إنكليزية أراضي أفغانستان سوف يؤدي إلى تعرض السياح الإنكليز إلى السخرية في شوارع دمشق.

إن الإسلام هو الرباط الذي يوحد الأجزاء الغربية مع الأجزاء الوسطى من القارة كما لو كان تياراً كهربائياً يتم بوساطته انتقال الأحاسيس والمشاعر على نحو فعال، وتتزايد فعاليته بسبب عدم وجود مشاعر وطنية محلية كبيرة يمكن أن توازيه أو تعيق تأثيره، فالتركي أو الفارسي عندما يقول بلادي، لا يقصد بهذه العبارة ذات المعنى الذي يقصده الإنكليزي أو الفرنسي عندما يقولها، إن ولاءه الوطني محصور بالبلدة أو المدينة التي ينتمي إليها، وفي أعظم الأحوال المقاطعة الموجودة فيها بلدته، فيقول مثلاً: أنا من أصفهان أو أنا من قونية حسب البلدة التي جاء منها مثلما يجيب السوري فيقول: أنا من دمشق أو حلب.

وكما سبق وقلت: إن سوريا هي اصطلاح جغرافي لا يربط أهلها أي شعور وطني سوري داخل صدورهم، هذا ما يسمعه الإنسان من الناس في الأسواق، أو من أصحاب المحلات التجارية التي ترتبط تجارتهم بشكل صميمي بالأوضاع المحلية في بلاد أو مناطق بعيدة عن بلدانهم التي يقطنون بها، وعن

(١) كانت حكومة الهند البريطانية تتولى في شرقي آسيا وفي الخليج العربي وكل المناطق والدول القريبة من الهند بشكل عام رعاية المصالح البريطانية وإدارتها. (المترجم)

حساباتهم المالية المحلية، أو استمع إلى البغالة الذين يحمّلون دوابهم أكثر من طاقتها متنقلين من مدينة إلى أخرى. تبدو من خلال ذلك أنّ كل آسيا مرتبطة مع بعضها بسلاسل دقيقة من القرابة، وكل عمل أو تصرف مهما كان دقيقاً في سياسة أوربا الخارجية من الصين إلى حيث ترغب من البلدان الآسيوية، سوف يقيم ويوزن بقليل أو كثير من الدقة في ميزان الرأي العام، وليس من مهام الرحالة أو الذي يصغي إلى الشائعات أن يستخلص النتائج، ونحن لا نستطيع إلا كتابة التقارير، وبالنسبة لأي شخص يهتم بالإصغاء لما يتناثر من شفاه أولئك الذين يجلسون حول نيران مخيمنا، أو أولئك الذين يركبون معنا عبر الصحارى والجبال، يعرف أن أحاديثهم تشبه القش الذي يطفو فوق مجرى السياسة الآسيوية من شأنه أن يبين مسرى التيار، وتتعرفهم الشخصية الخبيرة من خلال البضائع الموجودة في المخازن والكلمات المستعملة التي تعبر عن فن إدارة الحكم.

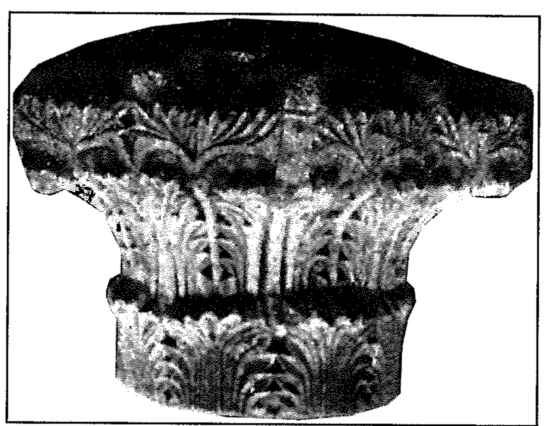
لقد أَلِفوا الحرب والتفاوض والتواسط وفي الرعاية الطويلة وإخفاء الانتقام بعناية، وسواء أناقشوا نتائج العداوة الدموية، أو عواقب التحاسد الدولي فإن تقديراتهم غالباً صحيحة، وتخميناتهم قريبة من النقطة المطروحة على بساط البحث [١].

وبالنسبة للمرحلة الراهنة وحسب المدى الذي وصلت إليه خبرتي فإن اسم الإنكليز يحمل وزناً أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى، لقد لاحظت

---

(١) تبين هذه الفقرة الواضحة جداً أن تنقيب هؤلاء الأوربيين عن الآثار والسياحة هنا وهناك ليست إلا ستاراً لدراسة المنطقة، وإيجاد الوسيلة المناسبة لخدمة مصالح بلادهم فيها، وقد عملت جير ترودبل وفيلبي ولورنس وكلوب وغيرهم من المبعوثين الإنكليز كما يعمل غيرهم من السياح الأجانب في آسيا وإفريقيا على تهيئة المناخ لاستعمار بلادهم لهذه المناطق سواء في البلاد العربية والإسلامية أو في أفريقيا، وقبل ذلك في أمريكا وأستراليا إلخ. (المترجم)

أن هناك مسافة واضحة جداً بين الموقف منا الذي سبق ولاحظته بألم كبير قبل خمس سنوات أثناء أسوأ فترة من حرب البوير، والموقف منا الآن. ويعود تغيير هذا الشعور نحونا كما استطعت أن أحكم من الأحاديث التي سمعتها ليس لانتصارنا في جنوب أفريقيا بمقدار ما يعود إلى إدارة اللورد كرومر الرائعة في مصر وسياسة اللورد كارازون في الخليج الفارسي، وتحالفنا مع المنتصرين اليابانيين [١].



١١٠ - رأس عمود في المسجد في حماة

بعد أن تخلصت آخر الأمر من الأفغاني وجلست وحيدة على حافة العشب الذي يفصل بين خيمتي وبين البلدة الواقعة أسفل المنحدر بعدة مئات من الأقدام أتت شخصية هامة بعربتها من أجل تقديم احترامها وكانت هذه الشخصية هي المفتي محمد أفندي، وقد جلب معه رجلاً ذكياً من بصرى الحرير في حوران، كان قد سافر إلى قبرص. وكان لديه الكثير مما يتحدث به عن إدارتنا هناك. (كان معظم ما قاله يدل على سوء الإدارة).

(١) الحقيقة أنه حيثما يحل الإنكليز يحل الخراب.. لقد استعمروا مصر فأخروا تطورها مئة عام. واحتلوا عدن مئة وثلاثين سنة وخرجوا منها ونسبة الأمية في جنوب اليمن ٩٥ ٪، وكانوا هم المسؤولين عن استيطان اليهود في فلسطين، وكل ما نتج عنه من كوارث، وأبقوا مشيخات الخليج على حالها من الأمية والبداوة والجهل حتى خرجوا. (المترجم)

كان للمفتي نفس هيئة قاضي حمص والشيخ النقشبندي، العيون الحادة، والذكاء الآسيوي اللمّاح، والذي تتشوه ملامحه إلى حد ما بدهاء يحكي اعتباره نوعاً من المكر. وقد أجلس نفسه على أفخم كرسي في الخيمة ملاحظاً بنوع من الرضا: «سألت هل تستطيع أن تتحدث بالعربية؟ وعندما أجابوا نعم أمرت فوراً بتجهيز عربتي وجئت».

وقد تحدث عن اليمن الذي كان قد أرسل إليها قبل عدة سنوات من تجدد السلام بعد الثورة العربية الأخيرة، وتحدث عن رحلة من الساحل إلى الصحراء الداخلية الحارة جداً، وعن الجبال الداخلية المغطاة بالأشجار حيث تهطل الأمطار صيفاً شتاءً وعن عناقيد العنب الضخمة التي تتدلى في الكروم، وتنوع الفواكه اللانهائي في البساتين، وعن المدن الكبيرة مثل دمشق والمحاطة بأسوار تعود إلى ألف سنة، والعرب هناك سكان مدن وقرى وليسوا بدواً وهم يكرهون الحكومة العثمانية أكثر مما هي مكروهة في أي مكان آخر، وقد اعتادوا الفرار إلى الجبال حيث يستطيعون أن يمكثوا فيها عدداً لا نهائياً من السنين.

ولكنه كان على خطأ فقد كانت شهور قليلة كافية لتحرز عساكر السلطان النصر، فمن خلال الشجاعة بشكل عام، والقدرة على تحمل المسير في الصحراء، وعداء القبائل العربية لبعضها أكثر من عدائها للعثمانيين فشلت الثورة، ولكن بعد تغيير نمط إخماد الثورات في تركيا عادت فتجددت الثورة مرة أخرى.

كما أخبرني المفتي أيضاً بأنه أينما حفر الإنسان في حماة يجد قواعد أبنية قديمة حتى تحت مستوى النهر.

وتبع المفتي صديقي موظف البرق التركي الذي سر لرؤيتي في مخيمي من جديد، ثم تبعه المتصرف مواصلاً قلقه ونزل متمايلاً من عربته، وقد أعارني عربته الفيكتوريا[١] لكي أزور أجزاء البلدة الواقعة شرقي النهر، وقد ركبتها مع ناظر المحطة كبيس، ورافقنا فارسان مواكبةً للعربة وكانا لا يرتديان ـ على نحو استثنائي ـ أسمالاً بالية. ويدعى الحي الشرقي حي الحاضر، وهو حي البدو بشكل خاص. لقد تقنعت المدينة العربية هنا بلغتها الصحراوية الفجة الوعرة، وأسواقها التي تعج بالبدو الذي يفدون إلى المدينة ليشتروا القهوة والتبغ والعباءات المخططة. وهو يحتوي على مسجد صغير مهدم يقال إنه سلجوقي الطراز يدعى مسجد الحيّات؛ بسبب الأعمدة المنحوتة على نوافذه التي تشبه الحيّات.

وفي النهاية الشمالية لباحة المسجد يوجد غرفة تضم قبراً رخامياً هو قبر أبي الفداء، العالِم الجغرافي الشهير، أمير حماة، وقد توفي عام ١٣٣١م. وقد زين قبره بنقوش جميلة تبين تاريخ وفاته بالتقويم الهجري.

عُملتْ وليمة عشاء تلك الليلة ضمت ناظر المحطة، وطبيباً سوريا هو السيد سلوم[٢] وكاهناً يونانياً [٣]، وتجاذبنا الحديث حتى وقت متأخر. مجموعة متنافرة فطرياً.

لقد تلقى الدكتور سلوم تعليمه في الكلية الأمريكية في بيروت، حيث جاء جميع ممارسي المهن الطبية كباراً وصغاراً والمنتشرون في جميع أنحاء سوريا،

---

(١) عربة حنطور.

(٢) توفيق سلوم، طبيب من قرية محردة التابعة لحماة، زاول المهنة في حماة من أوائل القرن العشرين حتى عشريناته كما أُخبرتُ. (المترجم)

(٣) هو مطران الروم الأرثوذكس على الأغلب.

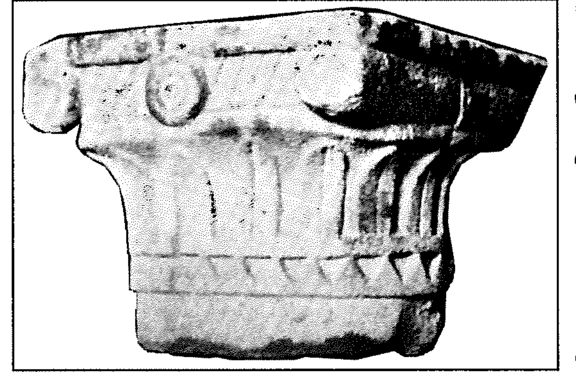
وقد كان مسيحياً من طائفة تختلف عن طائفة الكاهن، كما أن كبيساً يتبع طائفة أخرى خلافاً للطائفتين[1].

قال الكاهن: « لا توجد مشاعر معادية للمسيحيين في حماة بشكل عام، ولكن هناك قليل من الاحترام لردائه الكهنوتي، حيث إنه كلما مشى في البلدة ترمي عليه بعض النسوة النفايات من أسطحة منازلهن صارخات: كاهن مسيحي كلب».

وتحدث كبيس عن الفوائد التي سوف تجنى من سكة الحديد «سيئة الإدارة كمؤسسة تجارية كما أتخيل» قائلاً: «مما لا شك فيه أن حماة حققت مكاسب من وصول الخط إليها، لقد ارتفعت الأسعار في السنتين الأخيرتين، واللحم الذي لم يكن له أسواق، يُرسَل الآن إلى دمشق وبيروت. وإنه هو بنفسه كان قادراً عندما جاء إلى حماة أن يشتري خروفاً بفرنك واحد، وهو مضطر الآن لدفع عشرة فرنكات».

زودني المتصرف بأفضل شرطي حصلت عليه في رحلاتي جميعاً ممثلاً بشخص الحاج محمود من أهالي حماة، كان رجلاً طويلاً عريض المنكبين قد سبق وخدم في حرس السلطان في إسطنبول.

كما حج ثلاث مرات؛ واحدة كحاج واثنتان كجندي



١١١ ـ رأس عمود في حماة

(١) كان توفيق سلوم بروتستانيًا، وكبيس كاثوليكياً، والكاهن أرثوذكسياً.

مرافقة، وقد ركب برفقتي عشرة أيام، أخبرني فيها من الحكايا ما يملأ مجلداً كاملاً، وكان يحيط أحاديثه بصور بيانية، فهو في التعبير بمثابة أستاذ، وقد سبق وسافر مع عالِم آثار ألماني، وتعلم منه ما يهمّ الغربيين من نقوش وكتابات أثرية. قال:

«في قلعة المضيق أخبرته (أي عالم الآثار الألماني) إذا كنتَ تريد أن ترى حجراً نقش عليه رسم يمثل حصاناً مع فارسه، فأنا بنور الله أستطيع أن أريكه، وقد تعجب كثيراً آنذاك وكافأني ببعض المال، بالله وبمحمد رسول الله، أنتِ أيتها السيدة سوف تشاهدينه رأي العين».

وهذه مأثرة محمود تمت ملاحظتها على ضوء التجربة فيما بعد أكثر بكثير مما بدت من الوهلة الأولى، لأن أحد أكبر الصعوبات في البحث عن العاديات هي أن الناس خارج الأماكن المألوفة لا يميزون النقوش عندما يرونها، ولن تندهش إذا فشلوا في التفريق بين النقوش الحقيقة وبين الصدوع والعلامات التي تتركها عوامل الطبيعة على الحجارة. ولكنك تفاجأ عندما تسأل فيما إذا كان هناك حجارة على صور رجال أو حيوانات بأن يجيبك من تحاوره: «والله نحن لا نعرف كيف تكون صورة الإنسان، وأكثر من ذلك إنك إذا أريته نقشاً يحتوي على صورة منحوتة فوقه ستفاجأ بقوله غالباً بأنه لا يعرف فكرة عما يمثله النقش(١)».

ولكن مرافقة محمود للرحالة الياباني هي من أكثر الرحلات الجديرة بالملاحظة، حيث أرسلت الحكومة اليابانية هذا الرحالة لدراسة فن العمارة

(١) الحقيقة أن معظم البعثات الأثرية الأجنبية ومعظم المنقبين عن الآثار من الأجانب لصوص، وقد سرقت كميات هائلة من آثار البلاد العربية لتقبع في المتاحف في أوربا وأمريكا، ولا شك أن المواطنين بحسهم الفطري الطبيعي يرتابون ـ ومعهم الحق بذلك ـ بالأجنبي الذي يتظاهر بالعلم وبالبحث في التاريخ. ويخبئ في داخله لصاً بكل ما في الكلمة من معنى، وللأسف فإن كثيراً من المواطنين تحول إلى سماسرة ولصوص آثار لبيعها للعالم الأوربي الأمريكي بإغراءات كثيرة أهمها المال. (المترجم)

الروماني في الأقاليم الشرقية للدولة الرومانية، كما علمت فيما بعد، وقد دُهشتُ متسائلةً، كيف وجد اليابانيون ـ وهم منشغلون بالحرب مع الروس ـ وقتاً لمثل هذه الدراسات. ولكن استغراب محمود كان أكثر إثارة؛ حيث دهش من إحراز مواطني هذا الرجل القصير الضئيل الجسم النصر على الروس المفزعين.

قال محمود: «كان يركب طوال النهار، ويكتب طوال الليل، ولم يكن يأكل شيئاً سوى قطعة من الخبز وكأسٍ من الشاي، وعندما كانت تعترضه قضية يريد أن يرفضها يقول: (نو، نو)؛ لأنه لم يكن يتكلم العربية ولا التركية، وهذه كلمة فرنسية.» ختم محمود كلامه.

ولاحظت أنها إنكليزية وليست فرنسية، الأمر الذي زوّد محمود بمادة للتفكير، لأنه أضاف بفرح: «نحن لم نكن سمعنا بهم قبل الحرب مع الروس، ولكن ولوجه الحقيقة كان الإنكليز يعرفونهم».

يصنع نهر العاصي نصف دائرة في مسيره بين حماة وقلعة شيزر، وقد سرنا عبر وتر القوس عابرين نفس الحقول المفلوحة الكئيبة التي سبق وسرت فيها في طريقي من مصياف، وتتناثر فيها القرى المبنية بالطين والأكواخ ذات القبب التي تشبه خلايا النحل، ويشاهد هذا الطراز من القرى المقببة على طول السهول الممتدة من حماة إلى حلب، وهي لا تشبه أي طراز من القرى فيما عدا تلك التي تظهر في رسوم كتب الرحلات في أفريقيا الوسطى [1].

(١) الحقيقة أن هذه القبب شيء مبتكر ورائع بالنسبة لوسائل البناء والظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الزمان؛ فشكل القبة المخروطي يجعل تأثرها بالمطر والثلج أو الرياح مهما كانت عاتية شبه معدوم، وهي تؤمن عزلاً رائعاً عن الجو الخارجي؛ بسبب سماكة الجدران، فهي دافئة في الشتاء باردة في الصيف، ويؤمن ارتفاع سقفها برودة الهواء في الجزء الأسفل منها لصعود الهواء الساخن إلى الأعلى في الصيف، كما يتجمع دخان التدفئة في أعلاها في الشتاء فلا يشعر المتحلقون حول نار الجَلّة أو القش أو الحطب بالاختناق؛ نتيجة لأسلوب التدفئة في ذلك الزمان، وهي لا تختلف كثيراً عن البيوت الهرمية التي تبنى بها القرى الإنكليزية في بريطانيا. (المترجم)

يبني الرجل قبة لسكنه وعندما يصبح أكثر غنى يبني قبة ثانية وثالثة ورابعة إلخ حسب غناه وعدد أولاده حتى يصل العدد إلى أكثر من دزينة من القبب، بعضها لسكناه وبعضها لماشيته وطيوره من دجاج وخلافه، وبعضها لمحاصيله أو تبنه، وتلتف جميعها حول باحة أو حوش يشكل مفترجاً لأسرة وماشيتها.

ورأينا على مسافة قرية تدعى محردة. قال محمود: إن أهلها مسيحيون، وينتمون جميعاً إلى الكنيسة اليونانية[1]، وقد كان السكان يعيشون بسعادة وازدهار حتى قادهم سوء حظهم فاكتشفتهم إرسالية دينية التي نوعت السبل وحولت عقيدة ستين منهم إلى الكنيسة الانكليكانية، ومنذ ذلك الحين لم تمر لحظة راحة بدون شجار في هذه القرية.

وبينما كنا راكبين حدثني الحاج محمود قصصاً عن الإسماعيلية والنصيرية، وقد قال عن الأولين: إن صورة آغا خان موجودة في كل بيت من بيوتهم وأنهم يعبدون المرأة، فكل أنثى تولد في السابع والعشرين من رجب تُعزل وتُحفظ حيث تعتبر تجسيداً للإله ويدعونها روزاً، ولا يسمحون لها بالعمل، كما لا يقص شعرها، ويحتفظ كل رجل بين ثيابه بقطعة من ثيابها، أو أن يضع في عمامته شعرة من رأسها، ولا يُسمح لها بالزواج.

قلت: «ولكن ماذا لو أرادت هي الزواج».

قال محمود: «سيكون مستحيلاً، لن يرغب أن يتزوجها أحد، وهل يستطيع أحد أن يتزوج إلهه».

---

(١) «اصطلاح يطلق على طائفة الروم الآرثوذكس، وقد كان معظم أساقفتها من اليونان».

ويقال: إن لدى هذه الفرقة كتباً سرية، ولكن لم يقع أي منها في يد دارسين غربيين. وقد رأى محمود وقرأ إحداها، كانت كلها في مدح الروزة مع وصف لكل جزء من أجزاء جسدها بالثناء والمديح. كما قال: إن الإسماعيليين يقرؤون القرآن أيضاً. وتحدث أيضاً مثل هيرودتس عن قضايا أخرى غريبة لم أجد من المناسب أن أعيدها.

ويبدو أن هذه العقيدة تقفز من أعماق المعتقدات القديمة الغامضة لعبادة عشتار، أو من عقيدة أقدم وأكثر عالمية وانتشاراً من الجميع؛ عقيدة تبجيل أو عبادة أم الإله، ولكن اتهامات قلة الاحتشام التي حكيت ضدها والتي جمعتها غير موجودة [1].

وكان لدى محمود كثير من الحكايا حول النصيرية؛ ذلك أنه كان على دراية جيدة بالهضاب التي يعيشون فيها، حيث كان موظفاً لعدة سنوات في جمع ضريبة الرأس عن الطائفة. قال: «إنهم كفار، من لا يقرأ القرآن ولا يعرف اسم الله». وقد روى قصة غريبة سوف أرويها نظراً لما تمثله:

«حدثت القصة يا سيدة في شتاء كنت أجمع فيه ضريبة الرأس، وفي شهر كانون الأول يحتفل النصيريون بعيد يتوافق مع عيد المسيحيين، ويقيمون بهذه المناسبة وليمة كبيرة. وفي اليوم السابق للعيد كنتُ أركب مع اثنين في المنطقة، وقد سقطت كمية كبيرة من الثلج بحيث لم نعد نستطيع السير أبعد. والتمسنا مأوى في أول قرية في طريقنا حيث لجأنا إلى بيت الشيخ؛ لأن هناك دائماً شيخ في كل قرية يسمى شيخ القرية، إضافة إلى شيخ ديني. وينقسم سكان القرية إلى عارفين أو عقلاء وهؤلاء مطلعون على أسرار

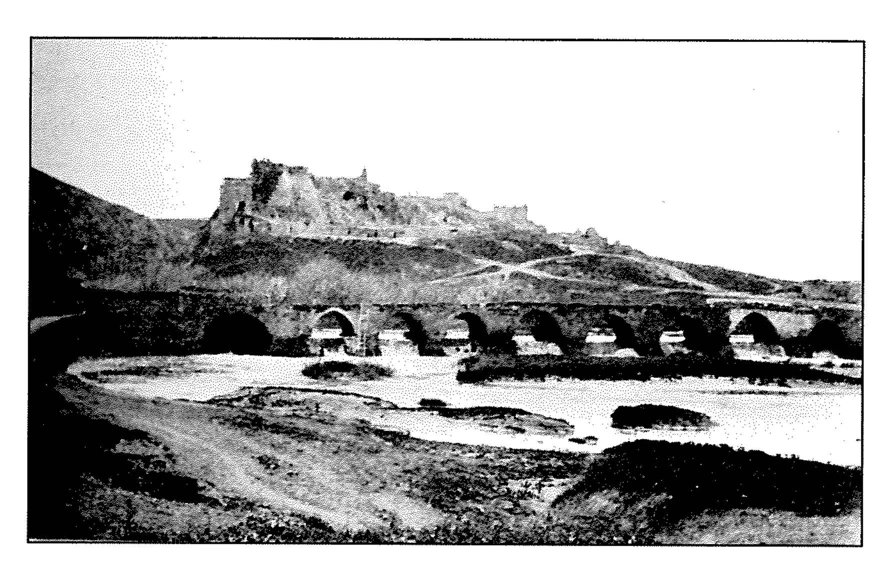
(١) خرافات عامية مرجعها التخلف والجهل. (المترجم)

المذهب، وغير عارفين أو جهال وهم لا يعرفون إلا قليلاً عن المذهب. أما النساء فلا يعلمن شيئاً عن أمور الدين؛ لأن المرأة بالله لا تستطيع أن تحتفظ بسر. وقد استقبلنا الشيخ بترحاب وآوانا. وفي صباح اليوم التالي استيقظت فلم أجد أحداً في المنزل إلا النساء، وصرخت بالله وبمحمد رسول الله أي ضيافة هذه الضيافة؟ ألا يوجد رجال يعملون القهوة بدلاً من النساء؟

وقد أجابت النسوة نحن لا نعرف ما يفعله الرجال، لقد ذهبوا جميعاً إلى منزل العالِم، ونحن لا يسمح لنا بالدخول، فنهضت وذهبت متسللاً بخفة إلى منزل العالِم، ونظرت من النافذة فرأيت العارفين جالسين في الغرفة على شكل دائرة، وجلس العالِم في قلب الدائرة، وكان أمامه وعاء من الخمر وجرة فارغة، وكان الشيخ يسأل الجرة بصوت خافت، وبنور الحق لقد سمعت الجرة تجيب بصوت وتقول: (بل.. بل). ودون أدنى شك يا سيدتي كان ذلك نوعاً من السحر.

وبينما كنت أنظر رفع أحدُهم رأسه ورآني، وخرجوا من البيت وقبضوا عليّ، وكانوا يريدون ضربي، ولكنى صرخت: «أنا ضيفك يا شيخ». وهكذا تقدم العالِم إلى الأمام ورفع يده، فتركني كل من كان ممسكاً بي حالاً، وانكب الشيخ على قدمي، وقبّل يدي وطرف سترتي قائلاً: «يا حجي إذا لم تتحدث بما رأيت سوف أعطيك عشرة مجيديات». وبحق نبي الله عليه السلام لم أرو الحادثة لأحد حتى هذا اليوم يا سيدتي[1]».

(١) كان الكثير من هذه الخرافات المرتبطة بالجهل منتشراً في أوائل القرن العشرين، ولا يزال تحضير الأرواح موجوداً عند الدجالين والمخرفين في كل أنحاء العالم، وبشكل خاص في إنكلترا. (المترجم)



١١٢ ـ قلعة شيزر

بعد ركوب أربع ساعات وصلنا إلى قلعة سيجر[١]. وهي تقع على ظهر من الأرض مقوس مشقوق من وسطه بأخدود صناعي، وينحدر بجروف عالية حتى العاصي، الذي يجري هنا ضمن سرير ضيق بين جدارين من الصخور. وتشكل أسوار القلعة التي تتوج الهضبة بين الأخدود والنهر منظراً رائعاً عندما ينظر إليها من أسفل الوادي، وثمة قرية صغيرة من القبب في أسفل الهضبة. ويجب أن تكون بلدة لاريسا السلوقية قابعة على المنحدرات العشبية إلى الشمال، يدل على ذلك وجود الأحجار المنحوتة والمبعثرة هنا وهناك.

ونصبت مخيمي عند النهاية البعيدة للجسر في أجمة من شجر المشمش جللها الزهر بثوب ثلجي، وتسمع بين جنباتها همهمات النحل، وكان العشب مرصعاً بكثافة بشقائق النعمان ونبات الحوزان القرمزي. كانت القلعة ملكاً

(١) ضبطها شيزر. ولكن العوام يلفظونها سيجر؛ لتقارب لفظي السين والشين في اللغات السامية (المترجم)

للشيخ أحمد السيجري وهي في حوزة أسرته منذ ثلاثة قرون، وكان يسكن في مجموعة من البيوت الحديثة الصغيرة في وسط القلعة، وقد أخذت الحجارة من أبنية القلعة القديمة، كما كان يملك مساحة معتبرة من الأرض وثلث القرية الواقعة تحتها، وكان يملك الثلثين الآخرين، ولكن على نحو غير متساو بعض من آل الكيلاني القاطنين في حماة وعرب السماطية، وهم بدو نصف رحل يقيمون فيها في الشتاء فقط.

كان معي رسالة للشيخ أحمد من مصطفى البرازي، ولكن وعلى الرغم من رأي محمود الذي قال: إنني لن أجده بسبب وجود مشكلات بين عرب السماطية وآل السيجري تعود إلى زمن طويل.

صعدنا نحو البوابة وسرنا على طول الطريق المكون من بقايا عقود حجرية مقببة تشبه مدخل قلعة الحصن فوق كتل من بقايا الخراب حتى وصلنا إلى القرية الجديدة حيث يسكن، وسألت عن منزل الشيخ أحمد، فأُرشدتُ إلى باب خشبي كبير محكم الإغلاق، طرقت الباب وانتظرت، وطرق محمود على نحو أقوى وانتظرنا ثانية. وفي النهاية فتحت فتاة جميلة جداً مصراع نافذة في أعلى الجدار وسألت ماذا نريد؟ فقلت: إنني أحمل رسالة من مصطفى البرازي إلى الشيخ أحمد وأريد أن أراه.

أجابت: ليس هنا.

أجبت: أريد أن أسلم على ولده.

قالت: لا يمكن أن تريه، إنه في السجن في حماة متّهم بالقتل.

وأَغلقت المصراع تاركة إياي حيرى حول الطريقة المثلى التي تقتضيني العمل في مثل هذه الظروف الدقيقة، وفي هذه الأثناء جاءت فتاة إلى الباب

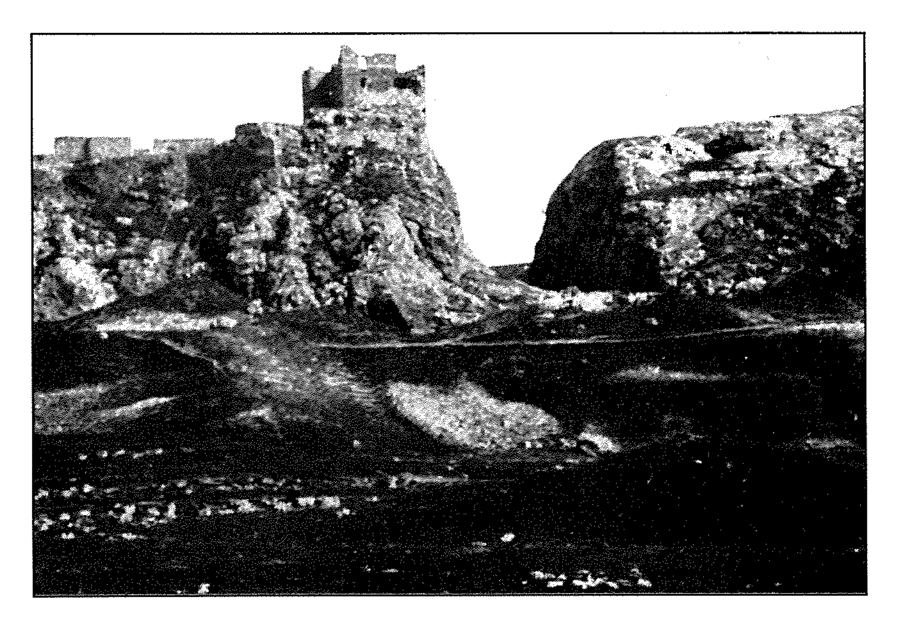
وفتحت درباسه اليدوي فأعطيتها الرسالة وبطاقتي مكتوبة باللغة العربية متمتمة بكلمات حول أسفي ومشيت. وحاول محمود الآن إيضاح القضية. كانت واحدة من تلك الحكايا الطويلة التي تسمعها في الشرق بدون بداية أو نهاية. وبدون أي إشارة تبين أيّاً من أبطال الحكاية على حق، ولكن الاحتمال الملازم للسرد يبين أن الجميع على خطأ.

«سرق السماطية بعض ماشية آل السيجري، نزل أبناء الشيخ أحمد من الحصن وقتلوا اثنين من عرب السماطية، في القلعة يقولون: إن العرب هاجموهم وإنهم قتلوا من قتلوه دفاعاً عن النفس، وكانت الحكومة التي تأخذ دائماً على آل السيجري استقلالهم النسبي قد استغلت الفرصة لتعذبهم سواء أكانوا على خطأ أو على صواب، وأُرسل الجنود من حماة، وحُكم على أحد أبناء الشيخ بالإعدام، كما رمي اثنان من أبنائه في سجن حماة، كما تمت مصادرة كل ماشية الأسرة، وأمر بقية أفراد الأسرة بعدم التحرك خارج القلعة.

والحقيقة إنهم لن يستطيعوا ذلك؛ لأن عرب السماطية مترصدون لهم خارج بوابة القلعة، جاهزون لإطلاق النار عليهم وقتلهم إذا ما تجاوزوا الأسوار. وقد استغاثوا بالحكومة في حماة من أجل الحماية فتمركز عشرة من الحرس قرب النهر، ولم يكن بالإمكان معرفة فيما إذا كانوا قد فعلوا ذلك لحماية آل السيجري أو لإبقائهم مسجونين في قلعتهم على نحو أدق.

لقد حدثت هذه الحوادث منذ سنتين وآل السيجري إما محبوسون في السجن في حماة أو محبوسون في قلعتهم في سيجر (شيزر) غير قادرين على زراعة حقولهم التي تحولت بالنتيجة إلى أرض بور. وأكثر من ذلك لا يبدو أن هناك أملاً في تحسن الموقف.

وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم جاءت رسالة من عبد القادر شقيق الشيخ أحمد يقول فيها: إنه سيكون مسروراً لاستقبالي، وإنه كان يريد أن يأتي بنفسه لزيارتي لو استطاع مغادرة القلعة، وصعدت إلى القلعة دون محمود، وسمعت كامل القصة مرة أخرى من زاوية آل السيجري الذين لم يمكنوني من الوصول إلى نتيجة حيث كانت في معظم نقاطها الأساسية مختلفة تماماً عما سمعته من محمود والنقطة الوحيدة القابلة للنقاش - وقد لا تكون ذات صلة أساسية ظاهريا بالموضوع - هي أن نساء آل السيجري جميلات جداً، وهن يرتدين الثياب البدوية الزرقاء. ولكن هذه الثياب والأغطية التي تتدلى من رؤوسهن قد ثبتت فيها حلى ذهبية ثقيلة وصفائح تشبه كنز المسينيين. واحدة خلف كل صدغ. وعلى الرغم من حسن ضيافتهم فقد اضطررت لقطع الزيارة بسبب البراغيث التي كانت تقاسمهم أسرهم



١١٣ - قلعة شيزر- مقطع امتداد الضهرة الصخرية عند حافة القلعة

داخل الحصن. ومشى معي صبيتان من صبايا آل السيجري ونزلنا عبر خرائب الحصن وعندما وصلنا إلى البوابة الخارجية الكبيرة ونظرتا إليّ واقفة على العتبة قالت إحداهن: «الله.. أنت تستطيعين السفر حول العالم كله ونحن لا نستطيع السفر إلى حماة!».

ورأيتهن عند البوابة عندما التفت مرة ثانية لألوح لهن بيدي إشارة الوداع، كانتا طويلتين منتصبتين ممتلئتين رشاقة وعذوبة، ترتديان ثياباً زرقاء ضيقة، وقد علقن الذهب فوق حواجبهن، وعيونهن تتتبع الطريق الذي قد لا تسلكانه؛ لأنه ومهما سيحصل في المستقبل للمشايخ فلا شيء أكثر تأكيداً بأن نساء الحصن الجميلات مثل هاتين سوف يبقين سجينتان من قبل آبائهن في قلعة سيزر.

وسرنا في اليوم التالي في سهول مزروعة حتى قلعة المضيق، مرحلة قصيرة استغرقت أقل من أربع ساعات، وعلى الرغم من وجود العديد من آثار بقايا البلدات القديمة المخربة فثمة واحدة أتذكرها بشكل خاص في قرية صغيرة تدعى الشيخ حديد، حيث كان هناك تل يبدو كما لو كان القسم العلوي من قلعة إغريقية.

إنّ الرحلة كانت غير ممتعة إلا من حكايا محمود، وقد دار حديثه هذه المرة حول صفات ومزايا العديد من الشعوب التي تشكل الإمبراطورية التركية والتي كان على معرفة وفيرة بالعديد منها، وعندما أتى على ذكر الشراكسة تبين أنه يشاركني كراهيتهم.

قال: «آخ يا سيدتي، هم لا يعرفون كيف يردون المعروف، الأب يبيع أبناءه، والأبناء يقتلون آباءهم إذا تصوروا أن في جيوبهم بعض المال.

لقد حدث وكنت أركب من طرابلس إلى حمص عندما قابلت قرب الخان - أنت تعرفين المكان - شركسياً يمشي وحيداً، فقلت له: السلام عليكم، لماذا تمشي؟ «وذلك لأن الشركسي لا يسافر أبداً على قدميه»، فقال: حصاني سُرق مني وأنا أسير خائفاً على هذا الطريق، قلت: تعال معي وسوف تصل آمناً حتى حمص، ولكني جعلته يمشي أمام حصاني؛ لأنه كان مسلحاً بسيف. ومن يعرف ماذا يمكن أن يفعل الشركسي إذا لم يكن تحت المراقبة.

وبعد قليل مررنا برجل عجوز يعمل في الحقل، فركض الشركسي باتجاهه وتكلم معه، ثم شهَرَ سيفه كما لو كان يريد قتله، فصرخت به: ماذا فعل هذا الرجل العجوز لك؟ فأجاب: بالله أنا جائع، وقد طلبتُ منه طعاماً، فقال ليس لديّ، ولذلك سوف أقتله.! فقلتُ: دعه في حاله، أنا سوف أعطيك طعاماً.. وقاسمته بكل ما لدي من خبز وحلوى وبرتقال. وتابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى ينبوع، وكنتُ عطشاناً، فنزلتُ من على فرسي مبقياً مقودها بيدي، وانحنيت لأشرب.. ونظرت إلى الأعلى على نحو مفاجئ، فرأيت الشركسي ورجله في الرِّكاب على الجانب الآخر من الفرس. فقد قرر أن يركبها ويهرب بها. لقد كنت معه والله مثل أبيه وأمه.. ولذلك فقد ضربته بصفحة سيفي فسقط على الأرض.. ثم كتّفتُه وقُدّته حتى حمص وسلمتُه إلى الحكومة.. هذا هو أسلوب الشراكسة بالتعامل، لعنة الله عليهم».

وسألته عن الطريق إلى مكة والصعوبات التي يعاني منها الحجاج على الطريق.

قال: «لوجه الله إنهم يعانون!، يمشون عشرة أيام من معان حتى مداين صالح، وعشرة أيام من هناك حتى المدينة، وعشرة من المدينة حتى مكة، وتتفق

القبائل البدوية على التآمر عليهم مع شريف مكة، ويسرق البدو الحجاج ويتقاسمون الغنيمة مع الشريف. وليس سيرهم هيناً كسير أولاد الأكابر، ففي بعض الأحيان يكون بين الماء والماء خمس عشرة ساعة من السير المجهد، وقد يصل إلى عشرين وفي المرحلة الأخيرة من المسير إلى مكة تبلغ المسافة ثلاثين ساعة.

وتدفع الحكومة الآن أتاوات للقبائل البدوية للسماح للحجاج بالمرور بسلام، وهم عندما يعلمون باقتراب قافلة الحجاج يتجمعون على التلال المجاورة للطريق ويصرخون منادين أمير الحج: «أعطنا نصيبنا يا عبدالرحمن باشا»، ويعطيهم أمير الحج: بحيث ينال كل بدوي شيئاً طبقاً لما يستحقه، فبعضهم يأخذ مالاً، وآخر غليوناً وتبغاً وثالث منديلاً والرابع عباءة أو خماراً».

ولا يعاني الحجاج الصعوبات وحدهم على طريق الحج، فالحرس الذين يقيمون في المخافر التي تحرس مصانع المياه على طول الطريق يعانون أيضاً، فكل مخفر هو بمثابة سجن.

وقد حدث مرة وكنت في قافلة الحراسة العسكرية، ومرض حصاني ولم يعد يستطيع السير، وتركوني في إحدى القلاع بين مداين صالح والمدينة حتى يعودون، وبقيت ستة أسابيع أو أكثر مع حاكم القلعة لم نر أثناءها أي مخلوق، كنا نأكل وننام في الشمس، ثم نأكل مرة ثانية وننام؛ وذلك لأننا لم نكن نجرؤ على الركوب خارج القلعة خوفاً من عرب الحويطات وبني عطية الذين كانوا في حالة حرب بينهم، والإنسان قد يعيش هناك عشر سنين ولا يخرج مسافة ربع ساعة عن القلعة؛ وذلك لأنه يحرس المؤن التي تطعم الحجاج عندما يمرون.

قال محمود بإيماءة شاملة من يده من الأرض إلى السماء: «والله لقد أمضى قائد الحامية عشر سنوات قائداً لحامية القلعة ولم يشاهد خلالها سوى الأرض والسماء، وكان لديه ولد صغير أطرش وأخرس، ولكن عينيه تبصران أبعد من أي رجل، وكان يراقب طيلة النهار من برج القلعة.

وقد جاء في أحد الأيام إلى أبيه راكضاً وأشار بيديه، وعرف أباه أن ابنه شاهد مجموعة من الغزاة في المدى البعيد، وركضنا إلى داخل القلعة وأغلقنا الأبواب، واقترب الخيالة من القلعة، خمسمئة من بني عطية وردوا على الماء، وبعد أن سقوا خيولهم طلبوا منا طعاماً، فرمينا لهم بالخبز؛ لأننا لم نكن نجرؤ على فتح الأبواب، وبينما كانوا يأكلون أتى عبر السهل غزاة من الحويطات وأخذوا بتبادل إطلاق النار تحت أسوار القلعة.

واستمر قتالهم حتى صلاة المغرب، وعاد من بقي حياً منهم من حيث جاء بعيداً عن الحصن، تاركين موتاهم الذين بلغ عددهم ثلاثين، وبقينا الليل بطوله داخل الأبواب المغلقة، وعند الفجر نزلنا من القلعة ودفنا الأموات، ولكن أن يعيش الإنسان في قلعة على طريق الحج أفضل من أن يذهب كجندي إلى اليمن، فهناك لا يأخذ الجنود رواتبهم ولا ينالون كفايتهم من الطعام، والشمس تحرق مثل النار، في اليمن إذا كان الرجل واقفاً في الظل وشاهد محفظة مليئة بالذهب في الشمس بالله لن يذهب ليلتقطها، وذلك لأن الحر مثل نار جهنم. يا سيدة، هل صحيح أن الجنود في مصر يقبضون رواتبهم أسبوعياً وشهرياً؟.

وأجبت: إنني أظن أن الوضع ينبغي أن يكون كذلك مثلما هو الأمر في الجيش الإنكليزي.

قال محمود: «بالنسبة لنا تتأخر رواتبنا دائماً نصف سنة وقد يصل التأخير إلى اثني عشر شهراً، ثم لا يعطونا إلا ستة أشهر، والله أنا لم أقبض في حياتي أكثر من ثمانية شهور في السنة».

أضاف: «مرة كنت في الإسكندرية ـ ما شاء الله، ما أجمل المدينة! منازل كبيرة مثل قصور الملوك، ولكل الطرق أرصفة ليمشي عليها الناس.. وهناك شاهدت سائق عربة أقام دعوى على سيدة من أجل أجرته، وقد حكم القاضي له.. بالحقيقة إن أساليب القضاء تختلف عما لدينا.. (لاحظ محمود متفكراً) ثم وبانتقال مفاجئ صرخ: «انظري يا سيدة هناك أبو سعد!» [1] ونظرت فشاهدت أبا سعد في الحقل المزروع، كان معطفه أبيض نقياً ليس عليه أي لطخة كما لو كان لم يأت تواً من رحلة أبعد من رحلات أبي محمود، وردناه الأسودان مطويان بإحكام على جنبه، وأسرعتُ لأرحب بأبي الحظ، حيث ينظر السوريين إلى اللقلق نظرتنا إلى السنونو في بريطانيا، وهو مثله مثل السنونو لا يصنع صيفاً.

ركبنا ذلك اليوم إلى قلعة المضيق في جو شديد المطر، قلعة المضيق هي أفاميا السلوقية، وقد بناها سلوكس نيكاتور، باني المدن العظيم الذي بنى كثيراً من المدن على اسم بنات الآلهة:

(سلوقيا في بيريا [2]، سلوقيا في كاليكادنس [3]، وسلوقيا في بابيلونيا[4] ومدنا أخرى غيرها).

---

(١) في مدينة حماة يطلق اسم أبو سعد على طائر اللقلق، كما يطلقون عليه اسم حاج لك لك (حاج لق لق). (المترجم)

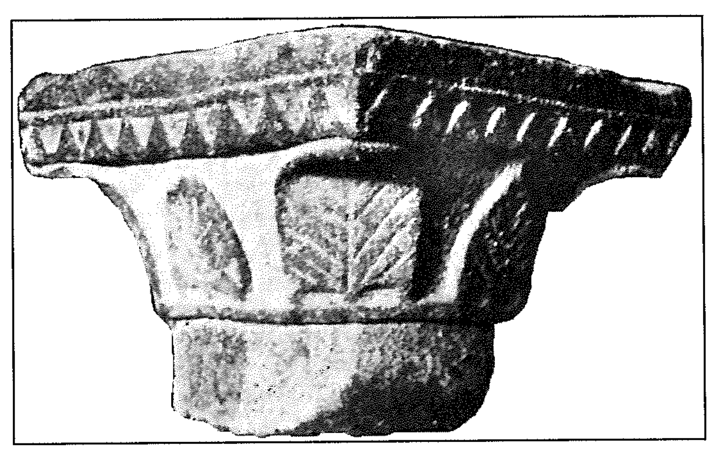
(٢) مقاطعة يونانية قديمة شمال شرق اليونان في ماسبدونيا شمال تيسالي. (المترجم)

(٣) Calycadnus كاليكادنس، لم جد اسم هذه المدينة في قاموس وبستر. (المترجم)

(٤) مقاطعة في بلاد الرافدين في واد أسفل نهري دجلة والفرات، كانت أهم مدنها بابيلون التي تقع على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من بغداد، قريبة من نهر الفرات. (المترجم)

وعلى الرغم من أن أفاميا قد دمرت نهائياً بالزلزال، فما يزال هناك ما يكفي من الخراب الذي يبرهن على عظمتها القديمة، سعة دائرة أسوارها، عدد معابدها، وعظمة شوارعها المعمدة، وأنت تستطيع أن تتتبع في الشوارع الرئيسية من البوابة إلى البوابة كتل أكوام الأعمدة. كما تلاحظ القواعد الحجرية لهذه الأعمدة في نقاط تقاطع الطرقات، فهنا وهناك مداخل قصور فخمة مفتوحة إلى داخل باحة، وقد سوي القصر الذي كانت مدخلاً له بالأرض، وهنا نقش فارس مسلح يزين بلاطة جنائزية، قد سجلت عليها الوقائع الحية لنموذجه الأصلي.

وقد تناول المسيحيون الشعلة الحضارية من حيث انتهى السلوقيون، فثمة خرائب لكنيسة كبيرة ذات فناء واسع تلتف حوله مجموعة من الأعمدة مرمية على حافة الشارع الرئيسي. وبينما كنت أغرق بأمطار الربيع الناعمة عبر العشب العميق والأزهار والبرواق المتثاقل باتجاه بومات رمادية خاب أملهن فجلسن وعيونهن نصف مغمضة على أكوام الحجارة، بدا تاريخ وهندسة المدينة نموذجاً للاندماج الرائع بين اليونان وآسيا الذي حدث نتيجة لاحتلال الإسكندر لهذه البلاد. لقد كان هنا ملك إغريقي كانت عاصمته تقع على الدجلة، ينشئ مدينة على العاصي ويسميها باسم زوجته الفارسية. أي بنّائين عظام هؤلاء الذين رفعوا هذه الأعمدة التي تزين كل المدن الإغريقية الطراز في سوريا، بنماذج تقليدية حفلت بروح السخاء الشرقي؟ وأي مواطنين أولئك الذين مشوا بين هذه الأعمدة مادّين أياديهم إلى أثينا وبابليون؟.



١١٤ ـ رأس عمود في حماة

والقسم الوحيد المسكون من قلعة المضيق هو الحصن نفسه الذي يقع بجانب الجزء الأعلى من القلعة السلوقية.

وتقع القلعة على هضبة تطل على وادي العاصي وجبال النصيرية، وهي بناء عربي بشكل رئيسي، ورغم أن أياد كثيرة ساهمت في بنائها فإن النقوش العربية والإغريقية مختلطة على نحو فوضوي في الأسوار، وثمة جزء صغير من بناء يقع إلى جنوب القلعة ذو طابع تقليدي لم أستطع أن أجد إيضاحاً لطبيعته، لقد بدا وكأنه جزء من منصة مسرح لأن الأرض المرتفعة خلفه تنحدر على شكل مدرج للنظارة. وربما أمكن بحفر بسيط إظهار آثار المقاعد تحت الأرض المعشبة، وفي الوادي ثمة مسجد صغير وخان جميل نصف مهدّم أيضاً.

وقد قدّم لي شيخ القلعة القهوة، وأخبرني رواية أخرى عن مشكلة آل السيجري تتناقض مع الروايتين السابقتين اللتين سمعتهما أولاً، وقد هنأت نفسي لأنني قررت منذ البداية أن لا أجري أي محاولة للمساعدة على حل المشكلة.

يبدو سهل العاصي من قمة القلعة مغموراً جميعه بالماء، وقد قال الشيخ إنه مستنقع العاصي الكبير. وهو يجف في الصيف فتتصل القرى الجزرية باليابسة وتصبح جزءاً من السهل. «أنا أرى الآن هذه القرى الجزرية»، نعم إنها غير صحية على نحو أكيد فسكانها يعانون صيفاً وشتاء من الحمى ومعظمهم يموتون في شرخ الشباب ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ ويصبح هؤلاء القصيروا الأعمار في الشتاء والربيع صيادي أسماك، أما في الصيف فيصبحون مزارعين لحسابهم وبالأسلوب الخاص بهم، فهم يقطعون القصب ويبذرون فوقه الذرة، ثم يحرقون البقايا فتنمو الذرة من بين الرماد مثل طائر الفينيق لكن في الزراعة.

في أفاميا قارَبَ الكعك الرائع الذي اشتريته من دمشق على النفاد، وهي تبدو مشكلة جدية عندما تكون قائمة الطعام مناسبة لشخص واحد فقط. لقد كان الغداء هو الوجبة الأكثر سواغاً بين كل وجباتنا، بيض مسلوق جاف، وقطع من لحم بارد غليظ لم يعد يثير الشهية بعد خزنه لمدة تتراوح بين الشهر والشهرين. وعلّمت ميخائيل تدريجياً بأن يُنوّع وجباتنا من المواد التي تقدمها المصادر المحلية: زيتون، جبنة، حليب، غنم، فستق مملح، معقود المشمش، ونصف دزينة أخرى من الأطعمة اللذيذة بما في ذلك الكعك الشامي.

وقد اعتاد الخدم المحلّيّون أن يطعموا السائحين الأجانب السردين ولحم البقر المعلب، ويظنون أنه دون شرف الأوربيين أن يقدموا لهم من الأطعمة المحلية، ولذلك يجب أن تذهب إلى السوق معهم، وتبين لهم الأصناف التي ترغب بشرائها، وإلا فإنك سوف تقضي رحلتك على أكل لحم الغنم البارد في أغنى بلاد العالم بمواد الطعام.



الفصل الحادي عشر:

يرتبط اليوم التالي للرحلة بذهني بحادثة سميتها بعد جهد جهيد بالمغامرة، ودعوني أسميها بالمصيبة الصغيرة، وقد أضجرتني عندما حدثت وكأنها مغامرة حقيقية «ولكن لا أحد يعرف مثل من كان وسط أحداثها كم كانت مزعجة»، ولم تخلف وراءها الذكرى المتبّلة لخطر محتمل تضيف ذكراه حيوية للجلسة بجانب المصطلى.

تركنا قلعة المضيق في الساعة الثامنة صباحاً وسط أمطار غزيرة، وسرنا متجهين شمالاً نحو جبل الزاوية، وهو مجموعة من الهضاب تقع بين وادي العاصي وسهول حلب الواسعة، وتحتوي سلسلة الهضاب هذه على عدد من البلدات الأثرية المهدمة تنتمي إلى الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والسادس الميلادي، ويسكنها الآن جزئياً الفلاحون السوريون، وقد وصفها على نحو مفصّل كل من (دي فوجيه وبتلر).

وتوقف المطر بينما كنا نصعد منحدر تلال قليلة الارتفاع، حيث كانت كل الأراضي ذات التربة الحمراء مفلوحة، والقرى مرصعة بأحراج الزيتون، والمنطقة بحد ذاتها مشهورة بجمالها الخاص، وزاد من شهرتها وجود عدد من المدن الميتة المتناثرة على نحو كثيف في أرجائها.

في البداية لم تكن الخرب أكثر من كومات صغيرة من الحجارة المنحوتة، ولكن في كفر نبل اختلفت الصورة حيث يوجد بعض المنازل الجيدة وكنيسة وبرج ومقبرة كبيرة جداً تحتوي على قبور حجرية منحوتة. هنا تتغير طبيعة

الأراضي، حيث تتقلص الأراضي المفلوحة إلى بقع صغيرة متناثرة. كما تختفي التربة الحمراء ليحل محلها أراض صخرية جرداء، ينبثق منها خرب رمادية أشبه بجلاميد صخرية ضخمة متعددة، لابد أنه كانت هناك مساحات أكبر من الأراضي المزروعة عندما كانت هذه المنطقة تعيل أعداداً كبيرة من السكان ممثلين بسكان هذه المدن المخربة، ولابد أن أمطار السنين الطويلة قد أدت إلى تهديم المصاطب الأرضية الصناعية جارفة تربتها الخصبة نحو الوديان، وبغير هذا الاحتمال لم يكن يستطيع سكانها السابقون أن ينتجوا منها ما يكفي لإعالتهم.

إلى الشمال من كفر نبل، وعبر شبكة من الممرات الصخرية ظهرت أسوار خربة حاس الرائعة التي كنتُ تواقة لرؤيتها بشكل خاص، وأرسلت البغال مباشرة إلى البارة محطتنا المختارة في تلك الليلة، واستأجرت فلاحاً ليكون دليلنا في هذا القفر الصخري، وانطلقت مع ميخائيل ومحمود، كان الطريق يتلوى صعوداً وهبوطاً بين الصخور، وكان ثمة حزم ضيقة من العشب مبعثرة على نحو كثيف بين الصخور، وكانت شمس العصر تشع حارّة فوق رؤوسنا، وترجلتُ وخلعتُ معطفي وربطتُه كما أظن بقوة إلى سرج فرسي وتابعت المسير مباشرة بين الأعشاب والزهور.

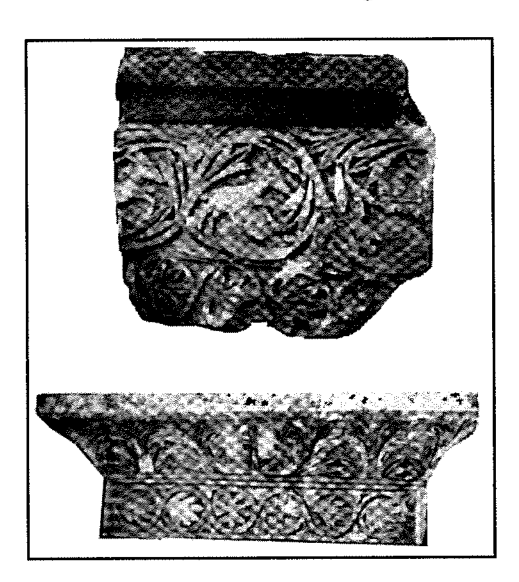
وكانت هذه بداية الحادثة الصغيرة، كانت خربة حاس مهجورة تماماً فيما عدا خيمتين سوداوين، كانت شوارع السوق خالية، وقد سقطت جدران الدكاكين في قلبها، وقد خلت الكنيسة منذ مدة طويلة من المؤمنين، والمنازل الفخمة كانت صامتة صمت القبور، والحدائق المسيجة كانت مهملة، ولا أحد يأتي لينضح الماء من المصانع العميقة، وجعلني سحرها وغموضها ذاهلة عما

حولي حتى قاربت الشمس على المغيب، وهبت رياح باردة ذكرتني بمعطفي، ولكن يا للأسف عندما عدت إلى فرسي لم أجد المعطف معلقاً في السرج، والمعاطف الصوفية الثقيلة لا تنمو على أي عشب في شمال سوريا، وكان واضحاً أن جهداً يجب أن يبذل لاستعادة معطفي. وعاد محمود راجعاً حتى وصل إلى كفر نبل تقريباً، ولكنه رجع صفر اليدين، وحل الظلام في هذه الأثناء، وهبت فوق ذلك عاصفة سوداء من الشرق، وكان ما يزال لدينا ساعة ركوب عبر منطقة شديدة الوعورة. وانطلقنا فوراً (محمود وميخائيل وأنا) في طريق غير مرئي كلياً، وليكتمل سوء الحظ هبت عاصفة فوق رؤوسنا فور حلول الغسق، وأصبح الليل حالكاً جداً. ومن خلال المطر الذي كان يضرب وجوهنا فقدنا كل أثر للطريق، وفي هذه اللحظة التقطتْ أُذُنَا ميخائيل نباح



١١٥ ـ منزل في الباره

كلاب متخيلة، فانعطفنا بخيولنا فوراً في الاتجاه المفترض أن يكون النباح جاء منه، وهذه كانت المرحلة الثانية من المصيبة أو المغامرة السيئة الحظ. ويجب عليّ في هذه المناسبة أن أتذكر على الأقل أن ميخائيل كان دائماً أسوأ دليل حتى عندما كان يعرف اتجاه المكان الذي نسعى للوصول إليه. وحظينا على نحو غير متوقع بظهور القمر من بين الغيوم ليرينا بأن طريقنا الذي نسير فيه لن يوصلنا إلى أي مكان، وعندما تأكدنا من هذا الأمر وقفنا وأطلقنا طلقتي مسدس، ظانين بأن القرية إذا كانت قريبة فإن البغالة سوف يسمعون صوت رصاصنا وسيردون علينا بإشارة ما، ولم يظهر أي شيء على أي حال وعدنا القهقرى إلى النقطة التي أعشى فيها المطر عيوننا فقط كي نضل مرة أخرى بالنباح الموهوم، ولننطلق مرة أخرى لتعقب صوت كلبنا الغليظ، وحتى هذا الوقت كنا نسير أبعد في نفس الاتجاه بين الحقول، والله يعلم أين كنا سنصل في النهاية لولا أنني تبينت من خلال ضوء القمر الضبابي أننا كنا نسير نحو الجنوب على حين أن الباره تقع إلى الشمال.



١١٦ ـ حلية معمارية بارزة في الباره في الأعلى، اسكفة باب في خربة حاس في الأسفل

عند ذلك انعطفنا متثاقلين مغيرين اتجاهنا، وبعد أن قطعنا بعضاً من طريق العودة ترجلنا عن خيولنا تحت حائط خربة لنناقش احتمالات أن نأوي هذه الليلة في حد القبور الفارغة، وأن نأكل لقيمات من الخبز والجبن من خرج محمود. وشمّت الخيول رائحة الطعام فأتت نحونا، وأطعمت فرسي نصف نصيبي من الخبز؛ لأنه بعد كل شيء قد تحمل نصف النصيب من التعب. وأعطانا الطعام بعض النشاط. وركبنا.. ووجدنا أنفسنا في ومضة عين في مفترق الطريق الأصلي للمكان، من هناك اتخذنا طريقاً ثالثاً وفي خلال خمس دقائق كنا في قرية الباره التي ظللنا ندور حولها ثلاث ساعات، كان البغالة نائمين في الخيام، وأيقظناهم بخشونة وسألناهم فيما إذا كانوا قد سمعوا إشاراتنا، وأجابوا بجزل نعم. لكننا ظننا أنه ربما كان لصاً استغل العاصفة الليلية لقتل إنسان ما، ولم يُعيروا الموضوع إلا اهتماماً قليلاً.

هذه هي مجمل قصة المغامرة السيئة الحظ، وأنا أشعر بالخجل لروايتها. وقد علمتني هذه الحادثة أن لا أشك بصحة حوادث مشابهة يمكن أن تحدث في حياة الرحالة الآخرين، والتي لدي الآن سبب وجيه للتسليم بصحتها تماماً.

مع أن الباره قد تكون غير محمولة في الليل، ولكنها في النهار هي الأروع والأكثر جمالاً، إنها تشبه مدينة الأحلام التي يبنيها الأطفال لأنفسهم ليسكنوا فيها ما بين وقت الذهاب للفراش والنوم، بانين قصراً بعد قصر تحت الطرقات المنارة بالخيال، ولا يوجد كلمات يمكن أن تعبر عن سحرها ولا عن سحر الربيع السوري، أجيال من سكان البلدة الأموات يتجولون معك في الشوارع، يُخيل إليك أنهم أمامك يتحركون في شرفات منازلهم، أو يحملقون عبر النوافذ، يضعون على رؤوسهم أكاليل من الياسمين البري الأبيض،

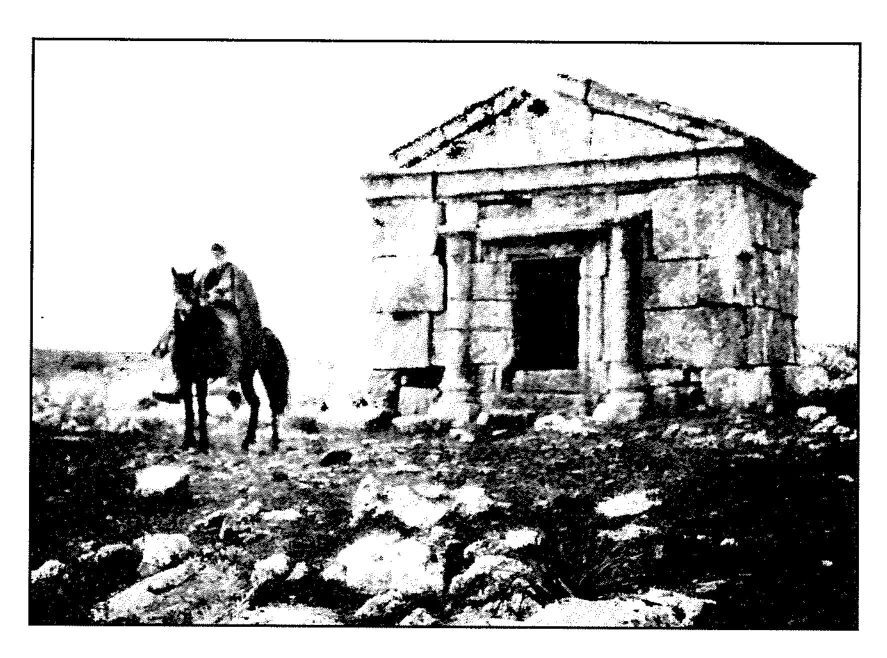
يتجولون في حدائقهم المسيجة التي لا تزال مزروعة بالزيتون والكرمة، وقد فرشت أرضها بالسوسن والصفير وشقائق النعمان، وتحاول أنت بعد أن تؤرخ لهم دون جدوى، فهم لم يلعبوا دوراً متميزاً في التاريخ، ولكنهم كانوا قانعين بأن يعيشوا بسلام، وأن يبنوا لسكناهم منازل فخمة، وقبوراً جميلة ليرقدوا فيها بعد موتهم. ومما يُثْبت تحولهم إلى المسيحية مئات الكنائس المهدّمة والصلبان المنحوتة على أبواب ونوافذ مساكنهم، وهي كافية لأن تظهر أنهم كانوا فنانين بالتزيين والزخرفة، فقد أغنوا منازلهم الفسيحة وبيوتهم الصيفية وحظائرهم وأفنية بيوتهم. لقد استعاروا من الإغريق أساليبهم في الزراعة ومن فنونهم حسب حاجتهم، ومزجوا ذلك بالروح الشرقية الرائعة التي لا تتنفس بدون أن تؤثر بالخيال الغربي، لقد عاشوا براحة وأمان مثل قلة من معاصريهم الذين كانوا على صلة بهم، وأتى الاجتياح المحمدي فجرفهم من على سطح الأرض [1].

لقد قضيت يومين في البارة وزرت خمساً أو ستاً من القرى المحيطة بها، وقد عمل شيخ البارة وابنه كأدلاء لي. كان الشيخ عجوزاً على جانب من الخُبْث يدعى يونس، وقد عمل دليلاً لعلماء الآثار المتميزين في أيامه، وهو يتذكرهم ويتحدث عنهم بأسمائهم أو بأسماء على نمط خاص به بعيدٍ جداً

(١) ليس للفتح الإسلامي علاقة بترك هؤلاء الناس لمدنهم وقراهم ولم يفعل المسلمون ما فعله الأسبان والإنكليز بالهنود الحمر حيث أبادوهم كما هو معروف، وقد بقيت سوريا ذات أكثرية مسيحية حتى أواسط العهد العثماني. وعندما احتل الفرنسيون سوريا ولبنان عام ١٩٢٠ كان عدد المسيحيين يصل إلى ثلث مجموع السكان وهذا ينفي تعرض المسيحيين للإبادة على النمط الأوربي. وأتصور أن للحروب الصليبية التي شنها الأوربيون المتوحشون ولغزوات المغول والتتار وكذلك الزلازل التي حدثت في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي دوراً في هجرة سكان هذه البلدات. (المترجم)

عن نطقها الأصلي. وقد استنتجت أنهم (دي فوج، ووداد نجتون، وثالث غير واضح أبداً وربما كان ساشو).

وفي سيرجيلا وهي بلدة ذات جو هادئ قاس، جديرة بالاعتبار على نحو لا يمكن مقارنتها بأي منطقة أخرى مع أنها بغير سقوف ومهجورة تماماً، وأخذني يونس إلى قصر بجانبه قبر تمنيت عندما رأيته لو أعيش عمري كله وأدفن بجواره، وعندما غادرته ركب معي حتى دير سنبل حتى يضعني في طريقي، كان قلقاً جداً ذلك اليوم بسبب اضطراب حصل في قرية قريبة؛ وذلك أن رجلاً تعرض لكمين من رجلين من قرية مجاورة من أجل سرقته، ومن حسن حظه أن رجلاً من قريته أتى لمساعدته واستطاع الاثنان أن يردّا المعتدين، ولكن الصديق فقد حياته في القتال، فهاجم أقرباء القتيل قرية



١١٧ - قبر في سيرجيلا

اللصوص وأخذوا كل قطعانهم من المواشي. وكان من رأي محمود أنهم ينبغي أن لا يطبقوا القانون بأنفسهم.

قال: «بالله يجب أن يشتكوا إلى الحكومة».

ولكن يونس أجاب بمنطق قاطع: «وما الفائدة من الشكوى إلى الحكومة؟ هم يريدون أخذ حقهم».

وفي أثناء المحادثة سألت يونس فيما إذا كان قد سافر إلى حلب.

قال: «بالله لقد ذهبت إلى هناك، ومشيت في الأسواق، ورأيت القناصل وهم يمشون في الطرقات، ومع كل واحد منهم رجل يمشي أمامه يرتدي معطفاً ثمنه مئتا قرش. والسيدات يمشين معهم وقد وضعن مثل ما يشبه الزهور فوق رؤوسهن «القبعة الأوربية التي كانت سائدة فيما أتصور» تابع يونس «أنا أذهب إلى حلب دائماً عندما يكون ابني في السجن هناك». وأوضح «أحياناً يكون الحارس رقيق القلب بحيث تكفي نقود قليلة للسماح لهم بالخروج».

وتقدمت في الحديث في موضوع ذي أرضية جيدة على ما يبدو وسألته كم ولد لديه.

قال: «ثمانيةٌ، حمداً لله، كل زوجةٍ من زوجتيَّ وَلَدت لي أربعة أولاد وبنتين».

قلت: حمداً لله.

قال يونس: «الله يطول عمركِ، لقد كلفتني زوجتي الثانية مقداراً كبيراً من المال».

قلت: «نعم؟».



١١٨ ـ الشيخ يونس

قال: «الله ينعم عليك، يا سيدة، لقد أخذتُها من زوجها، بالله (الحمد والشكر له) لقد أُجبرتُ على دفع ألفي قرش لزوجها، وثلاث آلاف للقاضي».

وكان هذا الكلام كثيراً بالنسبة لإدراك الحاج محمود حول الآداب الاجتماعية.

أنت أخذتَها من زوجها؟ قال: «والله هذا فعل نصيري أو إسماعيلي.. هل يمكن لمسلم أن يأخذ زوجة آخر؟ هذا حرام».

أوضح يونس: «لقد كان عدوي، بالله وبمحمد رسول الله إن بيننا عداوة حتى الموت».

سأل محمود: «هل لها أطفال؟».

«أي والله» أجاب الشيخ بالإيجاب، شاعراً بالضعة قليلاً أمام اعتراض الحاج محمود.

أوضح محمود وهو مستمر في غضبه: «بوجه الله، هذا عمل كفار».

وهنا وضعتُ نهاية للوصول بالمناقشة إلى أبعد من أهلية القصة للنقاش بالسؤال فيما إذا كانت المرأة راضية بترك زوجها.

أجاب يونس: «بدون شك، إنها رغبتها».

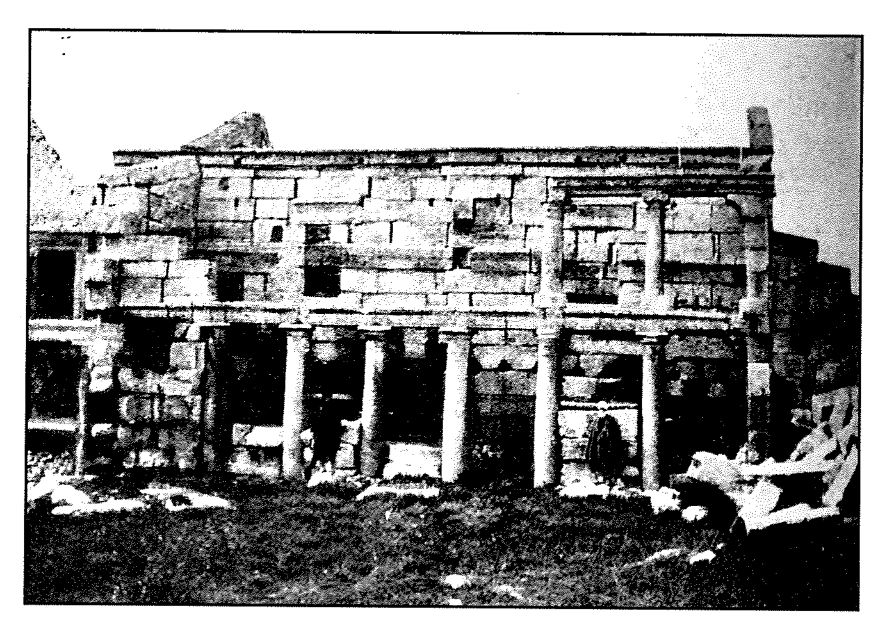
ونحن نستنتج على هذا الأساس أن المبادئ الأخلاقية لا تلعب دوراً كبيراً في هذا المجال، مع أنه أمّن على نحو كبير من الخطر سواء من الزوج أو من القاضي.

وتقودنا هذه المقولة إلى مناقشة المهر المعتاد دفعه للزوجة.

قال يونس (بهيئة من التباهي لا يمكن وصفها): «في مثل هذه الحالة ما نفعله هو دفع ما لا يقل عن أربع آلاف قرش للبنت، أما إذا كان الخاطب فقيراً وليس لديه نقود فمن الممكن أن يعطي أبا البنت بقرة أو قليلاً من الغنم وسوف يرضى».

ركبنا بعد أن تركنا يونس باتجاه الرويحا لعلي أرى الكنيسة الشهيرة حيث يوجد إلى جانبها قبة قبر بيزوس، وهذه الكنيسة هي الأكثر جمالاً في جبل

الزاوية، بمجازها الرائع حتى صحن الكنيسة، وبأبوابها المزينة بالنقوش، وبركائز أعمدتها، وبالأروقة العريضة في صحنها. وكم كانت ثقة البناء وسيطرته على مواد بنائه قوية إلى درجة شجعته أن يمد هذه الأقواس العظيمة من عمود إلى عمود إلى الحد الذي جعلها تبقى واقفة حتى الآن.



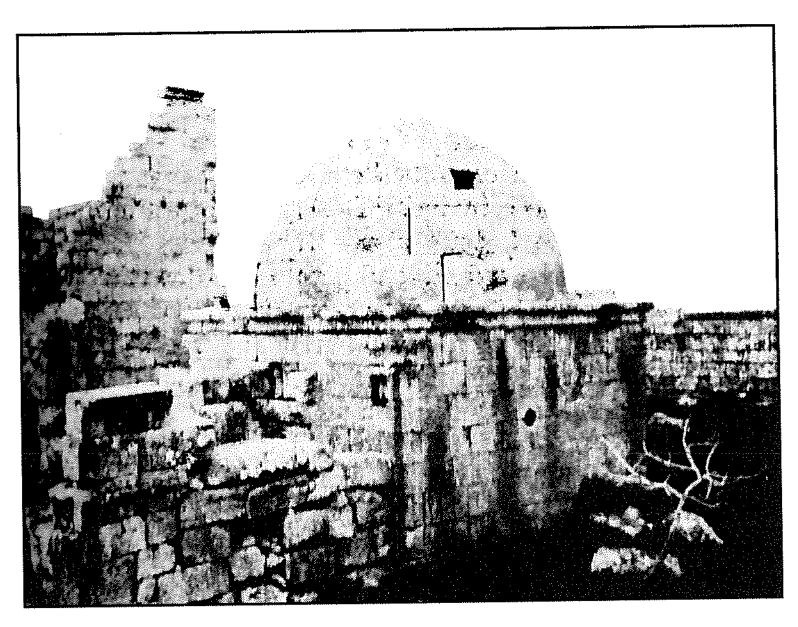
١١٩ - منزل في سيرجيلا

وقبر بيزوس الصغير مازال قائماً، وعلى نحو كامل مثلما كان عندما بني، ويوجد على البوابة نقش نحت باللغة اليونانية هذا نصه:

«بيزوس بنباردوس، لقد عشت جيداً ومت جيداً، وأنا أستريح الآن على نحو جيد، صلوا من أجلي».

والملامح الأكثر غرابة في فن العمارة في شمالي سوريا هي البواعث التقليدية نصف المتذكرة التي شقت طريقها خلال الحلى المعمارية القوطية

بشكل تام تقريباً من خلال حريتهم، ومن خلال السطوح المعمدة التقليدية التي تزين النوافذ أو العتبات. ومخطط الزخرفة الحجرية السورية هو بشكل رئيسي صف من دوائر أو ضفائر مملوءة باللفات المغزلية أو بعلامة الصليب المسيحية، ولكن مع تقدم وتطور النحّات السوري وزيادة مهارته فقد رسم الدوائر مع بعضها بمئات من الأشكال الرائعة والجميلة للنباتات الشائكة والنخيل وشجر الغار، صانعاً نماذج فياضة حول كنيسة أو قبر متنوعةً تنوع الخيال الذي أبدعها، فالعشب تحت قدميه والأوراق على الأغصان فوق الرؤوس باعثاً فيها من نضارة فنه الزخرفي أكثر مما فعل الفنان وليم موريس بعد ألف ومئتي سنة.



١٢٠ ـ قبر بيزوس

ثمة كنيسة أخرى في الرويحة أقل كمالاً بقليل من كنيسة بيزوس، وأقل روعة من حيث الفن، وهي متميزة بوجود بناء أثري يقع قريباً من الجدار

الجنوبي، وقد قالوا عنه إنه برج ناقوس أو قبر أو منبر وعظ، أو لم يجدوا له تعليلاً بالمرة. والبناء مكون من طابقين يتألف الطابق الأول من ستة أعمدة تدعم رصيفاً، ويرتفع من الجدار السفلي أربع ركائز من الزوايا من أجل حمل القبة. والتشابه مع بعض القبور في إيطاليا كما هو الحال في نصب رولاندينو التذكاري في بولوكّنا ملفت للانتباه، بحيث إن المشاهد يقرر عفوياً بأن الهدف مشابه لذلك البناء الرائع في روما.

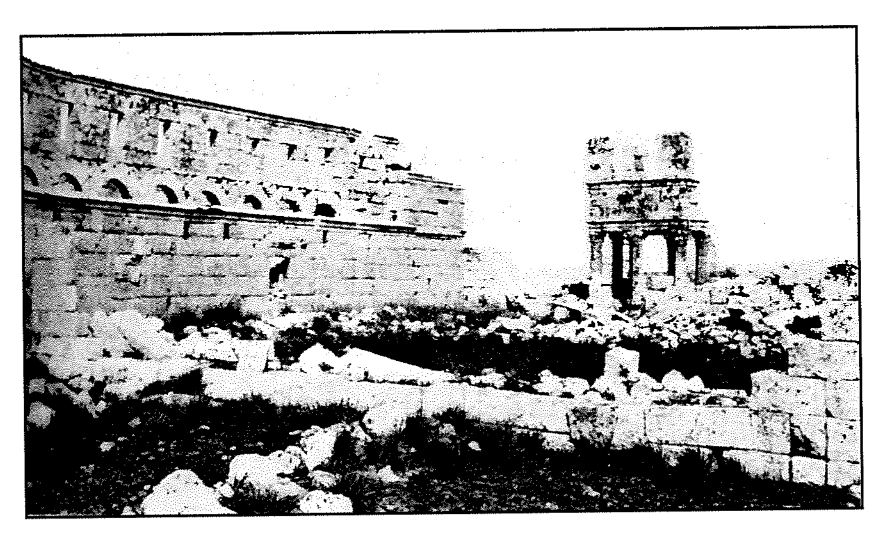
خيمنا تلك الليلة في دانا، وهي قرية تفخر بوجود قبر هرمي برواق مكون من أربعة أعمدة كورنثية الطراز، وهي تامة في تنفيذها بنسب متوازنة مثل أي عمل آخر ترغب وتتمنى مشاهدته.

ومررنا بعد خروجنا من الرويحة بمنزل اعتبرته نموذجاً لهندسة البناء المحلية في القرن السادس الميلادي، وهو يقف منعزلاً في منطقة متموجة، يبتعد ميلاً أو ميلين عن أي قرية من القرى المحيطة به.

ويتميز بوجود شرفات متجهة نحو الغرب وبرواق جميل يتميز بسطحيه المنحدرين إلى الشمال، وهذا الرواق يمكن أن يزين أي منزل ريفي في بريطانيا في هذه الأيام، وأنت يمكن أن تتخيل مالك القصر جالساً على مقعد حجري في شرفة منزله ينتظر مجيء أصدقائه من القرن السادس الميلادي، وهو لا يخشى من وجود أي أعداء، وإلا لما بنى بيته هكذا في مكان منعزل كهذا لا يحرسه إلا سياج من أوتاد خشبية محيط بحديقته.

وقد أخذت أكثر مما حدث معي في أي مكان آخر عندما شاهدت قصر البنات كما يدعوه السوريون بمستوى النظام الاجتماعي العالي الذي وصل إليه جبل الزاوية في ذلك الحين، حيث كان الأمان والغنى متوفرين على نحو واضح، وكذلك أوقات الفراغ اللازمة من أجل رعاية وممارسة الفنون.

وبينما كنت أبتعد عنه شعرت متعجبة ومتسائلة فيما إذا كانت المدنية هي بالفعل كما نظن بأوربا قوة لا تقاوم جارفة نحو الأمام، حاملة بقمتها أولئك الجديرين بالاستفادة من تقدمها، و فيما إذا كانت تشبه حركة المد والجزر ترتفع وتنخفض في حركتها جيئة وذهاباً تلمس في مجراها نفس المكان على الشط.

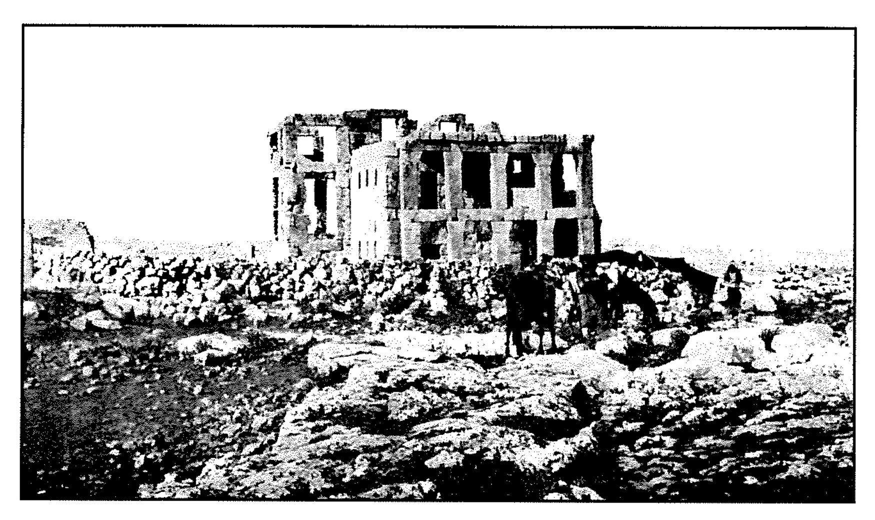


١٢١ ـ كنيسة وقبر في الرويحا

في وقت متأخر من الليل جاء أحد أولاد الشيخ يونس ليسألنا فيما إذا كان أبوه ما يزال معنا، ويبدو أن رفيق رحلتنا المغامر العجوز لم يعد عندما تركَنا إلى أهله القلقين، ولدي شك بأن رغبته الودودة بالذهاب معنا من أجل وضعنا على طريقنا كانت جزءاً من مؤامرة مدبرة بعناية يأمل بوساطتها أن يكون قادراً على أن يلعب دوراً في الاضطرابات المحلية التي كانت تشغله في الصباح. وعلى أيّ حال لقد انطلق حالاً بمجرد أن بعدنا عن مرمى النظر، ويفترض أن يكون قد أسرع إلى حيث يوجد النزاع، ولم أسمع شيئاً عما حدث

له، ولكني على استعداد لأن أراهن بأنه أيا كان شخص القتيل في قرية المغارة فلن يكون الشيخ يونس.

بقي أمامنا ثلاثة أيام مملة ونصل إلى حلب، وقد كنا نستطيع أن نجعل الرحلة يومين، ولكنني قررت أن أضرب قليلاً باتجاه الشرق لأتجنب طريق العربات المعروف جيداً، وأن أستعرض المنطقة التي قد تكون أقل متعة، ولكنها غير معروفة جيداً على الأقل. وبعد مسيرة خمس ساعات من دانا عبر أراض مرتفعة متعرجة وصلنا إلى طاروتين، وسرنا بعدها بمناطق أثرية قديمة، قد استوطنت مرة أخرى من قبل البدو من عشيرة الموالي، مع أن الأبنية القديمة قد هُدّمت تماماً، وقد بدأ البدو على طول الحافة الغربية للصحراء بزراعة الأرض، واضطروا لإيجاد نقاط استقرار ثانية ليكونوا قرب محاصيلهم.

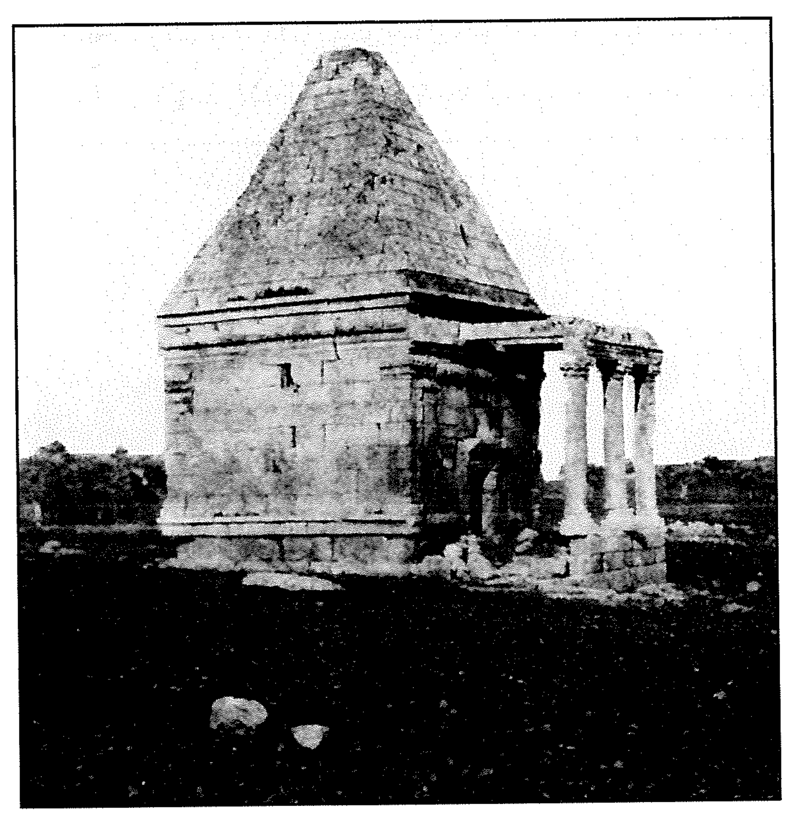


١٢٢ ـ قصر البنات

قال شيخ طاروتين: لقد أصبحنا فلاحين في بعض العصور المقبلة، وعندما يصبح العالم كله يفلح ويزرع الأرض لن يبقى بدوياً في الجزيرة

العربية، في المراحل الأولية سيبقى هؤلاء المزارعون الجدد يعيشون في الخيام، ولكن الخيام ثابتة وما يرافق ذلك من تراكم للقذارة. والقرية غير سارّة لأيّ عاقل، ولم تنس العائلات القليلة القاطنة في طاروتين سلوكياتها الصحراوية، وقد وجدناهم مقبولين على الرغم من الملاحظة الصحية التي وردت أعلاه عن قريتهم المكونة من بيوت الشعر.

لم يكن قد مضى على وجودي في مخيمي ساعة عندما حصل هياج بين رجالي، وأتى ميخائيل صائحاً: «الأمريكيون.. الأمريكيون..». لم يكن غزواً، وإنما بعثة جامعة برنستون الأثرية التي سافرت من دمشق سالكة طرقاً أخرى



١٢٣ - قبر في دانا

غير طرقنا تعمل الآن في جبل الزاوية، وقد اعتبرها مخيمي مصادفة سعيدة؛ لأن كل واحد منا وجد معارف بين السادة أو بين البغالة، ووجد وقتاً للكلام كما يتكلم الناس عندما يلتقون مصادفة في طريق خالٍ.

وأكثر من ذلك أن اليوم الذي قضيته في طاروتين زودني بموضوعٍ درسٍ جديد بالإعجاب في علم الآثار؛ فعندما كَشط أعضاء البعثة الخرب، وحلوا شفرات الكتابات والرسوم، نهضت كل مدينة في القرن الخامس الميلادي من تحت الرماد ووقفت أمامنا: الكنائس والمنازل والقلاع والقبور المنحوتة في الصخور، وقد حفرت عليها أسماء وتاريخ وفاة قاطنيها.

في اليوم التالي كان أمامنا مسيرة عشر ساعات، مشينا شمالاً ومررنا في طريقنا بقرية من الطين تدعى حلبان، وقرية أخرى تدعى مغارة مرزة، حيث يوجد بقايا كنيسة وقبور منحوتة في الصخور من طرازٍ بسيطٍ جداً. (ولم تلحظ خريطة كيبرت أياً من هذه الأماكن).

ثم انحرفنا شرقاً ووصلنا إلى التلول، حيث أطللنا على سيل من المياه يمتد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب على الأقل من المطخ وهو المستنقع الذي ينبع منه نهر قويق[1]، وشاهدنا في التلال مجموعة من النساء البدويات يندبن فوق قبر جديد، وهن يندبن الميت لمدة ثلاثة أيام بعد دفنه على القبر. وقد قال محمود: فقط في مكة والمدينة لا يندبون الميت أبداً، فعندما يتوقف النفس تصرخ النسوة ثلاثة أصوات ليعلم الناس بحدوث وفاة، ولا يوجد ندب بعد هذه الأصوات فذلك حرام؛ لأن الدموع يجب أن تسقط فوق جسد الميت ـ فالله أعطى والله أخذ ـ.

(١) لا ينبع نهر قويق من المطخ وإنما من الأراضي التركية، ويمر من مدينة حلب. (المترجم)

ثم سرنا جنوباً على طول حافة ظهرة من الأرض حتى تلة صغيرة تدعى تل سلمى، حيث انحرفنا مرة ثانية باتجاه الشرق، دائرين حول مسيل الماء وعلى طول حافته، حتى وصلنا إلى قرية كبيرة اسمها المويمة، نصف بيوتها من الخيام، والأخرى من الطين، فلا يوجد مادة أخرى للبناء بخلاف الطين منذ تركنا الأرض الصخرية، حيث قرية طاروتين لم نشاهد حجرة واحدة، لا حجرة ولا شجرة، ولكن حقول لا نهاية لها من القمح، مع بواكير أزهار الخزامى القرمزية التي ظهرت براعمها بين القمح الفتي، لقد كان مسيراً ثقيلاً رغم أنه مريح لأقدام الخيول. ولو كان هناك مقدار أكبر من التربة فوق هضاب سوريا، ومقدار من الحجارة القليلة فوق السهول لكان السفر أسهل في تلك البلاد، ولكن الله الذي لا إله غيره أمر بخلاف ذلك.

من مويمة سرنا شمالاً بشرق حتى وصلنا إلى قرية تدعى هوبر تحت أقدام قمة جبل حاس، وهنا حاولنا أن نقيم مخيمنا، ولكننا لم نستطع الحصول على شوفان ولا على شعير ولا حتى على قبضة من تبن؛ ولذلك فقد ذهبنا إلى كفر العبد الموجودة على الخريطة حيث نصبنا هناك خيامنا في الساعة السادسة مساء. ربما كانت القرى غير الموجودة في خريطة كيبرت قرى بنيت حديثاً. وفي الواقع لا يزال البعض منها نصف مخيمات. وهي تتكاثر على نحو متزايد. وقد عددت خمس قرى حول حوبر في محيط لا يتجاوز ميلاً أو ميلين، وقد احتفظ العرب الذين يقطنونها بعادات الثأر البدوية. فلكل قرية حلفاؤها وأعداؤها، وعلاقاتها السياسية واهنة شأنها في الصحراء.

وتحتوي يومياتي الملاحظة التالية في ذلك اليوم: «المدادة ذات الأزهار الزرقاء، السوسن الأبيض من النوع الذي كان أزرق في البارة، الحوزان الأحمر

والأصفر. واللقالق والقبرات». هذه المناظر هي التي كانت تكسر رتابة الطريق الطويل.

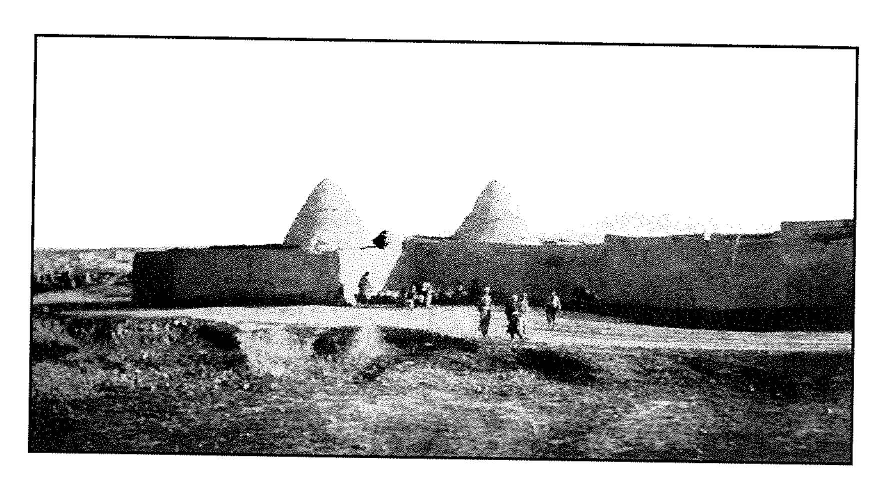
على بعد نصف ساعة إلى الشمال من كفر العبد، ثمة قرية من القبب تحتوي على لوحات فسيفسائية كاملة تماماً ذات نماذج هندسية، ومن الممكن العثور على قطع فسيفسائية أخرى مبعثرة في المنازل أو في الباحات، والقرية برمتها تحتاج إلى استكشاف مُتأنّ على حين أن الفلاحين الذين يفلحون الأرض يدمرون هذه الآثار التي يمكن العثور عليها أثناء ذلك(١).

ووصلنا حلب في منتصف النهار ودخلنا إليها سائرين بجانب مصرف مياه مالحة مفتوح، وسواء أكان ذلك بسبب الرائحة الكريهة أو بسبب الجو الثقيل المفعم بالرياح المحملة بالغبار كان انطباعي الأول عن حلب مخيباً للأمل «فالاسم بصيغته الأوربية الساحرة يجب أن يخص مدينة أكثر جاذبية، وحلب الساحرة ليست كذلك قطعاً؛ لأنها واقعة في سهل خال من الأشجار، عالم بدون ملامح، بداية منبسطات الهلال الخصيب العظيمة، وموقع المدينة يشبه فنجاناً في صحن، فالبيوت مبنية في الصحن والقلعة تقف على الفنجان المقلوب.

وتشاهد مآذنها من مسافة عدة أميال، ولا يشاهد أي أثر للمدينة قبل الوصول إلى مسافة ميل واحد منها، وبقيتُ فيها يومين لم ينقطع فيها المطر أبداً، ولذلك فإنني لا أعرف حلب، فالمدينة الشرقية لا تسمح لك بدخول دوائرها الحميمة ما لم تمكث داخل أسوارها شهوراً على الأقل، وحتى حينئذ فإنك تحتاج إلى بذل جهود عظيمة للوصول.. ولكنني لن أغادر قبل أن أدرك على نحو ضعيف أن ثمة أشياء يجب أن تعرف.

---

(١) لقد سرق الغربيون مع الأسف كميات هائلة من الآثار في سوريا والبلاد العربية مستخدمين كافة الوسائل غير المشروعة. (المترجم)



١٢٤ ـ قرية من القبب الطينية

إنها مدينة عربية رائعة، فعندما تمشي في شوارعها الضيقة تمر بمآذن وبوابات تنتمي إلى أجمل مرحلة من الهندسة العربية، بعض المساجد والحمامات والخانات «وبشكل خاص المهدومة والمغلقة» من الطراز نفسه. وتمثل القلعة أفضل مثال للبنائين العرب في القرن الثاني عشر الميلادي في سوريا، مع أبواب حديدية من نفس المرحلة، وقد أرخت بقطع تزيينية جميلة، ولابد أن هناك عناصر محلية حية تتواصل مع هذه العلامات للعظمة الماضية.

ولكن المدينة قد سقطت تحت ثقل أيام تعيسة، فقد تم حصارها بين امتيازات الأوربيين الحسودين الباحثين عن الفرص، وبين سلطة الحكومة العثمانية التي تعاني منها أكثر من بقية المدن السورية[1]، وهي تموت ببطء؛

(١) هذا الكلام غير صحيح، لقد كانت حلب في العهد العثماني تأتي في المرتبة الثانية بعد استنبول وكانت مركزاً تجارياً لبلاد الشام والعراق والأنضول، ويزيد عدد سكانها كثيراً عن سكان أي مدينة ببلاد الشام بما فيها دمشق، وقد بقيت أكبر من دمشق حتى أربعينات القرن العشرين رغم انحدار تجارتها بسبب تجزئة الدولة العثمانية وخسارتها أسواقها في آسيا الصغرى والعراق. (المترجم)

بسبب عدم وجود منفذ لها على البحر، ولم تُلبِّ سكك الحديد الألمانية أو الفرنسية حاجتها هذه [١]، والشركتان مشغولتان الآن في معارضة إحداهما الأخرى. فالامتياز الأصلي الذي أعطي لشركة حماة رياق ينص على إيصال الخط إلى حلب وشمالاً حتى بيرجيك. وقد أُخبرتُ أن بطاقات السفر إلى بيرجيك قد طبعت عندما مُدّ أول خط في رياق. ثم أتى الألمان بخطتهم العظيمة لسكة حديد بغداد، وقد حصلوا على امتياز لفرع من الخط يصل ما بين حلب وكلس، وفعلوا ما في وسعهم لمنع الفرنسيين من التقدم إلى ما بعد حماة؛ بدعوى أن خط الحديد الفرنسي سوف يقلل من قيمة الامتياز الألماني. ومعلوماتي وقد تكون متخيلة على نحو جيد إلا أنها غير مستقاة من سفارة الإمبراطورية، ولكن من مصادر محلية في حلب نفسها.

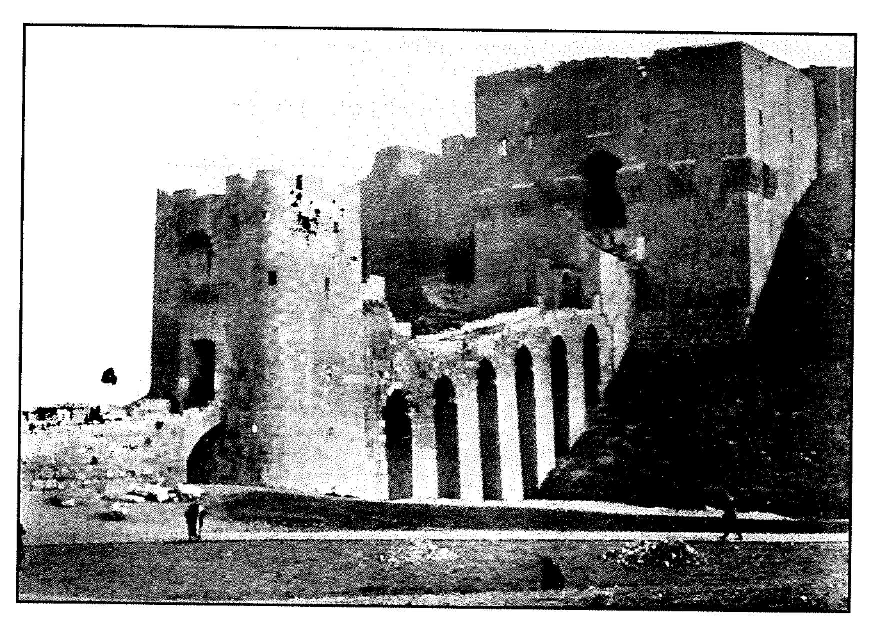
وبعد مغادرتي سوريا استأنف الفرنسيون عملهم الذي كان متوقفاً في خط حديد رياق حماة بحيث يمتد الخط حسب اعتقادي ليس إلى بيرجيك، وإنما إلى حلب على أبعد مدى [*]. ولن يكون ذا فائدة للمدينة؛ فتجار حلب لا يريدون إرسال تجارتهم برحلة ثلاثة أيام إلى بيروت فهم يريدون ميناءً قريباً خاصاً بهم يمكنهم من حيازة كل المكاسب التجارية، وهذا الميناء يجب أن يكون الإسكندرونة.

وكذلك فإن خط حديد بغداد إذا أنجز لن يحقق لهم أي فائدة، وبالنسبة للخط الفرعي الذي بني سابقاً (لقد بُدِئ ببنائه من قبل رأسماليين إنكليز وفرنسيين، ولكنه الآن تحت إشراف الألمان) فإن هذا الفرع سوف يرتبط في

(١) لقد أخذ الألمان في العهد العثماني امتياز بناء خط حديد بغداد، وأخذ الفرنسيون امتياز جزء من خط حديد الحجاز، وأسسوا شركة شام حماة وتمديداتها. (المترجم)

(*) لقد وصل الخط الآن إلى حلب. (المؤلفة)

الساحل في مرسين، ولكن مرسين بعيدة عن حلب بعد بيروت، حيث إن خط الحديد الذي يمكن أن يوصل حلب مباشرة بالإسكندرونة غير محتمل.



١٢٥ ـ قلعة حلب

وبسبب خوف السلطان أكثر من أي شيء آخر من ربط طريق القوافل الداخلي بالساحل؛ لاحتمال أن تنتهز الجيوش الأجنبية ـ وبشكل خاص البريطانية ـ الفرصة لإنزال جيوشها من سفنها الحربية هناك، والسير من ثم نحو الداخل. وتبقى حلب كما كانت في الماضي المركز الرئيسي الكبير لتوزيع التجارة الداخلية.

ولكن حركة النقل أصيبت بالاختناق؛ بسبب التكرار القاتل لمصادرة الحكومة لجمال النقل، وقد ازدادت الشكوى في السنة الماضية نتيجة لحرب اليمن، حيث تولت الدولة نقل الجنود من ثكناتها في الداخل إلى الساحل من

أجل ركوب سفن النقل البحرية، والذهاب عبر البحر الأحمر إلى اليمن، وقد توقفت حركة نقل البضائع التجارية لمدة شهر كامل، حيث بقيت محزومة ومتراكمة فوق بعضها في الأسواق انتظاراً للنقل، وإذا استمرت الحالة فترة أخرى فسيتوقف نقل البضائع نهائياً؛ لأن الجَمَّالة المتواجدين في المنطقة الشرقية لن يغامروا ويعبروا الخط الخطِر على جِمالهم في غرب السلطنة. وهنا كما هو الحال في مدن السلطنة الأخرى سمعت صرخة الإفلاس الرسمي، فالحكومة ليس لديها أي أموال من أجل إنجاز الأعمال الضرورية، فخزانة الدولة فارغة تماماً.

على الرغم من أن مكوثي في حلب كان قصيراً إلا أنني ربحت بعض المعارف، وكان من أهمهم والي حلب كاظم باشا، وهو رجل يختلف اختلافاً كبيراً عن والي دمشق، فالأخير رجل دولة طبقاً لمواصفاته، على حين أن كاظم ليس إلا رجل مزاج.

استقبلني في جناح الحريم، الأمر الذي كنتُ فرحة به عندما شاهدتُ زوجته التي كانت الأكثر جمالاً ممن يمكن أن يراه الإنسان، طويلة جليلة، برأس صغير جلل، بشعر أسود منسدل على كتفين رائعين، وأنف صغير مستقيم، وذقن مدببة، وحاجبين مقوسين فوق عينين تشبهان بحيرتين سوداوين. ولم أستطع أن أملك نفسي من استمرار النظر إلى وجهها عندما جلستْ معنا. كانت هي وزوجها شركسيان؛ الأمر الذي جعلني متيقظة قبل أن يفتح الوالي فمه، كلاهما كان يتكلم الفرنسية، ويتكلمها هو على نحو جيد، واستقبلني بطريقة جافة وكانت ملاحظته الأولى: «أنا الباشا الشاب الذي جلب السلام بين الكنائس». وكنت أعلم بما يكفي عن تاريخه، فأعلم أنه كان متصرفاً في

بيت المقدس عندما حدث الصِّدام بين الطوائف المسيحية، وانتهى بسقوط عدد من القتلى أكثر من المعتاد، وأنه قد حصلت آنذاك نوع من الوساطة الصعبة انتهت بتسوية، ولا أدري فيما إذا حصل ذلك بجهوده أو أن ضرورات الحالة اقتضت ذلك.

قال الباشا: ماذا تظنين عُمري؟ .

وأجبتُ مجاملةً: أنا أظن أنك في الخامسة والثلاثين.

قال ـ بانتصار ـ: «ست وثلاثون، ولكن القناصل كانوا يُصغون إليّ. يا إلهي، كانت تلك فترة أحسن من هذه، رغم أنني الآن والٍ، فهنا ليس لدي مناسبة لأجتمع مع القناصل، ورجل مثلي بحاجة للمجتمعات الأوربية المثقفة».

«عامل آخر من عوامل عدم الثقة، الموظف الشرقي الذي يصرح أنه يفضل صحبة الأوربيين».

قال: «أنا أحب إنكلترا كثيراً».

وعبرتُ عن شكر بلادي بعبارات مناسبة.

أضاف بسرعة: «ولكن ماذا تفعلون في اليمن؟».

قلت: «يا صاحب الفخامة، نحن الإنكليز أمةٌ بحَرِية، وهناك مكانان فقط نهتم بهما في الجزيرة العربية كلها».

أكمل حديثي: «أنا أعرف، مكة والمدينة»

قلت: «لا، عدن والكويت»[1] .

---

(١) احتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٠، واحتلت الكويت في ستينات القرن التاسع عشر عندما وضع شيخ الكويت نفسه تحت الحماية البريطانية. (المترجم)

أضاف غاضباً: «وقد احتللتم كليهما».

قلت: نعم. وأنا مضطرة لأن أعترف أن لهجته لم تكن لهجة محب للإنكليز.

ثم أخذ يحدثني فوراً أنه الوحيد بين الباشاوات الذي يستعمل الوسائل الحديثة، فهو معني بعمل سكة معبدة تصل إلى الإسكندورنة، ليس لأنها ستكون عظيمة الفائدة كما أظن أنا؛ بل لأنه ليس هناك جمال لتسير عليها، مثل الطريق الذي عملها بين القدس والسامرة؛ فذلك الطريق ليس مثله في كل تركيا ـ ألا أعرفه أنا؟ وكنت قد سافرت مؤخراً عليه. واغتنمت الفرصة لأمتدح من أنشأه. ولم أجد ضرورة للذكر بأنه معطل في أسفل تلة هامة ولم يُرمم مرة أخرى حتى وصلت قمة الجبال اليهودية.

هذا كل ما يجب أن يقال حول أساليب كاظم باشا، وعلى نحو أكثر لطفاً بكثير كان التعرف بمطران الروم الكاثوليك، وهو دمشقي تعلم في باريس، وكان لفترة من الوقت راعي أبرشية الروم الكاثوليك في تلك البلدة مع أنه لا يزال شاباً نسبياً، وكنتُ قد زودته برسالة للتعريف بي فاستقبلني بعذوبة كبيرة في بيته الخاص، وجلسنا في غرفة مليئة بالكتب، ونوافذها مفتوحة على فناء قصره الهادئ، وتحدثنا في مسارات الفكر الغربي، ووجدت مع الإحساس بالسرور بأنه ـ رغم تعلمه وإقامته الطويلة في الغرب ـ ما يزال شرقياً في قلبه.

قال: «لقد انبسطتُ عندما أمرتُ أن أعود من باريس إلى بلادي، ثمة كثير من العلم وقليل من الإيمان في فرنسا، على حين أن سوريا رغم وجود كثير من الجهل فيها فإن العقيدة تستند على أساس قوي من الإيمان، والنتيجة التي يمكن أن تستقى من هذا التصريح ليست إطراء أو تملقاً للكنيسة، ولكنني أحجم عن التعليق.

وجاء بعد الظهر رداً على زيارتي ـ من الوالي حتى أصغر موظف يجب أن يراعي الجميع القواعد الاجتماعي ـ واضعاً صليبه الذهبي، ممسكاً عصا المطرانية بيده، وقد تدلى من قبعته التي ليس لها إطار حجاب وصل حتى ظهره، وقد طُرِّزت حواف ثوبه الأسود بالأرجوان، وسار وراءه أحد القسس التابعين، ووجد عندي زائراً آخر يجلس معي في بهو الفندق هو نقولا الحمصي وهو مدير بنك من طائفته، وينتمي حمصي إلى أسرة مسيحية غنية مستقرة في حلب، ولمصرفه فرع في مرسيليا وآخر في لندن، وبينه وبين المطران ثقة متبادلة جميلة وتعاون في معظم الأعمال مع أفضل الطبقات المتعلمة في سوريا، وهم من يعاني من قبضة الأتراك ـ الكاهن بسبب المعارضة الرسمية العمياء، والتي لا معنى لها يصادفها المسيحي في كل مكان، فالمصرفي بسبب صراخه العالي من أجل التقدم الذي لا يريد الأتراك أن يفهموه ـ.

وسألتهم عن تصورهم لمستقبل البلاد، ونظر كل واحد منهما إلى الآخر وقال المطران: أنا لا أعرف، وقد فكرت عميقاً بالأمر، ولا أستطيع أن أرى مستقبلاً لسوريا حيثما تلفت بحثاً عن طريق. هذا هو الجواب التنبئي الوحيد الذي سمعته حول أي جزء من القضية التركية [1].

لقد رتب السلطان الوضع في حلب بحيث يكون ملائماً بشكل خاص للباشاوات غير المرغوب فيهم بإستنبول، فالمدينة مليئة بالمنفيين حتى أن الزائر المؤقت يستطيع أن يتعرف ـ مع بعض الصعوبة ـ على عدد قليل منهم.

---

(١) كان الغرب يحاول أن يجد أرضية لتمزيق الدولة العثمانية، وكان يعمل على إثارة المسألة الطائفية، وكانت أداته الرئيسية في هذا استغلال التصرفات الشاذة التي تظهر هنا وهناك بين أفراد الطوائف. (المترجم)

كان واحد منهم ينزل معي في الفندق، وهو رجل لطيف مهذب متشائم، لا يتوقع الإنسان أن يكون ثوري الهوى، وربما لم يكن مع الثوريين وإنما عوقب لفلتة لسان، نقلت وضخمت من قبل عدو أو جاسوس.

وقد اعتدتُ أن أرى العديد من هؤلاء المنفيين مبعثرين هنا وهناك في آسيا الصغرى، ولم يتفق أن أخبرني أي واحد لأي سبب كُتب عليهم أن يعانوا من العقوبة، ومما لا شك فيه أن لدى بعضهم ما يريب، كما أن آخرين منهم يعرفون ذنوبهم بدون ريب، ولكن كثيراً منهم أبرياء يجهلون على ما يظهر سبب نفيهم، ويُلقي هذا الأمر حِملاً ثقيلاً على مشاعر الرجل الوطني التركي أكثر مما قد يبدو للوهلة الأولى.

والحقيقة أن هؤلاء الباشاوات المنفيين هم وطنيون نادرون جداً يدفعون ثمن انتمائهم للفكرة الوطنية، وهم أميل إلى أن يكونوا ضحية تحولٍ مؤسفٍ غير محظوظ لحوادث ابتعدت بهم عن النظام الموجود. وإذا كان ثمة أي أمل أو فرصة لأن يعودوا إلى الحظوة فستجدهم قلقين عصبيين حريصين حتى في المنفى أن لا يقوموا بأي عمل يمكن أن يؤدي إلى زيادة ريبة الحكومة، إلا عندما يقررون أن لا أمل لهم مادام السلطان الحالي حياً، أو أن يقيموا صلات صداقة حرة مع الغربيين، أو أن يتحدثوا بحرية عن أحزانهم.

ولا يوجد بالقدر الذي أراه أي كتلة منظمة للقائلين بحرية الرأي في تركيا بل مجرد أشخاص ناقمين على أسس محض شخصية مرتبطة بسوء الحظ، ويبدو من غير المحتمل أن يقدم المنفيون ـ عندما يعودون إلى إستنبول بعد موت السلطان ـ أي خطة للإصلاح أو يظهروا أي رغبة بتغيير النظام الذي يعيشون بظله من خلال ثورة المصالح الطبيعية عندما يجدون أنفسهم مرة أخرى أشخاصاً مهمين.

وثمة طراز آخر من النفي يمكن أن يراه الإنسان في تركيا، حيث يعين المغضوب عليه والياً في منطقة بعيدة كما هو حال ناظم باشا والي دمشق. وكذلك حال صديقي محمد علي باشا الحلبي، والأخير رجل مهذب في الثلاثين من عمره متزوج من إنكليزية، وقد صحبني إلى منزل الوالي وحصل لي على إذن بزيارة قلعة حلب مستنبطاً في نفس الوقت وسائل متعددة ليجعل نفسه مفيداً لي، وزوجته سيدة صغيرة لطيفة من بريكستون كان قد قابلها في إستنبول وتزوجها هناك، الأمر الذي ربما أضاف سبباً آخر لسقوط أسهمه، وذلك أن الإنكليز غير مقبولين جداً في قصر يلدز(١).

ومحمد علي باشا رجل نبيل بكل ما في الكلمة من معنى، ويحاول أن يجعل زوجته سعيدة، ولكن يجب أن يكون مفهوماً بكل وضوح أنني لا أحبذ بشكل عام زواج باشاوات الأتراك بآنسات بريكستون. هذا على الرغم من أن زوجة محمد علي تلعب التنس في نادي التنس، وتذهب إلى مجموعات الخياطة للجالية الأوربية. فهنا مجبرة أن تراعي إلى حد ما عادات النساء المسلمات، فهي لا تسير في الشوارع بدون حجاب «لأن الناس سوف يقولون أن زوجة الباشا تسير سافرة» قالت.

وذهبنا إلى القلعة في الساعة الوحيدة التي أشرقت فيها الشمس خلال وجودي في حلب، وعملنا جولة بصحبة ضباط يلبسون ثياباً رسمية فاخرة

---

(١) كانت مطامع الإنكليز والفرنسيين في الدولة العثمانية واضحة، فقد احتل الفرنسيون الجزائر وتونس وموريتانيا واحتل الإنكليز مصر والسودان وقبرص ومطامعهم في شواطئ الجزيرة العربية واضحة سواء في عدن أو الكويت. وقد لجأ العثمانيون إلى التحالف مع الألمان ليواجهوا المطامع الإنكليزية والفرنسية، وقد تورطوا نتيجة لذلك في الحرب العالمية الأولى بتحالفهم مع الألمان الأمر الذي أدى في النهاية إلى تمزيق الدولة العثمانية على النحو المعروف. (المترجم)

ويتمنطقون بسيوفهم وحرابهم، وقد كانوا قلقين بشكل خاص لئلا أدخل المسجد الصغير المُقام في منتصف القلعة، في البقعة التي حَلَبَ فيها إبراهيم بقرته[1].



١٢٦ - سقاء الماء

ويقولون: إن اسم حلب يعود لأسطورة تاريخية شائعة، وليس هناك شك بأن كلمة حلب تعود إلى نفس الجزر الذي يفيد حَلْبَ الحليب. وعلى الرغم من الإشارة العميقة لموضوع المسجد فقد استمتعت كثيراً بالمنظر من قمة المئذنة. فسهل الهلال الخصيب يمتد أمامنا منبسطا مثل الصفحة حتى الفرات الذي يمكن رؤيته من القمة في الأيام المشرقة[2]، وقد كان يمكن أن ترى بغداد لولا انحناء كروية الأرض الطبيعي حيث لا يوجد أي حاجز أمام العين في هذا السهل العظيم.

(١) هذه قصة خرافية عامية.. فإبراهيم لم يصل إلى شمالي سوريا أبداً، وإنما جاء من أكاد في جنوبي العراق إلى فلسطين مباشرة، وقصة حَلْبِ البقرة الشهباء محاولة تعليل عامية لاسم حَلَب الآرامي. (المترجم)

(٢) إن المؤلفة تبالغ بدون شك. (المترجم)

وتحتنا كانت أسطح الأسواق والخانات متلاصقة متعنقدة يتخللها هنا وهناك باحات البيوت الرخامية وأسنة المآذن الدقيقة. والأشجار والماء قليلان في المنظر العام، ويشكل الماء مشكلة أساسية في حلب، فالجدول الراكد الذي ينبثق من المطخ يجف في الصيف [1]، ومياه الآبار عسيرة وكريهة على مدى العام، ويجب أن يجلب إليها ماء الشرب من مسافة بعيدة، ويكلف مصروف البيت الواحد من الماء قرشاً في اليوم على الأقل مما يضيف عبئاً إضافياً على تكاليف المعيشة. والمناخ عموماً جيد، بارد جداً في الشتاء ولا تدوم حرارة فصل الصيف العالية أكثر من شهر أو شهرين. هذه هي حلب المدينة العظيمة باسمها الذي يملأ الآفاق، وآثار ماضيها المجيد.



(٣) إن نهر قويق ينبع في تركيا ويصب في مستنقع المطخ ولا ينبع منه كما تقول المؤلفة. (المترجم)

الفصل الثاني عشر:

قضينا كل لحظة فراغ في اليومين الذين قضيناهما في حلب في تغيير البغالة، وقد كان إجراءً ضرورياً ولو كان مؤسفاً. في إنطاكية ستصل إلى نهاية السكان الذين يتكلمون العربية، فحبيب وأبوه لا يعرفان أي كلمة من اللغة التركية، وميخائيل يعرف بضع كلمات أساسية مثل: - بيض، وحليب، وقرش. وأنا لا أعرف إلا أكثر من ذلك بقليل، وأنا أنفر من الاندفاع بسرعة بمجوعتي الصغيرة في بلاد غير قادرين فيها على أكثر من السؤال عن الذي لا غنى عنه من الحاجات الضرورية أو السؤال عن الطريق.

إن الحديث عن الجدارة الملحوظة للبغالة في شمالي سوريا فيه الكثير من التبجح؛ وذلك أن اسم البغالة هنا اسم مغلوط، والحقيقة أن حيوان التحميل في هذه المناطق هو نوع من الخيول الرديئة يطلق عليه اسم الكديش. فمن إسكندرون إلى قونية لا أظن أنني شاهدت بغلاً، وعلى التأكيد لم نصادف قط قافلة من البغال، وقد سمعت من ثم أن من غير المفيد أن أسأل عن وسيلة للسفر المريح بدون إزعاج، أو حمل للمسؤولية وعلى نحو موصول وبسرعة حتى أتعرف على خدمي. وإنني عندما أصل إلى قونية فسوف أكون قادرة على صرف قافلتي إذا أحببت وكما أحب.

وإن رجال القافلة من الحلبية سوف يجدون طريقهم إلى حلب بحِمْل آخر، وهكذا ودعت رجالي البيروتيين بسلام.

كان نظام قيادة الرحلة من الآن فصاعداً نظاماً مجهداً، كان رب العمل رجلاً أدرد اسمه فريز، وكان يملك مع أخيه أكبر عدد من حيوانات التحميل في حلب، وبسبب فقدان أسنانه فقد كان يتكلم كلتا اللغتين العربية والتركية على نحو غير مفهوم، وقد أمدني بأربعة من دواب التحميل وركب هو على الخامس من أجل راحته وعلى نفقته، رغم أنه حاول عبثاً أن يجعلني أدفع أجر ركوبه عندما وصلنا إلى قونية، وقد استأجر غلامين بأجرة زهيدة لا تسد الرمق من أجل القيام بكل أعمال المخيم والمسير، وكان يطعمهم بما يسد الرمق أيضاً، وقد سار هذان التعيسان حفاة على أقدامهما. «لقد تزود اللبنانيون المستقلون بحمير من أجل الركوب». مع أن اتفاقهم مع فريز يقتضي تزويدهما حذاءين، ولكنه رفض ذلك فيما بعد حتى تدخلت أنا وهددته بأنني سوف أشتري لهما حذاءين من جيبي، وأقتطع الثمن من أجرته فرضخ، واشترى لهما الحذاءين، واضطررت أن أهتم أيضاً بموضوع التزود بالطعام من أجل التأكد من أن الشابين يأخذان نصيباً كافياً من الطعام يُمكّنُهُما من العمل على نحو جيد.

وعلى الرغم من كل جهودي فإن الأولاد المستأجرين كانوا يُطردون في كل مرحلة، وكنت أعاني باستمرار من التأخير الناجم عن الصعوبة في إيجاد آخرين، وأكثر من ذلك من ضرورة تعليم كل زوج مستأجر جديد تفاصيل العمل المطلوب منهما، أين أوتاد الخيام، وأين يجب أن تثبت، وكيف يجب أن يتم توزيع الأحمال، ومئات من الأشياء الأخرى الصغيرة ولكن الضرورية، كما كنت مضطرة أيضاً أن أنخس فريز الذي كان لديه مقدار كبير من الأعذار للتهرب من الأعمال المطلوبة أكثر من أي إنسان آخر في حلب، من أجل أداء واجبه في

مراقبة إطعام خيولي في الصباح وفي المساء، وإلا فإنها سوف تهرب من الجوع شأنها شأن الأولاد، وفي النهاية عندما وصلنا قونيه رمى فريز عبديه في الشارع رافضاً إعادتهم إلى بلدهم أضنة، قائلاً: عندما استطاع أن يغيب عن ناظري إنه كان يستطيع أن يستأجر أجراء أرخص منهما.

وحيث إنني لم أستطع أن أتخلى عن ولدين كانا يبذلان جهدهما ولو بغباء لخدمتي ووجدت نفسي مضطرة لمساعدتهما في العودة إلى بلدهما.

ولألخص الدليل يجب أن أقول أن أولئك الذين يزكون البغالة الحلبية ونظام عملهم البغيض لن يحصلوا أبداً على مخيم مرتب ومنظم حيث يسير العمل بانتظام مثل ساعة (بغ بن)، وبرجال طلقي الوجوه ماهري الأيدي، كما لن يحصلوا على خبرة في مجال رحلة عمل حقيقية، لأن ذلك ممكن فقط عندما يكون هناك خدم يتحلون بالشجاعة أمام المصاعب والمغامرة والأصالة، وأنا أعترف أن خبرتي صغيرة، وأنا أؤكد بكل ثقة بأنها لن تكون أكبر بكثير؛ لأنني سوف أجلب بغالة من بغداد على بعدها ولا أتعاقد مع فريز أو أمثاله مرة أخرى.

شعرت بصراع نفسي عندما تضاعفت مشكلات الرحلة نتيجة لإحباط ميخائيل، فقد أمضى يومين وهو يشرب نخب رفاقه الراحلين الذين قضى معهم فترة رائعة كأعضاء في مخيم كأجود ما يكون المخيمات، وكأن شربه المسرف هذا كافياً لتحطيم تأثير شهرين من الرصانة والاعتدال، ومنذ ذلك الحين لم تفارق زجاجة العرق الضخمة خرجه، ومع أن من الممكن البحث عن الزجاجة في الخرج وكسرها بحجر إلا أنه لم تكن أي قوة مهما كانت كبيرة أن تحول بين ميخائيل وبين الخمارة بمجرد الوصول إلى أي بلدة.

تعلم المحنة عدة دروس: أتطلع إلى الأسابيع الأربعة الصعبة التي قضيناها منذ خرجنا من حلب بمشاعر مختلطة قبل أن تزودنا العناية الإلهية برجل آخر أفضل حيث قسوت على قلبي وطردت ميخائيل، ولكني لم أشعر بكثير من الأسف للتعليم الذي فُرض عليَّ.

بوصولنا إلى حلب انتهت مهمة الحاج محمود، وودعتُه على كره وداعاً حاراً جداً، وزودني والي حلب بشرطي كردي ذي مظهر غير جذاب اسمه الحاج نجيب، وقد برهن بعد التجربة عن شخصية مفيدة وميالة للمساعدة، خبير بالمنطقة التي سافرنا عبرها بصحبته، كما أن خبرته بالناس فيها لا تقل عن ذلك، وتأخرنا بالانطلاق بسبب سُكْر ميخائيل من شرب العرق، وخَرَقُ البغالة في التحميل. كنا في الثلاثين من آذار وكان النهار مشمساً ولأول مرة بدت الشمس حارة على نحو غير سار.

وعندما انطلقنا في العاشرة صباحاً كانت تتقد متوهجة بقسوة فوق رؤوسنا، وخلال مسيرة يوم كامل لم يكن هناك أي مساحة ولو صغيرة من الظل في ذلك الطريق القاحل. وسرنا حوالي ميل على طريق إسكندرون الرئيسي مارِّين بمقهى حوله عدد قليل من الأشجار، سرعان ما انحرفنا بعدها نحو اليسار في طريق قادنا إلى هضاب صخرية جرداء، وبسرعة أصبحت صخرية وقاسية مثلها، وكان طريقنا يتجه شرقاً مع انحراف قليل نحو الشمال.

في الساعة الثانية عشرة والنصف توقفنا للغداء، وانتظرنا وصول المتاع ساعة كاملة، وجدت لدي وقت فراغ لأستعرض فيه السرعة النسبية لمسيرة خدمنا الجدد والقدامى، وحرارة الشمس المحرقة التي لم تكن ملحوظة أثناء

ركوبنا، وبعد سير نصف ساعة مررنا بكوخ «ياقيت عدس» حيث اقترح نجيب أن ننصب مخيمنا، ولكنني قررت أن الوقت ما يزال مبكراً.

وبعد أن أعطينا فريز أوامر واضحة حول الطريق الذي يجب أن يسير فيه والبقعة المحددة بدقة التي سنخيم فيها حثثنا سيرنا أنا والشرطي، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى غبنا عن أنظار الآخرين، وركبنا على طول قعر وادٍ ملتوٍ مارّين بعدة أماكن ملحوظة في الخريطة رغم أنها لا تتعدى كونها كومات صغيرة من الخرب.

وفي الساعة الرابعة انعطفنا صاعدين المنحدر الشمالي للوادي، فوصلنا إلى قرية صغيرة غير ملحوظة في خريطة كيبرت، قال نجيب: إن اسمها قبيشين. وهنا وجدنا وسط جدران قليلة قديمة، وأكوام من النفايات الحديثة مخيماً كردياً. واحد من المخيمات الربيعية التي يقطنها أنصاف البدو مع قطعان مواشيهم في فصل الربيع حيث العشب النضر، كانت جدران الخيام إذا صح أن نسميها خياماً قد بنيت من حجارة خشنة إلى ارتفاع يصل إلى خمسة أقدام، وعمل السقف من شقق شعر الماعز التي رفعت على أعمدة في وسط الخيمة. والتف حولنا الرعاة الأكراد وتحدثوا مع نجيب بلغتهم الخاصة التي كان جرسها مألوفاً على نحو غامض بسبب شبهها باللغة الفارسية، وهم يتحدثون العربية أيضاً برطانة غريبة مليئة بالكلمات التركية.

وجلسنا بعض الوقت فوق كومة من سقط المتاع ننتظر حيوانات النقل حتى أصبحتُ على قناعة رغم تطمينات نجيب بأن تعقيداً ما لابد قد حصل، وإننا سوف ننتظر طويلاً بدون فائدة، وفي هذه اللحظة أعلن شيخ الأكراد أن العشاء جاهز ودعانا للمشاركة في الطعام. وأحد مزايا الحياة في الخارج

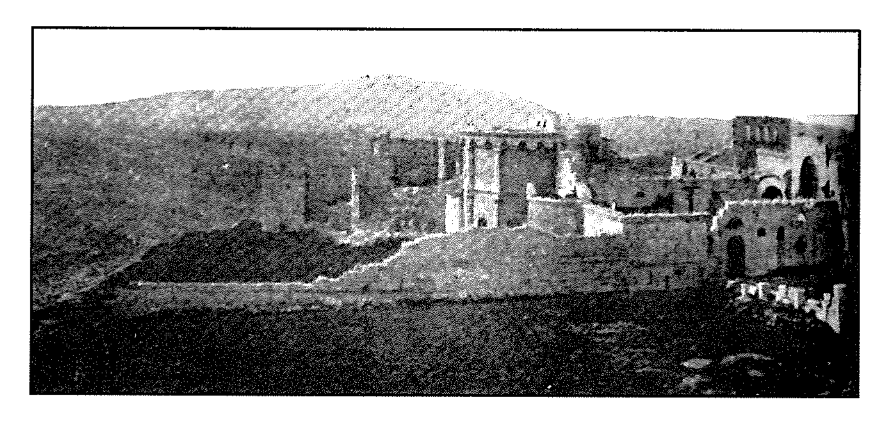
بالنسبة لوجبات الطعام الخفيفة هو أنه لا توجد لحظة من النهار لا تكون راغباً أو جاهزاً لتناول الطعام. وهكذا قبلنا بسرور هذه الدعوة.

وسجل الأكراد ليس جيداً في حوليات الرحلات. وتصف التقاريرُ الكرديَّ على أنه شخص متجهم ومشاكس، أما أنا فأجده معطاء، لديه كل الصفات التي تجعله مقبولاً للدخول في المجتمع.

وأُخِذنا إلى أكبر منزل في القرية. كان مضيئاً، جيد التهوية، رطباً ونظيفاً، وبناؤه المتميز يعطيه مزايا المنزل والخيمة. وكان الطعام مكوناً من الخبز الطازج والخاثر وفريكة باللحم والتوابل، وقد مُدَّ على حصيرٍ وجلسنا على البسط حوله، بينما أحاطت بنا النساء للخدمة، وانتهينا من الطعام حوالي السادسة مساء، ولكن القافلة لم تظهر. وتحير نجيب وتعاطف مضيفونا مع حالتنا بعمق، وصرحوا أنهم يرغبون جداً في قضاء ليلتنا عندهم.

وانتهى ترددنا بعد قليل بمجيء ولد صغير راكضاً وقائلاً: إن لديه أخباراً بأن القافلة قد شوهدت ماشية قرب قرية فافرتين على الجانب المقابل من الوادي، وإنها تتجه نحو قلعة سمعان، هدفُ رحلتنا النهائي، ولم يكن لدينا وقت لنضيعه، كانت الشمس قد غابت ولدي ذكرى قوية حول التجوال في الليل عندما كنا في الباره في منطقة ليست متباينة عن هذه المنطقة التي نحن فيها الآن، ولكن قبل أن نسير أخذت نجيب جانباً وسألته فيما إذا كان علينا أن ندفع مالاً لقاء استضافتنا، فأجاب أنه لا يرد في ذهن الأكراد تحت أي ظرف أن يأخذوا ثمناً من ضيوفهم، وقد جعلني كل هذا ألغي الحديث في

الموضوع، وأُوزّع بدلاً عن ذلك بعض المتاليك القليلة على الأطفال الصغار وهو أمر لا يثير الحنق ولا يؤذي المشاعر.

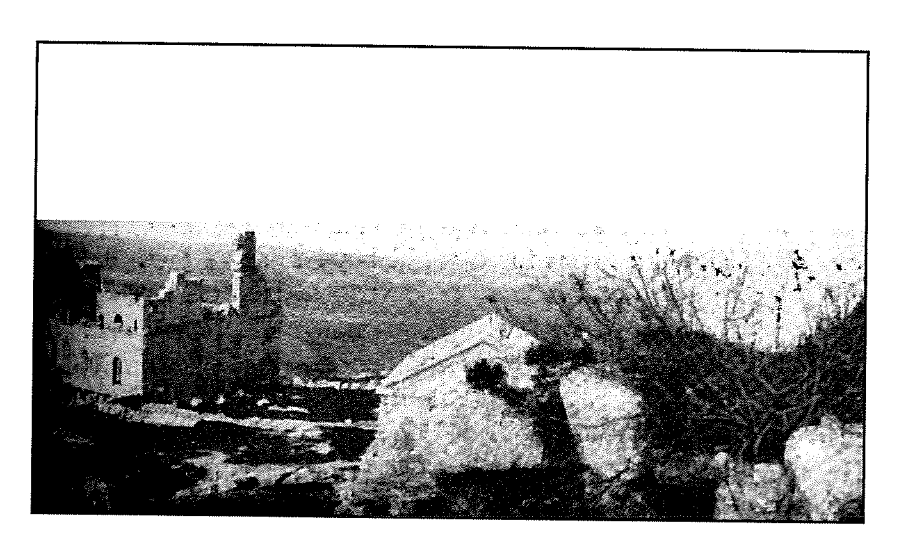


١٢٧ ـ قلعة سمعان

وانطلقنا بقيادة نجيب الذي سار بسرعة على طول الطريق الصخري إلى درجة وجدت صعوبة كبيرة بمجاراته، وكنت أعرف أن كنيسة القديس سمعان العمودي العظيمة تقع على رابية، وأنها جديرة بأن يؤتى لزيارتها من مكان بعيد، مع أن عمود القديس المشهور والذي بنيت حوله الكنيسة قد سقط منذ قرون.

وبعد ساعة من السير المتعثر أشار نجيب إلى الهضاب المعتمة واستطعت أن أميز كتلة تشبه أن تكون قلعة تعترض خط الأفق، وأسرعنا وسرنا نصف ساعة إضافية، ووصلنا القلعة في الساعة السابعة والنصف في ظلام دامس. وبينما كنا نسير عبر الكنيسة الضخمة سمعنا بارتياح رنين أجراس القافلة التي أكدت لنا وصول الخيام، وسمعنا أيضاً صراخ وتوبيخات ميخائيل الذي كان تحت تأثير جرعات العرق غاضباً مثل وحش كاسر، رافضاً أن يعطي البغالة الجدد أي فرصة ولو صغيرة للتعامل مع خيمتي الإنكليزية. وحيث إنني

كنت الشخص الوحيد الذي يعرف كيف توضع أعمدة الخيمة على النحو الملائم، وكيف تُدق الأوتاد، وكيف يُرتب الأثاث فقد اضطررت للقيام بمعظم هذا العمل بمفردي تحت ضوء شمعتين، وعندما انتهيت من ذلك بحثنا عن صندوق الخبز وعلبة السمن من أجل البغالة، وأصدرتُ أمراً إلى طباخنا الثائر أن يعد وجبة المساء المعتادة من الأرز، وقد استُقبل هذا الطلب بعويل يبعث على السخرية، ممتزج باللعنات على الجميع وبأشكال مختلفة، ومن المزعج المناقشة مع رجل سكران، ولكن بأي مشاعر استطعت أن أحتفظ بهدوئي، وإنني لأرجو من الملاك الذي يسجل ما نفعل أن يحذف هذه الملاحظة.



١٢٨ ـ قلعة سمعان

وفي النهاية وبعد أن أصبح كل شيء جاهزا، سرت متجولة في تلك الليلة الربيعية الجميلة عبر باحات الكنيسة الجليلة المتمتعة بالسلام تحت الأسوار حيث كنا نقيم، وسرعان ما وجدت نفسي في باحة دائرية مكشوفة يمكن الوصول إليها من جهات الكنيسة الأربع حسبما تشير البوصلة، وقد أحيطت

هذه الفسحة بأعمدة غير متماثلة أقيمت عليها عدة أقواس ما يزال بعضها قائماً، وقد كان في وسطها فيما مضى من الأيام العمود الذي عاش ومات عليه القديس سمعان [1]. وصعدت متعثرة على كومة الحجارة حتى وصلت إلى الصخرة التي كانت قاعدة للعمود، وهي عبارة عن حجر كبير عريض مشقق مقعر من وسطه بحيث يشبه الإناء، وكان ممتلئًا بماء المطر النظيف الذي غسلت فيه يديّ ووجهي. لم يكن هناك قمر، كانت الأعمدة والأقواس تقف بين الأنقاض ملقية ظلالاً رائعة، وهجع الهواء الناعم ساكناً مثل بركة ساكنة هبطت مرتبكة من الروح وتركته عارية أمام السماء والربيع.

وجلست وفكرت كم هو مضلل الحظ الخادع الذي لعب تلك الليلة مع القديس المتجهم الوجه، فقد أعطى لليلة واحدة تاج أحلامه المرة إلى شخص وردي الأحلام قانع بعمق بأنه سيكون أول الملعونين. وعاينت متأملة نجمة كبيرة كانت تقف لامعة فوق خط الأقواس المهدمة، واتفقنا معاً بأن الرحيل بين الأرض والسماء أفضل بكثير من قضاء اليوم على ظهر عمود.

لقد رُسمتْ أعدادٌ خرائط المسح الأمريكية كاشفة على نحو دقيق الجبال الشمالية حتى قلعة سمعان، ولكن لا الأمريكيون ولا غيرهم من الرحالة قد

(١) إن هذه إحدى الخرافات غير المعقولة، فلا يمكن لإنسان أن يعيش عمره على عمود. فهو بحاجة أن ينزل كل يوم عن العمود من أجل أن يأكل ويشرب ويبول ويتغوط، وأظن أنه كان يصعد إلى العمود عندما يجتمع المؤمنون من أجل أن يعظهم على نحو أفضل، ولا أتصور أن يكون هذا العمود عالياً جداً فقد يكون ارتفاعه متراً أو مترين من أجل سهولة السماع والمناقشة والسؤال والإجابة، وهو لا يعدو أن يكون نموذجاً بدائياً لمنبر الكنيسة في الصيف، إذ لا يعقل أن يبقى على سطح العمود في الشتاء تحت المطر والثلج وفي الأيام الباردة؛ لأن المؤمنين لن يأتوا لسماعه في تلك الظروف، وأحسب أنه كان أخرق غريب الطباع، وثمة أسرة حمصية من آل العامودي لا أظن أنهم من سلالته؛ لأنني لا أظن أنه توجد امرأة يمكن أن تقبل العيش معه. (المترجم)

نشر أي مخطط عن منطقة الهضاب الواقعة إلى الشمال الشرقي من هذا القديس(*)، وقد تجولت أنا عبر هذه المنطقة، وزرت معظم الخرب القديمة، فوجدت أنها معروفة لمعظم سكان المنطقة بجبل سمعان، والذي سوف أتحدث عنها بهذا العنوان.

إن الأبنية في جبال سمعان مع جبل باريشا الواقع إلى الجنوب الغربي وجبل العلا الواقع إلى الغرب مباشرة تنتمي جميعاً إلى نفس الطراز المعماري في جبل الزاوية الذي مررت به في طريقي إلى حلب، وقد يكون بالإمكان إيجاد بعض التمايز في طرز البناء بين المجموعة الشمالية والمجموعة الجنوبية.

وقد يستطيع المهندس المعماري الأمريكي السيد بتلر بما له من خبرة واسعة في المنطقتين أن يفعل هذا، ولكن هذه الفروق بالنسبة للملاحظ السريع العابر تعتمد بشكل رئيسي على الظروف الطبيعية، وعلى حقيقة أن المنطقة الشمالية تقع مباشرة وعلى نحو أكبر تحت تأثير إنطاكية، وهي المدينة التي تشكل المنابع الرئيسية للروح الفنية - ليس في سوريا فحسب - في القرون الأولى للحقبة المسيحية.

فالاستيطان الحضري في جبل سمعان قليل، ومنازل الناس أقل فخامة، ربما لأن الجبال الشمالية أكثر وعورة وغير قادرة على إعالة عدد كبير من الناس الأغنياء، ويبدو أن الاستقرار الحضري قد بدأ بها أبكر، ولكنها وصلت إلى ذروة الازدهار في وقت متأخر نسبياً عن المنطقة الجنوبية، ولكنها لم تعان ما

(*) بعد كتابة هذا الفصل سمعتُ أن السيد بتلر ومجموعته قد مدوا استكشافاتهم إلى شمال قلعة سمعان بعد رحيلي، وأنا أتأمل الحصول على مخططات كاملة عن المنطقة في طبعات مخططاتهم في المستقبل. (المؤلفة)

عانته الأخيرة في القرون التالية التي تلت الاجتياح العربي(*)، وتُظهر أروع كنائس القرن السادس أعظم الزخارف المترفة تقريباً بدون أن تقترب من تلك المطبقة في

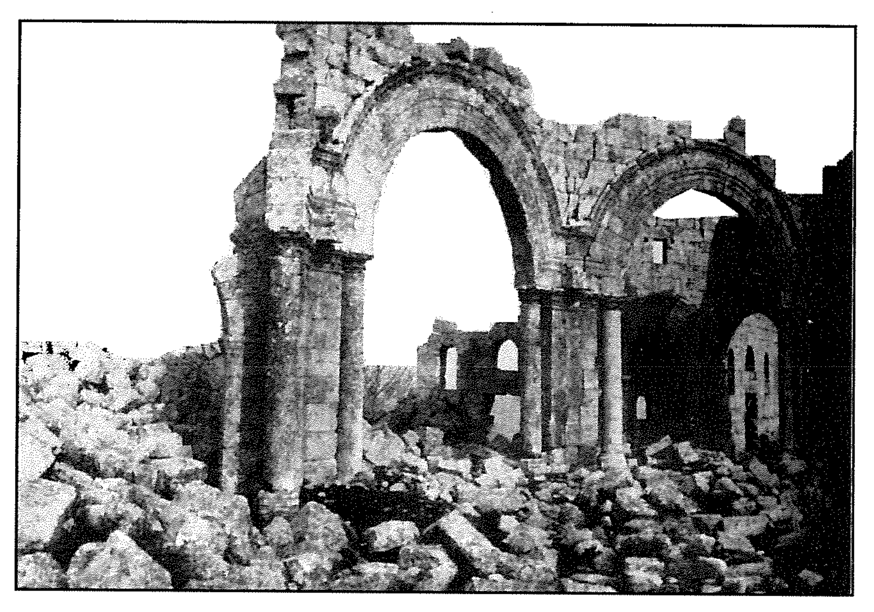


١٢٩ ـ قلعة سمعان الباب الغربي

(*) أنا أميل إلى أن أقترح بأن الانحدار الذي حدث فيها يعود في جزء منه إلى الضرائب العالية المرهقة التي فرضها الإمبراطور جوستنيان على المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية أثناء جهوده لاسترداد المنطقة الغربية. وإن قراء كتاب ديال العظيم عن جوستنيان سوف يتذكرون كيف انهار النظام السياسي والاجتماعي في المستعمرات تحت ضغط حروبه في إيطاليا وشمال أفريقيا، لقد كان القسم الشرقي من الإمبراطورية هو القسم الأغنى وهو الذي عانى أكثر. (المؤلفة)

الكنائس الجنوبية المتأخرة، وجميعها تعود إلى القرن الذي سبقه، فيما عدا كنيسة بيزوس في الرويحا، ومن الطريف أن نلاحظ أن كنيسة الرويحا رغم أنها بنيت في مرحلة متأخرة قليلاً عن قلعة سمعان فهي أقل زخرفة وأبسط بكثير، وإلى هذه الملاحظة يجب أن يضاف بأنه حتى المنازل الصغيرة في الشمال لا تُظهر تنوعاً كبيراً ولا غِنى بالزخارف مثل ذلك المعتاد في الجنوب(*).

وعندما يقرأ الرحالة الكتابات المنقوشة على الكنائس والمساكن يلاحظ أن التواريخ في الشمال تحسب دائماً حسب تقويم إنطاكية، مما يسمح بالظن بأن يد إنطاكية العظيمة هي التي ترسم عتبات أبوابها ورؤوس أعمدتها وزخارفها والأطواق الحجرية المنقوشة التي تزينها.



١٣٠ ـ قلعة سمعان ـ الباحة المستديرة

(*) لقد لاحظ هذا السيد بتلر في كتابه فن البناء والفنون الأخرى. (المؤلفة)

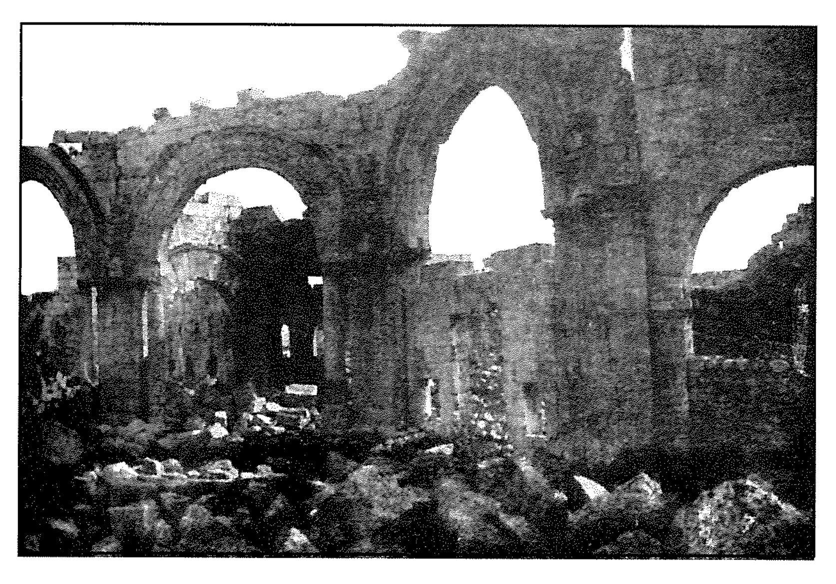
وقد بنيت كنيسة القديس سمعان ليس بجهود محلية فقط، وإنما إجلالاً للقديس الشهير من كل العالم المسيحي، وربما لم ينجزها البناؤون المحليون فحسب، وإنما بناؤوا ونحاتوا إنطاكية، وإذا كان هذا صحيحاً فمن الصعب أن لا نعزو الكنيسة البديعة في قلب لوزة إلى نفس القوى الخلاقة مثلها في ذلك مثل عشرات من النماذج الأصغر حجماً مثل الكنيسة الشرقية في باقرحا والتي يجب أن تخضع لنفس المؤثرات.

قضيت الصباح في تفحص كنيسة سمعان والقرية الواقعة في أسفل التل التي تحتوي على باسيليقا رومانية تامة وحطام فندق كبير للحجاج.

في وقت الغداء جاء كردي ودود وذكي جداً بحيث اخترته فوراً ليكون دليلي في الأيام القليلة القادمة، والمقاطعة التي يفترض أن أزورها غير ملحوظة في الخريطة أبداً وهي صخرية خالية من الطرقات. كان اسم صديقي الجديد موسى. وبينما كنا راكبين في عصر ذلك اليوم أسرَّ في أذني أنه ينتمي إلى طائفة اليزيديين الذين يطلق عليهم المحمديون اسم عباد الشيطان، مع أنني أتصورهم غير مؤذيين ومعقولين، وموطنهم الرئيسي في الأقسام العليا لما بين النهرين وقد هاجرت أسرة موسى من هناك.

وتحدثنا أثناء سيرنا بالمعتقدات، وتدريجياً وحيث تعارفنا ما يزال وليداً، فقد اعترف موسى أن اليزيديين يعبدون الشمس. قلت: «كائن خاص جداً جدير بالعبادة» وفكرت من أجل أن أدخل السرور إلى نفسه، وتابعت بأن الإسماعيليين يعبدون الشمس والقمر، ولكنه لم يستطع أن يخفي إلا بصعوبة اشمئزازه من التفكير بوثنية كهذه، وقد قادني هذا بيني وبين نفسي للتساؤل

فيما إذا كان العالم قد أصبح أكثر حكمة مما كان عليه عندما جلس القديس سمعان على عموده، ولم تكن النتيجة التي خلصت إليها أكثر جاذبية.

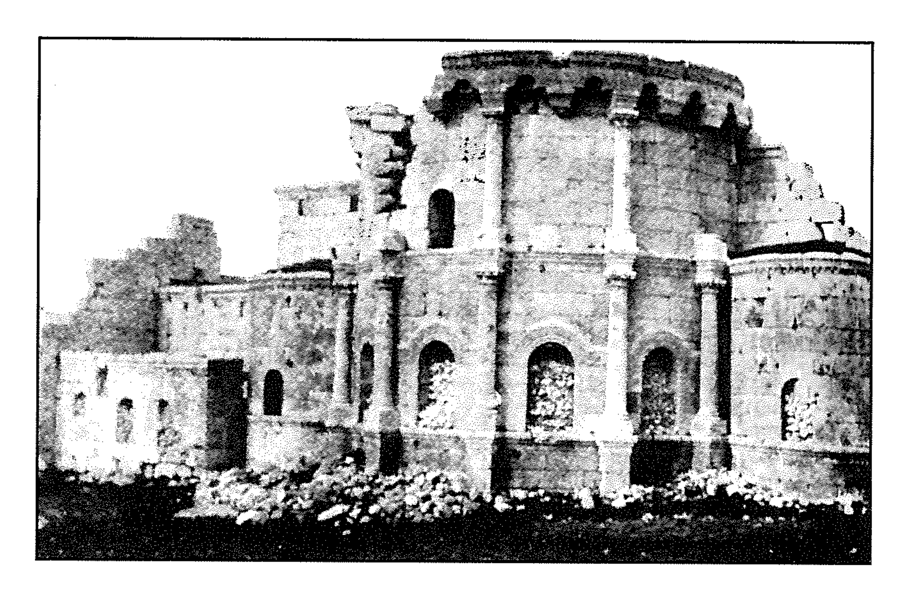


١٣١ - قلعة سمعان - الباحة المستديرة

أوقف المطر جولاتنا بين القرى عند سفح جبل الشيخ بركات، وهو قمة عالية تقع إلى الجنوب الشرقي من قلعة سمعان، فاندفعنا باتجاه مخيمنا. ولكن الغيوم انقشعت حوالي المساء، وشاهدت وأنا أقف مراقِبةً من الباب الغربي الرائع الهضاب وهي تعكس لون النحاس الأحمر والأسوار الرمادية للكنيسة محولة إياه إلى اللون الذهبي.

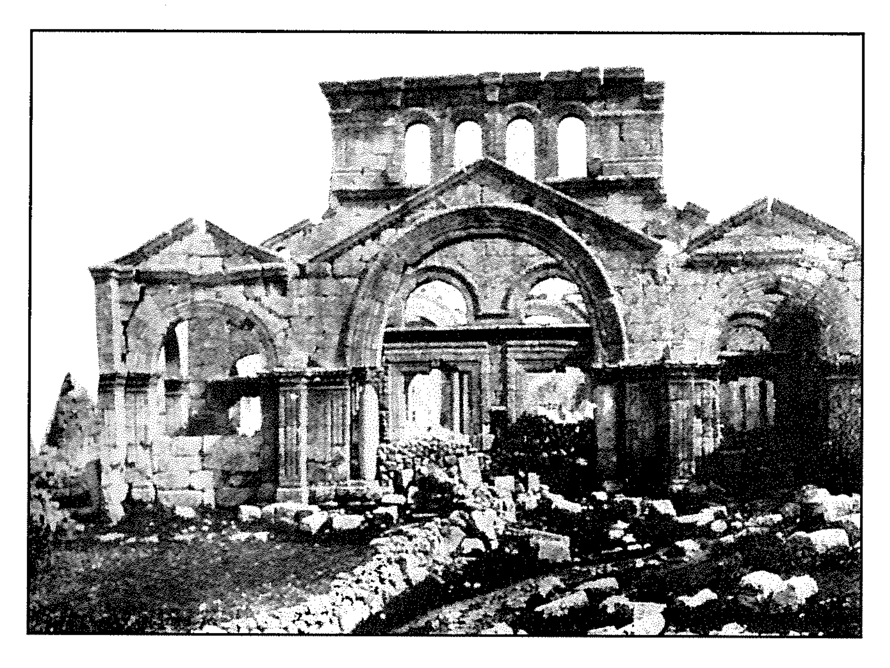
أمدني ميخائيل المحبط والتائب والنادم بعشاء رائع. على الرغم من أنني كنت سوف أطرده فيما لو استطاع القديس سمعان أن يؤمِّن لي طباخاً آخر، وفي الواقع فقد مِلت نصف مَيّل أن أرسل إلى حلب لجلب طباخ جديد، ولكن الشك بإمكان تأمين خادم جيد عن طريق الآخرين، إضافة إلى الرأفة والرغبة

بعدم الإيلام أديا بي إلى نوع من التراخي حاولت أن أُسوّغه بالأمل بأن توبة ميخائيل وعودته إلى السلوك الصحيح لابد آتية. وهكذا قضينا شهراً فوق بركان يثور مزمجراً بين فترة وأخرى، ثم ينفجر في النهاية مسبباً من الآلام ما يكفي.



١٣٢ - قلعة سمعان - الواجهة البارزة

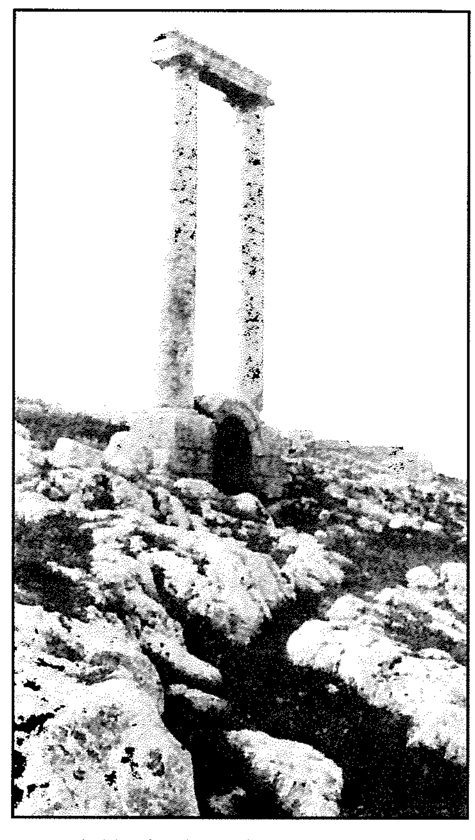
في اليوم التالي انطلقت مع موسى لاستكشاف قرى جبل سمعان الواقعة إلى الشمال، وإلى الشمال الشرقي من كنيسة القديس سمعان، وسرنا شرقاً بخط مستقيم تقريباً قرابة ساعة حتى بورجكة التي تتمتع بكل ملامح تلك القرى الواقعة حتى أقصى الشمال، وهي تحتوي على البرج المربع العالي العام تقريباً في المنطقة. كل الحجارة المستخدمة في البناء ضخمة، وكتل البناء غير موضوعة فوق بعضها في خط مستقيم غالباً، وإذا حصل ووضعت في خط مستقيم فإنها تكون مختلفة اختلافاً كبيراً بالعمق، وللكنيسة واجهة مربعة



١٣٣ ـ قلعة سمعان ـ الباب الغربي

بنيت خارج جدران الصحن، وحلى معمارية محدبة فوق كل نافذة مارة على طول أسكفة النافذة على نحو يتصل من نافذة إلى أخرى، وتنتهي بعد النافذة الأخيرة على نحو حلزوني، كما لو كانت جزءاً من وشاح من النقوش متدلٍ فوق فتحة النافذة مع فضلةٍ تم رفعها نحو الأعلى، وهذه الحلى المعمارية خاصة بالنقوش التزيينية في القرن السادس في شمالي سوريا. وبيوت بورجكة عبارة عن أكواخ بسيطة جداً مربعة بنيت بحجارة مضلعة.

وقد اكتشف موسى قبراً تم فتحه حديثاً قرب الكنيسة، وقد استنبط ببعض الصعوبة وسيلةً للزحف إلى داخله، وحصلت على مكافأة عندما وجدت في بعض التجاويف الداخلية تاريخ ٢٩٢ من تقويم إنطاكية الذي يوافق ٢٤٣ بعد الميلاد، وقد نُقش تحت التاريخ ثلاثة أسطر باللغة اليونانية مطموسة جداً.

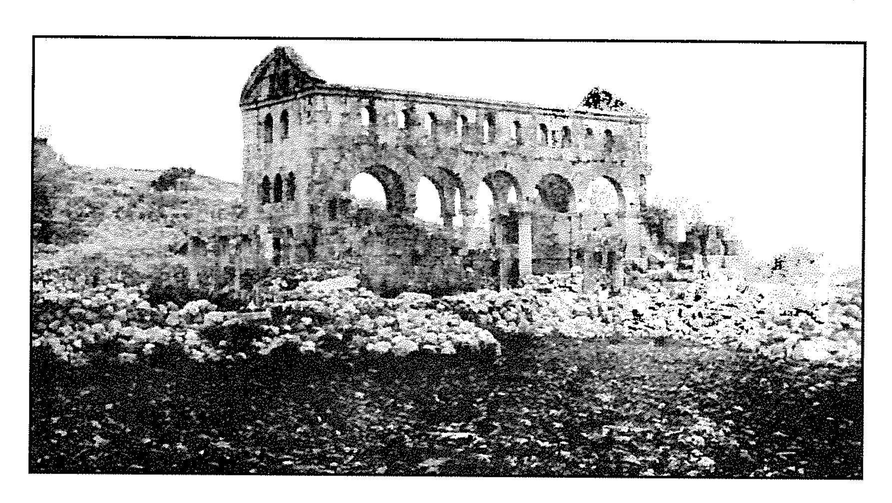


١٣٤ ـ نصب جنائزي باق في قاطورة

وركبنا بعد ذلك لمدة نصف ساعة حتى سوركانيا، وهي قرية مهجورة واقعة على نحو رائع على رأس واد صخري قليل العمق يوجد فيه عدد قليل من الأشجار، ومنازلها ضخمة على نحو متميز بشرفات مبنية بحجارة كبيرة مُشكّلة مداخل مسقوفة فوق الأبواب، وأحد هذه المنازل مؤرخ بتاريخ ٤٠٦ بعد الميلاد، والكنيسة مشابهة على نحو دقيق تقريباً لكنيسة بورجكة. ثم مشينا ثلاثة أرباع ساعة أخرى باتجاه الشمال فوصلنا إلى فافرتين حيث بدأت تمطر. فاستترنا بالواجهة البارزة التي كانت كل ما تبقى من كنيسة هي الأكبر بين كل ما شاهدناه حتى الآن، ولكنها بسيطة الصنعة (*)، ويسكن القرية عدد محدود من عائلات الأكراد اليزيديين، وركبنا تحت المطر المنهمر ساعة أخرى باتجاه الشمال الشرقي إلى خرب الشمس، ولكننا لم نستطع أن نفعل شيئاً هناك بسبب رداءة الطقس. وهكذا تابعنا شمالاً بجانب قالوطة إلى برج الكأس حيث وجدتُ خيامي منصوبة في مرج رطب، وكان

(*) كتب بتلر في تقاريره المكتوبة بأن هذه الكنيسة مؤرخة بتاريخ ٣٧٢ بعد الميلاد؛ الأمر الذي يجعلها من أقدم الكنائس المؤرخة في سوريا إذا لم تكن الأقدم في العالم. (المؤلفة)

موسى محبطاً جداً بسبب المطر الغزير، وقال: إن هذا الربيع الماطر يشكل كارثة بالنسبة لحقوله فهو يجرف التربة من الأراضي العالية إلى الوديان، وإن عملية تعرية التربة المستمرة قد أنقصت كثيراً من خصوبة الأراضي في شمالي سورية، وهي ما تزال مستمرة.



١٣٥ ـ خراب الشمس

في برج الكاس كان ثمة برج مربع على قمة تل، وبعض المنازل التي أصلحت وأُعيد سكناها من قبل الأكراد، وقد قرأت على أحد عتبات الأبواب تاريخ ٤٠٦ بعد الميلاد، ولكن ثمة نقشاً على باب آخر لم أستطع قراءته، وكانت نهاية هذه الحجرة مطمورة تحت زاوية بيت أعيد بناؤه، ولكني بإمعان النظر فيه استطعت أن ألحظ نقشاً صغيراً في أقصى طرفه الظاهر، وقد قال مالك المنزل: إن النقش يمثل بدون شك السيدة مريم، ويمثل هذا إضافة غريبة ضئيلة لفن النحت في شمالي سوريا مثلما هو تجديد لاهوتي، وقد عبّرت عن أسفي لعدم قدرتي على معاينته على نحو أفضل، وحالاً أحضر صديقي معولاً وكشط زاوية منزله فتكشفت الصورة المنحوتة عن نسر روماني.



١٣٦ ـ خراب الشمس ـ نقش في قبر

عدت بصحبة نجيب وموسى إلى القرية التي سبق ومررت بها أثناء المطر في اليوم السابق، وتركنا نجيب مع خيولنا في قالوطة وذهبنا إلى خراب الشمس على القدمين، كان الطريق صخرياً وعراً جداً إلى درجة رغبت معها بتجنيب حصاني في السير عليها مرة أخرى.

ويتألف خرب الشمس من كنيسة جميلة يبلغ طولها من الباب الغربي حتى وتر الواجهة البارزة إحدى وعشرين خطوة، وقد سقط الجدار الخارجي المتجه من الشمال إلى الجنوب تاركاً خمسة أقواس واقفة في كل جهة من الصحن، مع منور جُهِّز بعشر نوافذ صغيرة رأسية مستديرة. قطعة رائعة تشبه مقصورة مسرج منفصلة.

وأبعد قليلاً في أعلى التل تقع كنيسة ضخمة ليس لها أجنحة، ولها واجهة بارزة بنيت خارجاً، وسُقفت على نحو نصف مقبب بحجارة مسطحة مربعة تمثل بيت المعمودية في القرن الخامس الميلادي المشابه لدير قيتا(*)، وعلى جانب التلة وجدنا عدداً من القبور المنحوتة بالصخر، وقد سُررتُ إذ عثرت بواحد منها على نقوش منحوتة بارزة، ففي التجويف إلى يسار الباب صور منحوتة نحتاً فجاً لأربعة أشخاص قد رفعوا أذرعهم نحو الأعلى بوضعية الصلاة، كما أن هناك شخصاً منحوتاً في الزاوية المظلمة من الجدار الصخري، يرتدي قميصاً وقبعة بارزة، ويمسك شيئاً غريباً يشبه السلة في يده اليمنى.

ثم عدنا إلى قالوطة وزرنا كنيسة منعزلة في مرتفع من الأرض يقع غربي القرية، وشاهدنا على الجدار بجانب الباب الجنوبي كتابة يونانية طويلة، وقد فصل الصحن عن الجناحين بأربعة أعمدة من كل جانب، بعض هذه الأعمدة (إذا حكمنا من خلال القطع المحطمة) محلزن وبعضها بسيط.

وينتهي الرواق قبالة زاوية الواجهة البارزة بأعمدة معشقة محلزنة تحمل تيجاناً كورنثية جميلة، والواجهة البارزة وتزييناتها المضافة موجودة كلها داخل الجدار الخارجي للكنيسة، ويظهر الباب الغربي قوساً منقوشاً قائماً على ركائز فوق أسكفة الباب المهدمة، وهذه الأسكفة مزينة بخط من المنمنمات. وإلى الجنوب من الكنيسة ثمة بيت معمودية منفصل بمساحة داخلية تعادل تسع أقدام مربعة، ومازالت الجدران تحمل الصف الأول من القنطرة الحجرية، ولابد أن الكنيسة قد سقفت بالقرميد؛ لأنني وجدت بعض القطع مرمية في الصحن، وهناك سور ضخم يحيط بكل من الكنيسة وبيت

(*) بتلر. فن البناء وغيره من الفنون. صفحة ١٣٩ (المؤلفة)

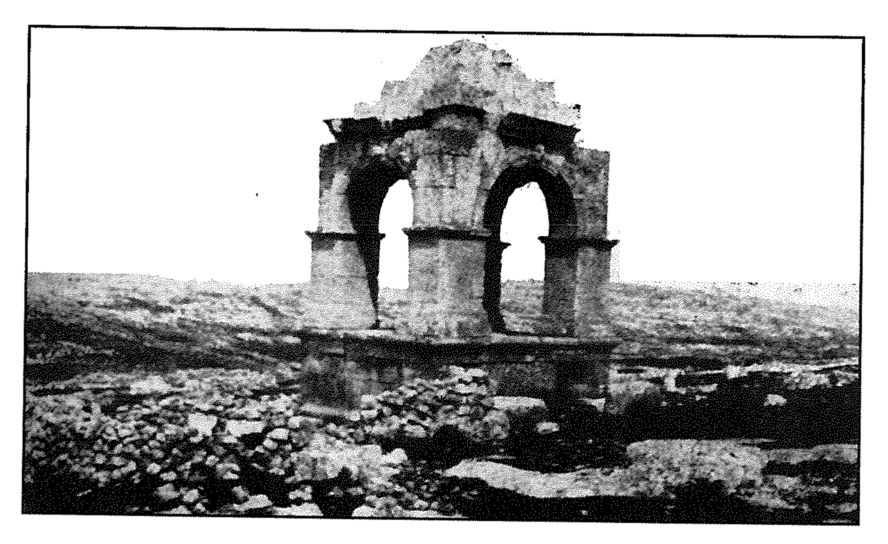
المعمودية، ويوجد في القرية الواقعة أسفل التل كنيستان أبعاد الغربية منهما ٣٨ × ٦٨ قدماً والأخرى ٤٨ × ٧٠ قدماً. وتشير الحلى المعمارية المحيطة بأبواب كلتا الكنيستين إلى زمن لا يقل عن القرن السادس. كما كان هناك بيوت بشرفات حجرية.



١٣٧ ـ تاج عمود فوق في كنيسة قالوطة

وعلى بعد ساعة ونصف إلى الشمال الغربي من قالوطة تقع قرية البارد، وهي الأكبر والأجمل في جبل سمعان، وقد سكنها الأكراد الآن على نحو جزئي، وهناك وجدت مخيمي منصوباً في ساحة مكشوفة مقابل نصب جنائزي مؤلف من مظلة حجرية تحملها أربعة أعمدة مستندة إلى منصة مرتفعة عن الأرض.

وإلى جانبها قبر حجري ضخم مع مجموعة من القبور الأخرى المنحوتة جزئياً والمبنية جزئياً، وعاينت كنيستين في وسط البلدة، والصحن في الكنيسة الأولى بطول ٦٨,٦ قدماً قد تم فصله عن الجناحين بأربعة أعمدة بعمق ست أقدام من الشرق إلى الغرب، مع فرجة بين الأعمدة تعادل / ١٨ / ثماني عشرة قدماً، وعرض الصحن /٢٣/ ثلاث وعشرون قدماً، وعمق الواجهة البارزة /١٢ / اثنتا عشرة قدماً. ويبرهن عرض الفرجة بين الأعمدة على أن الكنيسة قد بنيت في وقت متأخر نسبياً، في القرن السادس أو حول ذلك.

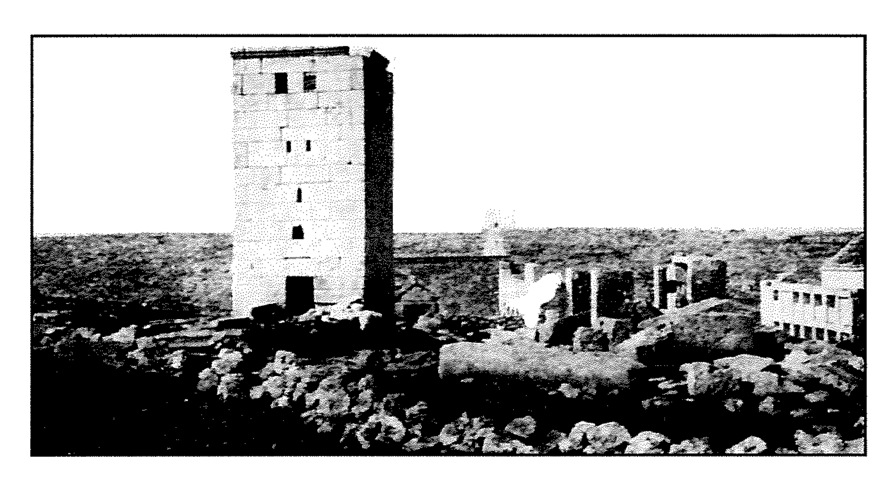


١٣٨ - ظلة قبر حجرية

والكنيسة الثانية أكبر وهي بطول ١١٨,٦ قدماً، وبعرض ٧٣,٦ قدماً، ولكنها مهدمة بالكامل فيما عدا الجدار الغربي، وجزء من الواجهة البارزة. وإلى الشمال يوجد كنيسة صغيرة بواجهة بارزة سليمة تماماً، وبالقرب منها ثمة قبر حجري مما يوحي بأن الكنيسة الصغيرة ربما كانت مقبرة ضخمة. وتحتوي النهاية الشرقية للبلدة على مجمع أبنية مضلعة تشتمل على سياج مربع في داخله غرفة مربعة في وسطها قبة ربما كانت قبراً.

وفي النهاية الغربية للبلدة ثمة برج جميل بجانبه بعض البيوت الكبيرة والسليمة، وهناك كنيسة صغيرة تقع بينه وبين القسم الرئيسي من البلدة، وكان هناك بجانب مخيمي بناء غريب له واجهتان غير نظاميتين بنيتا على الجدار الشرقي، وأنا أظن أنه يعود إلى ما قبل العصر المسيحي، ويلاحظ أن الجدران واقفة حتى بدء القنطرة التي ماتزال سليمة تماماً. وعندما كنا أنا وموسى نقيس ونرسم البناء كان ثمة رجلان يرتديان ثوبين أبيضين طويلين، ويضعان على رأسيهما ترياناً يراقباننا باهتمام شديد، وقد كانا ـ كما قال موسى ـ موظفين حكوميين جاءا إلى جبل سمعان ليحصيا السكان من أجل فرض ضريبة الرأس.

كان اليوم التالي من أكثر الأيام سوءاً كما أذكر، قبة من غيمة كبيرة كثيفة امتدت عبر السماء على نحو مفاجئ فوق جبل سمعان صانعة فوقنا ظلاً رمادياً بارداً، في الوقت الذي كانت فيه المناطق الواقعة شمال وجنوب الجبل وكذلك السهل الواقع بعدها يستحمون جميعاً بشمس رائعة، وركبنا شمالاً حوالي ساعة حتى قرية قيفار، وهي قرية كبيرة قرب الحافة البعيدة لجبل سمعان.



١٣٩ ـ برج البارد غربي البلدة

وخلف وادي عفرين ـ الذي يربط بين الهضاب والمنطقة الشمالية الغربية ـ ترتفع الأكتاف العظيمة الأولى لجبل كيوار داغ، وقد لاحظ موسى أن الوادي والتلال الواقعة بعده لا تحتوي على أي خرب أثرية، وأن هذه الخرب تنتهي على نحو مفاجئ عند حدود جبل سمعان، ويبدو وكأن الحضارة السورية لم تخترق المناطق الأبعد إلى الشمال. وليس من السهل الإجابة عن السبب.

يوجد في قيفار ثلاث كنائس مهدمة جداً، ولكنها تبدي آثاراً وزخرفات معالجة على نحو رائع، كما أن ثمة عدداً قليلاً جداً من البيوت الجيدة. ويوجد ظله قبر تشبه تلك التي رأيناها في قرية البارد.

وهناك عدد كبير من السكان الأكراد، وعدنا إلى قرية البارد، ثم انحدرنا جنوباً بشرق إلى قرية كفر نبو بعد أن ركبنا ساعة ونصف تحت رياح قارصة ومطر غزير، كان ثمة نقش سوري على أسكفة باب، وشواهد قبر أو قبرين مكتوب عليهما بالخط الكوفي، ومنزل رائع أعيد ترميمه جزئياً، ولكني كنت أعاني كثيراً من البرد بحيث لم أعط هذه الآثار ما تستحقه من الاهتمام. كنت

أرتجف حتى العظام ولم أجد الشجاعة باستمرار المحاولة بالاستكشاف في هذه الرياح الشديدة. وسرت مباشرة إلى مخيمي في قرية باسوفان التي تبعد ساعة من الركوب عن كفر نبو تاركة استكشاف مواقع خربتين إلى الجنوب. كان بيت موسى في باسوفان، وقابلنا والده في حقل الذرة عندما صعدنا إلى القرية.

«الله يعطيك العافية» صاح موسى محيياً أحد العاملين في الحقل التحية المناسبة.

«الله يعافيك!» أجاب العامل. رافعاً عينيه القاتمتين باتجاهنا.

«إنه ختيار» أوضح موسى بينما كنا نتابع الركوب «ولكن المصائب حلت به وقد كان فيما مضى من الأيام أجمل رجل في جبل سمعان وأفضل رام».

قلت: «ماذا أصابه».

أجاب: «لقد قُتل أخوه في عداوة دامية منذ عدة شهور، ولم نعرف شخصية القاتل، ولكن ربما كان أحد أفراد عائلة عروسه لأنه أخذها رغماً عنهم».

سألتُ: «وماذا حدث للعروس؟».

قال: «عادت إلى أهلها، ولكنها بكت كثيراً وبمرارة».

وتُتَّخذ باسوفان كمَصيَف من قبل بعض يهود ومسيحيي حلب الذين يأتون للسكنى في بيوت الأكراد في شهور الصيف الحارة، ويقطن مالكوا هذه البيوت أثناء ذلك في الخيام، وثمة بعض الأشجار الكبيرة واقعة جنوب القرية وهي تظلل مقبرة كبيرة تحتوي على الأغلب قبور بعض المسلمين الذين يُجلَبون للدفن فيها من القرى المجاورة.

ويفخر الوادي في الأسفل بربيعه الشهير وهو ربيع لا يتعرض للجفاف حتى في سنين الجدب عندما تجف أو تستنفد الينابيع المجاورة.

كان الأكراد يزرعون المنحدرات المجاورة للقرية تبغاً، وكانوا يبيعونه بأسعار عالية نظراً لجودته، حتى أنشأت الحكومة شركة الريجي، وأَخذتْ تدفع للأكراد أسعاراً متدنية جداً بحيث أصبحوا لا يحققون أي مربح جَدي، وبما أنه لا يوجد هناك سوق آخر فقد ماتت صناعته وأهملت زراعته، ولم تعد الحقول تزرع إلا قليلاً من الذرة، قال موسى في الختام: «ونحن الآن جميعاً فقراء».

لم يكن قد مضى على وجودي في المخيم أكثر من ساعة حتى انقطع المطر وأشرقت الشمس معيدة لنا حيويتنا في نفس الوقت، كان ثمة كنيسة كبيرة في باسوفان قد حُولت في مرحلة ما إلى قلعة، بإضافة ثلاثة أبراج، وكان ما بقي من البناء الأصلي يمثل عملاً رائعاً؛ وقد زخرفت الأعمدة المعشقة مع الواجهة البارزة بأخاديد محلزنة ـ وهذا أول نموذج أراه من هذا الطراز ـ والتيجان الكورنثية كانت منحوتة على نحو عميق وجيد.

وقد أراني موسى نقشاً سريانياً في الجدار الجنوبي الذي نسخته بمجهود كبير ونجاح قليل، لقد أخذ الأشرار كل النقوش السريانية، أو وهبوها لجميع الرحالة بفطنة أفضل، وحيث إنه كان ما يزال هناك ساعتان من ضوء النهار فقد قررت أن أصعد الهضاب إلى قرية برج حيدا وقرية كفر لاب اللتين

تجاوزتهما في الصباح بسبب البرد والمطر، وقد رافقني موسى وأخذ معه شريكه - هكذا قدمه لي - ولكن بأي شيء يشاركه لا أدري [1].



١٤٠ - موسى وعائلته

وبرج حيدا جديرة بالزيارة، وهي تحتوي على برج مربع وثلاث كنائس، إحداهن مصانة على نحو فائق جداً مع بناء جميل ملحق به ربما كان مقراً لرجال الدين، ولكن الرحلة جديرة بالذكر بشكل رئيسي بسبب الحديث الذي دار، كنت قد تعاقدت مع موسى في الأيام الثلاثة الماضية التي قضيناها معاً، وقد تكونت بيننا صداقة كانت من قبلي تعود لشكري للخدمات التي قدمها لي، مضافاً إليها التقدير الحار للابتسامة المشرقة التي كانت تمتزج بأعماله،

(١) الحقيقة أن موسى هذا لص آثار، والسائحة تعرف هذا، وهو إذ يرحل معها لا يفعل ذلك لوجه الله أو إعجاباً بقوامها، وإنما للتعرف مثلها على الآثار، ومعرفة ما يهم الرحالة والسياح حيث يتعاونون معاً على سرقة الآثار. (المترجم)

وقد وصلت الإلفة بيننا إلى درجة أمَّلت معها أن ينورني ببعض مبادئ المذهب اليزيدي؛ لأنه مهما كانت العادة في أوربا، فإن من الأدب في آسيا أن لا تسأل إنساناً عن عقيدته ما لم تكن علاقتك به حميمية من وجهة نظره، كما أن ذلك غير مناسب أو مفيد، فهو يثير الشكوك والارتياب دون أن تحظى بإجابة شافية، وقد بدأتُ السؤال بطريقة لطيفة ـ بينما كنا نجلس على باب كنيسة صغيرة في كفر لاب ـ حول ما إذا كان لدى اليزيديين مسجد أو كنيسة.

أجاب موسى: «لا.. ليس لدينا، نحن نعبد الله تحت السماء، فكل يوم عند الفجر نتعبد للشمس».

قلت: «وهل لديكم إمام يؤمكم في الصلاة؟».

أجاب: «في الأعياد فقط، يؤمنا الشيخ بالصلاة، ولكن في الأيام العادية كل إنسان يصلي لنفسه، ونحن نعتبر بعض أيام الأسبوع أيام سعد وبعضها الآخر أيام نحس، فالأربعاء والجمعة والأحد أيام سعد، أما الخميس فيوم نحس».

قلت: «لماذا؟».

قال موسى: «أنا لا أعرف، إنه كذلك».

سألت: «هل أنتم أصدقاء للمحمديين أم أعداء؟».

قال: «هنا في المنطقة حول حلب نحن قلة، وهم لا يخافوننا، ولذلك فنحن نعيش بسلام معهم، ولكن في كل سنة يأتي من الموصل شيخ عالم ليجمع منا الزكاة، وهو يتعجب لرؤيتنا نعيش كالإخوان مع المسلمين، ففي الموصل حيث هناك عدد كبير من اليزيديين يوجد عَداء كبير بينهم وبين المسلمين حسبما

يقول الشيخ، وفي الموصل لا يخدم اليزيديين في الجيش، بينما هنا نحن نخدم كالآخرين وأنا نفسي كنت جندياً».

سألت: «هل لديكم كتاب مقدس؟».

قال: «بدون شك، وأنا سوف أخبرك ما تقول كتبنا: عندما تقترب ساعة نهاية العالم يظهر حادود ومادود في الأرض، وقبل أن يظهر يصغر جسم الإنسان حتى يصبح أصغر من ورقة العشب ـ ولكن حادود ومادود عملاق ـ ولكن في سبعة أيام أو سبعة شهور أو سبع سنين سوف يشرب كل مياه البحار والأنهار وتصبح الأرض قاحلة».

«ثم» قال الشريك الذي كان يتابع كلام موسى باهتمام: «تثب من خلال التراب دودة عظيمة فتفترس حادود ومادود».

تابع موسى: «وبعد أن تأكله، يحدث فيضان يستمر سبعة أيام أو سبعة شهور أو سبع سنين».

قاطع الشريك: «وتغتسل الأرض وتصبح نظيفة».

قال موسى: «ثم يأتي المهدي، وسوف يجمع الأديان الأربعة اليزيدية، والنصارى والإسلام واليهود، ويطلب من كل نبي من أنبياء هذه الديانات أن يجمع أتباعه، فيجمع يزيد اليزيديين وعيسى المسيحيين ومحمد المسلمين وموسى اليهود، أما أولئك الذين تحولوا من دين إلى آخر أثناء الحياة، فإنهم يوضعون في النار ليعرف الدين الحقيقي الذي يخفونه في صدورهم، وهكذا يعرف كل نبي جماعته وتلك هي نهاية العالم».

قلت: «وهل تعتقد أن كل أصحاب هذه الديانات متساوون؟».

وأجاب موسى (ربما مسايرة): «نحن نعتقد أن النصارى واليهود سيكونون مساوين لنا».

سألت: «والمسلمون؟».

قال موسى «نحن نظن أنهم سيصبحون خنازير».

هذه هي مبادئ عقيدة موسى، ولن أتجرأ على قول ما تشير إليه، ولكن ربما كان حادود ومادود هو كوج ما كوج إذا كان لي أن ألقي بعض الضوء على القضية [1].

كانت الشمس تحاول الغروب عندما نهضنا من مجلسنا على عتبة الكنيسة وبدأنا الصعود باتجاه منزلنا على خرائب كفر لاب، كان ثمة منحدر قاس من الأرض بعد القرية، ولاحظت وجود مغاور كبيرة تحت الصخور عند قمة التل، وتوقف شريك موسى أمامها وقال: «في مثل هذه الأماكن نحن نبحث عن الكنوز».

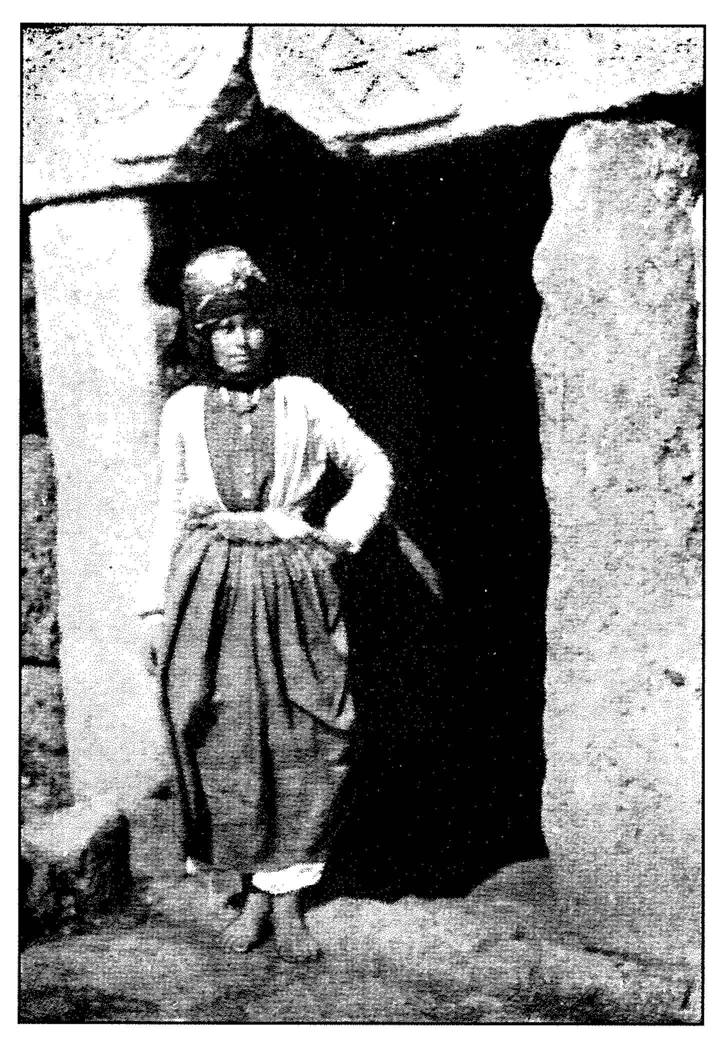
قلت: «وهل وجدت كنزاً».

قال: «أنا لم أعثر على أي كنز ولكن كثرة من الناس قالوا إنهم عثروا. وقد قالوا: إن راعياً صغيراً أضاع معزاه، وذهب يبحث عنها على التلال، ووجدها في النهاية بأحد الكهوف، ووجد الكهف مليئاً بالنقود الذهبية، فأغلق فم الكهف ورجع مسرعاً إلى بيته ليجلب حماراً يحمل عليه الذهب، وفي عجلته

(١) لا أدري فيما إذا كانت هذه الخرافات موجودة فعلاً عند اليزيديين، أو إنه من خيال المؤلفة. (المترجم)

ترك المعزاة في الكهف، وعندما عاد لم يجد المعزاة ولا الكهف ولا الذهب الذي أخذ يبحث عنه».

قال موسى: «وفي وقت آخر كان ولد نائماً بين خرائب كفر لاب وحلم في منامه أنه اكتشف كنزاً كبيراً في الأرض، وأنه قد حفر من أجل الوصول إليه



١٤١ ـ باسوفان ـ امرأة كردية

بيديه، وعندما استيقظ وجد يديه مغطاتين بغبار الذهب ولكنه لم يستطع أن يتذكر المكان الذي حفر فيه».

ولا تقدم أي من هذه الحكايا معلومات مقنعة تبرر إرسال بعثة استكشاف للبحث عن الكنوز في جبل سمعان.

وعندما وصلنا إلى باسوفان سأل موسى فيما إذا كانت أخته وردة تستطيع أن تسلم عليّ، «وإذا كان من الممكن أن تقنعيها بالزواج» أضاف.

سألت: «أن تتزوج؟، ومن هو الذي سوف تتزوجه؟»

قال موسى بهدوء: «أيّ شخص لقد أعلنتْ أنها تكره الزواج، وأنها سوف تبقى في بيت أبيها، ونحن لا نستطيع أن نزحزحها عن موقفها، وهي عذراء شابة وجميلة».

لقد بدت جميلة جداً وخجولة عندما كانت تقف بباب خيمتي بلباس النساء الكرديات الجميل ـ ممسكة بكلتي يديها وعاء قشدة الحليب ـ، هدية سموحة لي، وأعترف أنني لم ألح كثيراً على قضية الزواج؛ ظانّةً أنها تحسن إدارة حياتها على نحو أفضل بدون زواج. وجاءتني بخبز طازج للإفطار في صباح اليوم التالي، ورجتني أن أزور بيت والدها قبل أن أغادر.

وقد فعلت هذا، ووجدت الأسرة كلها؛ الأبناء والزوجات والأطفال الكبار قد تجمعوا كلهم للترحيب بي، وعلى الرغم من أنني كنت قد أفطرت قبل قليل إلا أن الأب الكبير أصر على وضع الخبز والكريما أمامي وقال: «هذا رباط الخبز والملح بيننا».

كانوا أناساً حسني التربية حسني الوجوه، قد أشرقت وجوههم بالابتسامات التي كان من أكثرها جاذبية ابتسامة موسى، ومن أجلهم سوف أُكنّ من الآن فصاعداً احتراماً كبيراً للعنصر الكردي.





الفصل الثالث عشر:

انطلقنا من باسوفان في الساعة الثامنة من صباح الرابع من نيسان راكبين جنوباً عبر مسالك حجرية وعرة على نحو لا يصدق، جاعلين قلعة سمعان إلى الغرب ملتفين حول الحواف الشرقية لجبل الشيخ بركة. وصرح موسى بأنه سوف يرافقنا في الجزء الأول من طريقنا حتى قرية ديرة عزة وهي قرية محمدية تتكون من ثلاثمئة إلى أربعمئة بيت، وتركنا في هذا المكان.

وقد انحدرنا من هناك إلى سهل سرمدا الخصيب ملتفين حول منحدرات جبل حلقة. وفي منتصف النهار مررنا بقرية دانا الكبيرة، وتغدينا عند قبر القرن الثالث الميلادي الشهير الذي تحدث عنه في كتابه دوفوج، وهو من وجهة نظري من أجمل النُّصُب الصغيرة الباقية في شمالي سوريا، وهو يثمن ببساطته الرائعة بكل جدارة إلى جانب نصب قائد الكورس ليزيكراتس في أثينا، ولم يكن ثمة ما يحتجزنا غيره في دانا.

وكنت قد أرسلتُ المتاع مع ميخائيل طالبة منه أن نلتقي بداحس، حيث أكون ونجيب بانتظارهم، وكان ميخائيل بصحبة دليل من المنطقة، وبعد مناقشة حدثت بين نجيب والدليل حول المنطقة التي نحن فيها التي كنت أعرفها من خلال كلام الرحالة فحسب، اكتشفنا بعد الوصول إليها أن المكان الذي نحن فيه هو ماحس وليس داحس، والأمر سيان على أي حال مادمنا قد التقينا ووجدنا مكاناً ملائماً للتخييم. وقد أخذني نجيب شمالاً على طول

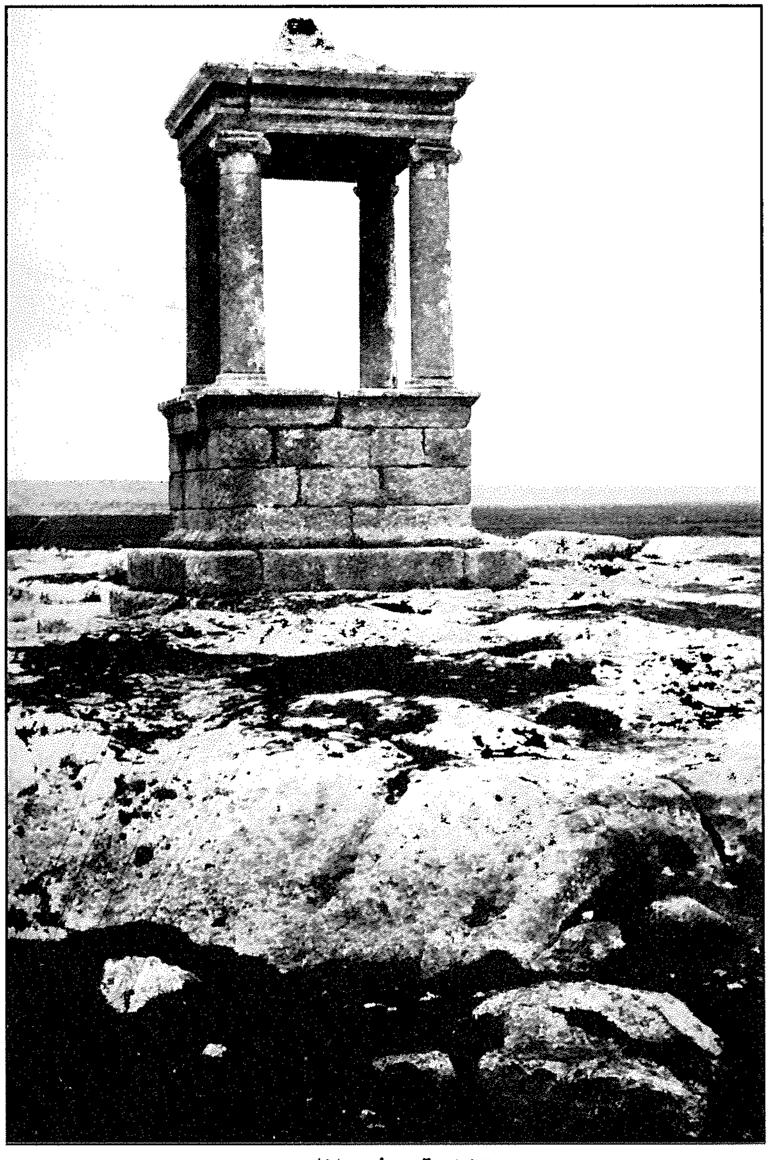
الطريق الروماني بقرب قوس نصر روماني يطلق عليه اسم باب الهوى وهو واقع على نحو رائع في مدخل واد صخري، ومشينا على طول هذا الوادي لميل أو ميلين مارين بكنيسة مهدمة، ضاربين عبر التلال إلى الغرب من خلال خانق قادنا إلى نجد واسع قريب من قرية مهجورة تدعى قصيجبة(*)، ثم تابعنا المسير إلى قرية بابيسكا عبر منطقة موشاة بالزهور وبمجموعات من المنازل المهدمة والكنائس، ويقفز القلب من مكانه أمام منظر هذا الجمال الزائل المهجور. ومن الصعب أن نحدد موقع باقرحا من خلال قمم هذه التلال، وهي البلدة التي أرغب بزيارتها. ولكننا وجدنا قرب بابيسكا خيمتي رعيان، وقد سألنا بعض القاطنين فيهما عن الطريق، كان الراعي سوداوي المزاج.

وقد قال: إنه ليس هناك طريق إلى باقرحا، وإن النهار قارب على النهاية لمثل هذه المغامرة، وإن طريقه باتجاه معاكس. وهو يحمل سلة بيض ولا يستطيع مساعدتنا. وأنا لم أقطع على أي حال هذه الأميال الكثيرة حتى أقبل بالهزيمة في النهاية، وهكذا ومن خلال بعض الإغراءات، والقدرة الجيدة على الإقناع استطعنا أن نحث الراعي على أن يرينا الطريق حتى سفح الهضبة التي تقع عليها باقرحا، ومشى معنا ساعة أو حولها، ثم أشار باتجاه قمة جبل باريشا قائلاً: «تلك هي باقرحا»، ثم تركنا فوراً عائداً إلى حيث ترك سلة بيضه.

وفي أعلى قمة الجبل شاهدنا الخربة تسبح في شمس العصر، وبعد أن بحثنا عبثاً عن طريق اندفعنا بخيولنا مباشرة بين جلاميد الصخور وأجمات الأشواك المزهرة، ولكن ثمة حدوداً للتَحمُّل حتى لدى الخيول السورية، وقد وصلت خيولنا إلى هذه الحدود بعد سير يوم طويل من تسلق الصخور. وكنا لا نزال بعيدين عن المخيم، والسماء وحدها تعلم بُعْده، ولم ترتفع عيناي عن الأسوار اللامعة تحت ضوء الشمس والتي كانت قريبة جداً فوقنا على

(*) لقد زارت البعثة الأثرية الأمريكية المدن القديمة في جبل باريشا ووصفتها بعد ذلك. (المؤلفة)

الهضبة، وطلبت من نجيب المعارض أن يبقى حيث هو في الأسفل مع الخيول، وصعدت التل على القدمين وحيدة، كان النهار قد شارف على النهاية، وتسلقت بسرعة، ولكن ومع كل سرعتي فإن الزحف فوق هذه المنحدرات الصخرية



١٤٢ ـ قبر في دانا

نصف المدفونة تحت الزهور والساخنة بسبب أشعة الشمس الساقطة عليها أمر لا يمكن محوه من الذاكرة بسهولة، وبعد نصف ساعة كنت أقف في مدخل البلدة تحت باسيليقا رائعة غنية بزخارف وخطوط جميلة ومتنوعة، وإلى الخلف منها الشوارع المهدمة، الخالية من السكان، تضطجع على طول حافة الجبل، منازل بشرفات مزخرفة وبوابات بأروقة عميقة مسقوفة، ومحلات تجارية معمدة تجللها جميعاً أشعة الشمس الذهبية، ولكنني كنت معنية بالحج إلى مكان آخر، طريق عريض ملتو يقود إلى أعلى البلدة حتى يصل إلى حدود المنحدرات المزهرة ولا شيء آخر إلا الوجه الصخري القصير لهضبة تقع بين الأرض المكشوفة حيث ينتهي الممر وقمة السلسلة الجبلية.

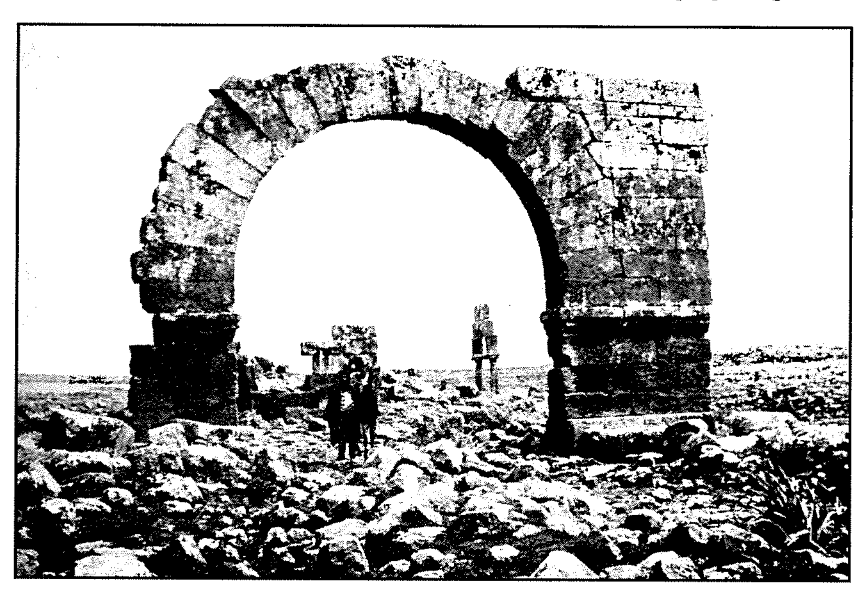
وكان الجبل قد شق هذا الطريق، وعبر ممر ضيق شديد الانحدار، محصور بين مواقع جروف السهل الخصيب المشمّس، وعند قمة الممر الضيق، وعلى رف ضيق من الأرض يقع معبد رائع صغير. وجلست بجانب البوابة التي كان يمر عبرها العابدون الداخلون إلى ساحة المعبد، وكانت تقع تحتي منحدرات جبل باريشا الشمالية والوديان الجميلة العريضة، والعباءة الثلجية التي تكلل جبل كيوار داغ المغطى بغيمة دافئة.

والمعبد والمدينة وجوانب الهضبة كانت جميعاً مهجورة فيما عدا راع صغير كان يجلس على إحدى القمم الصخرية البعيدة يعزف بقصبته لحناً جميلاً لقطيعه المتفرق بين الصخور، كان لحن القصبة يعكس العزلة الشديدة، واضحاً يهز المشاعر ويصعد بهدوء عبر بوابة المعبد محمولاً على أمواج عميقة من هواء الجبل المعطر بأريج الزهور وملون بأشعة الشمس المشرفة على الغروب.

الناس تأتي وتذهب والحياة طالما اصطخبت على منحدرات التلال ثم تراجعت مرة أخرى تاركة الآلهة القديمة تستأنف سيطرتها فوق الصخور والأشواك المزهرة بسلام ووحدة وجمال. وهكذا وعلى أبواب الحرم المقدس قدمت صلواتي، وسارت تسبيحاتي على طريقي المفعم بالفرح.

واستقبل نجيب عودتي بتعابير تعكس الارتياح الشديد.

قال: «بالله لم أدخن أي سيجارة منذ غبتِ عن ناظري، وكنت خلال هذه الساعة أقول: أرجو الله أن لا تقابل لصاً بين الصخور».

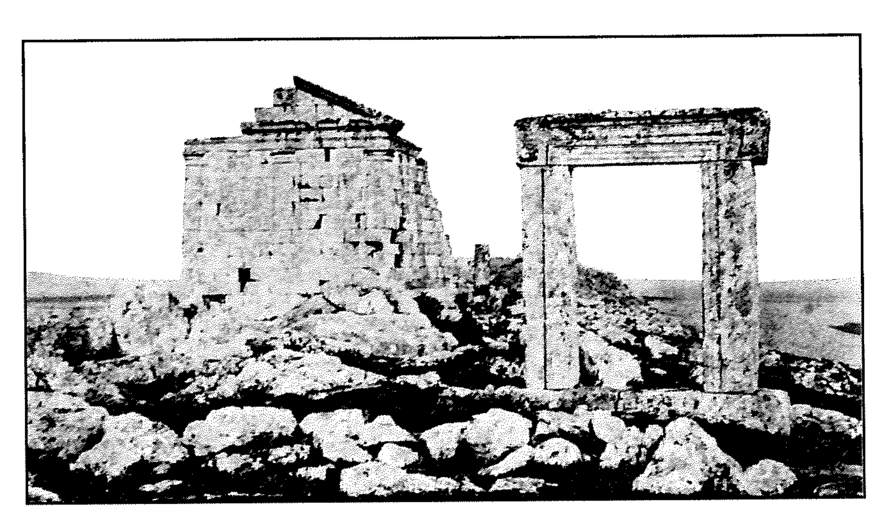


١٤٣ ـ باب الهوى

وهكذا ومن أجل التعويض عن الفرصة الضائعة أشعل السيجارة التي لم يمنعه قلقه من لفها أثناء غيابي، وهكذا أنا لا أستطيع أن أجزم أنها الوحيدة في الواقع، ولكن الشعور كان مُرضياً. وفكرت في ذلك الوقت «ولكن مسيرة اليوم التالي برهنت أنني كنت على خطأ». إننا عندما ركبنا نازلين إلى سهل

سرمدا كنا نسير عبر أكثر الطرق وعورة في العالم، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل انعطفنا صاعدين وادياً إلى الجنوب. شريط ملتو من الأرض المفلوحة بين سلاسل من الصخور، وسرعان ما اتسع ومررنا بقرية حديثة كبيرة، حيث سمعنا هناك أنباء مفرحة بأن مخيمنا قد شوهد أمامنا، وفي الساعة السادسة والربع كنا في ماحس أو داحس، أياً كان اسمها، شاعرين أن خيولنا سوف تموت إذا طلبنا منها أن تسير ميلاً آخر.

وكانت ماحس مكاناً رائعاً للتخييم، ولم يكن بالمستطاع دائماً التخييم بعيداً عن السكان. كان البغالة يتوقون توقاً شديداً للّبَن الخاثر الحامض، وغير ذلك من المنتجات الحضارية المترفة، كما أنني افتقدت اللبن أيضاً ولكن سحر المخيم المنعزل عوضني عما افتقدت. كان الليل ساكناً وصافياً وأوينا إلى صحن كنيسة مخرب، ونمنا نوماً مباركاً بعد ذاك الركوب الطويل.



١٤٤ - بوابة المعبد في باريشا

كانت هناك خربة أخرى كنتُ قد قررت زيارتها قبل أن أبرح الهضاب. كانت كنيسة قلب لوزة التي تبدو من الأوصاف التي وصفت بها البناء الأجمل (وهي فعلاً كذلك) بعد قلعة سمعان في كل شمال سوريا.

أرسلت حيوانات المتاع لتلتف عبر الوديان بتعليمات دقيقة، ولكن إعطاء الأوامر إلى فريز بأن لا يضيع الوقت ليس له فائدة. وانطلقنا أنا وميخائيل ونجيب عابرين على نحو مستعرض سلسلتين جبليتين هما جبل باريشا وجبل العلا. من الأفضل عادة تسلق الصخور على القدمين، ولكن أي إنسان يعرف قوة الحصان الرياضية ومرونته سوف يركب عبر جبل العلا إلى قلب لوزة.

لقد كنت أظن نفسي متضلعة على نحو مقبول بالموضوع، ولكني اكتشفت أن البعثة قد وسعت تجربتي إلى حد ليس بقليل، لقد ركبنا على خط مستقيم عبر هضبة صخرية غير محمولة إلى الغرب من ماحس حتى وصلنا إلى قمة جبل باريشا، كانت الأرض هنا مقطعة بالصخور، ولكن بين هذه الصخور ثمة أجمات زيتون صغيرة ومثلها من الكروم وحقول الذرة مبعثرة جميعاً هنا وهناك، كانت الزهور البرية تملأ كل زاوية وحفرة، فالسوسن الأزرق قد نشر براعمه الملونة تحت أكاليل كثيفة حلوة الرائحة. والهواء مشبع برائحة شجر الغار الأرجواني.

كان يسكن هذه الجنة فلاح مكفهر الوجه هو الأقل لطفاً وكلاماً بين بني البشر. وبعد مساومة شديدة غير ناجحة وضع ثمناً عالياً جداً لأي خدمة سوف يقدمها لنا، وقد كنا في قبضته وأجبرنا على الخضوع لشروطه. وافق أن يقودنا إلى قلب لوزة. هبط بنا جبل باريشا فوراً عبر ممر منحدر جداً قد شق بين الصخور، كان الطريق منحدراً جداً وضيقاً إلى درجة أننا وجدنا

صعوبة بأن نتنحى على جانبه لنفسح المرور لمجموعة من النساء كن يحملن حزماً من أغصان الغار. وفي قاع عنق الزجاجة المنحدر هذا ثمة واد عميق توجد بحيرة في إحدى نهايته.

وقد ارتفع فوقنا جبل العلا المكون من جدار من الصخور من المستحيل من وجهة نظري على الخيول أن تتسلقه، وأشار دليلنا الفلاح، واحد زمانه ـ وأنا سعيدة بعدم تذكري اسمه ـ بأن طريقنا يمر عبره، وأذعن نجيب وتبعته أنا بقلب هابط، كان الأمر لا يمكن وصفه، قفزنا وسقطنا على الصخور، وقفزتْ حيواناتنا وتعثرتْ مثلنا زاحفة على حافة جروف ضيقة حيث إذا سقطتْ من فوقها تكسرت كل عظامها عظمة عظمة. ورعتنا العناية الإلهية ووصلنا إلى منطقة جميلة مثل تلك التي تركناها على قمة جبل باريشا.

وعند مدخل بستان من الزيتون رجع دليلنا، وخلال دقائق قليلة وصلنا إلى قلب لوزة، لا أعرف فيما إذا كان هناك كثير من السكان المستوطنين حول كنيسة قلب لوزة فيما مضى من الزمان، فالآن لم يبق إلا القليل من المنازل التي تقف وحيدة تقريباً، وهي تقف بدون منافس تقريباً بين فنون الزخرفة السورية؛ الفسحات العريضة بين أعمدة الصحن، الواجهة البارزة مزينة بالأعمدة المعشقة، جمال الزخرفات التي لا تجارى ودقة النسب الملحوظة في كل جزء هي الملامح العامة التي تلفت نظر الملاحظ.

ولكن عندما يمعن النظر فسوف يعرف أن هذه ليست الكلمة الأخيرة في تاريخ فن البناء السوري التي تقال بعد عدة قرون من الممارسة، ولكنها هي أيضاً بداية فصل جديد من تطور فن البناء في العالم، إن الفن الروماني الجميل والبسيط قد ولد في سوريا، وقد يكون من الفضول أن نقدر التطورات

التي كان يمكن أن تصل إليها عبقرية هؤلاء المهندسين لو لم يوقفها الاجتياح العربي[١]، من المؤكد أننا أمام مدرسة مستقلة لبنّائين عظام ربما يكونون قد تأثروا بقوة بأنماط فنون البناء التقليدية، وربما على نحو أكثر من الشرق، ولكن في كل مكان نلاحظ تأكيدات لخصائص لا تخطئها العين، شجاعة مثلما هي واسعة الخيال ومرهفة، وثمة تعزية صغيرة في الفكرة القائلة إن قوة الخلق أو الإبداع الواضحة في آثار قلب لوزة لم تجد أبداً الوقت للولوج في مرحلة التدهور.

كنت قد سمعت أو قرأت أن ثمة بعض القرى الدرزية القليلة العدد تقطن في الجبال الغربية من قلب لوزة، وقد سكنتُ في هذه المنطقة بعد أن هاجرت من لبنان، وحيث إنني لم أثق بهم فقد نسيت وجودهم تقريباً.

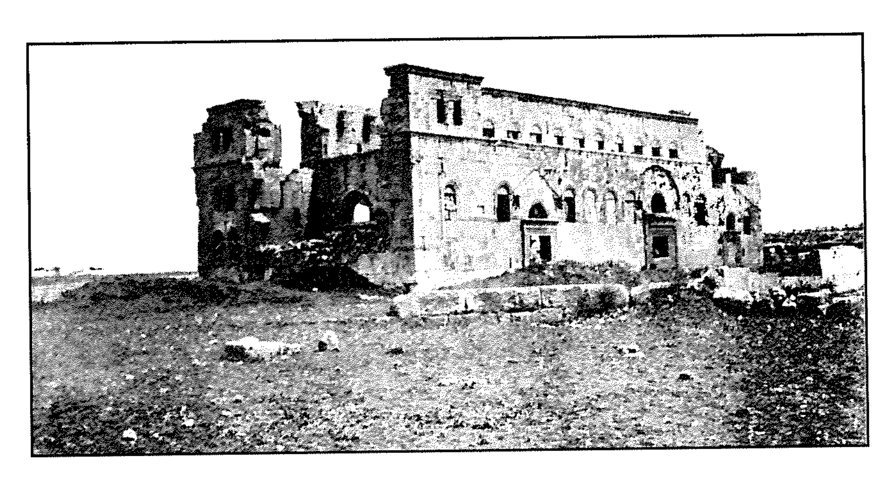
كان ثمة نصف دزينة من القبب قرب الكنيسة، وقد خرج سكانها من بيتهم لمشاهدتي وأنا أصور، لقد لفت نظري ـ ربما بدون وعي تقريباً ـ نظرة بدت معروفة جيداً من العيون المكحلة بالكحل الأسود، وسلوك مألوف على نمط معين قد يكون من الصعب تحديده ليصوغ ترابطه انطباعاً من اليسر والإلفة الصدوقة ممزوجة ربما بلمسة من المناصرة.

وعندما التحقت النسوة بجمع المتفرجين الصغير لفت نظري السلاسل الفضية والمشابك اللواتي يضعنها التي ذكرتني على نحو مبهم بأنني رأيت مثلها في مكان آخر.

---

(١) تريد المؤلفة دائماً أن تُشعِر القارئ أن الفتح العربي لبلاد الشام كان بمثابة كارثة حضارية، إن وجود الأوابد الإسلامية في كل مكان من العالم العربي وفي إسبانيا والبرتغال وعظمة الفن المعماري المطبق فيه يدحض أقوال المؤلفة. (المترجم)

وبينما كنا نتهيأ للذهاب تقدم منا رجل مسن، وعرض أن يسير معنا لمدة ساعة قائلاً بأن الطريق الهابط إلى حارم ليس من السهل التعرف إليه. ولم نكن قد سرنا سوياً أكثر من خمسين يرداً حتى عرفت معنى إدراكي في اللاوعي.



١٤٥ ـ قلب لوزة

قلت: «ما شاء الله، أنتم دروز».

وتلفت الرجل حوله بقلق نحو نجيب وميخائيل اللذين كانا يمشيان قريباً في أعقابنا، وأحنى رأسه وسار بدون أن ينبس.

قلت: «لا تخف، الجندي وخادمي كَتُومان».

فسكن روعه وقال: «نحن قلة في هذه الجبال، ونحن نخشى المحمديين، ونخفي عنهم أننا دروز، وإلا فإنهم سوف يطردوننا من المنطقة. نحن لسنا أكثر من مئتي بيت هنا».

قلت: «كنت آمل أن أعثر عليكم، لقد تعرفت على المشايخ في حوران، وقد رأيت الكثير من لطفهم، ولذلك فأنا أريد أن أحيي كل الدروز حيثما قابلتهم».

قال: «الله، هل تعرفت على الطرشان؟»

قلت: «بالله!».

«شبلي وأخوه يحيى؟»

«لقد تعرفت على يحيى أما شبلي فقد مات»

صرخ «مات! يا الله شبلي مات!».

وبنفس الأسلوب انتزع مني كل أخبار الجبل، وأصغى باهتمام خفي لكل الحكايا التي لم أفكر أن أجد أذناً تريد السماع بعيداً عن صلخد. وفجأة توقف عن إلقاء الأسئلة وابتعد عن الطريق باتجاه كرم عنب، كان فيه شاب يقلم أشجاره.

صرخ «آهٍ يا ولدي، شبلي الأطرش مات، أعرني حذاءك؛ لأنني قد أسير مع السيدة، إلى حارم، لأن حذائي ممزق».

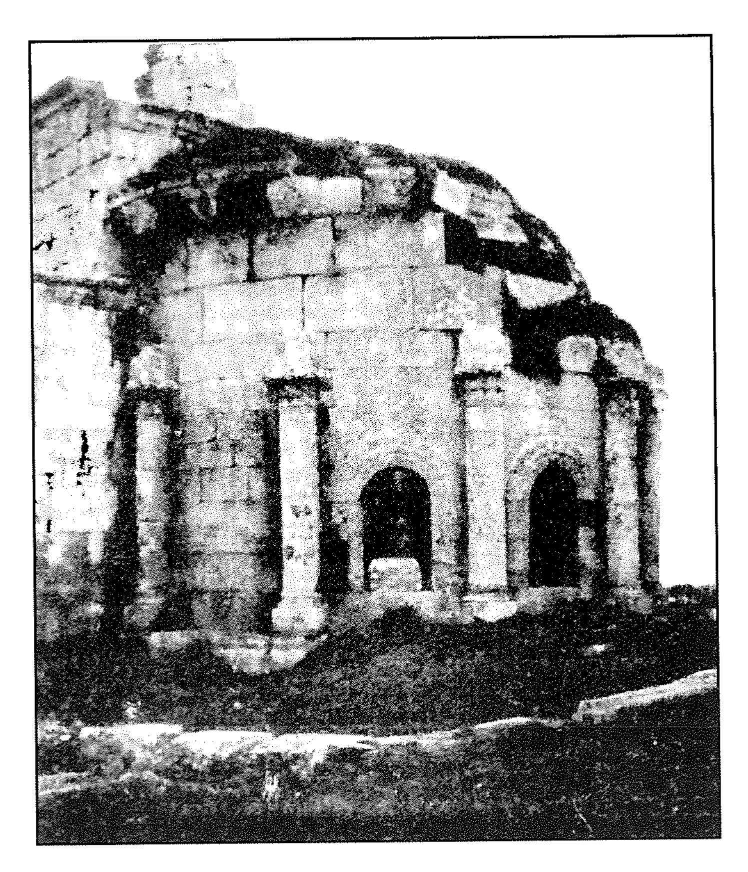
وأتى الشاب واقترب منا وهو يخلع حذاءه ذا الوجه الأحمر.

قال: «إنا لله، لقد شاهدت شبلي منذ سنة فحسب»

ورويتُ له الأخبار بالتفصيل.

وسرنا على طول قمم الجبل الصخرية مندفعين عبر أزهار الغار الأرجوانية التي نمت على نحو رائع وغزير، ونتحدث بينما كنا نسير كما لو كنا صديقين قديمين لم يشاهدا بعضهما منذ وقت طويل. وعندما وصلنا إلى قمم

جبل العلا ونظرنا إلى حارم وهي ممتدة تحتنا أصررتُ على رفيقي أن يوفر على نفسه مشقة السير مسافة أبعد، ووافق بعد معارضة شديدة على العودة، ووقف يمطرني بالدعوات المباركة لمدة خمس دقائق قبل أن يقول لي مع السلامة، ثم التفت نحونا مرة ثانية ليتأكد من أننا نسير في الطريق الصحيح.



١٤٦ ـ الواجهة البارزة في قلب لوزة

قال: «عندما تأتين في المرة القادمة إلى جبل العلا يجب أن تأتي بمخيمك إلى قلب لوزة، وتقيمي شهراً على الأقل، وسوف نقدم لك كل ما تحتاجينه

ونريك كل الخرب، والآن نرجو الله أن تسافري بسلامة وأمان، وأن تعودي بالسلامة والصحة في السنة القادمة.».

قلت: «ليطيل الله عمرك ويسلمك».

وافترقنا وقد تدفأ قلبي بالحب لشعبه الذي ليس من الصعب أبداً أن يجيش به. قد يكونون قساة في الحرب، والدليل ضدهم في هذا المجال ساحق، والبعض يؤكد أنهم غدارون، وآخرون يرونهم طماعين، ولكنني عندما أرى درزياً لا أتردد أبداً بأن أحييه كصديق، ولن تتغير ثقتي بهم حتى يثبت لي ما يؤكد العكس.

يقع حصن حارم على تل في مدخل خانق منخفض يشكل مدخلاً لجبل العلا، وإلى الخلف منها يقع سهل العاصي العظيم، وقسم كبير من السهل الشمالي واقع تحت الماء، والمستنقع الذي يطلق عليه السوريون اسم البحرة قد امتد حتى أقصاه بسبب الأمطار الأخيرة. وانعطفنا من حارم باتجاه الجنوب سائرين على طول سفوح منحدرات جبل العلا إلى سلقين، وهي مسيرة لا تنسى؛ بسبب الجمال الفائق للأرض التي مررنا بها، والتي لم أشاهد ما يعادلها خصباً في جميع أنحاء سوريا.

وقد تقاسمت كروم الزيتون واللوز الأرض الخصبة مع الشعير والشوفان، وتشابكت على حواف الطريق على نحو كثيف نباتات الوزال والرتم والغار والعليق، وتحت كل بقعة مشمسة كنت ترى أعواد السوسن الأزرق.

وتقع سلقين نفسها في واد كثير الأشجار بين أعداد لا حصر لها من شجر الزيتون الذي يمتد عدة أميال حتى طرف العاصي تقريباً.

وترجلنا عن خيولنا قبل أن نصل إلى البلدة في بقعة مكشوفة بين حدائق الزيتون، كانت الساعة حوالي الخامسة، ولكن فريز لم يكن قد وصل بعد. ورتبنا وضعنا على نحو مريح تحت الأشجار بانتظاره. وأثار مجيئُنا بعض الإثارة بين السكان الذين كانوا يجلسون على العشب يتمتعون بالمساء الهادئ.

وبعد قليل جاء رجل ـ كان في الواضح يتمتع باعتبار خاص ـ مسرعاً نحونا، وكان بصحبته خادم، وقد دعاني للاستراحة في منزله، كان رجلاً مهيباً، ومع أنه كان في منتصف العمر فإن محياه كان مريحاً، وقد قبلتُ دعوته ظانّة أنه يمكن بوساطته أن أتعرف على سلقين أكثر.

يجب أن تتمسك دائماً بالفرص التي تتيح لك توسيع دائرة معارفك وبشكل خاص في البلاد الأجنبية.

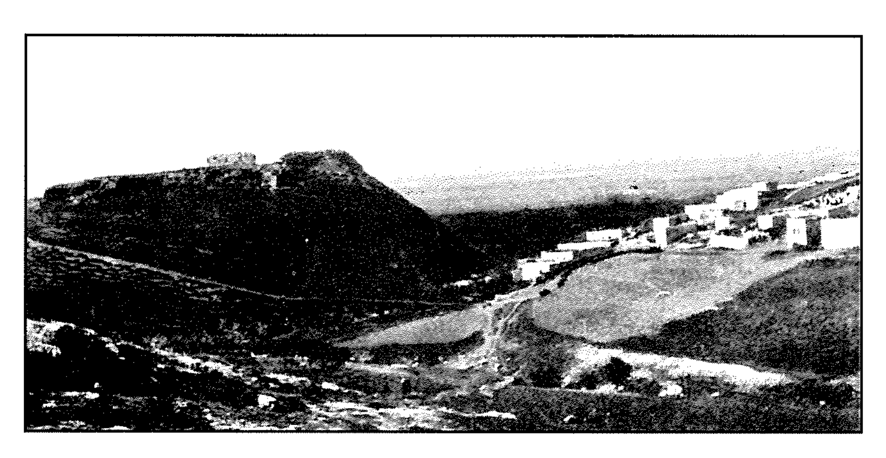
اكتشفت سريعاً أنني وقعت في قبضة أغنى رجل في البلدة، وهو محمد علي آغا بن رستم آغا، شركسي الأصل، الذي كان خادماً عند عائلة كيخيا زاده الهمدانية الشركسية الشهيرة. (هكذا ينطق الاسم في اللغة العربية، أما في الفارسية فينطق كتخدا زاده). وقد هاجرتْ أسرة كيخيا زاده إلى حلب منذ قرنين، وبوساطة المعاملات التجارية والإجراءات المألوفة عند الشراكسة أصبحوا أغنياء جداً، وهم الآن من أقوى الأسر الحلبية.

وقد شاركهم خدمهم بالنجاح، واستطاع رستم آغا بحرصه أن يوفر مقداراً مناسباً من المال لشراء أرض في سلقين بجوار أراضي سادته في وادي العاصي، وخدمه الحظ إذ زوج ابنه من إحدى بنات الكيخيا، ولم أعلم كل هذه التفاصيل فوراً. وقد دهشتُ عندما كنت أزور حريم محمد علي عندما لاحظت المعاملة الخاصة المختلفة التي يعامل بها زوجته، متعجبة ومتسائلة

لماذا تُعامل هذه السيدة الصغيرة الحادة الملامح، البراقة العينين، التي لم تنجب لزوجها ذكوراً، من قِبَل زوجها بمثل هذا الاحترام، لأنني لم أكن أعرف آنئذن أنها أخت رشيد آغا كيخيا زاده. ليس لمحمد علي سوى بنت واحدة في السادسة من عمرها، ورغم أنها من جنس غير مفيد فإنها قرة عين أبيها.

وحدثني طويلاً عن تعليمها وإمكاناتها بينما كنت آكل أفضل أنواع الزيتون، ومربى الكرز الذي وضعتْه مدبرة المنزل أمامي، وتواضعتْ الخانم جداً فصنعت القهوة بيديها، وعبرت عن إعجابها بقبعة اللباد البالية المرمية بجانبي على الأريكة والمغطاة نسبياً بقماشها الأرجواني والفضي.

قالت: «إيه.. القبعة الأوربية الجميلة! أتضعين فوقها منديلاً بينما هي جميلة جداً هكذا؟».



١٤٧ ـ سلقين

وجرَّدتُها من غطائها الحريري والمراس المصنوع من وبر الجمال ووضعتها بشكلها العادي الرزي فوق جدائل شعر ابنتها الأسود.

وأعلنتْ أنها أجمل غطاء للرأس في العالم.

في الساعة السادسة مساء وصلت أخبار تقول إن حيوانات المتاع قد وصلت، ولكن قبل أن يسمح لي بالعودة إلى مخيمي كان عليّ أن أزور رستم آغا، كان مستلقياً فوق فراش كوِّم فوقه أغطية حريرية محشوة بالصوف في غرفة علوية تطل على جدول سريع جميل، والسروتان الكبيرتان القديمتان اللتان تضيفان منظراً رائعاً إلى سلقين، وهما تقفان كحارسين أسودين طويلين أمام بوابة المنزل الذي يعد الأول والأكبر في شارع البلدة الملتوي.

كان رستم آغا مسناً جداً ومريضاً جداً، كان وجهه شاحباً يشبه وجه جيفة فوق الأغطية الحريرية الصفراء الباهتة، وبدا وكأنه مسرور من زيارتي، على أنه عندما فتح شفتيه لتحيتي اجتاحته نوبة سعال شديدة إلى درجة شعرتُ وكأن روحه تريد أن تخرج من جسده، وما أن هدأ سعاله حتى سألني عن آخر أنباء الحرب الروسية اليابانية.

وقد عجبتُ بأن شخصاً مثله يقف على حافة قبره لديه الأناة للاهتمام بأي شيء يتعلق بنا، وسواء استطعنا أن نرى الكانز المتكئ يعرج بمنجله بين شجرتي السرو أمام الباب أم لم نستطع(١) .

بينما كنت جالسة أتناول طعام العشاء في خيمتي جاء خادمان من عند محمد علي ودخلا وهما يتهاديان إلى خيمتي يحملان جرة كبيرة من زيتون سلقين تم حفظه بزيت من نتاجها.

كما أنهما قدما سؤالاً من سيدهما يسأل فيما إذا كان يستطيع أن يأتي ليقضي ساعة معي، فأرسلتُ من جهتي رسالة جوابية أقول فيها: إن هذا مما يشرفني. وظهر بعد قليل مع مرافق أو مرافقين من أجل حمل نرجيلته، وجلس

(١) لعل هذا مثل إنكليزي يضرب لمن يهتم بأمور بعيدة جداً عن تناوله. (المترجم)

موطِّنا نفسه على محادثة مريحة وسط قرقرة الماء في زجاجة النرجيلة. (صوت مهدئ ومحبب يتخلل الحديث). وقد أخبرني أن سلقين كانت واحدة من المدن السلوقية وأن بانيها هو سليقوس الأول، وتعد كمَصْيَف في الصيف لأهل إنطاكية، وأن البقعة التي أخيم فيها، والبساتين المحيطة بها هي موقع المدينة السلوقية، «وكلما أردنا أن نحفر قبراً نخرج أحجاراً منقوشة وأحياناً مكتوبة».

«يبدو ليس من غير الطبيعي أن يتخذ سكان إنطاكية من هذا السهل الخصيب منتجعاً ومقراً لمنازل الضواحي، ولكنني لم أعثر على أي دليل يؤكد هذا القول». وقال أيضاً: إن نسيبه رشيد آغا يقيم عنده، وقد عبّر عن أمله أن أزوره في الغد قبل أن أسافر.

إذا كان رشيد آغا هو القطب الرئيسي في الناحية فهو أيضاً الشرير الرئيسي فيها. وجدته في الصباح الباكر جالساً تحت السروتين بجانب الجدول المزبد، أكثر الوجوه تعبيراً عن اللؤم في أحلى جلسة تحت أجمل شمس في وضع ليس من السهل تصوره، كان طويل القامة، متغطرس



١٤٨ ـ سلقين

السلوك وتخفي جبهته الضيقة عالماً من الأفكار الشريرة، ونظراته شزراء مفزعة، وتغمغم شفتاه المكتنزتان الشهوانيتان متحدثة عن المفاخر العبثية مع مزيج الأوامر التي تشكل قوام حديثه. كان قد لف نفسه بثوب حريري باهت اللون وجلس يدخن النرجيلة بنربيج قد حلي فمه بالمجوهرات. وإلى جانبه باقة من أزهار الربيع كان يشمها ما بين فترة وأخرى أثناء الحديث ثم قدم أفضلها إلى شخصي الكريم. وهو واحد من امتيازات الرحالة غير المسؤولة حيث لا يستطيع أن يتجنب أو يتحاشى زيارة مجموعة من الأوغاد.

وعندما وجدت أن صديقي محمد علي سوف يرافق رشيد آغا إلى بيت الأخير في قرية العينة، وأن هذه تقع على طريقي وافقت على اقتراحهم بأننا يمكن أن ننطلق سوية، وأخرجت الخيول وركبنا تحت شجرتي السرو وهدبنا عبر كروم الزيتون باتجاه وادي العاصي.

كان رشيد آغا يركب فرساً عربياً رائعاً، كان جلده يلمع نتيجة للتنظيف الذي تلقاه. وقد لجم على نحو لطيف، كانت رشمته من الفضة ولجامه مرصع بزخارف فضية، وكل حركة من حركاته متعة للناظرين، وكان صاحبه يناشد على نحو متكرر محمد علي الذي كان يعدو على بغلته الجميلة على نحو خفيف مشاركته الإعجاب بفرسه.

وكان محمد علي يلقي بخنوع كلمات الإعجاب المطلوبة، وكانت كلماته يؤمن عليها من قبل رجل بدين عجوز كان يركب معنا حصاناً صغيراً هزيلاً. كان المهرج المتملق الذي يعمل في خدمة رشيد آغا، قواداً ومتستراً على رذائله وجرائمه، لقد وقعت بين هذه المرافقة الغريبة في ذلك الصباح من نيسان، وقد هدب الحاج نجيب فرسه بحيث يكون على بعد كاف خلفنا، أما ميخائيل الذي كان إحساسه بالمسؤولية والخصوصية أكبر فلم يستطع أن يخفي عدم استحسانه وكان يجاوب بكلمة واحدة عندما كان يخاطبه القواد أو رشيد آغا،

مع أنه كان يتحدث باسترخاء مع محمد علي الذي كان يعتبره من طينة أخرى (بحق). وسرنا حوالي ساعة في أرض ربيعية ناعمة وكان رشيد يشير إلى جَمال ممتلكاته بينما كنا نسير.

قال: «كل كروم الزيتون هذه ملكي، بالله وبمحمد رسول الله لا يوجد مثل هذا الزيتون على سطح الأرض، في كل سنة آتي من حلب لأشرف على جني محصولي لئلا يسرقه الفلاحون الأنذال الذين يعملون عندي لعنهم الله. ولذلك فقد بنيت لنفسي منزلاً في العينة ـ يعلم الله، إن الإنسان يجب أن يؤمن لنفسه حياة لائقة ومريحة. ولكن يجب أن تشاهدي البيت، يجب أن تأكلي زادي فمائدتي مفتوحة دائماً للزائرين، وقد زرعت حول المنزل حقولاً من شجر التوت، عشرة آلاف شجرة فتية، زرعتها في السنين الخمس الماضية. سوف أقيم مصنعاً لإنتاج الحرير بكميات كبيرة بعون الله. يا يوسف أري السيدة علب بيض دود القز التي أتينا بها من فرنسا».



١٤٩ ـ رحالة

وأخرج المهرج علبة صغيرة من صدره ممهورة بخاتم المربي الفرنسي، ولكن قبل أن أتمكن من إظهار احترامي لصناعة الآغا استرعى انتباهه بعض الفلاحين الذين كانوا يقلِّمون أشجار الزيتون على نمط رآه غير مناسب، فنخس فرسه باتجاههم ممطراً بنفس الوقت وابلاً من التجديف واللعنات على الفلاحين المساكين، ثم عاد بعد ذلك ليستأنف حديثه عن قوته إلى جانبي.

كان المنزل كبيراً وجديداً، مفروشاً كله بالسجاد الطويل التيلة المترف، والمرايا ذوات الأطر الذهبية، ولم يكن يسر الآغا مثل إظهار إعجابي بكل زاوية من زوايا المنزل، وقد قدم لي المهرج القدوة في اختيار تعابير الحمد والتهاني. وقد استنتجت من جهتي أنني دعيت بشكل رئيسي من قبله من أجل التحقق من جمال ومزايا المدافئ الحديدية التي كانت بارزة في كل غرفة من أجل إضافة بهاء للبناء وراحة لقاطنيه.

وبعد أن انتهينا من التجوال في أرجاء المنزل جلسنا في إحدى الغرف على أريكة بانتظار الغداء، وفي أثناء ذلك أخذ يحدثني بسخط شديد عن نضاله ضد استبداد وفساد موظفي الحكومة التي يعيش في ظلها، ولكنه لم يذكر أن ما يعاني منه من أولئك الفاسدين فوقه يعاني منه الفقراء المساكين الذين يعيشون تحت إمرته.

دمدم: «بالله، لقد رأيتِ عملي في كروم زيتوني، ورأيتِ لِمَ غرستُ شجر التوت، وكيف جلبتُ بيوض دود القز من أقاصي الأرض من أجل أن أقيم تجارة جديدة في العينة، هل قال الوالي شكراً؟ لا.. والنبي.. لقد أرسل رجاله قالوا: توقف حتى نعرف مقدار الضريبة التي سوف نفرضها عليك، وعندما قررتُ أن أبني طاحونة على النهر من أجل طحن قمحي، قالوا: توقف إنه غير

قانوني، ثم استدعوني في وسط جني الموسم، فركبت سريعاً إلى حلب، وجعلوني أنتظر يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ومنعوني من مغادرة المدينة.. وبالله!!!.. صرخ الآغا ضارباً بقبضة يده على طاولة صغيرة مرصعة أمامه، (أريكتهم) ذهبتُ إلى القاضي وقلت: من أصدر الأمر؟. قال: الوالي.. ثم ذهبتُ إلى الوالي وقلت: من أي جهة صدر الأمر!.. فأجاب: لا أعرف، ربما من القاضي!. فطلبتُ منهم كتابة ذلك خطياً، ولكنهم لم يجرؤوا، وهكذا تركوني أمضي».

في وسط هذه الحكايا أعلن عن وصول ثلاثة زائرين. وجلسوا في مكان محترم على الأريكة المقابلة مسوقين أنفسهم بالتحيات وملحقاتها، واستقبلهم الآغا كما يستقبل الإمبراطور رعاياه، واستغل أحدهم الفرصة وقال هامساً بصوت مسموع من الجميع.

«أنت ترين أي رجل هو الآغا؟ هو أشبه بملك في هذه المنطقة» وأصبح الآغا أكثر زهواً وابتهاجاً.

وجلسنا أخيراً إلى مائدة مفعمة بأطايب أشهى المآكل السورية اللذيذة. ونادرة المطابخ التي تستطيع أن تنافس المطبخ السوري. وأكل الآغا وتحدث بنفس الشهية مقدّماً بإلحاح طبقاً إثر آخر لضيوفه. وعندما كانت الوليمة في أوجها قدم خادم وقال إن ثمة فلاحاً يريد أن يقابله.

قال الآغا على نحو غير مبال: «دعه يدخل».

وظهر الفلاح يرتدي أثمالاً في الباب بعينين نصف حزينتين، نصف خائفتين من الجماعة ومن وفرة الأطعمة اللذيذة.

«السلام عليكم يا آغا».. بدأ حديثه.

وما أن شاهد الآغا الفلاح المسكين المتضرع حتى نهض على قدميه غاضباً جداً وأحمر وجهه وبدا وكأن عينيه سوف تخرج من محجريهما من الغضب وضرب بقبضة يده المطبقة على المنضدة وصرخ..

«انقلع، الله يلعنك ويلعن سلالتك، ويخرب بيت أبوك.. أقول لك انقلع واجلب المال، أو سوف أرسلك إلى السجن أنت وزوجتك وعائلتك، وسوف تبقى هناك حتى تموت».

قال الرجل بإجلال في مواجهة الآغا الغاضب «يا آغا قليلاً من الوقت، أعطني قليلاً من الوقت».

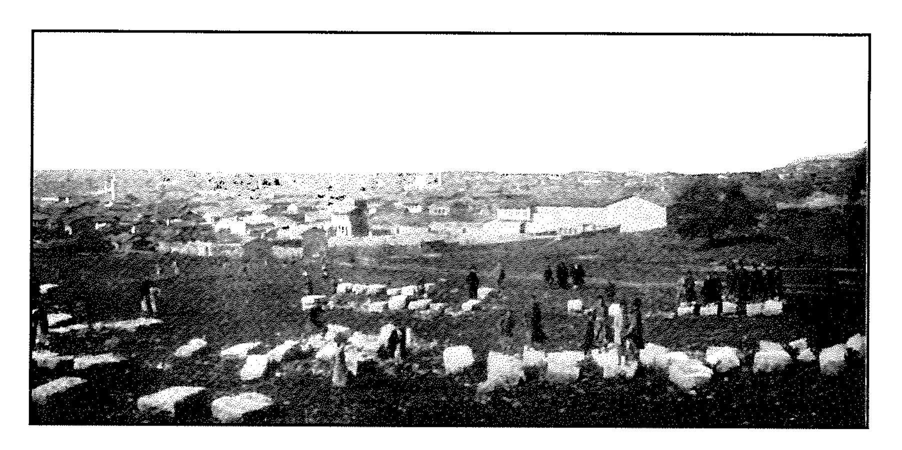
قال الآغا: «ولا يوم، ولا ساعة! انقلع.. روح اليوم،هذه الليلة يجب أن تأتيني بالنقود».

واختفى الفلاح من الباب بدون أي كلمة.. وجلس الآغا على مقعده واستأنف حديثه الذي كان قد قطعه وطعامه، وأكل بقية الضيوف وكأن شيئاً لم يكن، أما أنا فشعرتُ قليلاً بالخجل؛ بسبب وجودي إلى جانب رشيد آغا، ولم أشعر بالأسف عندما طلبتُ منه السماح لي بالرحيل.

وأرسلَنا الآغا إلى شط النهر وهناك أركبَنا بقاربه من أجل عبور العاصي، وعندما وصلنا إلى الضفة الأخرى أخرج ميخائيل على نحو ملفت للنظر كسرة من الخبز من حقيبته وأخذ يأكلها.

قلت: «أنت لم تأكل عند الآغا؟».

أجاب ميخائيل على نحو قاس: «أنا لا آكل عند شخص مثله».



١٥٠ ـ إنطاكية

عند ذلك قال نجيب ـ الأقل مشاكسة من ميخائيل، والذي لم يكن موسوساً ليكبح نفسه عن وليمة مترفة ـ على نحو غير مألوف هازاً رأسه:

«الآغا رجل شرير، الله يجازيه على أعماله، إنه يعتصر الفقراء العاملين عنده حتى آخر متليك، ويطردهم من منازلهم ليتضوروا جوعاً».

قال ميخائيل بتجهم: «وأسوأ من ذلك».

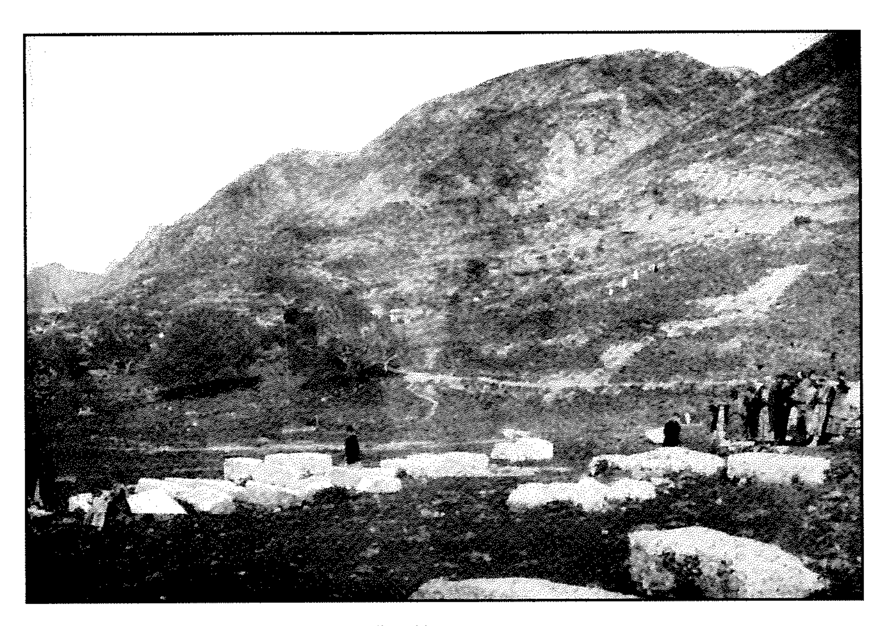
قال نجيب: «بالله، كل رجل عنده زوجة أو ابنة جميلة يظل في خوف وقلق منه، لأنه لا يستريح حتى تصبح المرأة في أحضانه، بالله وبمحمد رسول الله لقد قتل أكثر من رجل من أجل الاستيلاء على حرمته، وما من أحد مكروه مثله».

قلت: «ألا يناله القانون»؟.

قال نجيب: «من سيعاقبه؟ إنه غني، الله يخرب بيته».

قلت أنا ونحن نتلمس طريقنا بين الحقول الموحلة: «آه.. يا ميخائيل لقد

تجولتُ كثيراً في بلادكم، وتعرفت على العديد من الناس، ولم أتعرف على فقير إلا ووجدت أنني أستطيع أن أختاره كصديق، ولم أتعرف على غني دون أن يلازمني شعور الرغبة بتجنبه.. والآن كيف يحدث هذا؟ هل تفسد الثروة قلوب الناس في سوريا؟. لاحظ.. في بلادي ليس كل الأغنياء طيبين، ولكنهم ليسوا جميعاً أشراراً، وأريد أن أسألك هل ستصبح أنت ودروز قلب لوزة وموسى الكردي أشراراً مثل رشيد آغا إذا أصبحتم أغنياء؟



١٥٠ - إنطاكية

قال ميخائيل: «آه.. يا سيدتي قلوب الناس متشابهة؟! في بلادكم الحكومة عادلة وقوية، وكل إنكليزي يجب أن يمتثل للقانون حتى الأغنياء، بينما لا يوجد عدالة في بلادنا.. الكبير يأكل الصغير، والصغير يأكل الأصغر، والحكومة تأكل الجميع، وجميعنا نعاني من بعضنا وندعو الله أن يساعدنا، ولكن أنا لم آكل من خبز رشيد آغا على الأقل».

لخص ميخائيل مجمل كلامه، وعند هذه النقطة لوينا رأسينا أنا ونجيب، ثم تبع ذلك خمس ساعات من أسوأ مراحل السفر.

وقد تكون عقوبة لي ولنجيب لأكلِنا على مائدة رجل شرير، ولكن معظم العقوبات الإلهية لا تقع على رأس المسيء فحسب، وإنما تطال غير المذنب أيضاً، إذ عانى ميخائيل مثل ما عانينا، ومثلما عانينا قبل يومين من الصخور عانينا اليوم من الوحل، فالعذاب كان أقسى بألف مرة، لخمس ساعات عبرنا تلالاً من التراب ليس فيها حجرة واحدة، إنما وحل كثيف على المنحدرات، فإذا هبطنا منها نزلنا إلى أراض سبخية عميقة حيث كانت خيولنا تغوص حتى الحزام، وعندما خرجنا من هذا المستنقع في وادي العاصي كان الإنسان والخيل قد استُنزِفوا نهائياً.

وتابعنا المسير، ولكن الأرض المرتفعة التي تركناها قد ارتفعت الآن فأصبحت حوافاً صخرية وقمماً مسننة. كان الوادي العريض يقع على يميننا الآن وهو طاف بالماء، وإلى الخلف منه تقع سلسلة الجبال الرائعة، ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا الأبراج والأسوار البيزنطية تتوج السلسلة الجبلية إلى يسارنا.

وسارت خيولنا متعثرة بين فسحات مزهرة على طول الرصيف الروماني المخرب الذي يؤدي إلى إنطاكية، وكان الطريق يتقطع كثيراً بروافد نهر العاصي التي كانت تجري بجزل فوق الرصيف.

وقد كان من المثير بعض الشيء أن تتملى عيناي بإنطاكية التي كانت ولعدة قرون مهداً للفن، وموقعاً من أهم المواقع المدنية الرائعة التي عرفها العالم، تشبه إنطاكية الحديثة سروالاً واسعاً جداً على ساقين هزيلين، فجدران القلعة التي تتسلق الصخر، والهضبة تحيط بمسافة واسعة من الأرض بينما تقع البلدة المنكمشة بعيدة عنها.

ولكنها مازالت من أجمل بقع الأرض بهضابها العظيمة المسننة خلفها، متوجة بالأسوار، وسقوفها الحمراء المتعنقدة تمتد إلى الأسفل حتى وادي العاصي الخصيب، وقد قلبت الزلازل مع فيضانات النهر المتغيرة وطمرت بالطمي القصور الإغريقية والمدينة الرومانية، وعرفتُ وأنا أقف عند غروب الشمس



١٥١ ـ إنطاكية، على شاطئ نهر العاصي

على منحدر المقبرة النصيرية المغطاة بالأعشاب تحت تلة سيلبيوس حيث كان قد نصب مخيمي ورأيتُ الأسقف الحمراء تحت هلال القمر، وعرفت أن ذلك الجمال هو جمال إنطاكية الخالد.



الفصل الرابع عشر :

لم يهدم التعرف أكثر على إنطاكية انطباع المساء الأول، فكلما تجولت في شوارعها وساحاتها الضيقة أكثر بدت أكثر روعة، وفيما عدا الشارع الرئيسي حيث يوجد السوق فإنها خالية تقريباً، وقد شقت خطواتي طريقها على الرصيف المرصوف بالحصى التي حطمها السير عبر سنين من الصمت.

وقد أضفى الجملون الرقيق المغطى بالقرميد وشرفات الشعريات البارزة على الشارع من بيت إلى بيت سحراً لا يقاوم، ولا يوجد أي أثر من الماضي. وثمة ناووس حجري مزخرف بلفافات وأكاليل زهور مع تزيينات لأُسود ـ من طراز آسيوي كما أتصور ـ تلتهم ثيراناً ضخمة موضوع في دار الحكومة، وناووس آخر مشابه لذاك ولكنه أصغر وأقل دقة موجود بجانب طريق دفنه، كما شاهدت حطام سطح مقام على أعمدة في باحة منزل تركي، وحطام جدار في شارع رئيسي من المؤكد أنه يعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي، ويشبه تناوب القرميد والحجارة طبقات في بنائه ذلك الموجود في قلعة إغريقية.

أما إنطاكية سلوقس نيكاتور فهي مجرد مدينة خالية لأن الجزيرة التي بنيت فوقها قد اختفت بسبب تغير سير النهر، ولكن الأماكن التقليدية فيها موجودة في أعلى المدينة الحديثة، ولابد أن شواطئ العاصي كانت مزدانة بالدارات الفخمة.

وقيل: إن قواعد هذه الدارات تظهر كلما حفروا عميقاً في الطمي، ويتم اكتشاف أشياء صغيرة قيمة، مثل بعض العملات الذهبية أو البرونزية حيثما

نبشت الأرض، وقد جلبوا لي عدداً منها للبيع، ولكني تبينت أنها مزيفة على نحو غير متقن. وقد أكد رأيي هذا الباشا التركي رفعت آغا الذي يقضي أوقات فراغه بجمع العاديات الأثرية.

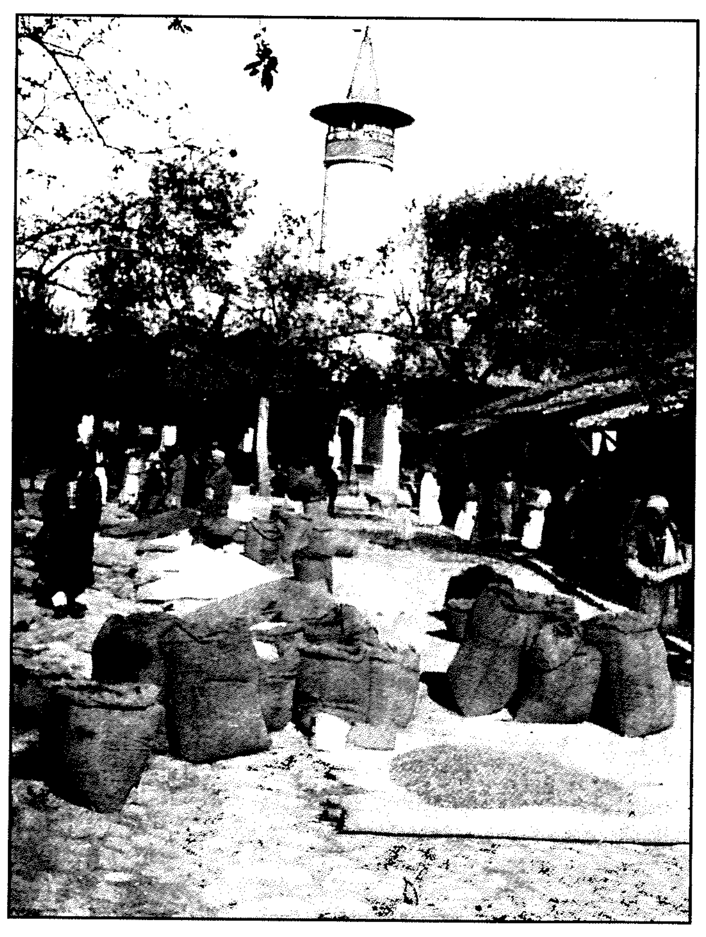
وفي حوزته مجموعة رائعة من العملات السلوقية، والأقدم منها جيدة مثل أفضل العملات السيسيلية، والحديثة منها سيئة مثل أسوأ العملات البيزنطية، وبعض المصابيح البرونزية، وكان أحد هذه المصابيح على شكل رأس إله الحب الإغريقي المجعد الشعر، وهو نموذج جميل للأعمال الرومانية.

وقد أهداني الآغا سراجاً برأس صغير الذي عدّه نموذجاً للرؤوس الإنطاكية ذات التاج العالي، ومع أنه على نحو غير متقن فإن له بعض الخصوصية المتميزة مأخوذة عن نموذج أصلي عظيم.

قبل أربعين عاماً كانت أسوار وأبراج القلعة الإغريقية ما تزال سليمة تقريباً، وهي الآن مخربة كلياً تقريباً، وقد قال سكان إنطاكية: إن المدينة تتعرض للزلازل فتخربها حتى أساساتها كل نصف قرن، وإنهم الآن يتوقعون زلزالاً يقلبها رأساً على عقب؛ لأن آخر زلزال فيها قد حدث عام / ١٨٦٢ / ٠ والحقيقة إن ازدهار المدينة قام على أنقاض القلعة وتخريبها لأخذ حجارتها، واتهام الزلزال بهدمها غير صحيح.

والمدينة واقعة على نحو رائع بواد غني وترتبط بميناء إسكندرون بطريق جيد جميل، ومن الممكن أن تصبح مركزاً تجارياً ضخماً بسهولة، وقد نمت حتى تحت الحكم التركي على نحو معتبر في الخمسين سنة الأخيرة حتى وصلت إلى القلعة اليونانية.

لا يردع الشرقي من أجل أن يجنب نفسه مصاعب اقتلاع الأحجار من المحاجر أي رادع، ولذلك فقد نقلت معظم أحجار القلعة المنحوتة من أعلى التل واستخدمت في أعمال البناء المختلفة، ويلاحظ أن كل البيوت الحديثة قد أخذت موادها من القلعة اليونانية، وأعمال الهدم مستمرة فالواجهات الحجرية قد أخذت من الأسوار بحيث لم يبق إلا الدبش والملاط الذي يتلاشى بسرعة بسبب العوامل الطبيعية.



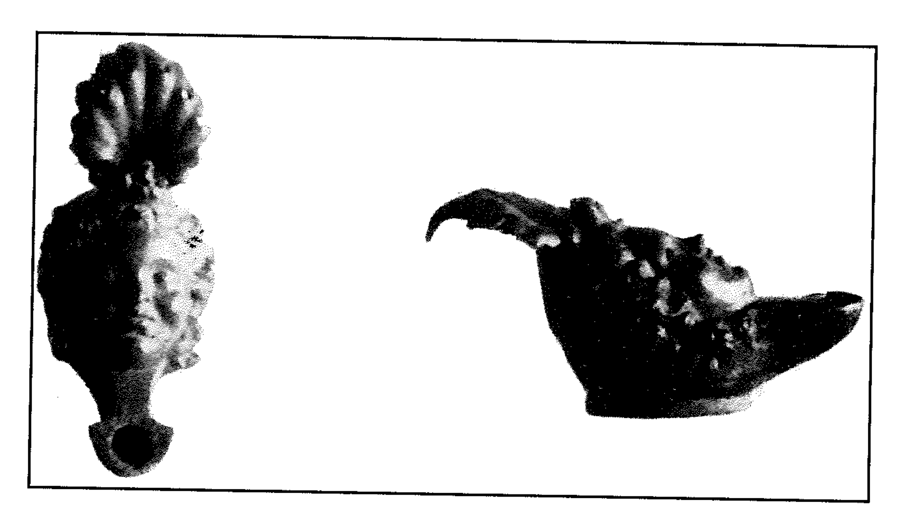
١٥٢ - إنطاكية - سوق الحبوب

وقد عملتُ جولة في القلعة ذات صباح فأخذتْ معي ثلاث ساعات، هناك إلى الغرب من قمة تل سيلبيوس شق صخري يسم جانب التل، وهو مليء بقبور صخرية منحوتة، كما أن ثمة قناة قديمة لجر المياه تجتازه، وهي تقع مباشرة فوق مخيمي، وإلى يسار الشق يهبط خط السور بصخور شديدة الانحدار حتى الوادي، وحيثما وجدت شظايا باقية من السور يلاحظ بوضوح أنه قد تم استبدال عصائب القرميد بالواجهة الحجرية.

وفي بعض الطبقات يلاحظ أحياناً أن الحجارة تتنوع على نحو تختلط فيه الحجارة الصغيرة مع الحجارة الكبيرة، وتحيط الأسوار بمساحة كبيرة من الأرض، ويسير القسم العلوي على منحدرات لطيفة مغطاة بالأعشاب والقواعد المحطمة حتى يصل إلى قمة الهضبة. ويوجد في السور الغربي باب حجري ضخم ضيق له أسكفة من الحجارة المتصلة وفوقه قوس محلى بارز. والسور الشمالي مهدم بجانب الأبراج. والحصن الرئيسي يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، وتهبط الأسوار من هذه الجهة بانحدار شديد مرة أخرى باتجاه المدينة وتمر على مسافة إلى الشرق منها.

ومن الممكن تتبع بقايا آثارها حتى العاصي فيما أعتقد، ولم أتعقب شخصياً سيرها، ولكنني هبطت من الحصن عبر ممر صخري في خانق عميق تم قطعه عبر الجهة الشرقية للهضبة، وقد دعم هذا الخانق الضيق بجدار قوي من القرميد والحجارة ويدعونه في إنطاكية باسم بوابة الحديد، وإلى الخلف منه تصعد التحصينات إلى الجهة المقابلة من المسيل وتستمر بالصعود على طول قمة الهضبة.

ولا أعلم مقدار مسافة امتدادها فالأرض وعرة جداً وممتلئة بالأعشاب والأشواك العالية إلى درجة هبط قلبي معها، وعدت أدراجي، ولاحظت وجود



١٥٣ ـ مصباحان في مجموعة رفعت آغا. إنطاكية

أنواع كثيرة من الزهور بين الصخور: أزريون، برواق أصفر وأبيض وأحمر، بخور مريم، وسوسن.

ووراء خانق بوابة الحديد وعلى جهة من الهضبة مطلة على العاصي يوجد كهف يطلق عليه الأهالي عرفياً اسم مغارة القديس بطرس، وقد شيدتْ طائفةُ اليونان كنيسة صغيرة على فم المغارة، ولا يزال على طول الهضبة بقايا من آثار غريبة تتحدث عن إنطاكية القديمة، إنه رأس إسفنكس مزين بنقوش تقف على صخرة بارتفاع عشرين قدماً، وقد ارتدتْ حجاباً انسدل على جانبي وجهها حتى وصل إلى حيث تتصل الحنجرة بالصدر، وملامحها الهادئة ملتفتة قليلاً نحو أعلى الوادي كما لو كانت ترقب أحداً سوف يأتي قادماً من الشرق.

ولو استطاعت الكلام لحدثتنا عن الملوك العظام ومواكب الفرسان الضخمة عن المعارك، والحصارات المتواصلة؛ لأنها رأت كل ذلك من خلال وقوفها على الصخر المرتفع بجانب الهضبة، وهي لا تزال تتذكر اليونان الذين

عرفتهم وهم يمشون من بابل، وحيث إن الرومان لم يعلموها بأن العالم الحي يعيش في الغرب[1]، فأنا لا أقدر أن آمل بتنويرها؛ ولذلك فقد تركتها تترقب بعض الأشياء الجديدة التي يمكن أن تأتي من الشرق.

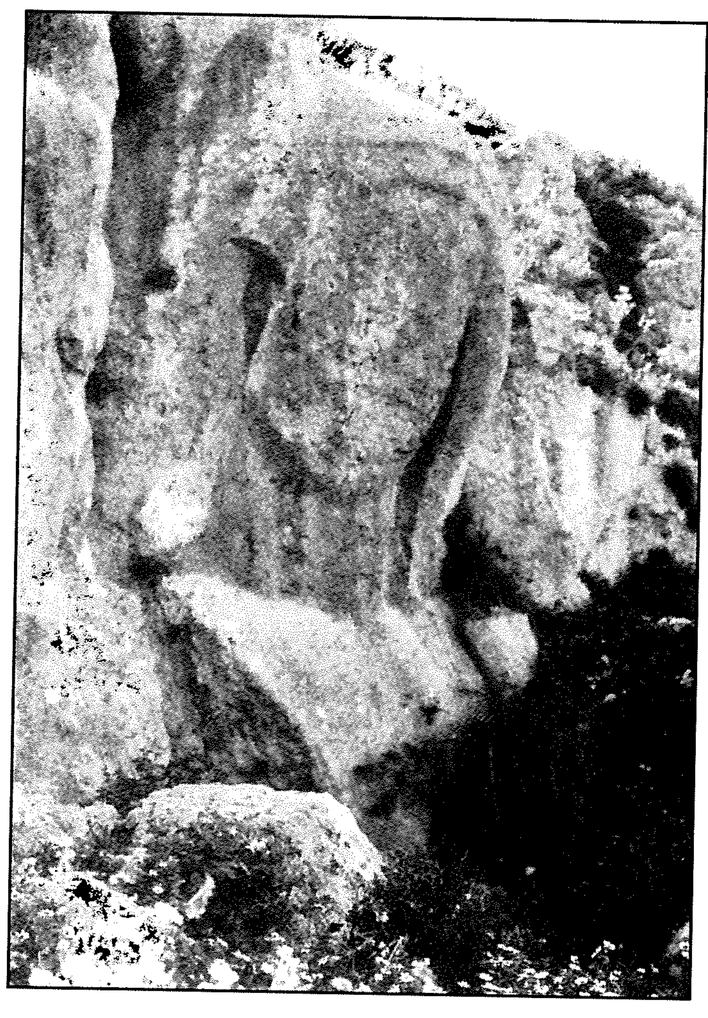
كان ما يزال هناك حج آخر يجب القيام به من إنطاكية. كان الحج إلى دفنة، وهي المزار الشهير الذي يشير إلى موقع الحورية التي صدت رغبات الإله، بيت الماء كما يدعى في اللغة العربية، وهو يقع إلى الغرب من البلدة، ركوب ساعة على طول سفوح الهضاب، وهو في الربيع فاتن جداً لا يتوفر وجوده دائماً، ويمر الطريق عبر دغل من البراعم الخضراء المتداخلة بكثافة مع الزعرور البري المزهر، والزيزفون الأرجواني الغريب، ثم يعبر أنف جبل منخفض ليهبط بعد ذلك في واد شديد الانحدار يجري فيه جدول يهوي مسرعاً نحو العاصي.

لا يوجد أي أثر للمعابد التي كانت تزين هذا الحرم الأكثر جمالاً بين الأماكن المقدسة، فالزلازل والانهيارات الجبلية قد جرفتها إلى أسفل الوهدة، ولكن جمال الموقع لم يتأثر منذ الأيام التي كان سكان أكثر العواصم ترفاً في العالم يغازلون في هذه المعابد الفتيات اللواتي نذرن أنفسهن للمعبد.

ولا يندفع السيل بضجة كبيرة عندما يهبط من جهة الجبل، فهو يولد في بحيرة ساكنة عميقة تضطجع محاطة بثوب رائع من شجر السرخس وكزبرة البئر في أجمات «تمحق كل ما يؤثر في الفكرة النضرة في ظل أخضر».

---

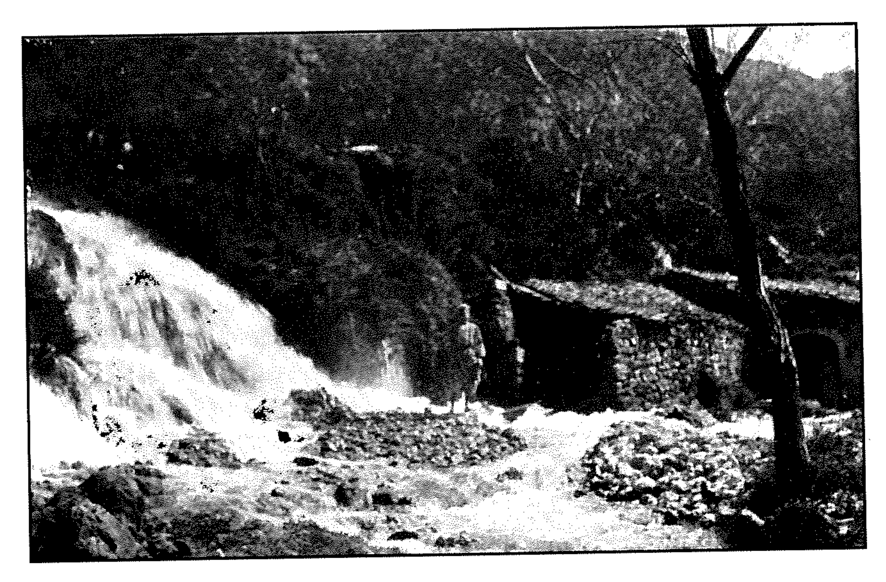
(١) التفكير العنصري هنا واضح عند المؤلفة. لقد بقي الغرب غارقاً في ظلمات العصور الوسطى حتى القرن السادس عشر، ولم يصبح أكثر تقدماً من الشرق إلا في القرن الثامن عشر. (المترجم)



١٥٤ - رأس إسفنكس - إنطاكية

وينبثق من البحيرة نهر شاف غير مروض السطح، ضيق وعميق يجري مدوماً مدمدماً محدثاً أثناء ذلك شلالات مزبدة تقذف برذاذها الأبيض بين أغصان شجر التوت والدلب. وتجثم تحت الأشجار إحدى عشرة طاحونة ماء، والسكان الوحيدون الذين يقطنون معبد أبولو هم الطحانون المهلهلو الثياب، وقد قدموا

لنا جوزاً لنأكله على شاطئ الجدول، وأحجاراً كريمة صغيرة أثرية سقطت من زينة بعض الذين يبحثون عن المتعة على نحو ربما أقل براءة من متعتنا على شاطئ نفس الجدول.



١٥٥ - دفنه

من المستحيل أن تتجول في شمال سوريا دون أن تكتسب اهتماماً قوياً بالملوك السلوقيين على خلفية احترام عميق لنجاحاتهم في ميداني السياسة والفن، ولذلك فقد قررت أن أزور موقع سلوكيا بييريا، وميناء إنطاكية حيث قبر سلوقس نيكاتور قبل أن أندفع شمالاً.

لقد برزت العاصمة الداخلية والميناء البحري إلى الوجود في نفس اللحظة، كانا جزءاً من تصور عظيم أعاد المراكز الهامة للعاصي الأدنى سوقاً غنية وعامرة بالسكان، في تلك الأيام كان الملوك يستطيعون خلق مدن عالمية شهيرة بمجرد التلويح بالصولجان، ولم يكن السلوقيون في مؤخرة المقلدين

للمثل الأعلى الذي وضعه لهم الإسكندر. وقد انكمشت أفاميا سلوقيا إلى قرية صغيرة. وربما كان من الأدق أن نقول إنها تمزقت إلى عدة قرى صغيرة تحت اسم السويدية (الاسم محير حيث إن لكل مجموعة من المزارع أو الأكواخ اسماً مختلفاً).

ويعود التباعد بين مواطن السكان في مصب نهر العاصي إلى طبيعة الأعمال التي يمارسها سكان هذه القرى، فهم يعملون بتربية دودة الحرير، وهي حرفة تتطلب من العاملين فيها أن يقيموا في مزارعهم شهراً في الربيع حيث أشجار التوت، وحيث إن أجمات هذه الأشجار متباعدة عن بعضها فقد نتج عن ذلك وجود مسافات بين مساكن الجيران.

وبعد ركوب ثلاث ساعات عبر منطقة مزدانة على نحو رائع بأدغال الآس وحدائق التوت وصلنا إلى قرية السويدية وهي مركز عسكري كما إنها الأكثر أهمية بين قرى المنطقة المتناثرة، وهنا ولأول مرة في رحلتي أوقفني ضابط وهو الأسوأ بسبب العَرَق[١]، وطلب مشاهدة جواز سفري، ولم يكن لدي جواز سفر إذ كنت قد أضعته عندما فقدتُ معطفي في جبل الزاوية، وهو يثبت كيف أن موظفاً تركياً متقيداً قليلاً بالروتين الحكومي يمكن أن يظهر أهميته عن طريق التقيد بهذا الروتين، مع أنني سافرت عبر نصف الإمبراطورية العثمانية بدون أن يكون لدي ورقة صغيرة تحدد هويتي، أو حتى اسمي.

وفي هذه المناسبة شرح الشرطي الذي كان يرافقني بحرارة أنه ما كان ليُطلَب منه مرافقتي لولا أنني شخصية محترمة ومفوضة، وبعد مجادلة قصيرة سمح لنا بمتابعة المسير، وسرعان ما وضح السبب في هذه الدقة

---

(١) الخمر.

الشديدة، فقرى الساحل تحتوي على نسبة كبيرة من السكان الأرمن، وهم محاطون بالنقط العسكرية من أجل منعهم من التسلل إلى داخل الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية أو عبر البحر إلى قبرص، ولذلك فإن دخول الأغراب إلى المنطقة وخروجهم منها مراقب تماماً، وأحد الموضوعات التي يجب على الرحالة أن يعد نفسه لها قبل بدء رحلته هو تجنب الوقوع في شباك القضية الأرمنية، إنها إدانة مفهومة ضمناً أو صامته للعالم في العصور الوسطى ولا يوجد قضية غير قابلة للتفسير كهذه القضية. فثمة قضايا يمكن أن تقدم مشكلات خطيرة أو صعبة، ولكنك إذا طرحتها أمام الرجل العاقل ـ فبعض العرب في إسبانيا على سبيل المثال عالم كلياً (من خلال الدراسة) بالتفاصيل إلى درجة يصبح معها من الأفضل عدم الاستفسار ـ فإنه سوف يقدم لك جواباً مقنعاً.

ولكن المشكلة الحقيقية هي أن تجد رجلك. ونحن على أي حال ابتعدنا عن ذلك المعتقد، وقد ثبتت لنا بالتجربة أن هناك العديد من المعضلات غير القابلة للحل مع الأسف أمام الرجل المثقف، وتمتلك الإمبراطورية العثمانية نسبة كبيرة من هذه المعضلات، فالقضية الأرمنية من هذه القضايا، وكذلك الأمر بالنسبة للمسألة المكدونية، ويكمن الجنون في مثل تلك الاتجاهات.

من العزم أن لا تتردد في اتخاذ القرار في الأمور ذات الإسهام المشترك. إلى حد كبير لم يكن لدي شك بأنني سوف أقوم برحلة طيبة وسعيدة عندما ركبت هابطة إلى شوليق، ميناء سلوقيا القديم، وقد وجدتُ أن قراري هذا أهون من أن يلاحظ بسبب أن الأرمن لا يعرفون إلا اللغة الأرمنية أو التركية، وعلى أي مستوى فإن الكلمات النادرة التي قد يعرفها بعضهم من اللغة العربية

لا تمكنهم من الدخول بأي محادثة حول الظلم الواقع عليهم. كان الرجل الذي عمل معي ذلك اليوم كدليل رجلاً مرح المزاج، وقد كان اختياره بالتأكيد بالأفضلية كموضوع غير اعتيادي، كان اسمه إبراهيم، ذكي، براق العينين، مرح على نحو يستحق الثناء، وحيث إن مجموع دخله السنوي لا يتجاوز أربعمئة قرش في السنة، أي أقل من ليرتين إنكليزيتين.

لذلك فقد قرر أن يوفر مقداراً مناسباً من المال ليرشو الموظفين الأتراك في الميناء ليغضوا الطرف عن هربه في قارب إلى قبرص. «لأنه» قال: «لا يوجد أية صناعة هنا إلا الصناعة المرتبطة بدودة الحرير، وهذه لا تقدم إلا شهري عمل في السنة، والأشهر العشرة يقعد فيها الإنسان عاطلاً عن العمل لا يستطيع أن يكسب فيها قرشاً واحداً». كما أخبرني أن النصيرية الذين يسكنون القرى المجاورة جيران غير سارين.

قلت: «هل هناك عداء بينكم وبينهم؟».

قال بلهجة مؤكدة: «أي والله!».

وروى مع التذويق قصة طويلة عن خصام حديث، الذي بدا لي حسب ما فهمت يعود كلياً لاعتداءات الأرمن.

قلت عندما انتهى من كلامه: «ولكن أنتم بدأتم السرقة».

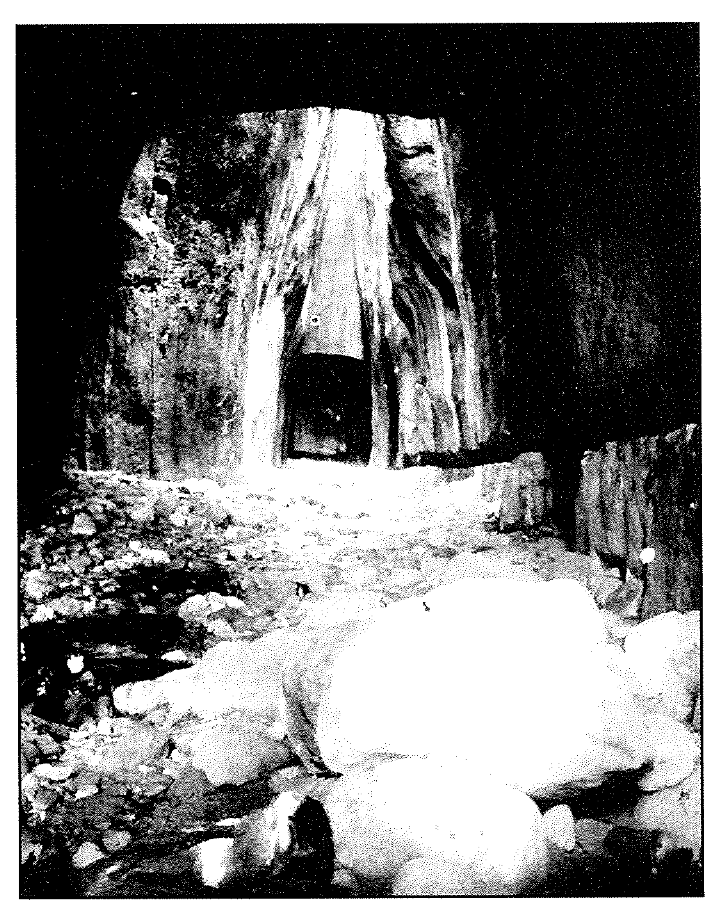
قال: «نعم، النصيرية كلاب» وأضاف بابتسامة: «وقد سجنت في حلب سنتين بعد ذلك».

قلت: «بالله، وهل قضيتها».

قال بمرح كعادته: «نعم».

هذا.. وأنا سعيدة بأن أقول: إن سجنه هذا هو كل مساهمة إبراهيم من مخزون أدلته عن المسألة الأرمنية.

ليس خليج سلوقية غير مشابه لخليج نابولي، وليس أقل جمالاً بكثير.. حواف بعض هضابه شديدة الانحدار تنخرها القبور الحجرية والتجاويف كخلايا النحل، تشكل خلفية لحدائق التوت، وتلتف مطوقة الخليج من الشمال. وتقع إلى الأسفل منها بوابات ماء الميناء. وقد ملأها طمي الأرض، وفصلها



١٥٦ ـ الكهريز

عن البحر بشاطئ رملي، ويتدفق العاصي عبر الرمال ويمتد الطمي أبعد باتجاه الجنوب، والمنظر مغلق بسلسلة من الهضاب الشاهقة الارتفاع، بالغة أوجها في نقطة جنوبية بذروة تل كاسيوس البديعة التي احتلت محل فيسيوفيوس في المنظر العام.

ونصبتُ مخيمي قرب الحافة الشمالية في جون صغير على خربة مستورة عالية تشرف على كل مجرى الساحل، ومتعت نفسي بالتخيل بأن على هذه البقعة يقع معبد وقبر سلوقس نيكاتور مع أنني لا أعلم فيما إذا كان موقع قبره قد جرى تحديد مكانه على الإطلاق، وتحت هذا الموقع وعلى الشاطئ الرملي ثمة صخرة معزولة تم اكتشاف قاعة معمدة فوقها، تتضمخ هذه القاعة بعطر البحر وتنتعش بالهواء المالح الذي يهب عبرها. أي معبد رائع لحوريات البحر وإنصاف آلهته!

وأصعدني إبراهيم أسفل واجهة الجروف المنحدرة عبر ممرات صغيرة بجانب طريق قديم للعربات يقود إلى المدينة على قمة النجد، وقد قال: إن السير حول السور الذي يطوّق المدينة العليا يستغرق ست ساعات، وكان الطقس حاراً جداً بحيث لا يمكن وضع كلامه موضع الاختبار. وتسلقنا عدداً كبيراً من الكهوف الصناعية التي لم يكن يوجد في معظمها غريفات أو تجاويف قبور، وقد تكون قد حفرت من أجل السكن أو كمخازن وليس كقبور.

وفي هذا الوقت من السنة تمتلئ جميعها بمُرَبِّي دودة الحرير الذين يمرون الآن بمرحلة الذروة بالنسبة لعملهم، فاليرقات سوف تنبثق الآن من البيوض، وقد سُدّ مدخل كل كهف بستر من الأغصان الخضراء لتقي داخل الكهف من حر الشمس ولتتسرب شمس العصر مصفاة بهيجة عبر براعم الأوراق الخضراء.

وفي النهاية الجنوبية للمنحدر ثمة مقبرة كبيرة تحتوي على كهوف حفر حول جدرانها الداخلية تجاويف ونواويس منحوتة مزينة (إذا زينت) بأكاليل من الزهور مشابهة لتلك الزينات الموجودة على نواويس إنطاكية، والمجموعة الأكثر أهمية من القبور موجودة في النهاية الشمالية للمنحدر، ويتم الدخول إلى المقبرة بجانب رواق معمد يقود إلى كهف مزدوج، وتحتوي الغرفة الكبيرة على غريفات يتراوح عددها ما بين الثلاثين إلى الأربعين غريفة إضافة إلى قبرين فوقهما ظله.

وقد تم نحت الظلة أو السقيفة من صخرة حية، أما الغرفة الصغيرة فتحتوي على نصف العدد من الغريفات، وقد تم تدعيم سقفها بأعمدة بعضها عادي وبعضها ناتئ من الجدار، ولاحظتُ فوق القبور تصاميم فنية منحوتة على نحو فج تحتوي على درجية على شكل نبات اللبلاب وأوراق مسننة.

يبدو أن البنائين السلوقيين كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بتوزيع إمدادات المياه، وقد أراني إبراهيم قناة تسير على طول حافة المنحدر بعرض قدمين، وعمق خمس أقدام قد نحتت خلف سطح الصخر بثلاثة إلى أربعة أقدام كانت تنقل الماء من أقصى طرف المدينة إلى طرفها الآخر، وتتبعنا مجراها من خلال فتحات تهوية اقتضائية أو صدوع في الجدار الخارجي الصخري. وكانت المعضلة الأكثر صعوبة هي التعامل مع السيل الذي يجري مندفعاً من خانق في شمال المدينة. وقد تم نحت سرب كبير في الصخر تحت أنف الجبل إلى جنوب مخيمي لتجري فيه مياه السيل إلى البحر ومنعها من جرف المنازل الواقعة في سفح المنحدر الصخري. والاسم المحلي لهذا النفق هو ـ الكهريز ـ وهو يبتدئ من فم وهد ضيق، ثم يسير كنفق تحت كتلة ضخمة من الأرض

الصخرية لمسافة عدة مئات من الياردات، ثم يستمر بعد ذلك في قناة مكشوفة منحوتة عميقاً في الصخور حتى تصل إلى نهاية أنف الجبل، وعند مدخل النفق ثمة نقش واضح الحروف يبتدئ بالعنوان التالي (ديفوس فيسباسيانوس - Divus Vespasianus) ثم تختفي بقية الكتابة مدفونة في الأرض الصخرية، وثمة كتابات أخرى في أكثر من مكان على طول الكهريز وكلها باللغة اللاتينية، ولذلك فأنا أتصور أن الكهريز روماني وليس سلوقيا.

وأغراني إبراهيم بمشهد آخر غير عادي، فقد قال إنني إذا تبعته عبر بساتين التوت تحت المنحدر فإنه سوف يريني رجلاً مصنوعاً من الحجر، كان فضولي قد أُنهك بسبب حرارة الشمس والسير الطويل، ولكني جاهدت عائدة بضعف فوق الحجارة وغيرها من المعوقات لأجد الإله، وقد حمل وسرق موضوعاً تحت أشجار التوت، لم يكن إلاهاً جذاباً جداً.

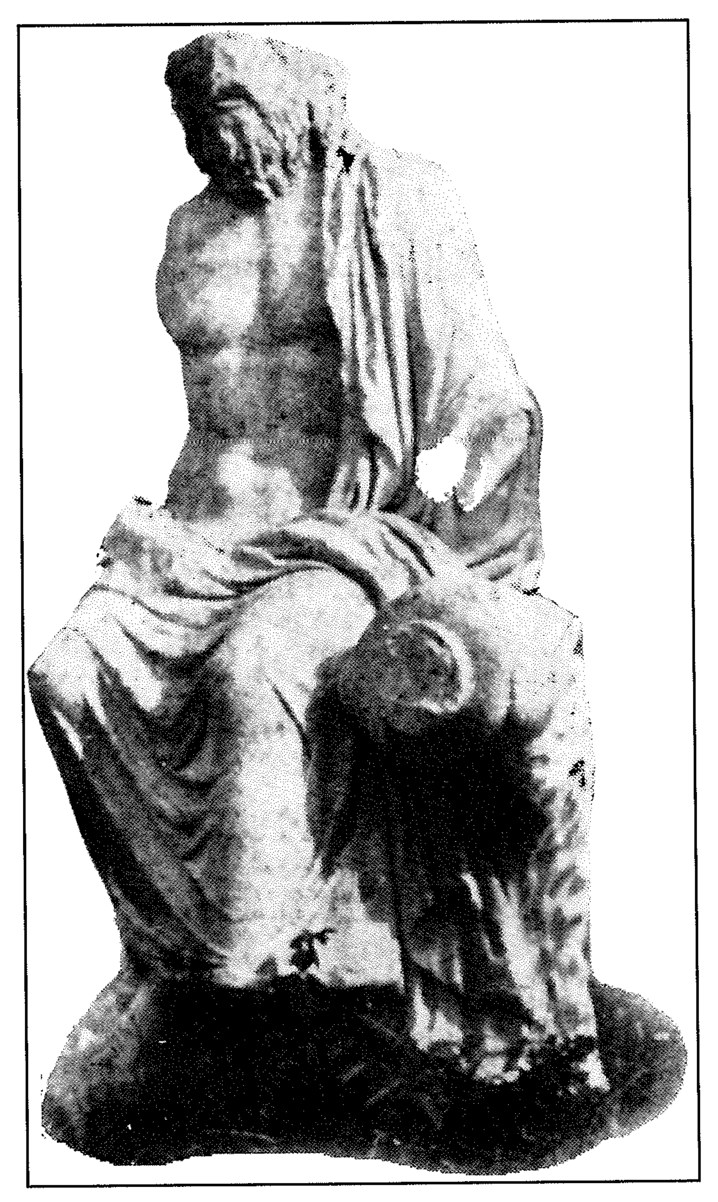
كان وضعه الجسماني منقبضاً وثوبه خشن الزي، وقد ذهبت قمة رأسه. كما لوحت الشمس الواهنة كتفه الرخامي وانحنت شجرة التوت تهمس باسمه القديم. وجلسنا بجانبه وقال إبراهيم ملاحظاً:

«ثمة واحدة أخرى مدفونة في الحقل، ولكنها عميقة جداً تحت التراب»

سألت: «هل رأيتها».

قال: «نعم، لقد دفنها مالك الحقل؛ لأنه ظن أنها قد تتحسه، ومن المحتمل إذا أعطيته بعض النقود أن يخرجها لك».

ولم أكن قادرة على قبول الاقتراح، وقد يكون من الأفضل أن تبقى في حيز الخيال.



١٥٧ ـ التمثال في بستان شجر التوت

ورأيت بقرب التمثال طنفاً مزخرفاً طويلاً، كان بارزاً في موضعه على نحو واضح على الرغم من أن الجدار الذي يتوجه هذا الطنف مدفون في حقل الذرة، هكذا قد طمرت الأتربة الآثار السلوقية.

في يوم من أيام المستقبل سيكون هنا أعمال حفر استكشافية كثيرة من أجل الكشف عن الآثار السلوقية ولكن هذا الحفر سيكون مُكْلفاً؛ نظراً لعمق طبقة الطمي التي تغطي هذه الآثار في بساتين التوت وحقول الذرة، وإن موقع البلدة ضخم جداً، وسوف يحتاج الأمر إلى سنوات من الحفر من أجل الاستكشاف على نحو دقيق.

ثمة جدول بطيء السير يجري بجانب خيامي مشكلاً بحرة في الرمل، وهي تشكل مورد الماء لدوابنا ولقطعان ماعز رعيان الأرض الصغار الذين يرعون بها صباحاً ومساء على طول شاطئ البحر، كانت البقعة ساحرة، والطقس رائع جداً حتى إنني قضيت يوماً كاملاً كعطلة، ولعله يوم العطلة الحقيقية الوحيد منذ غادرت القدس. وحيث إنني لا أستطيع أن آمل بمشاهدة سلوقيا على نحو شامل فقد قررت أن أكتفي بما أستطيع رؤيته من باب خيمتي، وقد منحني هذا القرار الرائع أربعاً وعشرين ساعة لأنظر إلى الخلف برضى عارم، مع أنه ليس فيها ما يستحق التسجيل فيما عدا أنني لم أستطع أن أهرب إلا قليلاً من المتاعب الأرمنية كما أملت.

زارتني في الصباح زيارة طويلة امرأة هبطت من قرية كابوسة، وهي قرية تقع في قمة الخانق أعلى الكهريز، وهي تتكلم الإنكليزية، وقد تعلمَتْها في مدرسة تبشيرية في عنتاب، موطنها، في جبال الأكراد، كان اسمها قيمة، وقد تركت عنتاب بسبب زواجها وهي خطوة ما تزال نادمة عليها على الرغم من أن

زوجها رجل طيب وشريف، وهو فقير جداً، بحيث لا تعرف كيف ستعيل ولديها، وبالإضافة إلى ذلك قالت: إن الناس الذين يسكنون حول كابوسة هم إما نصيرية أو أرمن وجميعهم لصوص، ورجتني أن أساعدها بالهرب إلى قبرص.

وقد روت لي جزءاً غريباً من تاريخ أسرتها الذي يبين الألم الذي تعاني منه طائفة الأقلية التي تعيش في قلب منطقة محمدية. إذا لم تستطع أن تستشهد بالظلم الرسمي، لقد أسلم أبوها عندما كانت طفلة من أجل أن يتزوج امرأة ثانية بشكل رئيسي. فتركته أم قيمة وأعالت أطفالها بقدر استطاعتها مفضلة ذلك على الخضوع للمهانة التي ألحقها بها. وقد طبعت هذه المشاجرة المرّة بين الوالدين طفولة قيمة وشبابها بطابع مظلم.

وقد أرسلت زوجها ذات صباح مع دجاجة وقصيدة شعرية كتبتها بخط يدها باللغة الإنكليزية، وقد دفعتُ ثمن الدجاجة للزوج أما القصيدة الشعرية فلا تقدر بثمن وهي تتحدث على النحو التالي:

أهلاً أهلاً يا أغلى الغوالي نحن مسرورون بقدومك!

مرحباً بقدومك مرحباً بوصولك.

لنغني بمرح.. بمرح.

بفرح يا أولادي بفرح..

الشمس أشرقت والقمر بدر يضيء بعذوبة ويتألق كثيراً يا أبنائي الأعزاء.

يا مرحباً بوصولك، يا مرحبا بابتسامتك.

الأشجار قدمت ثمارها يا أولادي والطيور تغني بسعادة..

أهلاً بعبيرها اللذيذ وهي تغني مرحبة..

وسوف أبقى المخلص لك..

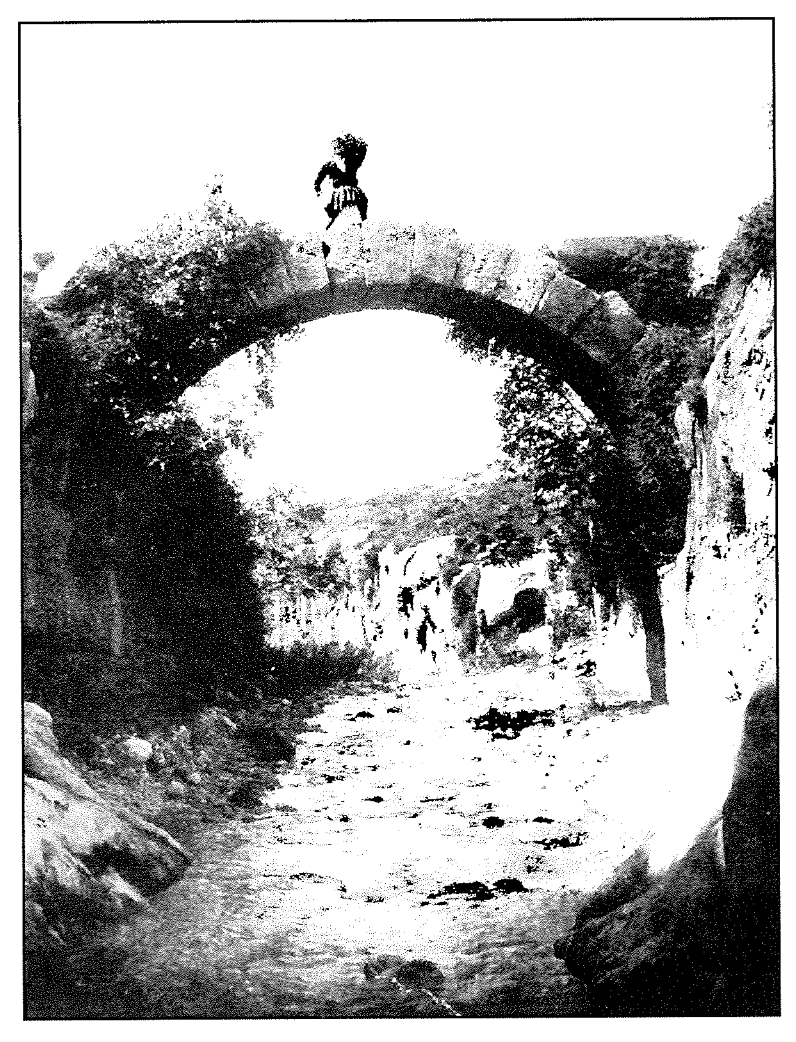
جورج إبراهام.

وأنا أسرع وأضيف لئلا يعتبر الشعر جامعاً لشخصين، بأن كاتبه عيسى جورج إبراهام الذي لاحظت أثناء المساومة معه على الدجاجة أنه لا يعرف أي كلمة من اللغة الإنكليزية، ولا شك أن قيمة قد استخدمت اسم زوجها لعله أن يكون أكثر تأثيراً من اسمها، وأكثر من ذلك فإن الأولاد الذين لمحت إلى وجودهم إنما كانوا شخصيات مصنوعة، ولا أستطيع أن أقدم أي تفسير لما أرسلته الأشجار لنا ويبدو النص فاسداً عند هذه النقطة، وربما يجب أن تعتبر كلمة ـ نحن ـ مفعولاً به.

وتركت سلوقيا مع إحساس عميق وحقيقي بالأسف، عند الفجر عندما نزلت للاستحمام في البحر كان ثمة حزمتان من الغيوم الرائعة مضطجعتين على طول واجهة الهضاب، وبينما كنت أسبح في الماء الذي كان ما يزال دافئاً انبثق أول شعاع من الشمس ضارباً قمة جبل كالسيوس المغطاة بالثلج، والتي كانت تغلق على نحو فاتن تعاريج الخليج، وعدنا إلى إنطاكية مثلما جئنا منها، ونصبنا خيامنا خارج البلدة بجانب الطريق الرئيسي.

وبعد يومين انطلقنا في الساعة السادسة والنصف صباحاً في مسير طويل إلى إسكندرونة. كان الطريق رديئاً منذ بداية أمياله القليلة الأولى، تتخلله الوهاد العميقة من الوحل.

بعد ركوب ثلاث ساعات وصلنا إلى قرية قرة مورت، وبعدها بثلاثة أرباع الساعة تركنا الطريق الرئيسي وانطلقنا صعداً عبر الهضاب بجانب خان مخرب فيه آثار عربية جميلة، ويصعد الطريق تلالاً ويهبط منحدرات، بين زهور شجيرات الجنب الأكثر كثافة وزهراً، ونباتات



١٥٨ - المجرى السفلي للكهريز

الرتم والأرجوان، وتحت ذلك مرج من الأعشاب القصيرة، ورأينا إلى اليسار مشهداً رائعاً لحصن بغراس، وهو باغرا القديمة تتوج قمة التل. وأنا لا أعتقد أن مجمل الجبال الواقعة إلى شمالي إنطاكية قد تم استكشافها تصنيفيا وفيما إذا كانت يمكن أن تقدم شظايا من التحصينات السلوقية أو الرومانية التي كانت تحرس مدخل المدينة.

وقد اكتشفنا حديثاً طريق الرصيف القديم الذي يتبع مساراً أكثر انحداراً من طريق العربات الحديث. وقد قادنا السير فيه خلال ساعة واحدة إلى قمة ممر بيلان (وقد وقفنا ثلاثة أرباع الساعة للغداء في مكان ظليل على شط النهر) حيث وصلنا إلى الطريق الرئيسي بين حلب وإسكندرون.

ولا يوجد أي أثر للتحصينات كما لاحظت عند البوابات السورية حيث استدار الإسكندر راجعاً إلى سهل أيسوس حيث لاقى داريوس، وكان الممر ضيقاً جداً، ولابد أن الدفاع عنه كان سهلاً لصد الغزاة القادمين من الشمال، إنه الممر العملي الوحيد للجيش عبر جبل الأمانوس الوعر.

وتقع قرية بيلان على مسافة ساعة في موقع جميل على الجهة الشمالية للجبال مطلة على خليج إسكندرون، وعلى ساحل كيليكيا القاسي وسلسلة جبال طوروس البيضاء. والمسافة بين بيلان وإسكندرون أربع ساعات على الراكب.

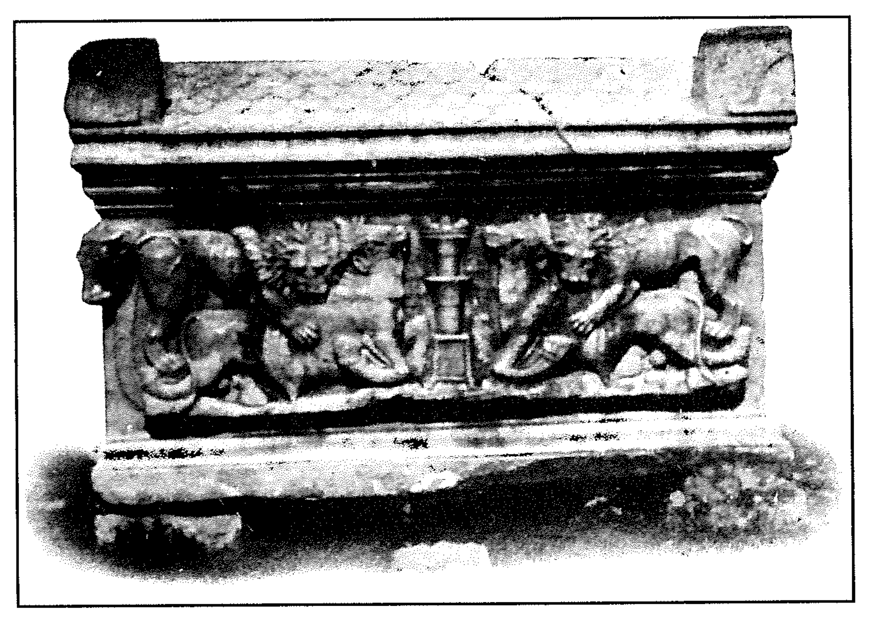
وعندما كنا نهبط الهوينا باتجاه البحر اللامع عبر المنحدرات الخضراء والمزهرة والتي تشكل نهاية سوريا دخلنا في مناقشة أنا وميخائيل، استعرضنا كرحالة رفاقاً من هواة الرحلات، والحوادث التي مرت بنا أثناء طريقنا الطويل وتذكرنا المغامرات التي واجهتنا في مجاري السيول والحقول، وفي نهاية الحديث قلت:

«هذا عالَم رائع يا ميخائيل، مع العلم أن بعضهم يذمه، ومعظم أبناء آدم طيبون، أكثر منهم أشراراً».

قال ميخائيل: «إنه حسب مشيئة الله».

قلت: «بدون شك، لكن تأمل الآن أولئك الذين قابلناهم في رحلتنا، وفكر كيف أن الجميع كانوا سعداء لمساعدتنا، وحسن صنيعهم لنا، في البداية كان هناك نجيب وفريز الذي مشوا معنا في بداية طريقنا، ثم نمرود وقبلان» .

قاطع ميخائيل: «ما شاء الله، لقد كان قبلان إنساناً رائعاً، لم أشاهد بدوياً قليل الطمع مثله، إلى درجة أنه نادراً ما أكل من الطعام الذي كنت أعده له».



١٥٩ ـ ناووس في سرايا إنطاكية

تابعتُ: «والشيخ محمد النصر، وابن أخيه فايز، وقائم مقام قلعة الحصن الذي أوانا ليلتين وأطعمنا جميعاً، وقائم مقام دريكيش الذي عمل لنا استقبالاً،

ومحمود الشرطي» (وهنا نخر ميخائيل؛ لأنه كان على وشك الشجار مع محمود) «والشيخ يونس» وأسرعتُ في السرد: «وموسى الكردي الذي كان أفضل من الجميع».

قال ميخائيل: «كان رجلاً شريفاً، وقد خدم سعادتك على نحو جيد».

تابعتُ: «وحتى رشيد آغا، الذي كان وغداً ولكنه عاملنا بكرم».

قال ميخائيل: «انظري يا سيدتي، سوف أوضح الأمور لك.. الناس حسبما يتصورون، وهم يرون ما يبحثون عنه، فبعضهم يبحث عن الشر وهو لا يرى إلا الشر، وآخرون يبحثون عن الخير ولذلك لا يرون إلا الخير، وأكثر من ذلك ثمة أناس محظوظون وهم يرون دائماً ما يشتهون والشكر لله، وسعادتك تنتمين إلى هذا الصنف، ونرجو الله أن تتم رحلتك بسلام وأن تعودي إلى وطنك بأمان. وأن تلتقي هناك أباك وأمك وإخوتك وأخواتك بصحة وسعادة وكل أقربائك وأصدقائك بصحة وسعادة».

أضاف ميخائيل بإدراك: «ومرة ثانية نرجو الله أن تسافري وتترحلي في سوريا بسلام وأمان وسعادة».

قلت: «نرجو الله».



الكشـــاف



فهرس البلدان والمواقع



فهرس الأعلام

فهرس القبائل والأقوام

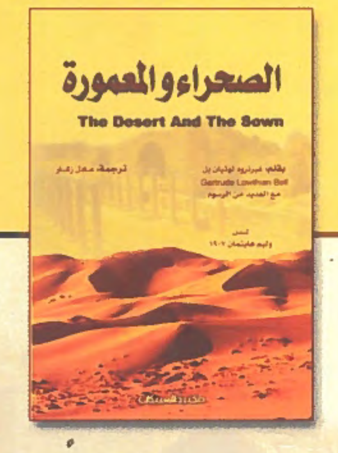




فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة





منذ أوائل القرن التاسع عشر بدأت الحكومات الأوربية ترسل الرحالة والمبعوثين إلى البلاد العربية والإسلامية بذرائع مختلفة، لعل أهمها الكشوف الجغرافية والبحث عن الآثار، ولكن معظم هؤلاء الرحالة كانوا في الحقيقة جواسيس من أجل دراسة أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والمذهبية، وإيجاد السبل التي تساعد على استعمارها.

وتندرج رحلة غيرترود لوثيان بل ضمن هذا الطراز من الرحلات، وقد أدت غيرترود هذه دوراً في رسم السياسة البريطانية في بدايات القرن العشرين، وأثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك في تنفيذ معاهدة سايكس بيكو التي تم بموجبها اقتسام البلاد التي كانت خاضعة للدولة العثمانية بين الفرنسيين والإنكليز.

إن القارئ يستطيع بسهولة أن يكتشف تركيزها على التباين العرقي والمذهبي في المجتمع السوري آنذاك؛ الأمر الذي يفسر تمزيق بلاد الشام فيما بعد إلى دويلات على أساس طائفي ومذهبي، والتمهيد لإقامة كيان قومي يهودي فيما بعد.

ومع ذلك فإن هذا الكتاب الذي تنشره مكتبة العبيكان يقدم صوراً عن جوانب من حياة المجتمع، وعن أوضاع الدولة العثمانية والطبقة الحاكمة، إضافة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ومشاهد من حياة الناس.

الناشر

